

سراييط الخادم

رواية

ثناء رستم

الناشر

دار الآفاق العربية

رستم، ثناء
سراييط الخادم
ط 2 ، القاهرة : دار الأفاق العربية 2018
486 ص ، 20 سم

1- القصص العربية .

أ. العنوان 813

تدمك: 9 – 368 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 23986 / 2016
الطبعة الثانية
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الأفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339
تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com



- 1 -

المعبد

صعد الفجر الفضي من ظلمة الليل الكثيفة، وأفسح الطريق لأشعة الشمس الخجولة، لتستتر وراء خيوطه الهادئة، وتلقي بأشعتها الدافئة على أعشاش العصافير الكامنة بين غصون شجر المانجو الذي يقف منتصباً، وكأنه موفد من الإله لحماية البشر من نزواتهم.

كانت خيوط الضوء الحالم تعرف طريقها الذي اعتادت عليه منذ آلاف السنين، وتتسلل من خصائص نافذة "يوسف"؛ الساكن الوحيد بدار المسنين.. تلك الدار المنفصلة بمدخلها الخاص، والملحقة بالمعبد اليهودي "فيتالي ماجارا" بمصر الجديدة.

أيقظت "يوسف" أشعة الشمس الخجولة، حين انسلت من بين ستائر الغرفة المحكمة، وتركت على وجهه ظلال ضوئها الخافت، ولم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا، ليستيقظ على دقائق ساعته البيولوجية في السادسة صباحاً، وإيقاع حياته المنضبطة لأكثر من ثمانين عاماً.

برز نصفه الأعلى من أسفل الغطاء، واعتدل في فراشه متكئاً على يديه، ومسد بيده اليسرى شعره الأبيض الكثيف، ثم استلقى مرة أخرى لدقائق، حتى ينفض عن جسده هذا الكسل اللذيذ، ويستجمع قواه، وتحين لحظة مغادرته للغرفة.

لم تتغير عاداته في الاستيقاظ منذ كان طفلاً في السادسة يذهب إلى المدرسة، وفي صباه للجامعة، وفي شبابه لعمله في إحدى مدارس الراهبات المرموقة لتدريس اللغة الفرنسية، وكانت حياته تشبه حركة بندول ساعة سويسرية لا تعترف بالخطأ.

فرك "يوسف" عينيه، وانتفض جسده العجوز، باحثاً بقدميه عن "المتوفلي" الصوفي أسفل السرير. وقف محاولاً الحفاظ على توازنه، ومد يديه ليستند على

"المشاية" المصنوعة من "الأستانل ستيل"، ومشبيها عدة خطوات، وانحنى قليلاً ملتقطاً روبه الحريري، وارتداه فوق بيجامته، واتجه إلى الحمام المجاور لغرفته، ليمضي فيه ساعة كاملة، كعادة يومية لم يغيرها طوال حياته.

بعد تطهره خرج ليؤدي صلاة الفجر "شحرير" وبدأها بضم شال "الطاليت" على كتفيه، وتلا صلاته، ثم طوى الشال، ووضعه باحترام شديد على الكرسي، وكان موقناً أنه الشيء الوحيد الذي سيرافقه من الدنيا إلى الآخرة.

صوت خطوات المشاية المعدنية بإيقاعها المنتظم، أيقظ "صالح" خادم دار المسنين الوحيد، فنفض الغطاء من على جسده ليسقطه على الأرض، ونهض بسرعة كما اعتاد يومياً، خوفاً من أن يتأخر في إعداد طعام الإفطار لمسيو "يوسف".

كان "صالح" في الأربعين من عمره، وورث عمله من والده المتوفى قبل خمسة عشر عاماً، وكان بالدار رجل وامرأة يهوديان من كبار السن، وتولى "صالح" مسئولية خدمتهما وإطعامهما، وبعد وفاتهما، ظل يعتني بنظافة المكان، حتى حضر مسيو "يوسف" الرجل الهادئ الأنيق، الذي يقضي معظم وقته في القراءة وسماع الموسيقى.

أتقن "صالح" عمله جيداً، وكمسلم تقي، كان يحافظ على أداء الصلوات في أوقاتها، ويعلم أن خدمة كبار السن لها ثواب كبير، والساكن اليهودي صاحب فضل عليه، محاً أميته خلال عامه الأول في الدار، وبدوره كان "يوسف" يشعر بالراحة في التعامل مع خادمه، بل يحبه بشدة، ونادراً ما يشكو منه، لاسيما أنه يتقن إعداد "الكوشير" الطعام الحلال حسب الشريعة اليهودية.

حِرْصُ "يوسف" على تناول لحوم الحيوانات والطيور مذبوحة على يد "ذابح" شرعي، حاصل على شهادة تجيز له الذبح وتصفية دماؤها تماماً، جعله يتعد عن تناولها، لذا اقتصر طعامه على تناول الأسماك بشروط طهي يعلمها "صالح" جيداً، فالجمبري والكابوريا والسيب من المحرمات، ولم يخطئ ولو مرة واحدة، وأحضر له أسماكاً بلا حراشيف أو زعانف.

كان "يوسف" منبهراً بمعرفة "صالح" كل ما يتعلق بأمور طعامه، وأطرف ما كان يقوم به، غسل الأواني بالماء الساخن لتطهيرها، وتعريضها لأشعة الشمس، ليطمئن الساكن اليهودي أن طعامه حلال وحسب شريعته. توقف "صالح" عن عمله في المطبخ، وأصغى لحركة "يوسف" في الطابق الأعلى، وكان لديه موهبة التقاط أي صوت مهما كان خافتاً، وأدرك أنه انتهى من طقسه اليومي في الحمام، وفي أقل من دقيقة كان يقف أمامه، راسماً ابتسامة على وجهه، وقال:

- صباح الخير يا مسيو "يوسف" ..

ابتسم "يوسف" لطريقته في نطق "مسيو" بلهجة ريفية محبة:

- صباح الخير يا "صالح" .. جاهز؟

كان "صالح" يعرف مغزى كلمة "جاهز" وبدء المهمة الشاقة لهبوط "يوسف" إلى الطابق الأرضي، ليتناول إفطاره على المائدة المخصصة، فلم يكن يقبل أبداً أن يأكل في حجرة نومه، وظلت السلام مشكلته الوحيدة، منذ قدومه لدار المسنين، وتعكر صفو إقامته المريحة، وحرية ممارسته لتعاليم دينه دون أن يشكل ضيقاً لأحد، أو عناءً في توفير متطلبات حياته، كيهودي متدين.

حوى الطابق الأرضي غرفة لتناول الطعام، وصالة لاستقبال الزوار، وغرفة لإقامة "صالح"، وغرفتين صغيرتين للنوم بينهما حمام صغير، ولهذا السبب رفض

"يوسف" الإقامة في واحدة منهما، فالغرفتان لا تتسعان لأغراضه الخاصة، والتي جلبها معه من شقته في شارع رمسيس بمصر الجديدة، بينما الطابق العلوي به خمس غرف للنوم وحمامان.

استقر "يوسف" في الغرفة الكبيرة بالطابق العلوي، والمجاورة للحمام الواسع، والذي أعاد ترميمه، ليتناسب مع حالته الصحية كرجل مسن، ومعاناته مع آلام مبرحة من التهاب المفاصل، وخشونة ركبتيه، كلما اضطر لهبوط درجات السلم الرخامي إلى الدور الأرضي.

تحول الاضطراب إلى ابتكار، وبين تحسر مسيو "يوسف" على شبابه الذي مضى، وحاضره المليء بالألم، فكّر في صنع حبل من القماش المجدول، وربط طرفه أول سور السلم من أعلى، ليتدلى منخفضاً، وثبت طرفه الثاني في نهاية سور السلم، ليجلس هو في أعلى درجة، ويهبط زاحفاً معتمداً على يديه حتى يصل لأسفل، وهناك يكون "صالح" بانتظاره، ليساعده على النهوض، بشرط تنظيف الدرجات مرتين يومياً على الأقل.

كان "صالح" لا يخفي ابتسامته، وهو يرى مسيو "يوسف" يرتدي شبه عباءة خصصها للزحف على السلم، خوفاً من اتساخ ثيابه، وظلت عملية صعوده تسبب له ألماً شديداً، وأحياناً يستند على "صالح"، وأخرى يزحف بالعكس صاعداً لأعلى.

استغل "صالح" عملية الهبوط في الثرثرة، وأن يقص على "يوسف" كل ما شاهده في برامج التلفزيون، وحكايات سكان الشارع ومشاجراته مع باعة الخضر وارتفاع الأسعار، وكان بينهما اتفاق غير معلن، فـ"صالح" يتحدث و"يوسف" يستمع ولا يعلق، والاثنان يشعران بالرضا.

وغالباً يهبط "يوسف" مرة واحدة في اليوم، وبعد الإفطار يجلس في البهو على مقعد أحضره من منزله، ووضعه أمام مائدة تزدان جوانبها برؤوس ملائكة من النحاس، وتحديق عيونها في الفراغ.

خصص مسيو "يوسف" فترة بعد الإفطار في قراءة صحف ومجلات عربية وفرنسية وإنجليزية، وحرص على دفع اشتراكاتها بانتظام، لتصله في مواعيدها المخصصة، وقد اعتاد على تصفح جريدة الأهرام يومياً، والمرور بنظرة خاطفة على صفحة الوفيات، وتتسارع دقات قلبه، كأنه سيطالع خبر نعيه وصورته.

بعد تناوله الغداء يغفو قليلاً على كرسیه المريح، ويستيقظ لمشاهد التلفزيون لبعض الوقت، ويتابع القنوات التي تعرض أفلاماً أجنبية، وكثيراً ما كان يسخر من الترجمة العربية التي لا علاقة لها بالحوار الحقيقي للفيلم.

قبل الغروب بقليل، يصعد إلى غرفته، ويتناول كوباً من النعناع الساخن، ويخصص فترة المساء لقراءة كتاب ما وسماع الموسيقى، كانت عاداته ثابتة لا تتغير، عدا الأيام التي يزوره فيها شقيقه "داود"، ويشعر بسعادة كبيرة عندما ترافقه حفيدته "مايا"، ويستمتع بالحديث معها عن عملها كمتخصصة في الآثار الإسلامية.

صارت غرفته ملاذه الآمن، وكلما نظر إلى قطع الأثاث المتناثرة في جنباتها، شعر أنه يقبض على جزء من ماضيه، ويتنهد بارتياح في جلسته فوق مقعده المفضل، وبجواره مائدة بتوقيع "جاليه" وفوقها صينية من الفضة، وحروفها مزينة بورود صغيرة، نحتها صائغ ماهر منذ سنوات طويلة، وفوق الصينية طقم شاي "كريستوفل" قديم.

وفي الركن المجاور للنافذة، استقرت فوق منضدة صغيرة صينية فضية أخرى، و"كاتيل" وشاي "إيرل جراى" ماركة "أحمد تى" ومجموعة من علب الأعشاب الملوقة، ومن بينها النعناع مشروبه المفضل.

كان الجدار المقابل للسرير تحتله مكتبة تمتد من الأرض إلى السقف، تتراص فيها الكتب مصنفة حسب موضوعاتها، وبقية الجدران تزينها "بانوهات" تتوسطها لوحات زيتية موقعة باسماء فنانيين، ومن بينها لوحة رسمها له الفنان المصرى الكبير "صلاح طاهر".

كان "يوسف" دائم التأمل للوحة الفنان الشهير، ويستعيد لحظة وقوفه كشاب أرستقراطي يرتدى بدلة بيضاء أنيقة، ويستند بمرفقه على مدفأة رخامية سوداء، ولم تكن اللوحة مجرد قطعة فنية تحمل جزءا من ذكرياته، ولكنها تخفي خلفها سره العميق.

غطت الأرض سجادة أصفهان مزينة بالورود والعصافير، وبألوان مبهجة تشعره بالسعادة، وهو يتحسسها بقدميه، ويتلو صلاة الظهر "منحة" قبل الغروب، وتسري الطمأنينة في نفسه، وأنه أدى واجبه تجاه ربه، ويتفرغ بعدها للقراءة وسماع الموسيقى، حتى يزحف الظلام ببطء، طارداً خيوط النور من الغرفة.

بعد السابعة مساءً، يبدأ في مقاومة النعاس الذي يطبق عليه، مؤجلاً النوم إلى التاسعة، لينهي يومه بتلاوة صلاة المساء "عربيت" ويعود إلى سريريه، لتداهمه ذكريات قديمة زاحفة كالنمل على عقله، ويشعر أنها ستكون حائلاً بينه وبين نوم عميق .. فما كان يراه في الماضي عملاً يقربه إلى الله، ويرضى عنه نبيه "موسى"، أصبح الآن حملاً ثقيلاً على ضميره .. كان يعرف أن شبح الموت سيباغته، ويخشى أن يقف أمام الله متهماً بالكذب والتزوير.

كانت اختياراته في الحياة تثير دهشة من حوله، فقد رفض أن يتزوج، وأن يغادر مصر، وأن يترك دينه، وأن يعترف بما يسمى إسرائيل، ورأى هذا الكيان نتاجاً لمقامرات رجال المال وتحالفهم المندس مع الساسة ورجال الدين، وقيامها يعني في نظره فناء اليهود، وتجمعهم في "جيتو" كبير.

كرس "يوسف" جل همه للدفاع عن اليهود كجزء من خلق الله، وليس من أجل السيطرة على خلقه، وكل ما فعله في شبابه لم يكن إلا لحنقه الشديد على كراهية العالم لهم، وإصراره على عقابهم لما اقترفته مجموعة من المنتفعين في حق المسيح.

وكلما وجد مخطوطاً مزيفاً، قام بدفنه في أرض يعلم هو أن اليهود مروا بها، وعاشوا فيها وعمروها لسكانها الذين حقروا من شأنهم، ورفضوا الاعتراف بفضلهم على العالم كله، ولم يصمدوا أمام دعوات طردهم، وظلت أوضاعهم تسوء في الدول الغربية، ومنذ سقوط الأندلس، وظهور محاكم التفتيش، لم تتوقف مقاصلهم، بل تحولت إلى محارق تلتهم أجسادهم في الأربعينيات، ولعنات تطاردتهم في كل أرجاء أوروبا.

كان دفنه للمخطوطات المزيفة وآيات التوراة المحفورة على جلود الغزلان، وأبواق الصلاة المصنوعة من قرون الحيوانات، حرباً يخوضها لإثبات حق تحالف الجميع على طمسه، ومحو ذكراهم من الأرض التي عمروها في بابل بعد السبي، وفي فلسطين أرض العهد، وفي سيناء مهد الدعوة التي شهدت رماها وجبالها على تجلي وجه الله على الأرض لنبيهم.

• فكر "يوسف"، هل ما فعله حق وعدل؟.

بعد قرون، ستظهر تلك المخطوطات التي دفنها منذ عشرات السنين، ولن يعرف أحد الدور الذي قام به، وستتصدر الكشوفات إثر الإعلان عنها أخبار العالم، وسيعرف الشرق والغرب أن اليهود لهم حق كبشر في بقاع الأرض كلها.

كانت تلك تصوراته كيهودي متدين، وقت أن رسم خرائطه، وحمل آثاره ودفنها في بقاع لا يعرف أسرارها سواه.

أصداء بعيدة تناهت إلى الراقد في دار المسنين، وتتابع المشاهد غائمة، كشريط سينمائي حافل بأحداث مثيرة، وتوقف عند مدهمة البوليس منزل الشاب اليهودي "يوسف نسيم نقاش"، قبل أن يسعفه الوقت لتسليم خرائطه إلى المنظمة التي ينتمي إليها، وقبض عليه في أعقاب الكشف عن عملية "سوزانا" أو كما يعرفها الكثيرون باسم "فضيحة لافون" والتحفظ على عدد كبير من شباب اليهود، ليس لتورطهم في العملية، ولكن كإجراء احترازي ضد من كانوا على اتصال بمنظمات يهودية دينية وصهيونية.

كان شهر ديسمبر من عام 1954 فارقاً في حياة "يوسف"، وعلى نحو مفاجئ تحول إلى سجين بلا تهمة واضحة، وأثناء توقيفه، تحرى رجال الأمن عن تاريخه، واكتشفوا علاقته بالمنظمة الدينية "وها بويل ميزراخي" والمعروفة بنشاطها في مصر، ودفعتها بشباب اليهود لزراعة أرض إسرائيل كجزء من إيمانهم بالتوراة. حاول كثيراً أن يدافع عن نفسه، وأنه كمصري يرفض مغادرة بلده، واجهوه بما فعله أعضاء شبكة "سوزانا" وبأن "موسى مرزوق" قرائي مثله، لكنه حرق وفجر، وكان يرغب في تدمير بلده ومعه عدد من اليهود.

ذكرهم هو بما جاء على لسان "زكريا محيي الدين" وزير الداخلية في مؤتمر صحفي عقده بعد الإعلان عن القبض على شبكة "سوزانا" بأن أغلب اليهود المصريين هم مواطنون مخلصون، شأنهم في ذلك شأن كل المصريين الآخرين، وأنهم اكتشفوا بأن المخابرات الإسرائيلية حاولت تجنيد بعض اليهود المصريين ولكنهم رفضوا.

ذكروه بأن الوزير لم يكن يعرف وقتها، أنه كان عضواً في منظمة صهيونية، وشرح لهم أنها كانت تمارس نشاطها في مصر بشكل شرعي ورسمي، وأنه حضر بعض جلساتهم لأنهم كانوا يفسرون التوراة ويشرحونها، ولم يعرف أن لها أغراضاً سياسية.

تدفق سيل الذكريات إلى عقله، وطرد النوم من عينيه، وتعجب من نفسه، فبعد مرور كل تلك السنوات، مازال يشعر بالألم يعتصر قلبه، وكأنه عاد إلى تلك الليلة البعيدة في الزنزانة المظلمة، ولحظة أن احترقها الضوء لثوانٍ معدودة، تسلس نور العنبر إلى الزنزانة، وكانت تلك اللحظة كافيةً لإلقاء إيلي عازر بداخلها، وأن تنطبع في ذهن "يوسف" صورة الشاب ضئيل الحجم، الذي ألقى به السجنان على الأرض الحجرية، وسمع بوضوح صوت طقطقة عظامه.

ساد صمت ثقيل قطعتاه تأوهات "إيلي" التي نفذت إلى قلب "يوسف"، لتزيل منه الخوف من الغريب الملقى بجواره، سألته عن نفسه، ولم تكن ملاسبات توقيفه تختلف كثيراً، فهو شاب يهودي يعمل في بنك مصر، وألقى القبض عليه للاشتباه في تورطه بشبكة سوزانا.

وأمام المحقق، بكى "إيلي" وصرخ بأنه مظلوم، ولا علاقة له بالقضية.. فهو يعلم الوجه القبيح للصهيونية التي تتلاعب بعواطف الشعب اليهودي، ولم يتصور يوماً أن يترك مصر، ويذهب إلى إسرائيل التي تحاول السيطرة على عقول البسطاء، تحت شعارات رنانة، والتضحية بشباب اليهود من أجل مصالح الجنرالات، ورجال يتحكمون في ثروات العالم.

كانت عملية "سوزانا" مخططاً لها أن تبدأ، ثم يتم الكشف عنها عمداً، حتى تقتنع الحكومة البريطانية التي تخوض مفاوضات مع مصر، بشأن انسحاب

حاميتها من قناة السويس، بأن مصر دولة متطرفة غير مستقرة، ولذلك يجب ألا يتم إجلاء القوات البريطانية.

كان لدى "إيلي" يقين بأنعملية "سوزانا" تم كشفها عمداً من عناصر في وزارة الدفاع الموالية لـ"ديفيد بن جوريون" الذي احتفظ بتأثير هائل رغم تقاعده المؤقت من منصبه كرئيس للوزراء عام 1954، وذلك بهدف إنهاء أي أمل في مفاوضات كانت مقترحة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي "موشى شاريت"، والرئيس المصري "جمال عبدالناصر".

كانت قناعات "إيلي"، التي دافع عنها أمام زميله في الزنزانة، لا تبدو أنها مجرد تحليل عقلاني للموقف، بل كان يتكلم بثقة من يمتلك معلومات لا يرغب في الإفصاح عن مصدرها.

عام كامل، قضاه "يوسف" مع "إيلي" في زنزانة جدرانها كالحة، وفقدت لونها الأصلي منذ سنوات طويلة، بعد أن غطتها كتابات حفرتها أظافر سجناء آخرين، ومنحت النزلاء الجدد أملاً بأن من سبقوهم قالوا كلمتهم وخرجوا إلى الحياة مرة أخرى.

بعد الإفراج عنهما، هاجر "إيلي" إلى فرنسا، وعاد "يوسف" إلى بيته، وأصدر على نفسه حكماً بعزلة اختيارية، والخروج الاضطراري لقضاء احتياجاته الضرورية، وأصبحت فكرة مغادرة المنزل تصيبه برهاب لا علاج له، وتسلمه إلى كوابيس متلاحقة، ليتنفض فزعاً كأنهم يطرقون الباب بعنف.

مضت عدة شهور، وآثار فترة سجنه عالقة في نفسه، وظل يلتقط أصوات المارة في الشارع، ودقات أقدام السائرين، خوفاً من مداهمة منزله والقبض عليه مرة أخرى، وكان لديه وقتٌ كافٍ ليعيد النظر في حياته كلها، ويحاسب نفسه على طريق حاول أن يتجنبه خوفاً من السقوط، فهو في فجوات عميقة.

أدرك "يوسف" أن كل ما تصوره غير حقيقي، وأن أيام سجنه الطويلة، كانت فرصة لتأمل ما مضى من حياته، واكتشف أنه ليس إلا مزوراً بدرجة تقي، وحاول أن يستعيد أيامه وكتبه وموسيقاه ومدرسته التي قبلته بحذر شديد، وظل بها حتى وقعت الكارثة الكبرى، وعربدت إسرائيل في سماء مصر عام 1967.

خيمت أجواء النكسة، ولم يكن أحد متفرغاً للنش في ماضي المدرس اليهودي، وعندما انتبهوا إلى وجوده بينهم، قرروا إحالته للمعاش، وصار التقاعد عقاباً تقبله بسعادة، فلم يعد مضطراً للخروج من باب منزله. بدأت الذكريات تحبو، ليحل مكانها نعاس أجبره على توقف عقله، واستغراقه في نوم عميق، ورأى "أديرا" ابنة شقيقه "إبراهيم"، وهي تطالبه بصوت آمر وبلهجتها الحادة التي ورثتها عن شقيقه، بأن يعيد إليها الخرائط، لأنه لا يملكها بل هي ملك لإسرائيل.

كان ظهور "أديرا" في أحلامه، كفيلاً بأن يجعل نومه متقطعاً، فقد هاجمته عدة مرات، ورأى نفسه يركض هارباً منها، ثم يسقط، لتنهشه وحوش فاغرة أفواهها، وتلفظه تحت أقدام "أديرا" التي تنحنى عليه، وتهمس في أذنه: أين الخرائط؟ وهو غير قادر على النطق، فتدق الأرض بقدميها، ويبتلعه ظلام دامس، وتلاحقه أصداً سؤاها أين الخرائط؟ وصوتها يتماوج بالتهديد والفحيح والهمس، ويرتطم جسده بقاع بئر سحيقة.

انتفض "يوسف" في فراشه، وأنفاسه لاهثة، والصداع يفتك برأسه، وجسده يرتعش من هول ما رأى، ولأول مرة في حياته يتأخر عن موعد استيقاظه نصف ساعة كاملة، لينهض متثاقلاً، وقدماه تعربد فيها آلام مبرحة، والمشاية المعدنية

تصدر ضجيجاً أعلى من المعتاد، والهواجس تصاحب الساكن اليهودي في طريقه إلى الحمام.

مارس طقوس يومه المعتادة، وعاد ليجلس فوق مقعده، وقد بدد الإرهاق رغبته في النزول إلى الطابق الأرضي، وأفقده شهيته في تناول الإفطار، أغمض "يوسف" عينيه محاولاً طرد آلام رأسه، فكر كم هو عجوز بائس، ضاعت أيامه في سجنه الاختياري، وأسراره التي حولته إلى كومة من الآلام.

انتبه "يوسف" لزقزقة العصافير التي أفادت من غفوتها، وحفيف الأشجار، وضجيج الأطفال المنتظرين لسيارة المدرسة أمام العمارة المقابلة للدار.. كان يحفظ كل صوت حتى حركة أغصان الشجر، وحفيف أوراقها حين يطوحها الهواء، وهمهمات العابرين، وظلت حاسة السمع لا تعترف بشيخوخته، وتآلفت مع أذنيه المرهفتين التي صقلتها أنغام الموسيقى الشرقية، وسيمفونيات بيتهوفن وباخ وموتسارت وغيرهم.

فتح عينيه فجأة، بعد أن التقطت أذناه صوت حفيف غريب، كتم أنفاسه حتى يتحقق من الصوت، فلم يسمعه مرة أخرى، وانتبه إلى ضجة قدمي "صالح" فوق السلم، وطرقات يده على باب الغرفة، ويده الأخرى تحمل الصحف والمجلات، وسأله الخادم:

- مسيو "يوسف" هل أنت جاهز؟ .
- لا يا "صالح" .. أنا متعب .. سأتناول هنا فنجان شاي وبسكويت ..
- استأذنه "صالح" في الخروج لشراء بعض الطلبات، وأنه سيتأخر قليلاً، لذهابه إلى سوق السمك، هز "يوسف" رأسه موافقاً، وترك الخادم الباب مفتوحاً.



مر "صالح" من أمام المعبد، وألقى بالتحية على طاقم الحراسة، وتوقف ليثرثر قليلاً مع أحد العاملين في الجمعية الاستهلاكية التي تحتل ناصية الشارع، وسار متوجهاً إلى ميدان الجامع قاصداً سوق السمك، واستغرق في اختيار الأصناف التي يحبها مسيو "يوسف"، ودخل في مساومات طويلة مع الباعة.



اقتربت الساعة من الثامنة صباحاً، وتلاشت الجلبة التي أثارها حافلات المدارس، وساد الهدوء في المنطقة.

انتهى الرجل الفرنسي من ارتداء جوربه وقفازيه، وتجول في الشقة ليمحو أي أثر لبصماته، وفتح حقيبة السفر، وأخرج منها لفافة بلاستيكية سوداء، وسحب منها زياً للشرطة المصرية، وارتداه بسرعة فوق ثيابه، ووضع قدميه في حذائه الخفيف، وترك الحقيبة فارغة في أحد الأركان، بعد أن مسح بعناية مقبضها المعدني.

توجه ناحية نافذة غرفة النوم، وفتح منها فرجة صغيرة، وراقب من خلالها حركة الشارع ونوافذ العمارات المجاورة، وبدأت ساحة دار المسنين على مرمى بصره.

مرت نصف ساعة على وقوفه خلف النافذة، وظل متجمداً كتمثال رخامي، منتظراً خروج خادم الدار كعاداته اليومية، وتتبع خطواته حتى اختفى عن عينيه، وبقفزة واحدة وقف على إفريز النافذة المنخفض، ثم تبعها بقفزة سريعة فوق الغصن المنفرج لشجرة المانجو.

توقف للحظات بين الغصون، ثم أنزلق هابطاً بخفة الفهد لامساً الأرض بقدميه، وانطلق بسرعة خاطفة في الساحة، وتوقف أمام الباب الخشبي الداخلي، وأخرج من جيبه "سويس نايف" والتقط منها أداة رفيعة غرسها في القفل

القديم، فانفتح مُصدراً صوتاً خافتاً، وأغلق الباب خلفه بحذر شديد، وصعد درجات السلم قفزاً، ولمح باب غرفة "يوسف" مفتوحاً، لم يتمكن من رؤيته، والتصق بالجدار كاتماً أنفاسه، وانسل بخفة داخل الغرفة.

ساد دار المسنين هدوء مألوف في مثل هذا الوقت؛ الذى يخرج فيه "صالح" من الدار، ويستغرق "يوسف" في قراءة الصحف.. تلك المرة التقطت أذناه صوتاً غريباً، وضع الصحيفة جانباً، وظل منتبهاً حتى عثرت حاسته الرادارية على أنفاس شخص آخر.

التفت "يوسف" بهدوء، ليقع بصره على رجل يقف خلفه مباشرة، فانفض في مقعده، وتسارعت دقات قلبه، وفرت الدماء من وجهه، والغريب يشير له بيده أن يهدأ، وتنبه "يوسف" إلى أن المقتحم لغرفته يرتدى زى الشرطة المصرية. تفحص "يوسف" ملامح الواقف أمامه، وسرى الرعب كمخدر في جسده الضعيف، ولم يعد يشعر بساقيه العاجزتين عن الحركة، وحاول أن يتكلم بلسانه الملصق بحلقه، وحرك شفثيه دون أن يخرج صوتاً.

دار الغريب حول مقعد يوسف بخفة شديدة، وتحرك مثل فهد يدور حول فريسته، ويتأهب للانقضاض، وارتدى قفازاً متوجهاً ناحية النافذة، وأغلقها بهدوء محاذراً أن يلمحه أحد، وعاد ليقف أمام الشاخص إليه، وقد أصابه الخرس، وأخيراً نجح "يوسف" أن ينطق بكلمات متقطعة، وبصوت متحشرج سأل الغريب:

- من أنت وماذا تريد؟.

أجابه الرجل بإنجليزية ركيكة:

- ليس مهماً أن تعرف من أنا.. الأهم أن تعرف سبب زيارتى لك ..

رمشت عينا "يوسف" الزرقاوان، وتفحص محدثه، وتأكد أنه يحمل ملامح أجنبية، ولهجة تفصح عن أن الإنجليزية ليست لغته الأصلية، وبصوت مرتجف أعاد عليه سؤاله:

- ماذا تريد؟.

أجاب الغريب بصوت ناعم هادئ: الخرائط ..
صمت قليلاً، وهو يتفرس ملامح "يوسف" متوقفاً تلك الدهشة التي طرأت عليها، ثم تابع:

- سأحصل عليها بإرادتك أو بدونها ..

راقب اتساع عيني يوسف، وارتجاف جسده كعشب يحاول أن يصد عاصفة عاتية، وأدرك اليهودي العجوز أنه لا مجال لإنكاره، ورد عليه بسرعة:

- لم تعد معي منذ دخولي السجن من ستين سنة.. كانت في منزلي الذي فتشته أجهزة الأمن وقتها وبكل تأكيد مزقوها أو جمعوها مع كتيبي وأوراقى التي صادروها.. هم بالتأكيد لا يعرفون ما تعنيه هذه الخرائط ..
قال كلماته الأخيرة بلهجة شابها التوسل، دفعت الغريب لأن يزداد إصراراً وهو يواجهه:

- أنت كاذب ولا يمكن أن تترك أمراً بهذه الخطورة تحت أعين الغرباء ..
بلع "يوسف" ما تبقى في حلقه اليابس، محاولاً أن يتهالك رباطة جأشه وقال:

- لم أكن حذراً بما فيه الكفاية .. ولم أتوقع أن يقبضوا عليّ ..
بدا على الغريب علامات نفاد الصبر وقال بصوت أجش:

- أنت الآن أضعت فرصتك في أن تموت على فراشك كيهودى صالح ..
التعليقات التى لدى أن أحصل على هذه الخرائط .. لا يهمنى ما فيها

وأنت أيضا لا تهمنى.. وإذا لم أحصل عليها سأتعقب من تبقى من عائلتك وسأقتلهم جميعاً..

في تلك اللحظة، انهار "يوسف" تماماً، وانخرط في بكاء زلزل جسده وأطرافه المرتعشة، وقال:

- لم تعد لديّ عائلة.. أخى وعائلته مسلمون ولا يعلمون شيئاً.. الخرائط اختفت من منزلي أثناء سجنى..

لم يتركه الغريب يكمل حديثه، وانقض عليه ممسكاً برقبته المتغضنة:

- لا وقت عندي لأضيعه مع رجل خرف مثلك..

خفف الغريب قبضته عن عنق "يوسف"، وتركه يرتعش ولسانه يتدلى من فمه، واستدار ليفتش الغرفة، وحاول "يوسف" أن يصيح طالباً النجدة، فخرج صوته كغثاء حمل وليد، فسارع الغريب بوضع قطعة من القماش سد بها فمه، وعاد ليفتش هنا وهناك، وبدقة متناهية يعيد كل شيء إلى مكانه.

أستغرق تنقيبه في الغرفة نصف ساعة أو أكثر، ولم يعثر فيها على الخرائط، وخلال بحثه ينزع قطعة القماش من فم "يوسف"، ويتركه للحظات يستنشق الهواء، ويعيدها مرة أخرى، وحين نظر في ساعته، أدرك أن الوقت يمر بسرعة، فعاد إلى رهينته الذى كاد قلبه يتوقف من الخوف، وأمسك به، ورفع في الهواء، وسار به خارج الغرفة، وتوقف بحمولته أعلى السلم، وتدلت رأس "يوسف" لأسفل، وقدماه تتأرجحان في الهواء، محاولاً بيأس لمس الأرض.

كرر الرجل طلبه مرة أخرى:

- أين الخرائط.. انطق..

تلك المرة فشل في تلقى إجابة، ولم يصدر من "يوسف" سوى حشجة تخللها تممة خافتة، فقد كان اليهودي العجوز يتلو دعاء الاستغفار الأخير.

رفعه القاتل في الهواء عالياً، وألقاه بقوة فوق السلام، فتدحرج "يوسف" بسرعة لم يعتدها عند انحداره اليومي من الطابق العلوي، ودوى صوت الارتطام في أرجاء الدار، وانبثق خيط دماء رفيع من رأس "يوسف"، واختلج جسده المحتضر، واتسعت دائرة الدم لتماماً فراغ الأرض من حوله، حتى سكنت حركته تماماً.

بعد خمس دقائق، اقترب منه القاتل محاذراً أن تتلوث قدماه بالدماء، وجس عروق رقبته، وتأكد من موته، فتركه وصعد درجات السلم، ودخل إلى غرفة "يوسف"، وحمل المشاية المعدنية ووضعها على بداية السلم.

ألقي القاتل نظرة غاضبة على جثة القتيل، وخرج من الباب الداخلي للدار، وأغلقه بالقفل مرة أخرى، وخلع قفازيه ووضعها في جيبه، وبخطوات ثابتة اخترق الساحة حتى وصل إلى البوابة الخارجية، وهناك اطمأن على هيئته، ووضع الكاب على رأسه، وبخفة القط قفز إلى نهر الطريق، والتفت إلى موقع الرجال المكلفين بحراسة المعبد، ولكنهم لم ينتبهوا إليه، فقد كانوا منشغلين بالحديث وظهورهم ناحيته.

بخطوات سريعة انحرف "بيترو بنيامين شاؤول"، متوجهاً ناحية الشارع الرئيسي، وعبر الطريق إلى المركز التجاري في الجهة المقابلة، ودخل خافضاً رأسه، ليتجنب أن ترصد وجهه كاميرات المراقبة. لم يكن هناك ما يثير الارتياح في هيئته، وبدأ كضابط شرطة يغطي عينيه بنظارة شمسية ماركه "ريان".

توجه "بيترو" بخطوات ثابتة ناحية التواليت، واختفى خلف أحد الأبواب، وأخرج من جيبه حقيبة بلاستيكية سوداء، وخلع ملابس الشرطة، وكان يرتدي تحتها بنطلون جينز وقميص أزرق، وأزال الشعر المستعار عن رأسه، فظهر شعره

البنى القصير، وبحركات مدربة نزع الأنف الصناعي، ووجتتي السلكون اللتين منحتا وجهه استدارة خفيفة، ووضع أدوات تنكره في الحقيبة.

التقط من جيبه أنبوباً رفيعاً، وضغطه ليرز سائلاً شفافاً، ومسح به وجهه، وفركه لتعلق بيديه خيوط من لاصق التنكر، وخرج من الحمام، وتوجه إلى الحوض، وغسل وجهه بالماء، وتأمل في المرأة العريضة، وبدأ كرجل وسيم في منتصف الثلاثينيات، وتشابهه ملاحه مع ملايين المصريين، وتأكد بنظرة فاحصة أن اللاصق اختفى تماماً.

غادر "بيترو" المركز التجارى حاملاً الحقيبة البلاستيكية، وتوجه ناحية روكسي سيراً على الأقدام، واخترق الميدان عابراً شارع الخليفة المأمون، ثم توقف مشيراً إلى تاكسي، وطلب من السائق أن يتجه إلى أحد الفنادق الكبرى على النيل.

أشار إلى موظف الاستقبال بالتحية، واستقل المصعد إلى غرفته بالطابق الثامن، وأخرج من حقيبته مقصاً، وانهمك في تقطيع زى الشرطة إلى قطع رفيعة، وخلطها بوجهه المزيف، ومزق الباسبور الفرنسي إلى قصاصات متناهية الصغر، واطمأن أنه لم يسقط شيء على باركيه الغرفة، وخلع ملابسه واتجه إلى الحمام، وأطلق المياه الساخنة على جسده، وتهيأ للذهاب في جولة سياحية لزيارة الأهرام والمتحف المصري.

حضر "بيترو" إلى مصر، كمندوب عن شركة إيطالية لإستطلاع حالة السوق، وافتتاح مصنع لتصنيع الدراجات الهوائية، وأجرى العديد من اللقاءات مع المسؤولين في هيئة الاستثمار والغرفة التجارية، وأبدى استعدادة للتواجد فترة كافية لتخليص الإجراءات المطلوبة، وكتابة تقرير كامل لشركته.

قبل مغادرته الفندق، أجرى مكالمة هاتفية، وأبلغ محدثه أنه انهى الجزء الثاني من المهمة الأولى، و ينتظر التعليمات لتنفيذ المهمة الثانية. أغلق تليفونه. وضع الكيس داخل حقيبة يده الجلدية، وخرج متتوياً أن يقوم بتوزيع أدوات التكر على صناديق القمامة، وبعدها يستمتع بجولته كرجل أعمال إيطالى، وليس قاتلاً هو الأفضل في المافيا الإيطالية.



عاد "صالح" بعد أكثر من ساعة ونصف، حاملاً أكياس الخضر والفاكهة وتشكيلة من الأسماك الطازجة -دفع الباب الخارجي للدار بقدمه، واجتاز الساحة الخارجية، وساوره القلق أن يؤنبه مسيو "يوسف" لغيابه- وضع مشترياته على الأرض، وأخرج مفتاح الباب الداخلي، لم يتبته لحيط الدم الذى تسرب من أسفل الباب، ليستقر في بركة صغيرة تحت قدميه، وانحنى ليحمل مشترياته، وانتصبت قامته لتقع عيناه على "يوسف" الراقداً أسفل السلم، وحوله بقعة كبيرة من الدماء، ألقى ما فى يده، وهرع إلى "يوسف" متوقعاً سقوطه من أعلى، وظل يهذي "مسيو يوسف.. مسيو يوسف" ولم يجبه اليهودي العجوز.

انطلق "صالح" ناحية العمارة المقابلة للدار، وهو ينادي على جارهم الدكتور "نديم"، ويقفز فى الشارع مثل قط علق فى ذيله كرة من اللهب. استرعى صراخه انتباه رجال الحراسة وأسرعوا إليه، فقال لهم:

- مسيو "يوسف" وقع من على السلم..

عاد "صالح" ومعه الدكتور "نديم"، وكان رجال الحراسة يقفون في مسرح الجريمة، وحياهم الدكتور تحية خاطفة، وانحنى على "يوسف" الملقى على وجهه، وفحص نبضه، ثم نهض بسرعة معلناً وفاته.

طلب أحد رجال الحراسة من الدكتور "نديم" و "صالح" الابتعاد عن الجثة، وحذرهما من الخوض في الدماء، وأسرع بالإبلاغ عبر جهاز اللاسلكى. لم يستغرق وصول رجال المباحث أكثر من عشر دقائق، واستمعوا إلى شهادة الدكتور "نديم"، بينما صالح ينتفض من الخوف، وظل ينتحب حتى اقترب منه رئيس المباحث، وقال له:

- اهدأ وشرح بالتفصيل الذي حدث..

أخبره "صالح"، كيف ذهب إلى السوق، وترك العجوز بصحة جيدة، ويجلس في غرفته بالطابق العلوي، وأنه بالتأكيد شعر بالملل لغيابه، وقرر النزول إلى الطابق الأرضي، وأن "داود" شقيقه الوحيد، كان يزوره، وفي كل مرة يمنحه مبلغاً محترماً من المال، ويطلبه بالاهتمام بشقيقه ورعايته، واستشهد برجال الحراسة الذين رأوه وهو في طريقه للتسوق.

أنصت رئيس المباحث إلى "صالح" باهتمام بالغ، وحين توقف عن الكلام، قال له بصوت هادئ:

- هل تريد أن تقول شيئاً آخر؟ .

تلقى "صالح" السؤال كلكمة قوية على رأسه، وأدرك أنه لو أخفى أي شيء يعرفه، سيتحول في لحظة من شاهد إلى متهم، فتلفت حوله، وتحاشى النظر إلى جثة "يوسف"، ورأى رجال الشرطة يعاينون مسرح الجريمة، وهنا نهره رئيس المباحث:

- رد على السؤال..

همس بصوت مرتجف:

- آه .. "داود" مسلم وابنته مسلمة وتوفيت منذ سنوات طويلة وابنتها رباه "داود" وأصبحت دكتورة في الآثار..

تفحصه رئيس المباحث بتمعن شديد، مما جعل "صالح" يعود إلى البكاء، ويرتعد خوفاً من إدلائه بمعلومات أغضبته.. سأله الضابط:

- من أين عرفت أن شقيق "يوسف" مسلم؟
رد "صالح" بسرعة:

- من مسيو "يوسف" نفسه .. أحياناً كان يتحدث معي بعد تناوله الغداء وحقى لى عن حبه لمصر ورفضه أن يهاجر ويتركها كما فعل كثير من اليهود..

- هل كان يتردد عليه أحد غير شقيقه؟.

- لا أحد سوى "داود" وأحياناً تأتي معه حفيدته الدكتور "مايا" .. ومنذ أن سكن مسيو "يوسف" في الدار من حوالى خمس سنوات زارته قريته الخواجاية مرتين وكانت تتحدث معه بالفرنسية ..

اتجه رئيس المباحث إلى السلم، ونظر ناحية "صالح" ليتبعه، فصعد خلفه مهرولاً، وأخذ يثرثر عن عادات "يوسف" اليومية، وكان باب الغرفة مفتوحاً، فدخل الضابط وجال بعينه في أرجائها، وقال "صالح":

- كل شيء كما تركته قبل أن أذهب إلى السوق..

لم يعره الضابط أي اهتمام، وظل يفتش بعينه، عله يكتشف آثار عنف أو مقاومة أو عبثاً بمقتنيات القتل..

أردف "صالح" قائلاً:

- المرحوم كان يضع نقوده في علبة فضية داخل الدولاب..

أشار للضابط على مكانها، فسأله:

- وكيف عرفت؟

- أحياناً كان يطلب مني أن أحضر له بعض المال منها..
كانت العلبة الفضية في مكانها، واستخدم الضابط قلماً لفتح غطاءها، ونظر
بداخلها فوجد كومة من الأوراق المالية، وبعد دقائق خرج من الغرفة، ومن
خلفه "صالح" مهرولاً.
هبط الضابط درجات السلم، محاذراً أن يلمس شيئاً، وفي الطابق الأرضي،
التفت ناحية صوت أقدام مسرعة تأتي من مدخل الدار، واستدار مرحباً
بالقادم:

- أهلاً "مروان" بيه..
تبادلاً التحية، وانتحيا ركناً تحدثا فيه بصوت خافت، وأشار أثناء ذلك إلى
"صالح" الذي شعر بحرارة شديدة في مؤخرة عنقه، وتملكه التوجس تماماً،
وأدرك بفطرته أن هناك أمراً ما غريب لم تألفه عيناه، وكأن "يوسف" ترك له
رسالة يرغب في أن يبلغها.
انتحى "صالح" جانباً، وألقى جسده المتعب فوق مقعد بلا يدين، منتظراً
تحديد مصيره، وانتبه إلى ضرورة الاتصال برئيسة الطائفة اليهودية، ورأى أنه من
الأفضل أن يستأذن من رئيس المباحث، ففوجئ بالشخص الآخر يقول:
- إنها في الطريق..

لم تمر سوى دقائق قليلة حتى ظهرت رئيسة الطائفة عند مدخل الباب،
وانتفضت فزعة من رؤية الجثة المغطاة بقماش أبيض لطخته بقع الدماء،
وتزايدت كثافتها عند رأس اليهودي القتيل.

أطلقت رئيسة الطائفة صرخة مكتومة، فكف الرجلان عن الحديث، وتوجها إليها، فتبادلت سلاماً ودياً مع "مروان"، يكشف عن سابق معرفة بينهما، وشرح لها ما حدث، فطلبت منه ضرورة إبلاغ شقيقه "داود".

- 2 -

الحل

خفت ضوء المصباح الصغير الذي ينير الكورديور المؤدي إلى غرفة "مايا"، وغمرته أشعة الشمس المتسللة من نافذة تتوسط أحد جداريه، وتطل على شارع جانبي، وتكثفت هالة من النور أمام الباب الخشبي السميك، لكنها لم تجد سبيلاً للدخول.

لم يقطع السكون المطبق على الشقة، سوى تقلب قط "مايا" في سلته، وهو يحرك يديه ومخليه وشواربه، ويتمطى ليعلن عن استيقاظه من نوم عميق، ويصغي لما حوله، وبعد تأكده أن الهدوء يسود المنزل، قفز من سلته، وتجول بخطوات بطيئة في أنحاء الريسبشن الكبير.

توقف أمام أحد المقاعد الأنيقة، ومد مخليه لنبش قمشه الحريري، ولكنه تذكر صيحات "مايا"، فركه وقفز إلى حافة النافذة الكبيرة، وألصق وجهه على الزجاج، ليمارس هوايته في الجلوس لساعات طويلة، وهو يراقب السيارات والمارة، والضجيج اليومي لشارع عبد الخالق ثروت.

تلمل القط فوق حافة النافذة، حتى استقر على جلسة مريحة، وبعد لحظات التقطت أذناه صراخا خافتا، وعرف أنه لـ "مايا"، فجرى إلى باب الغرفة، ووقف على قدميه الخلفيتين، وأطلق مواءه معلنا عن وجوده، وظل يضرب الباب بجسده، واختلط مواءه المرتفع بأنين الغارقة في الكابوس.

لم تكن "مايا" قد استفادت بشكل كامل من كابوسها المزعج، وخايلتها صورة "يوسف" شقيق جدها "داود"، وأصابتها بالفزع، لتلقي برأسها على ظهر السرير، وتدفع بجسدها لأعلى بتثاقل وخوف تدرك معناه جيداً.

ثبتت نظرها على جدران غرفتها التي جعلتها مريحة، فهي تقضى فيها ساعات طويلة، لاسيما وهي تعمل على مكتبها الذي تستقر خلفه، مكتبة بطول الجدار،

تتراص فوق أرففها كتب متنوعة، وقد خصصت رفاً كبيراً للمراجع التي تستعين بها في كتابة أبحاثها على اللاب توب، واقتنت جهازاً آخر للبحث عن بعض المعلومات على الإنترنت.

كانت غرفتھا عالمھا الأليف الذی تشعر فيه بالأمان، ولكن بعد رؤيتها لجدها "يوسف"، أدركت جيداً أن هناك أحداثاً مهمة في انتظارها هذا الصباح.. لم تستطع أن تحفي قلقها، ونهضت في تكاسل شديد، وفتحت باب الغرفة لقطها المضطرب، وعادت لتجلس في فراشها، وهى تشعر بنوبة صداع اعتادت أن تدهمها بعد كل كابوس، وأيقنت أن أمامها ساعات قليلة، ليأتيها نبأ وفاته، كما حدث عند رؤيتها لصورة شخص من معارفها أو جيرانها أو أصدقائها تقتحم أبواب عقلها.. ولكن رؤيتها لجدها "يوسف"، كانت المرة الوحيدة التي ترى في منامها شخصاً يودع الحياة.

اعتادت "مايا" أن يزورها أشخاص قبل رحيلهم، وفي حالات أخرى في نفس لحظة الوفاة، إلا أنها هذه المرة لم تستطع أن تمنع دموعها التي تنهمر على وجنتيها، وشعرت بالضيق من نفسها، فكم هي بائسة ونذير موت.

لم تفلح محاولات قطها في التمسح بها، أن تخرجها من أفكارها السوداوية، وفجأة تنبتهت إلى أنها وحدها في المنزل، فجدها "داود" استيقظ مبكراً كعادته، وخرج متوجهاً إلى محله في حارة الصالحية، وكان أمامها مهمة صعبة في تهيئته لاستقبال خبر وفاة شقيقه الذي يقيم في دار المسنين الملحق بمعبد "فيتالي ماجار" بمصر الجديدة.

ارتدت "مايا" ملابسها بثقال شديد لتذهب إلى جدها "داود"، كل الذي تعرفه أنها لا بد أن تكون بجواره في تلك اللحظة، وظلت تفكر هل مات شقيق جدها فعلاً أم لا؟.

حتما ستصيبها الأيام المقبلة بالارتباك لتعقد تاريخها العائلي، وستضعها في مأزق أمام معارفها، وسينكشف السر الذي آثرت أن تخفيه، ولم تبح به لأحد عن جذور عائلتها اليهودية.

ولدت "مايا" لأبوين مسلمين، وكان جدها لأمها "داود"، قد أشهر إسلامه في بداية الخمسينيات، وأقدم على هذه الخطوة دون أن يُكرِّهه أحد عليها، وإن كان لا يبدو لها مسلماً تقياً، بل يهودياً مسلماً، قرر أن يحتفظ بحقيقة عقيدته لنفسه، وساد بينهما اتفاق غير معلن، ألا يتحدثا في مسألة الأديان، ويكتفيا بعبادة الله الواحد الأحد.

ظل هذا الاتفاق سارياً ولا يذكرهما به أحد، إلا عند زيارة عمها "إسحق هارون" الشقيق الوحيد لوالدها الذي توفي في فرنسا بعد خمس سنوات من زواجه بأمها وإنجابها.

كان عمها "إسحق" ينتهز أي فرصة، ليعلم خلالها أنه لا يعترف بالأديان كلها، وأنه يكتفى بأن يكون شيعياً صالحاً أفضل من أن يظل حيساً لدين وعقيدة تكبله، وتفرض عليه قيوداً يرفضها، مع أنه مسلم في خانة الديانة ببطاقته الشخصية، وكان الأمر الوحيد الذي يشعره بالسعادة وجوده لساعات طويلة في مكتبته القديمة بوسط البلد.

كان يفتخر بأنها كانت شركة اجتمع فيها والده مع المناضل العظيم "هنري كورريل" مؤسس حركة الديمقراطية للتحرير الوطني التي عرفت بعد ذلك بحزب "حدثو" الشيوعي، كان الحديث عن "هنري كورريل" هو موضوعه المفضل، ودائماً يبشر بعودة المد الشيوعي واليساري، لكي يفتح العالم، وقرب انهيار الرأسمالية المتوحشة.

جالت تلك الأفكار في رأس "مايا"، عندما خرجت من باب العمارة، ولم تنتبه لعم "حسن" سايس الجراح، وهو يذكرها بمكان سيارتها، ويطلبها بأن ترد عليه السلام، فقد كانت حائرة بين الذهاب إلى عمها "إسحق" في المكتبة أو إلى جدها مباشرة، واستقرت على الحل الثاني، فلم تكن مستعدة نفسياً لسماع نظريات عمها عن الشيوعية، وإن كانت في حاجة لأن تتكلم معه، باعتباره الشاهد الوحيد على ما حدث لها في غرفة الشفاء داخل معبد موسى ابن ميمون. طردت كل الأفكار التي تتعلق بماضيها، وقررت أن تركز تفكيرها على مقابلة جدها، وكانت تشعر بقلق شديد عليه، بعد تدهور صحته وكبر سنه، واستغراقه في الصمت لساعات طويلة خلال الفترة الأخيرة، عزت ذلك لانشغالها عنه واستغراقها في عملها بالجامعة ورحلاتها المستمرة للمواقع الأثرية بحكم عملها.

قادت سيارتها وسط الزحام والخدر يحتاج جسدها، وتملكتها رغبة في البكاء، وحاولت السيطرة على أعصابها حتى وصلت إلى الجراح، وخرجت منه لتسير في طريق منحدر إلى "مسجد الحسين"، واجتازت مدخل شارع المعز من ناحية الصاغة، لتتحرف يميناً قبل نهاية المحلات سائرة بين الدروب المتعرجة التي تحفظها جيداً.

وصلت "مايا" إلى حارة الصالحية الشهيرة التي تصطف على جانبيها محلات الأحجار الكريمة، لتقترب من محل جدها الذي لم يتغير شكله الخارجى منذ عشرات السنين، جدها "داود" ورث المحل والمهنة، وحافظ على ديكوره الخشبي القديم كما تركه له والده.

كان "داود" شديد العناية بمحلّه العتيق، ويعيد إصلاح ما يتلف فيه، ويتمسك بطابعه القديم، والموحي برائحة زمن فائت، كأنه يقبض على ذكريات طفولته وشبابه.

لمح العجوز حفيدته بين خيوط الأحجار الملونة التي تملأ المكان من حوله، نظر إليها طويلاً ليختلط عليه الأمر للحظات، لوهلة تصوّرُها ابنته التي ماتت بعد معاناتها مع مرض السرطان، اكتشف في تلك اللحظة أنها تشبه أمها تماماً، فهي تمتلك نفس الشعر البني الحريري الذي يندفع حولها، وهي تسير كأنها في سباقٍ معه، طريقتها في المشي أيضاً ورثتها عن أمها، تدق بقدميها بقوة، كأنها ترغب في أن تترك أثرها على الأرض.

استقبلها بابتسامة ترحيب حميمة، سرعان ما تجمّدت على شفّتيه، بعدما شعر بقلقٍ عميق يشع من عينيها البنيتين، أسرع نحوها والهواجس تُحاصر رأسه، لا بد أن حضورها وراءه أمر ما، اقترب منها لترتمي في حضنه باكية، بينما يرجف جسدها من الانفعال كعصفورٍ خائف.

أحاطها بذراعيه محاولاً تهدئتها وهو يطلب من "الحاج حسين" الذي يعمل معه بأن يأخذ مكانه، ودخل معها إلى الغرفة الخلفية الملحقة بالمحل، أجلسها وهو يربت على كتفها، وعيناه تتوسلان إليها كي تهدأ، وبدا عليه الانزعاج من حالتها، فحفيدته كانت دائماً هادئة مبتسمة وتزن انفعالاتها، وكثيراً ما يعتمد على راحة عقلها، ويستشيرها حتى في أمور عمله.

تسلل إليه قلقها، وأسقط في يده، فلم يعد قادراً على تهدئتها، واكتفى بالنظر إليها في صمت، وأدركت "مايا" أنها تركت العنان لمشاعرها المختلطة، وأثقلت عليه بدلاً من مؤازرته فيما سيعرفه اليوم من أمر جلل، وربما لا يحتمله في نهاية

عمره، حتى لو كان يتوقع موت شقيقه، ولكن ليس على هذا النحو المأساوي الذي رأته في الكابوس.

تدفقت الكلمات منها بسرعة جارفة، وحكت له عن الفزع الذي تملكها، بعد أن شاهدت "يوسف" شقيقه، وهو ينظر إليها نفس النظرة التي ترسم في أعين كل من ترى صورته أمام عينيها، ثم تسمع بعدها خبر وفاته، انهمرت دموعها وهي تخبره بأنها أصبحت تكره نفسها، وتشعر أنها تجلس على أبواب القبور، ويمر عليها كل من يترك الدنيا لينتقل إلى العالم الآخر.

اعتادت مثل هذه الزيارات لمن يتأهبون للرحيل، ولكن هذه المرة، جاءت زيارة جدها "يوسف" وهي نائمة، ولا تتذكر أنها حدثت معها من قبل، فكل معارفهم وأصدقائهم وجيرانهم الذين زاروها وعرفت بوفاتهم بعد ذلك بساعات، كانت ترى صورتهم أمام عينيها وهي مستيقظة، وتحفل بعدها للحظات قليلة، وتشعر بألم خافت في رأسها، ثم تعود إلى حالتها الطبيعية. الأمر مختلف هذه المرة، كان الصداق يشبه دقات منتظمة، كأنه نقر غربانٍ يملأ رأسها ألماً وضجيجاً، بينما لا تعرف مصدر الخوف الذي يسيطر عليها.

حاول جدها أن يطمئنها وهو يذكرها بأن ذلك عطية من الله، وكأنها تمنح الخارجين من الحياة قدراً من الثبات، ليواجهوا به عالماً غامضاً لا يعرفون عنه شيئاً، احتضنها بشدة طالباً منها أن تتوقف عن البكاء وأن تشرب كوباً من الشاي الساخن "الأيرل جراي" الذي تحبه.

بحث "داود" في أدراجه عن أقراص مسكنة، محاولاً إخفاء اضطرابه، كان يعلم أن هذه الموهبة حلت عليها في الليلة التي قضتها مع والدتها داخل غرفة الشفاء بمعبد "موسى بن ميمون" بحارة اليهود، وأنها ترى فجأة صورة شخص تتمثل أمام عينيها، وبعدها بقليل يصلهم خبر وفاته.

تباينت مشاعره تجاه حفيدته، ولكنه لم يستطع أن يكرهها، وبرر لنفسه أنه يوماً سيغادر هذا العالم، ويتركها فريسة لرؤاها الغامضة، لاسيما أنها رفضت بشدة فكرة العلاج النفسي، وصرخت في وجهه، أنها ليست مجنونة وقادرة على اجتياز هذه الأزمة..

كانت تجلس بجانبه في غرفة الجلوس تراجع دروسها، ورأت أمام عينيها صورة أمها، وشعرت بصداع جعلها تبكى وتنادي عليها، وقتها طمأنها بأن أمها بخير، وسيذهبان لزيارتها في المستشفى، وقبل أن يستعدا للنزول، رن جرس التليفون، ليصله نبأ وفاة ابنته الوحيدة.

أفاق "داود" من ذكرياته البعيدة على صوت جرس التليفون، وتملكه الفزع الذي انتقلت عدواه إلى "مايا"، وهبت واقفة، وتناهى إليهما صوت الحاج حسين:

- رد على التليفون يا خواجه..

تعجب الرجل من وقوفهما كتمثالين، والدماء فرت من وجهيهما، والتقط الساعه، وتجهمت ملامحه، وناولها لـ"داود" المستند إلى الجدار خشية السقوط، وتحامل على نفسه، ليجد صوتاً غريباً آتياً إليه من الطرف الثاني:

- أنت الاستاذ "داود" ..

خرجت الكلمات من فمه متحشرة:

- أيوه "داود" ..

استمع وهو يومئ برأسه، واكتفى بكلمات نعم، فوراً، متشكر، وأنهى المكالمه، وهو يبحث عن مقعد يرتقي فوقه.

لم تكن صدمته في وفاة شقيقه، ولكن في الخوف الشديد الذي انتابه لوجود رجال الشرطة، والاشتباه في جريمة قتل، وشعر بنذير خطر يهدد حياته الآمنة التي عاشها مع حفيدته، فهي كل ما تبقى له في الحياة.

لم يكن في حاجة لإبلاغ "مايا" بفحوى المكالمات، فقد أدركت ما حدث بمجرد وضعه للسماعة. راقبته وهو يتحرك كأنه فاقد للوعي، توجه ناحية مكتبة ليمسك بحجر من الفيروز المصري القديم كان يصقله قبل مجيئها بعناية شديدة، ووضعه في الخزانة خلف مكتبه.

مد يده لتتعلق بها، ومشيا معاً في هدوء، وخلفهما صوت الحاج حسين متسائلاً:

- خير يا خواجه "داود" .. طمني ..

اكتفى بأن يلوح له بإشارة تعني أنه ذاهب، وظل الرجل يراقبهما حتى اختفيا عن نظريه.



عندما خرجا من شارع المعز، تمالك "داود" نفسه، ليسأل "مايا" إن كانت تستطيع قيادة السيارة حتى مصر الجديدة، أو مأت له برأسها وهى غارقة في أفكارها عن وفاة "يوسف" شقيق جدها غريب الأطوار، والذي احتفظ بديانته اليهودية ورفض الخروج من مصر، وسمعتة مرة يقول إنه لا يعرف له بلداً غيرها.

تذكرت أناقته الشديدة ولغته الفرنسية السليمة التي ينطقها كأهل باريس، وصقلها عمله لسنوات طويلة في مدرسة الراهبات الراقية، وأحيل منها إلى المعاش بعد عام 1967، ويعيش في عزلته الاختيارية بشقته الصغيرة بشارع رمسيس بالكوربة، ويقضي وقته في القراءة وسماع الموسيقى.

عندما أدرك أنه لم يعد قادراً على خدمة نفسه، قرر أن يقيم في دار المسنين الملحقة بالمعبد اليهودي بمصر الجديدة، حتى يجد من يرعاه دون أن يقتحم عليه

حياته، فهو لم يعتد على فكرة التعامل مع الغرباء، ولا تدري "مايا" سر عزوفه عن الزواج، ربما مرتجارب حب فاشلة، دفعته إلى أن يعيش وحيداً.

تذكرت زيارته المنتظمة في يوم الجمعة، وتبادلته الحديث مع جدها "داود" في أمور عامة، وأحوال الطقس والأسعار، وضيقة الشديده من تغير سلوك الناس، ومعالم الأماكن ونشاط المحلات التي عرفها طوال عمره، ثم يستغرق في صمت طويل، وكثيراً ما كانت تضبطه، وهو يلقي بنظرات لوم على جدها، ويخفيها بسرعة، إذا شعر بعيني "مايا" ترصدانه، ويطلق تنهيدة طويلة إيذاناً بالانصراف.

- انتبهي يا "مايا" للطريق..

قطع حبل أفكارها، صرخة جدها، والسيارة تخرق زحام شارع صلاح سالم.

بحثت "مايا" عن موقع لتترك فيه السيارة في شارع المسلة الضيق، الذي يقع في بدايته المعبد اليهودي، وما إن سارا عدة خطوات، حتى أدركا أن هناك أمراً غريباً يحيط بوفاة "يوسف"، وكانت سيارات الشرطة تملأ المكان، وبوابة الدار مفتوحة على مصراعها، ويقف أمامها عدد كبير من رجال الشرطة.

ألقت نظرة خاطفة على المبنى، واكتشفت ترميم دار المسنين الملحقة بالمعبد، لاحظت وجود أجهزة تكييف لم ترها أثناء زيارتها الأخيرة لجدها "يوسف". ضغطت بشدة على يد جدها "داود" حتى كادت أظفارها تنغرس في ذراعه، وهي تخطو معه داخل الدار.

الجدران البيضاء كانت محايده لا تفصح عن حكايات من سكنوا المكان، بينما عبت رائحة دخان السجائر الطابق الأرضي، وساد الترقب فور دخولهما،

ولاحقتها عيون رجال الشرطة، وأسرع قائدهم إليهما، وتخلص "داود" من قبضة حفيده بلطف، فهو يعرف جيداً رئيس مباحث مصر الجديدة، وتبادلا التحية وكلمات عزاء مقتضية.

ابتعد "داود" عن حفيده عدة خطوات، وسأل الضابط عن شقيقه، فأخبره بما حدث، وأن مفتش الأدلة الجنائية يقوم بعمله قبل نقل الجثة إلى المشرحة لمعرفة أسباب الوفاة، وأستأذنه أن يجيبه عن بعض الأسئلة المعتادة في مثل هذه الظروف..

- متى كانت آخر مرة شاهدت فيها مسيو "يوسف"؟
- آخر زيارة كانت من حوالي عشرين يوماً، وكنت أطمئن عليه بالتليفون..

- هل كان يشكو من متاعب صحية؟
- كان يعاني من أمراض الشيخوخة المعتادة التي لا تسمح له بالخروج..
- هل لاحظت شيئاً طراً عليه في زيارتك الأخيرة؟
- لا.. كان يتكلم ويضحك.. وأحضرت له كتباً ومقطوعات موسيقية طلبها مني..

- متى زارك آخر مرة؟
- "يوسف" لم يغادر الدار منذ عامين.. أعجزته عن الحركة خشونة ركبته والتهاب المفاصل..

اكتفى رئيس المباحث بهذا القدر من الأسئلة، وعزاه مرة أخرى، والتفت إلى "مروان" بيه الواقف عند أحد الأركان يراقب الجميع في هدوء، دون أن يتدخل في الحديث مع أحد.

تنبّهت "مايا" لوجود هذا الشخص، وشعرت أنه يراقبها بنظرات متفحصة،
مما أزعجها وزاد من اضطرابها وخرج صوتها متحشراً:
- ماذا تفعلون هنا وأين جثة جدي؟

اقترب منها "داود"، وطلب منها أن تهدأ، وأخبرها بما قاله له رئيس
المباحث، وفي تلك اللحظة كان "صالح" خادماً الدار يدلي بأقواله لضابط آخر
وهو يكي، ويتحدث عن الفقيده بصفه بالطيبة الشديدة، وأنه من المستحيل أن
يكون أحد قد دخل المكان، لاسيما أن عدداً من رجال الشرطة يقومون بالحراسة
على مدار اليوم، بجانب باب المعبد الملاصق للدار، ولا يمكن لأى غريب أن
يدخل دون أن يلاحظوه..

أصر الخادم أنه أثناء تواجدّه في السوق، ربما تعثر مسيو "يوسف" عند نزوله
إلى الطابق الأرضي، فلا أحد يتردد عليه سوى شقيقه "داود" وقرينه "إسحق".
ومنذ فترة طويلة زارته إحدى قريباته المقيّبات في الخارج، ولم تمكث معه إلا
ساعة تقريباً، وكانت تتحدث معه بالفرنسية طوال الوقت.

أصغت "مايا" لما يقوله الحارس، وأدركت ان الزائرة الأجنبية التي يقصدها
هى قريبتهم "أديرا" المقيمة في إنجلترا، وانتبهت إلى تدخل رئيس المباحث في
الحديث مع الحارس، ويشير له باتجاه السلم، ويسأله عن الحبل القماشى
المجدول الذي يحاذي أفريز السلم بامتداده، ويتدلى عنه قليلاً.

لاحظت "مايا" ان الرجل الذى كان يقف في الزاوية، اقترب منهم، وبدا
واضحاً انه يرغب في سماع إجابة الحارس، الذى قال إن المرحوم في الفترة
الأخيرة، زادت عليه آلام ركبتيه، ووجد صعوبه شديدة في هبوط السلم
وصعوده، فابتكر هذا الطريقة، وكان دائماً يقول له، إنها توفر ما تبقى من ركبتيه،
وقدرته على السير متكئاً على المشاية إلى الحمام، وأنه لم يكن يناقشه لكبر سنه،
وينفذ أوامره خوفاً من أن يغضبه.

انتبهت "مايا" إلى ديبب أقدام، وهرولة عدد من الرجال يدفعون أمامهم ترولى، وفوقه كيس أسود تقسمه سوستة ذهبية، وانتحى بعض الواقفين جانبا، حتى يمر الترولى ومن يدفعونه، وأسرعوا به، ليضعوه في جوف عربة الإسعاف الواقعة أمام باب المعبد.

أمر رئيس المباحث رجاله باقتياد خادم دار المسنين إلى قسم الشرطة، حين انتهاء التحقيق معه، وانهار "صالح" باكيا، وصرخ:

- أنا بريء.. حرام عليكم ..

تدريجياً عاد الهدوء إلى بهو دار المسنين، وتبادل رئيس المباحث التحية مع "مروان" بيه، وراقبه حتى خروجه من الباب، وانتبه إلى وجود "داود" وحفيده، فاقترب منهما، وعزاها مرة أخرى، وطلب من "داود" أن يأتي لزيارته في القسم، ليستكمل معه الحديث عن المرحوم "يوسف"، وأن عليهما الانصراف، لكي يتم إغلاق المكان حتى إتمام التحقيق.

لم يتبادلا كلمة واحدة طوال الطريق، وغرق كل منهما في أفكاره، وأدركا أن الأيام القادمة ستحمل لهما الكثير من المتاعب.

فتحت "مايا" باب الشقة، ولاحظت أن جدها يكاد يسقط من الإعياء، فساعدته حتى ألقى بجسده المتعب على المقعد، بينما جلست في مواجهته، لم تكن لديها رغبة في تبادل الحديث، وملأ صوت أنفاسهما أرجاء الريسبشن الكبير، فالأحداث تصاعدت بسرعة، ولا تترك لهما فرصة للتفكير الهادئ فيما سيفعلانه بعد استلام جثة فقيدهما القتل.

خفت حدة الصداع في رأسها، وأغمضت عينيها، وتركت جزءاً منها مفتوحاً، راقبت من خلاله جدها الذى بدا عليه الإعياء، ويتحاشى النظر إليها، هل هو خائف أن تصيبه هو الآخر بلعنتها، أم يفكر في صعوبة الانتهاء من

إجراءات الدفن، ف"يوسف" اليهودي لابد أن يشيع إلى مثواه الأخير بطقوس يهودية، وهم كعائلة مسلمة، سيكتفون بمراقبة المشهد الأخير في الصفوف الخلفية.

كان ترتيب الجنازة، واستدعاء حاخام من باريس ومعه عشرة يهود ليقموا عليه الصلاة، سيقع على عاهل رئيسة الطائفة اليهودية، وستتولى المهمة بالتنسيق مع "أديرا" ابنة "إبراهيم" الشقيق الأكبر لجدّها الذي هاجر وتوفى في فرنسا. أدركت أنها لابد أن تجرى اتصالاً مع "أديرا" المقيمة في لندن، ونظرت في ساعتها، وبلمحة خاطفة رأت أن فرق التوقيت مناسب لمهابتها.



تأهبت "أديرا" لانتهاؤ يوم عملها في بنك "باركليز"، وقامت من خلف مكتبها الأنيق، وأزاحت ستارة النافذة، وألقت نظرة خاطفة على الأمطار المنهمرة فوق السيارات والعابرين بمظلات ملونة، وشعرت بنشوة سرت في جسدها النحيل، وارتسمت ابتسامة خفيفة فوق شفثيها الغليظتين ولمعت عيناها الواسعتان محدقة في فضاء ضبابي، وسواء توارت خلف سياج رمادي.

كانت أشعة الشمس تصيبها بالتوتر، وكأن حرارتها ستنفذ إلى جلدها وتحرقها، وبدت للآخرين امرأة شديدة البأس، ولا تكثرث بأنوثتها، واستسلمت لأصابع حلاق سادي، ليقص شعرها الأحمر الطبيعي، ويعمل صبغة سوداء بين خصلاته الناعمة، ليضفي عليها طلة ذكورية.

جذبت جاكيت التاير الأزرق إلى أسفل، واطمأنت على أناقته، وألقت نظرة أخيرة على حذائها الأسود اللامع، وحملت حقيبة أوراقها واللاب توب، واستقلت المصعد لتهبط إلى الجراج.

لم تستغرق وقتاً طويلاً في الوصول لسيارتها، وبحركة معتادة وضعت حقيبتها وجهاز اللاب توب الذى لا يفارقها أبداً على المقعد الخلفى .

خرجت من الجراج متجاهلة ابتسامة الحارس، وانحناءته الخفيفة، ونظرت إلى المرأة الأمامية لترى الطريق من خلفها، وتوقفت عيناها للحظات على قسّمات وجهها، كأنها تراه لأول مرة، ولاحظت الخطوط الدقيقة حول عينيها وفمها، وإن كانت لم تؤثر على جمالها الذى ورثته عن أمها.

رن هاتفها، فألقت بنظرة سريعة على شاشته، لم تتأثر بصوت مايا الخافت، وهي تحمل لها خبر وفاة عمها "يوسف"، وردت عليها ببرود أنها سترتب أمورها، لتحضر مراسم الجنازة، وأنهت المكالمة بسرعة.

لم يكن هناك دفء في علاقتها بأقاربها المسلمين، فقد أصبحوا بالنسبة لها أغراباً مشوهين، بعد تخليهم عن دينهم بلا داع، واختياراتهم الغربية لحياتهم، وتنامي داخلها شعور بالازدراء ناحيتهم، ولا تحرص على إخفائه، ولكن مسألة سفرها إلى مصر، أمر ضروري لحضور جنازة عمها الذي تمسك بيهوديته حتى رحيله.

عادت إلى منزلها وتناولت عشاءها المعتاد في سكّون، ورتبت حجز الطائرة والفندق، وكان لديها فسحة من الوقت لتنظم عملها، وتبلغ مديرها بسفرها المفاجئ، واندست في فراشها لتستغرق في نوم عميق لا تتخلله الأحلام.

أنهت "مايا" مهمة الاتصال بـ"أديرا"، وشعرت بضيق شديد تجاه قريبتها، فهي استطاعت أن تلتقط نبرة الازدراء الخفية في صوتها، وعدم اكترائها بخبر وفاة عمها.

أَلقت بنظرة على جدها الذى كان منتبها للمكالمة ولم يعلق، وأكتفى بأن يذكرها بالاتصال بعمها "إسحق" الذى استقبل الخبر بمرحه المعهود:

- طبعاً أنتِ كنتِ عارفه..

تجاهلت "مايا" تعليقه، وطلبت منه أن يأتي ليساند جدها.

لم يستغرق قدوم "إسحق" سوى دقائق معدودة، تفصل مكتبته عن منزلها، قطعها سيراً على الأقدام، وهو يفكر في غربة وضعهم العائلي، ولم يخف ابتسامته داهمته، وتخيل وجودهم في الصفوف الخلفية في معبد "بن عزرا" عند إجراء مراسم الصلاة على "يوسف"، وتجاهل الحاخام والمصلين المستوردين من خارج العائلة، أن يشدوا على أيديهم، ويتممون بكلمات العزاء.

اتسعت ابتسامته، وتخيل وجود "أديرا" المتجهمه دائماً، والذى يعزو مظهرها إلى صدمة عاطفية أنقذت حبيبها المجهول من مصير سيئ كان ينتظره إذا عاش معها.

كان رنين جرس الباب الممتد إنذاراً بوصوله، وأشعر "مايا" بالارتياح، وأزال كثيراً من التوتر الذى لازمها منذ الصباح، وحين جلس "إسحق" على مقعد مقابل لهما، طلب منهما معرفة التفاصيل التى روتها له "مايا" بترتيب حدوثها.

طرح عليهما سؤالاً مفاجئاً عن تناولهما الطعام، فرفض "داود" الفكرة، واستأذن منهما للذهاب إلى غرفته ليسترىح قليلاً، رافقته "مايا" إلى غرفته، ثم عادت لتستغرق في حديث طويل مع عمها عن الجنازة وواجبات الحداد.

عاد "مروان" إلى مكتبه، وتوجه مباشرة إلى مكتب اللواء "عادل ياسين"، وأخبره بإيجاز عن حادث دار المسنين بمصر الجديدة، وأنه سيضمن تقريره كل

التفاصيل، وأن أمامه عملاً كثيراً، وأكثر ما يحتاج إلى معرفته هي قصة عائلة المتوفى الغربية.

قال "مروان" لرئيسه، إن المتوفى ينتمي لعائلة كبيرة من طائفة اليهود القرائين، وله شقيق يصغره بأربعة أعوام اعتنق الإسلام في منتصف الخمسينيات، وقريب آخر أعلنت أسرته إسلامها في الأربعينيات، وأفرادها لديهم ميول يسارية واضحة ومعلنة.

أفصح "مروان" أن لديه إحساساً قوياً، بأن هناك من يرغب في صنع مشهد غير حقيقى بدار المسنين، وأن وراء وفاة "يوسف" قصة ستسفر عن كشفها الأيام القادمة.

كان رئيسه يصغي إليه باهتمام، وطلب منه جمع المعلومات بدقة وهدوء، والبحث في ماضي عائلة "يوسف"، وكل العائلات المرتبطة بها، وأنه لا يرغب في القفز للوصول إلى نتائج، قد يترتب عليها أزمات دولية.

- أعتقد يا فندم أنني أحتاج لمعرفة الكثير عن تاريخ اليهود المصريين وتحديدًا طائفة "القرائين" حتى أصل إلى جذور عائلة يوسف الغربية..
ابتسم اللواء "عادل" مؤنباً "مروان" وقال:

- كيف تحتار وخالك شوكت من أكبر علماء التاريخ في مصر..
ابتسم "مروان" بدوره وقال:

- مع كل حبي لخالى ولكننى أتحسب لقاءه وخصوصاً إذا كنت في حاجة إلى معلومات منه، ولا بد أن أصبر على شطحاته، وأجيب على أسئلته الغربية التى دائماً ما يطرحها..

أردف "مروان" مقلداً خاله حين يقول "هل تشم رائحة المسك؟"

ضحك اللواء "عادل":

- أين أنت من الصوفيين أصحاب القلوب النقية واختراقهم عوالم خفية لا يقدر عليها أحد غيرهم..

اجتاز "مروان" الطريق الدائري عند نزلة المريوطية، وتدحرجت سيارته المرسيدس في الطريق الطويل المليء بالحفر والمطبات، وتقاظت السيارة حتى بوابة عزبة خاله الدكتور "شوكت سيف النصر" عالم التاريخ الإسلامي الشهير، والمعروف بغرابة أطواره.

فتح له الخفير مرحباً، وانطلق "مروان" بسرعة، ليعوض سيره البطيء طوال الطريق، وكان خاله في انتظاره على باب الفيلا، ومد له ذراعيه واحتضنه بقوة، واصطحبه إلى غرفة مكتبه، وأمر بصنع فنجانين من القهوة حتى يجين موعد الغداء..

أدرك أن زيارة ابن شقيقته لا بد أن يكون وراءها سبب، وليس مجرد رؤيته والاطمئنان عليه لكثرة مشاغله، وغرابة توقيت الزيارة.

حاول "مروان" المراوغة إلا أنه استسلم أمام نظرات خاله الحاسمة، وأخبره بحادثة وفاة اليهودي المسن، وأن كل الدلائل تشير إلى سقوطه من أعلى السلم، ولكن حاسته تشعر بأمر غريب، وأكثر ما يثير استغرابه هي عائلة الرجل المكونة من مسلمين ويهود وبها شيوعيون، وعمة هاجرت منذ سنوات طويلة إلى "سان فرانسيسكو" الأميركية، وتنصرت وتزوجت من مسيحي، وقطعت صلتها بعائلتها تماماً.

ابتسم الدكتور "شوكت"، وألقى برأسه إلى الخلف بحركة اعتاد عليها، كلما شعر بالإثارة، مسح يده على شعره الفضى الذي يقترب من كتفيه، وقال لمروان:

- أنا اتفهم حيرتك وألتمس لك العذر فأنت لم تعيش فترة مهمة في تاريخ مصر، كنت تجد فيها كل الثقافات والأديان والمذاهب والجنسيات.. كان هناك محفل بهائي في شارع الملكة نازلي المعروف حالياً بشارع رمسيس، وبالتحديد عند غمرة، ومحافل لمذهب شهود يهوه الذى ترفضه الكنيسة المصرية، وجالية أرمنية مازال بعض أفرادها موجودين، ويحملون الجنسية المصرية..

قطع حديث الدكتور "شوكت"، دخول الشغالة بصينية القهوة، وأوماً لها برأسه شاكراً، ثم تابع حديثه لـ "مروان" الذى كان يصغي باهتمام شديد، وبعد أن رشف خاله رشفة من فنجان، تابع قائلاً:

- اليهود عاشوا في مصر على فترات تاريخية مختلفة، ومن الطبيعي وجود كل تلك الثقافات والأديان، وأن تحدث حالة من التلامس الإنساني بين كل هؤلاء، وتهيمن عليهم جميعاً صراعات الحياة وأطماعها، والأعيب الساسة وخبثهم، ويتساقط ضحايا يشيعونهم بخطب رنانة..

توقف الدكتور "شوكت"، ليطمئن أن "مروان" يتابع حديثه، وكأنه يلقي محاضرة على تلاميذه، وأشار بسبابته إلى "مروان"، وتابع قائلاً:

- لا يمكن يا "مروان" أن تفصل القضية التى تهتك والعائلة التى تراها غريبة عن التاريخ البعيد، وامتداده بخيوط غير مرئية إلى الحاضر، فتشابك العلاقات الإنسانية مرتبط بالأحداث التاريخية، ومن أجل أن تعرف كيف تشابكت، لابد أن تعرف كيف بدأت قصة اليهود في مصر.. قفز الدكتور "شوكت" من فوق مقعده، و"مروان" يراقبه متوجساً، ويقول لنفسه: "ابتدأ الشغل".

بينما خاله، يقترب من مكتبته الضخمة، ويواصل محاضراته:

- القصة بدأت مع وصول النبي "يوسف" إلى هنا واستجلابه لقومه، وخروجهم منها مع نبي الله "موسى"، وكان ذلك هو الخروج الأول، وتواجدوا بعد ذلك في فترات حكم البطالمة والرومان الذين جاءوا معهم إلى مصر، كعبيد وفلاحين وجنود مرتزقة وأسرى حرب، وعاشوا هنا في هدوء واستقرار، ونشطوا في تشكيل الجاليات وتوفير البيئة المناسبة لحياتهم..

تحرك الدكتور "شوكت" مرة أخرى إلى مكتبه، و"مروان" يتابعه باهتمام، وفوجئ به يقول:

- إيه يا "مروان" مشربتش قهوتك ليه؟.

التقط "مروان" فنجان القهوة، ورشف منها رشقات سريعة، وباغته خاله مرة أخرى:

- إحنا وقفنا لحد فين؟.

رد "مروان" بسرعة:

- توقفنا عندما نشطوا في تشكيل الجاليات..

ابتسم الدكتور "شوكت"، وقال:

- آه مضبوط .. كانت الإسكندرية مكان إقامتهم الأولى، وبنوا فيها معبداً كبيراً، ورغم كل ما تراه الآن من عدااء وحروب يحركها الصهاينة اليهود من مقاعدهم الخفية خلف الكواليس، إلا أنهم لم يعرفوا الأمان الحقيقي إلا بعد الفتح الإسلامي لمصر، ازدادت آنذاك الهجرات اليهودية إليها نتيجة تحسن أوضاعهم، فقد أصبحوا في مصر "أهل ذمة" بعد أن كانوا أقلية منبوذة تحت الحكم البيزنطي.

وخلال القرون الثلاثة التى أعقبت الفتح الإسلامى، توافدت هجرات يهودية متعددة من شرق العالم الإسلامى، لتستقر فى منطقة حوض البحر المتوسط، واستوطن معظمهم مصر فى جو من الحرية والتسامح، وأتاح لهم فرصاً هائلة للمشاركة فى النشاط الاقتصادى..

رن هاتف "مروان" ليقطع انتباهه، وصمت الدكتور "شوكت" منتظراً أن ينهى مكالمته التى رد عليها بسرعة، فقد ظهر رقم النقيب "خالد المنزلاوي" الذى يعمل معه فى قسم النشاط اليهودى، ليعلمه بأن "أديرا إبراهيم نقاش" قامت بحجز طيران وفندق، استعداداً لقدموها وحضور جنازة عمها "يوسف"، وعلق "مروان" بضرورة المتابعة بدقة، وأنهى المكالمة، ونظر إلى خاله ليستكمل محاضراته المهمة..

استغرق الدكتور "شوكت" فى التفكير، ثبت نظره على "مروان" متفحصاً وجهه بهدوء، وسأله وهو يملأ صدره بنفس عميق مستنشقاً الهواء من حوله:

- هل تشم رائحة المسك؟

تلفت "مروان" حوله متعجباً، ليجيبه مبتسماً:

- أين هى تلك الرائحة؟

اتسعت ابتسامة الدكتور "شوكت"، وأشار له بيده ألا يهتم، ليواصل حديثه عن حكاية اليهود فى مصر:

- كل المصادر التاريخية أشارت إلى أن يهود مصر، لم يعيشوا فى "جيتو"

مثل ما كان يعيش أقراهم فى دول أوروبا طوال العصور الوسطى،

فالمجتمع المصرى الإسلامى لم يعزلهم باعتبارهم أقلية منبوذة..

مارس اليهود كل أنواع الأنشطة التجارية والثقافية، واقتحموا مجالات

التعليم والطب والمهن الحرفية والسياسية أيضاً، وكان منهم الوزراء

والمستشارون، وأتيح لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية وعاداتهم، وكانت لهم مدارسهم الدينية الملحقة بالمعابد، وجمعياتهم الخيرية..

كانت السلطة الإسلامية في مصر تصدر مراسيم لتعيين زعماء الطائفة بناء على انتخاب أبنائها لهم، وبذلك كانوا يتبوأون مناصبهم، وقد أكدت هذه المراسيم الحقوق الإدارية والدينية التي بلورتها وأقرتها التقاليد المتوارثة في حياة الطائفة اليهودية.

ومن المعروف تاريخياً، أنه وفد على مصر في العصر الطولوني أعداد كبيرة من يهود "فارس"، الذين كانوا يعملون في تجارة الشرق عبر الخليج العربي، بسبب تعطل هذه الطريق، وعودة تجارة الشرق إلى طريقها الأولى، وأشارت وثائق "الجنيزه" إلى بعض الأسماء الخاصة بهؤلاء التجار الذين نزحوا إلى مصر في القرن التاسع الميلادي من العراق وإيران وبلاد ما وراء النهرين، كما يفهم من ألقابهم التي نجد من بينها السمرقندي، والنيسابوري، والتستري، والبغدادى، والبصري ..

وجاء بعد ذلك عدد كبير من أتباع "عنان بن داود" مؤسس طائفة القرائين إلى مصر واستقروا بها، وسأشرح لك من هم القرائون في وقت آخر إذا سمحت الظروف.

قال "مروان":

- أنا مهتم جداً بمعرفتهم، فالعائلة التى أتقصى عنها يتتبعون لتلك الطائفة، ومن الواضح أنني لابد وأن أقرأ عنهم .. وكلام حضرتك فتح لي أبواباً...

أشار له خاله كي يصمت، وقام متوجهاً ناحية مكتبته، واستغرق في البحث عن كتاب بعينه، ولاحقه تعليق "مروان" مازحاً:

- كنت أتصور يا خالي أنك قضيت عمرك كله مع الكتب، وحفظتها صم، ولا تحتاج للعودة إليها.. ثم أردف وهو يغمز بعينه:
- حتى أنها جعلتك تنسى النساء..

نظر إليه خاله بعمق وقال له:

- يا بنى من قال أنا عالم فهو جاهل، كما قال عمر بن الخطاب، ودائماً أبحث عن تأكيد معلومة أكون قرأتها يوماً من الأيام، وأنا أحدثك عن مراسم تعيين زعماء الطائفة اليهودية في مصر، تذكرت ما جاءت به الدكتورة محاسن محمد الوقاد في كتابها "اليهود في مصر المملوكية" وفيه تفاصيل وافية عن منصب "الناجيد" وهو منصب زعيم الطائفة اليهودية في مصر.

فتح الكتاب على الصفحة التي يريدها، وبدأ يقرأ لـ"مروان":

(كان رئيس اليهود يمثل الوساطة ما بين الدولة ورعاياها من اليهود، ونشأت هذه الوظيفة في الأندلس، وانتقلت إلى مصر منذ العصر الفاطمي، كان "الناجيد" له واجبات وحقوق تماثل واجبات رئيس الطائفة اليهودية في بابل، وكان مسئولاً عن اليهود بكل طوائفهم "الربانيين والقرائين والسامريين" وجرت العادة أن تمنح هذه الوظيفة للربانيين فقط. وكان من أبرز اختصاصاته الإشراف على النشاط الديني وشئون الزواج والطلاق، وعلى سلوك اليهود الديني والأخلاقي، بما في ذلك تصرفاتهم إزاء المسلمين..

وفي زمن الدولة المملوكية تم إلزام "الناجيد" بمهمة تعيين أحد المرموقين لرئاسة القرائين، فضلاً عن تعيين رئيس طائفة السامرة، واستمرت هذه الوظيفة طوال العصرين الفاطمي والأيوبي، ومنه انتقلت إلى العصر المملوكي).

تابع الدكتور "شوكت" وهو يعيد الكتاب إلى مكانه:

- تؤكد وثائق التاريخ على حرية اليهود في مصر الإسلامية، فبعضهم تقلد الوزاره مثل "أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن طرون بن داود بن كلس" الذي لعب دوراً بارزاً في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز، فارتفع شأنه وذاع صيته، وفي عام 363 هجرية، عهد إليه المعز بولاية الخراج وجميع وجوه الحسبه والمواريث.

وفي ولاية العزيز بالله أمر بأن يكون لقبه الوزير الأجل، وألا يخاطبه أحد إلا بهذا اللقب، وطبعاً كان وراء لجوء حكام الدولة الفاطمية الشيعية للاستعانة باليهود أسباب سياسية في المقام الأول، فهم كانوا لا يطمثون لأهل البلاد من "السنة".

وقد صور لنا أحد شعراء العصر الفاطمي، ازدياد نفوذ اليهود زمن الدولة الفاطمية، ومدى اتساع نفوذهم في صورة هزلية دعا فيها إلى اعتناق اليهودية، مادام أنها أقرب وسيلة للوصول إلى السلطان والنفوذ قال فيها:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر أني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

ولا تعني تلك الأبيات أن اليهود كانوا دائماً موضع عناية وتكريم من الأسر المتعاقبة على حكم مصر، فقد قالها الشاعر في فترة حكم الفاطميين العصر الذهبي لهم، ما عدا فترة "الحاكم بأمر الله" الذي عانى منه الجميع ومن بينهم اليهود، فكثيراً ما تعرضوا لأزمات، ففي عام 869 م أمر "أحمد بن طولون" بتدمير قبور اليهود والنصارى، ليقيم فوقها عاصمته الجديدة "القطائع" وفي عام 908 م أمر الخليفة العباسي "المقتدر"، بألا يُستخدم أحد من اليهود والنصارى

إلا في الطب والجهذة أى أعمال الصيرفة، كما ألزمهم بلبس ثوب يميزهم عن المسلمين ..

اندماج اليهود في المجتمع المصري كان اندماجاً نسجته الأيام، وساهم في إتمامه طبيعة الإنسان المصري المتسامح بالفطرة التي تمنحه فضيلة احترام عقائد الآخرين، وجعلته يتعامل مع الغرباء الوافدين عليه بحس حضاري وإنساني، مكنه من استيعاب المهاجرين إليه من اليهود الذين وفدوا من أعراق مختلفة ..

بعد سقوط دولة الأندلس التى كان يعيش فيها اليهود بحرية كاملة، وقعوا تحت مقصلة محاكم التفتيش التي كانت تجبرهم على التنصر، وتطاردهم بعد ذلك، وتفتش حتى في مشاعرهم لتكمل بهم ومعهم المسلمون في أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ الإنسانية ..

وشهدت المجتمعات العربية هجرات جماعية إليها من اليهود الهاربين من القتل إلى الأمان، وتوافدت هجرات منهم إلى الأراضي العثمانية، ومنها مصر، وأطلق عليهم "الطائفة السفاردية" أو "السفارديم" وتزايدت أعدادهم في مصر مع ازدهار تجارة القطن في الستينيات من القرن التاسع عشر، وافتتاح قناة السويس، وكان السفارديم يشكلون أكثر العناصر البارزة في الصفوة الاجتماعية والتجارية اليهودية.

أما الطائفة الأشكينازية "يهود أوروبا" وأكثرهم من أوروبا الشرقية، فكلهم جاءوا إلى مصر في العصر الحديث هاربين من الاضطهاد في القرن التاسع عشر، وبداية من عام 1865، وحافظ "أشكيناز القاهرة" على تنظيم طائفي منفصل، وكانوا يعيشون في منطقة "درب البرابرة" يتحدثون باللغة "الياديشية" وهى لغة عبرية ألمانية، وكانت لغة حديثهم في الشوارع حتى خمسينيات القرن العشرين، وكوّنوا فرقة مسرحية، وبرنامج في الإذاعة الحكومية المصرية يذاع باللغة

اليادشية، وكان أبناء طائفة السفارديم ينظرون بازدراء إلى الأشكينايز، ويعتبرونهم أقل منهم اجتماعياً.

انتهز "مروان" فرصة توقف خاله عن الحديث ليتناول رشفة ماء، وقال:

- ولكن الوضع انقلب بعد تأسيس إسرائيل ليحتل الأشكينايز المكانة الاجتماعية الأرفع هناك.

أوماً الدكتور "شوكت" برأسه:

- هذا صحيح..

قطع رنين هاتف "مروان" الحديث مرة أخرى، وأبلغه النقيب "خالد" بأن "عمر النواوي" الصحفي بموقع "الحدث" الشهير، موجود أمام دار المسنين، ويجمع معلومات عن وفاة "يوسف"، فرد "مروان" بأن يتركوه يجمع ما يريد من سكان المنطقة، ولا يُسمح له بدخول دار المسنين، وأن يتصل برئيس مباحث قسم مصر الجديدة، ليطلب منه عدم الإدلاء بأى معلومات عن وفاة "يوسف"، ويقتصر على أنه رجل مسن توفي..

أنهى "مروان" المكالمة، ليجد أنه استغرق وقتاً طويلاً مع خاله، ولم يصل إلى المعلومات التي يريدها، وإن كان السرد التاريخي ليهود مصر مهما..

وقف "مروان" معتذراً لخاله، بأنه لابد أن ينصرف، لارتباطه بمواعيد عمل، وأبدى الدكتور "شوكت" ضيقة، فهو قد أمر بإعداد الغداء لهما.. اعتذر "مروان"، وهم بالانصراف، فطلب منه الدكتور "شوكت" أن ينتظر قليلاً، ليحضر له بعض الكتب التي تشرح من هم القرائون ووجودهم في مصر، وحملها "مروان"، وتوجه مسرعاً ناحية سيارته، بعد أن وعده خاله بأنه سيزورهم قريباً لرؤية شقيقته.

أثناء اقتياده للسيارة، عائدًا إلى مكتبه بجهاز الأمن الوطني، فكر "مروان" في الضجة التي ستحدث، حين تنشر الصحف ووسائل الإعلام خبر وفاة "يوسف"، والتي تشابك خيوطها بين الاجتماعي والسياسي، لاسيما أن الاشتباه قائماً في وقوع جريمة قتل، فالمتوفى يهودي وله عائلة في مصر من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام.

عاد هاتفه إلى الرنين، ليظهر رقم والدته التي اعتادت أن تسأله في بداية حديثها:

- أنت بخير..

رد عليها ضاحكاً:

- الحمد لله كنت عند خالي ووعدني أن يزورك قريباً..

لم تعلق لأنها أدركت أن وراء الزيارة أمراً يرتبط بعمله، وكعاداته سيتحفظ في الإفصاح عنه، فسألته عن موعد عودته، فقال لها إنه قد يتأخر، وطلب منها أن تتناول طعامها ولا تنتظره.

كان يشعر تجاه والدته بحب عميق واحترام شديد، فقد وهبت حياتها له، ورفضت أن تتزوج بعد وفاة والده، وابتسم وهو يتذكر كل مؤامرتها المكشوفة، لتزويجه بتدبير لقاءات مع فتيات جميلات هن بنات صديقاتها التي تدبر معهن مخططات تزويجه.

وصل "عمر السيد النواوي" إلى قسم مصر الجديدة، وطلب لقاء رئيس المباحث، فأشار له أمين شرطة أن ينتظر قليلاً، فجلس يتابع على هاتفه مواقع الإنترنت الإخبارية، وهو يشعر بتوتر شديد أن يضيع منه السبق الصحفي.

كان مصدره داخل القسم، قد أخبره بوصول بلاغ عن وفاة يهودى داخل دار مسنين ملحقة بالمعبد اليهودي بمصر الجديدة، فتحرك بسرعة متوجهاً للدار، ولم يستطع الدخول بعد انصراف الشرطة، ونجح في جمع معلومات من الجيران عن "يوسف" وعمله كمدرس، وسبب إقامته في الدار، لكن حاسته الصحفية أرشدته إلى أن وراء الوفاة قصة مثيرة، خصوصاً أن المتوفى له عائلة في مصر.

أخرجه نداء أمين الشرطة من افكاره، وطلب منه أن يتبعه لمكتب رئيس المباحث، واستقبله الأخير مرحباً، فلم تكن تلك المرة الأولى التي يقابله فيها، وطلب له فنجان قهوة، ودخل مباشرة في موضوع وفاة "يوسف"، وأخبر "عمر" بعدم وجود مؤشرات عن حدوث أمر غير طبيعي، فهو رجل مسن تعثر أثناء محاولته نزول السلم ولا يوجد له أعداء.

طلب "عمر" أرقام تليفونات أقاربه في مصر ليتصل بهم، فاعتذر رئيس المباحث لأنه لا يعرفها، فأدرك الصحفي أنه لن يحصل على معلومات أخرى منه، فشكره وانصرف.

كان أمامه عمل كثير، بعد أن يقوم بنشر الخبر، ومهمة البحث عن عائلة "يوسف"، معتمداً على نفسه، وفي الأيام العادية، لم يكن بحاجة للعودة إلى مكتبه، ليكتب خبراً، ولكن وفاة اليهودي العجوز، تحتاج منه إلى جمع أكبر قدر من المعلومات، ولم يكن لديه وقت يضيعه في الترتبة مع زملائه، وانكب على الكتابة لينفرد بالسبق، وتنقله عنه الصحف والمواقع الإخبارية الأخرى، ويتحول خبر الوفاة إلى عناوين مثيرة عن سر جريمة المعبد.

احتلت العناوين المثيرة مكاناً بارزاً في معظم الصحف، عن وفاة اليهودي "يوسف نسيم نقاش"، مما أثار غضب "مروان" لتناول الأمر بمثل هذه الطريقة، وإعاقة استكمال التحريات حول الحادث، وقال لمساعدته خالد:

- لا أريد أحداً أن يتحدث مع أى صحفي حتى تنتهى القضية ويصدر تقرير الوفاة من الطب الشرعى وخصوصاً مع أطباء المصلحة..



لم يكن مروان ضابط الأمن الوطني، هو الغاضب الوحيد، فقد شعرت "مايا" بالضيق الشديد، بعد قراءتها لتلميحات تشير إلى وقوع جريمة قتل، وبدا الأمر ككابوس لن تفيق منه إلا بعد انتهاء مراسم جنازة جدها "يوسف"، وحاولت أن تطرد عن رأسها فكرة أنها القاتلة الحقيقية، ولولا هذا الحلم المشؤم، لحدث شيء آخر، وتحلصت من هذا الارتباك الذي يعصف باتزانها، ويحملها أوجاعاً لا تقوى على احتماها..

انتهت إلى صوت جدها الهادئ، وكأنه يقرأ أفكارها وشعورها الجارف بالذنب، وقد حاول أن يطمئنها، فهو مثلها قرأ الجريدة، ومن الطبيعي أن تثير وفاة يهودى عجوز شهية الصحفيين، لقلّة عددهم فى مصر، فهم حوالي سبع نساء ورجل يتوزعون بين القاهرة والإسكندرية..

استراحت "مايا" قليلاً لملاحظة جدها، وأدركت أنه يتعامل مع الأمر بحكمته المعهودة، وشجعته لأن تحدّثه عن مخاوفها من مطاردة الصحفيين لهم، أو تعرضهم لمضايقات من الأمن، فأكد لها أن الأيام المقبلة لابد أن تكون مختلفة، وطلب منها ألا تنسى أنها ابنة لعائلة مسلمة أباً عن جد، ولم تنجح محاولاته فى إزالة توترها، بل جعلتها تغرق فى موجات من الأفكار العاصفة.

- 3 -

الساحر

جز "عوض" على أسنانه، كعادته كلما أحس بمواجهة خطر قادم، وهبط السلم الخشبي إلى الدور الأول من فيلته القديمة بشبرا، وتناهى إليه صوت ابنته "داليا" تصرخ في أمها:

- خلاص صحيت..

كانت "داليا" تجر قدميها متعمدة إزعاجه، ولم يفتها أن تسخر منه قبل دخولها إلى المطبخ:

- إيه الثقافة دى كلها؟

لم يلتفت إليها، وهو يجلس فوق مقعد في ركن الأنترية الذي يستقبل فيه ضيوفه، ويمسك بالصحيفة التي اشتراها بالأمس، وأجل قراءتها إلى الصباح، وظل يقلب صفحاتها، حتى وقع نظره على خبر وفاة يهودي في دار مسنين، قرأ السطور باهتمام، وساوره القلق بعد أن صدم عينيه اسم المتوفى، والتلميح إلى أن وفاته يكتنفها الغموض.

رفع رأسه من فوق الصحيفة، ليجد أمامه زوجته الأولى "شادية" غريبة الأطوار، سارع بنهرها قائلاً:

- إنت مش حتبطلي تتسحبي زي الثعبان؟

لم تعره انتباهاً، وأكملت سيرها إلى المطبخ، وهى تحمل منفضة مليئة بأعقاب السجائر، فشيّعها "عوض" بنظراته، وقال خفياً ابتسامته:

- يا هبلة.. يا مجنونة..

كان يشعر بلذة شديدة، وهو يصفها بالجنون، فقد كانت الكائن الوحيد على وجه الأرض الذي يشعره بالخوف، وهو الرجل الذي يمارس السحر، ويتحكم في الجان والمردة، ويلقى بنفسه في مغامرات مخيفة لا يهتز قلبه أمامها.

ظل يراقبها وهى ترتب الغرفة، وتنفض وسائد طاقم الأنتريه القديم الحالك، وتكاد أن تلامس الأرض برأسها، وكأنها كائن فضائي اخترق الغلاف الأرضي.

شعر برغبة شديدة في السخرية منها وإهانتها كعادته، سألها متهمكاً، إذا كانت تشرب الآن دم الوطاويط التي تربيتها في الغرفة الخاصة بالبواب خارج الفيلا، وقبل أن تجيبه، وقفت خلفه ابنته "داليا"، وتولت الإجابة بحدة:

- ماذا تريد من زوجة ساحر يعاشر الجان.. من الممكن أن يحولها دم الوطاويط إلى المرأة الوطاواط حتى تساعدك فى أعمالك.

بادرها بقوله:

- الشيء الوحيد الذى ينقذك مني أنك ابنتي وإلا كنت حولتك إلى قرد..

قالت له ساخرة وهى صاعدة إلى غرفتها:

- لا تغضب فقد حولتنى إلى مسخ مشوه لا حظَّ له فى الدنيا..

شعر "عوض" بالغضب الشديد، وجرى خلفها فوق السلم الخشبي الآيل للسقوط، والذي ارتج بشدة تحت وطء أقدامها، وأغلقت "داليا" باب غرفتها فى وجهه، فتوجه إلى غرفة زوجته الثانية، وهو يطلق سيلا من السباب، واستقبلته "سحر" بضحكة رنانة، وقالت:

- هو موال كل يوم ده مش حيخلص..

تهادت أمامه وجلست أمام المرأة، وهو يتفحص بنظلوها الضيق وبلوزتها التي تكشف عن صدرها العارم وتصل لمنتصف بطنها المكتنز، ولاحقها صراخه:

- فوقى أنت كمان وإلبسي الي يناسب سنك .. وانسي إنك كنتِ رقاصة..

تجاهلت تعليقاته كعادتها، واستدارت لمواجهته، وهو جالس على طرف السرير:

- أنت نسيت إنك حفيت ورايا علشان تتجوزني..

التقطت "داليا" الكلمة الأخيرة لزوجة أبيها، وهي تستعد للذهاب إلى كليتها، وأطلت برأسها من باب الغرفة، وقالت:

- لا تنسي أنك رقم 19 في قائمة زوجاته..

هم "عوض" ليلحق بها، ولكنها أطلقت ساقها لتختفي من أمامه، بينما استقبلته "سحر" مرة أخرى بضحكاتها الرنانة، فصنع الباب خلفه، وهبط السلم متجنباً النظر إلى زوجته "شادية" التي تمددت على الأرض، وأدخلت رأسها أسفل أحد المقاعد.

خرج من باب الفيلا القديمة، وكاد يتعثر في كومة طوب بالممر الضيق، والموصل إلى الباب الحديدي، غمغم "عوض" لاعناً زوجته، وهو ينحني على الأرض، ليلتقط حجراً، وقذف به صوب غرفة الوطاويط الخشبية..

انتابه شعور بالسعادة، حين استمع لاضطراب الوطاويط وتخطتها في الظلام، وألقى بنظراته للخلف، فرأى "شادية" تراقبه من النافذة، والتقت عيناه بعينيها التي تنظران إليه بخواء، فلوح لها مبتسماً:

- سلام يا هبله..

بحث عن سيارته "اللانسر موديل الكريستالة" التي لا يرغب في تغييرها، رغم محاولات "داليا" ابنته أن تدفعه لشراء سيارة فارهة، ولم تنس أن تعقب ذلك بقولها:

- حتى تستمتع بجزء من مالك الحرام..

كان يرد عليها بأن تشتري هي ما تريده من أموال أمها التي تتاجر في دماء
الوطاويط، وتربيتها وتذبحها وتصفى دمائها في زجاجات، وتبيعها لمراكز
التجميل التي تخصص خبيرة لديها في "وطوطة" الفتيات حديثات الولادة.

اخترق "عوض" شارع شبرا الرئيسى، متجهاً ناحية شارع الجلاء المزدحم،
حتى وصل إلى ميدان التحرير قاصداً باب اللوق، ليركن سيارته في الجراج الذى
يتوسط الشارع، وترجل قاصداً شارع هدى شعراوي بمنطقة وسط القاهرة،
حيث يقع محل الأنثيكات الذى ورثه عن والده، وهناك رأى "مجدى" مساعده
يجلس فوق الرصيف، وينتظر قدومه ليفتح أقفال المحل بثقل، ويتأوه من آلام
ظهره، ويترك لمجدي مهمة رفع الباب الصاج.

دخل "عوض" المحل يتلمس طريقه بحذره المعتاد، ليمر من بين قطع
الأثاث المترصة، وفوقها فازات كريستال ولمباديرات وقطع خزفية وتماثيل
برونزية، حتى وصل إلى مكتبه، وألقى بجسده على مقعد من جلد الكابوتينيه.

اصطدمت عيناه بصورته المنعكسة في مرآة إطارها من النحاس القديم
المشغول، لتعكس القطعة الفنية شديدة الجمال، قبح ودمامة وجهه النحيف،
وعينه الضيقتين، وأنفه الضخم، وأسنانه البارزة، كأنه جردُ جائع.

تفحص "عوض" رأسه أمام المرآة، اكتشف ظهور جذور شعره البيضاء،
وإزاحتها للون الصبغة البني، وحاول أن يحرك شعره في اتجاهات متفرقة، وتنهّد
مبتسماً، ولمعت عيناه وهو يتملى ملامحه القبيحة، وكيف أنها لم تكن عائقاً أمام
تعلق النساء به، وفقدانهن لصوابهن بمجرد أن يلقي بشباكه حولهن.

نفض عن رأسه أفكاره الصبيانية، ودس يده في جيبه باحثاً عن تليفونه،
ليتصل بصديقه وشريكه "جمال"، وطلب منه أن يأتي إلي المحل على وجه
السرعة.

أغلق التليفون ووضع في درج المكتب، وجال بعينه في المكان المزدحم بالأثاث والأنتيكات، متأملاً الجدران المُرصّعة بتشكيلة من التابلوهات الزيتية بمختلف المقاسات، وموزعة بشكل عشوائي، بينما تتدل من السقف مجموعة من النجف متفاوتة الأحجام، وتمايل من بعضها قطع من الكريستال انطفأت لمعتها تحت طبقات كثيفة من الأتربة.

تذكر أن هناك كثيراً من القطع لم تتحرك من مكانها منذ وفاة والده الذي علمه أسرار وفنون الأنتيكات وتجارة الآثار، والتي كانت مشروعة في مصر حتى بداية الثمانينيات.



ألقى "عوض" برأسه على مسند الكرسي الجلدي، وثبت عينيه على أشعة الشمس التي تأبى أن تعبر الباب، وعادت ذاكرته أربعين عاماً مضت. كان والده واحداً من كبار تجار الآثار في مصر، ووصل إلى تلك المكانة من خلال علاقته بعدد كبير من عائلات الصعيد، وكانوا يتولون جمع الآثار وبيعها له، وخصوصاً التماثيل والحلى الذهبية.

تذكر عندما دخل من نفس الباب الحاج "علي السوهاجي"، حاملاً بين يديه صندوقاً خشبياً كبيراً، وضعه أمام والده ليخرج منه قطعاً أثرية، والتقط صندوقاً صغيراً من الرخام الأبيض، وفتحه ليجد تماثيل صغيرة لقردة ونساء مكتوفات الأيدي ورجال مقيدون من الخلف، ومنقوشاً على ظهور التماثيل تعاويد باللغة "الهيروغليفية"، وتجاورها تماثيل لنساء يمسكن بثعابين ملتوية، وقطع نحيفة من العاج على شكل هلال عليها كتابات قديمة.

وقتها ألقى والده عليها نظرة سريعة، ولم يبد أي اهتمام بها، وانهمك في مساومات طويلة مع التاجر الصعيدى، وبعدما اتفق معه على السعر، استأذن منه ليحضر له النقود من المنزل، وطارده صوت التاجر:

- والصندوق الرخام يا حاج ؟

تذكر "عوض" كلمات والده بوضوح وهو يجيب على التاجر:

- أنت عارف إن ده مش شغلي ..

أثارت الكلمات فضوله لينظر بشغف داخل الصندوق، ويمد يده قابضاً على تمثال القرد.

لوهلة شعر أنه تحول لتمثالٍ مثلها قابع في أحد أركان الصندوق، ويتخبط بين جدران محاولاً الفرار من بين الثعابين وعيون التماثيل التي تحاول أن تبتلعه، ليسقط إلى هاوية بئر عميقة ولا يصل إلى القاع.

انتشله صوت التاجر الصعيدي من البئر التي كادت تبتلعه قائلاً:

- أنت أكيد واحد منهم..

لم يلق بالاً إلى كلماته، كان يشعر بجسده وقد تصلب من البرودة الشديدة، وتنسحب ببطء من أوصاله، ليحل بدلاً منها دفء أعاده إلى الحياة مرة أخرى، التفت للتاجر وهو يحاول أن يتحكم في جسده المرتجف، كأنه غصن وليد بشجرة تقف في وجه عاصفة.

تنبه إلى نظرات الحاج "علي" الفاحصة تراقبه بدقة، بينما يعبث بشاربه بهدوء

شديد، وقال:

- الأمر صدر وعليك التنفيذ.. ولا بد أن تسير على الطريق..

لم ينتظر من "عوض" أن يسأل، واستمر في حديثه:

- التماثيل التي بداخل الصندوق عمرها أكثر من أربعة آلاف عام، والمكتوب عليها طلسم سحرية، كان يستخدمها الكهنة من السحرة، ولا يمكن أن يشعر بها إلا من يسكنه شيطان، فمنذ أخرجناها من المقبرة فتح كثيرون الصندوق وأمسكوا بالتماثيل، ولم يحدث لهم ما

حدث معك الآن، هم عرفوك وأنت الآن عرفت طريقك الذى ستسير فيه، فابحث عمن يعلمك الفن القديم، لا يوجد أفضل من "ابن ودنان" أشهر ساحر فى الصعيد، يعيش فى نجع الكرامات بقرية الغربا بسوهاج فى بيت حجري صغير منعزل عن القرية، ومقام على جرف عالٍ للنيل تحجبه عن الرؤية "سنطة فلينا" ..

استرسل الحاج "علي" فى الحديث مستحوذاً على حواس "عوض":

- والسنطة ياولدي شجرة وارفة تبسط أغصانها فى الهواء الدافئ، تلتقط النسيمات التى يجود بها النيل، لتتسع أغصانها فتستر على السائرين فوق الجسر، كما سترت من قبل على حاملي "المقطف" الذى تكور فيه جسد "فلينا"، الفتاة القبطية التى ذبحها أهلها بعد أن سمعوا ولم يعرفوا أن سيرها بطل، وأن حقول الذرة شهدت مغامراتها مع شباب من القرية لم يصل إليهم أحد..

كان انطلاق الشائعة كافياً لذبحها ووضعها فى المقطف الخوص المحمول بين أيدي شقيقها، وتتفرض بداخله فيكاد يقع ليكشف جسدها المتكور، كانت اختلاجات جسدها تهبهم القوة فيسرعون بحملهم متوجهين ناحية "السنطة" الوارفة فوق الجرف العالى، ويؤرجحونه للأمام والخلف حتى يرسلونها فى ضريحها الخوصي إلى منطقة بعيدة فى النيل، وشاهدوها وهى تسقط بسرعة متجهة ناحية القاع، مخلفة وراءها دوائر متسعة، وتضيق كلما اقترب ضريحها من القاع.

مضت أيام قليلة، وذاع فى القرية أن شبح "فلينا" يقف تحت "السنطة" يبكى وينتحب، وأنه سينتقم ممن ظلموها .. تسرب الخوف فى نفوس أهل القرية،

وتجنبوا المرور من أمام "السنطة" وهرب أهل الفتاة من البلدة خشية من انتقامها..

صارت الأمهات يهددن أطفالهن بالذهاب إلى "سنطة فلينا" إن لم يسمعن كلامهن، وتجنب الجميع ظلها الوارف، وأقسم بعضهم أنهم شاهدوا "فلينا" تجلس في ظلها، وهى تمشط شعرها الأشقر الطويل..

ظل المكان مهجوراً لسنوات طويلة حتى جاءه "ابن ودنان" الذى كان يعيش بالقرب من المقابر، وبني بيتاً من الحجر ليستقر هناك، وأقسم بعض أهالي القرية أنهم استمعوا لأصوات تتحدث من داخل بيت "ودنان" بلغات أجنبية، ورأوا نيراناً تندلع ولا تحرق، وسمعوا أنات بشرية وبكاء وصرخات يشيب لها الولدان..

تدفقت الحكاية على لسان الحاج "علي السوهاجي"، بينما "عوض" ينصت إليه، وقد تحول إلى تمثال من الحجر:

- وفى يوم وجدت "ابن ودنان" يدق على باب منزلي، وعقد معي اتفاقاً، بأنه سيدلني على أماكن مقابر فرعونية، بشرط أن يدخلها معي، ليحضر أوراق بردى ولفائف تحمل أسرار سحر الفراعنة وتماثيل وقطعاً من العاج والخشب عليها طلاسـم سحرية، ونفذت اتفاقى معه، وكان يحصل على ما يريد به بنفسه، ويتركنى أحصل على باقى "اللقية" ..

توقف التاجر الصعيدى عن الكلام، فور دخول والد "عوض"، الذى أعطاه مبلغاً من المال، فـدسه في جيبه دون أن يعده، وقبل أن ينصرف نظر إلى "عوض" قائلاً:

- يا ولدى الصندوق ده هدية مني ..

حاول والد "عوض" أن يعطي للتاجر صندوقه، ولكنه أشار له بالتحية، واختفى من الباب، فنظر إلى ابنه وقال:

- خذ الصندوق حطه في المخزن، وإياك تأخذه البيت، لغاية ما نشوف له صرفة..



حجبت قامة "جمال" الفارعة الضوء المتسلل إلى المحل، وصاح منادياً على "عوض" الذى انتفض في مقعده، وأفاق من ذكرياته، كأنه تلقى صفعة على وجهه، وظهر شريكه بملابسه فاقعة الألوان التى يختارها من الماركات العالمية، وقد ارتدى قميصاً حريراً مزينا بالورود وبنطلوناً أصفر وحذاءً بنفس اللون.

شعر "عوض" بالارتياح لقدومه، ليتقاسم معه مخاوفه، وجلس "جمال" فوق المقعد المقابل له، وهو يعاتبه على اتصاله به في وقت مبكر على غير المعتاد، فهو يعرف أنه لا ينام قبل الساعة صباحاً، بعد أن ينهى عمله في النait كلوب..

انتبه "جمال" إلى ملامح "عوض" المتوترة، وهو يضع أمامه الصحيفة، فقرأ الخبر بسرعة، وقال:

- هو ده سبب قلقك؟

أحاط "عوض" رأسه بيديه قائلاً:

- هل نسيت "يوسف" عم "أديرا"؟

أردف "عوض":

- الخبر يلمح إلى وفاته بشكل غامض، مما يعنى أن وراء موته جريمة قتل.. "يوسف" يهودى وعدد اليهود في مصر لا يتجاوز العشرات، الأمر الذى سيجعل التحقيق في وفاته يتم بدقة شديدة، وسيتدخل الأمن الوطني، وربما يكتشف في يوم من الأيام أن قريته لها علاقة بنا..

ضحك "جمال" باستهانة:

- إيه الخيال الواسع ده.. نحن لم نر "يوسف" ولا مرة واحدة ولا توجد لنا علاقة مباشرة "بأديرا".. هى مجرد موظفة في بنك لنا حسابات فيه بلندن.. هذا أمر طبيعي لأننا نمتلك شققاً هناك وكل حساباتنا مشروعة ومصدر أموالنا معروف.. ولا تنس أننا ندفع الضرائب على عقود تأجير الشقق هناك، ونودع الإيجارات بحساباتنا في البنك..

بدا على "عوض" الارتياح من توضيح "جمال" الذى تابع حديثه:

- بكل تأكيد ستأتى "أديرا" لدفن عمها وكالمعتاد لن نتصل بها أو نقرب منها..

هز "عوض" رأسه موافقاً، وطوى الصحيفة، ونحاهها جانباً، وقال لـ "جمال":

- المهم أخبار الشغل إيه؟

تثائب "جمال" بتكاسل شديد، وحملت كلماته المتعثرة صدى ثأؤبه المزعج:

- بنجهز الثلاث فتيات للزواج والسفر.. يحتجن إلى جهد كبير لإزالة آثار الفقر من على وجوههن وأجسادهن.. ولن تكفي جهود "شاهينار" وحدها.. لابد من الاستعانة بطبيب أسنان.. واحدة منهن عندها ستنان مكسورتان.. والثانية "ضب" يعني عملية تجميل..

لم يعلق "عوض"، فتابع "جمال":

- "شاهينار" ستفتح فرعاً جديداً لمركز التجميل في التجمع الخامس، واشتكت لي أنها لن تستطيع أن تغطي تكلفة التصميمات، وحمام السباحة والنادي الصحي، وأجور خبراء التدليك من تايلاند وخبرات تجميل من رومانيا.. وتريد مبلغاً لتنتهي من التجهيزات في أسرع وقت..

رد "عوض":

- أعطها ما تحتاج إليه وسجله في النفقات.. المهم أن يصبح المركز ملتقى لسيدات المجتمع الراقى وللفتيات الأنيقات والفنانات.. وكل هذا سيفيدنا في عملنا.. وسيأتى لنا بفتيات درجة أولى من طبقة الكريما..

قاطعه "جمال":

- على سيرة المصروفات.. مصاريف العمل زادت في الفترة الأخيرة، لأن معظم الفتيات كن يحتجن إلى جهد كبير لتغيير مظهرهن.. فلا داعى لجلب فتيات من هذه النوعية لأن ما ينفق عليهن يقترب من نسبة عمولتنا.. يعنى لابد أن ندقق في الاختيار وأن تبذل "هديل" جهداً أكبر في اختيارها لفتيات أكثر جمالاً من الراغبات بالعمل في الوسط الفنى ..
- تمطى "جمال" في كرسيه ونظر في ساعته الرولكس المزينة بفصوص الماس؛ كان قد حصل عليها كهدية من زبون خليجي باعه طفلاً يشبهه تماماً.
- تذكر "جمال" مواعده مع "شاهينار"، وأطلق ضحكة صاخبة، وقال لـ "عوض":
- فاكّر "شيماء محمد يونس" الفتاة الفقيرة.. "البلاّنة" خبيرة التجميل من منازلهم التي أصبحت سيّدة الأعمال "شاهينار" هانم..
- انطلقت ضحكاتها في أرجاء الغرفة، وهز "عوض" رأسه وقال:
- هى الآن لا يمكن أن تتعرف على صورتها القديمة..

قاطعه "جمال":

- ليست صوراً فقط بل تسجيل فيديو تقر فيه أنها تعمل معنا.. وعقود بيع تكتبها مع كل مركز تجميل يتم افتتاحه.. صراحة البنت مخلصه وقنوعة وراضية بحصتها التي استثمرتها في شراء شقة في لندن والحياة المرفهة التى تعيشها الآن..

نظر إليه عوض قائلاً:

- من خبرتى الطويلة يا "جمال" مع الشياطين.. أعترف أننى لم أجد شيطاناً من ساكني الجحيم في ذكائك..
- شعر "جمال" بالإطراء، وتذكر شيئاً:
- لا تنسَ ميعاد "هديل" الليلة..
- انتظر وقع جملته على ملامح "عوض"، وغمز بعينه متلفتاً حوله، وهمس:
- طبعاً أنت ستسبقنى في الذهاب إليها..
- ابتسم "عوض"، وتحيل انتشار خبر زواجه السري من الفنانة المشهورة "هديل".
- تركه "جمال" يعيش في خيالاته، وخرج من الغرفة، وهو ينظر في ساعته.

أدار "مروان" المفتاح في قفل الباب، محاولاً ألا يصدر صوتاً يزعج والدته، أو يوقظها من نومها، وأسند ظهره على الباب من الداخل كعادته التي تجعله يشعر بالأمان، وانتزع جسده المتعب، ليجد والدته في انتظاره، وهي تفنح ذراعيها، وتدعوه ليختبئ في حضنها، ويتخلص من متاعبه.

جلس بجوارها، وعاتبها على استيقاظها حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل، فأجابته بأنها لم تره منذ خروجه في الصباح، وأنها ستقوم لتحضر له الطعام، وستنام بعدها، فهز رأسه موافقاً.

اطمأن "مروان" على استغراق والدته في النوم، وذهب إلى غرفته، وبدل ثيابه، وأمسك بتليفونه فوجد أن الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل.

تردد قليلاً ثم طلب رقم "مريم"، فجاء صوتها ناعماً مغلفاً بالنوم، فداعبها

قائلاً:

- أتمنى أن يستمر صوتك بهذه النعومة بعد الزواج ..

قالت ضاحكة:

- كنت في انتظار مكالمتك وغلبني النوم.. أنت تعرف أنه بسببك لا أصل القرية الذكية في ميعاد الحضور أبداً..

تدارك "مروان":

- لن أظل عليك ولكنك وحشتيني جداً.. ولم أجد وقتاً طوال اليوم للحديث معك.. وانتظرت حتى نامت أمي لكي أسمع صوتك..

ضحكت "مريم" وهي تسخر منه:

- ضابط في الأمن الوطني يخاف من والدته!.

رد عليها ضاحكاً:

- ولى الشرف أن أخاف منها.. المهم أنني لا أريدها أن تعرفك قبل أن نستعد لترتيبات الزواج..

غشا النوم صوته، واتفقا على أن يلتقيا في مساء الغد، ليتناولوا طعام العشاء، وأنهى المكالمة وغرق في نوم عميق.

استيقظ "مروان" في التاسعة صباحاً على رنين هاتفه، واستغرق ثواني حتى استجمع تركيزه، وأبلغه رئيس مباحث مصر الجديدة أن تحرياتهم كشفت خيوطاً جديدة في قضية وفاة "يوسف نسيم نقاش"، فقال له إنه سيكون عنده بعد دقائق لسامع التطورات الجديدة.

استقبله رئيس المباحث في مكتبه، وطلب منه أن يتناول قهوته أولاً، ثم قال له:

- "مروان" بيه.. شكوكك كانت في محلها..

انتهى "مروان" من تناول القهوة، وأصغى باهتمام لرئيس المباحث، وهو يخبره أن التحريات التي توصل إليها فريق البحث، بعد مسحهم للمنطقة حول المعبد، ومراجعة كاميرات المراقبة كشفت عن مفاجأة، فالعمارة التي تقع خلف دار المسنين، ويفصلها عنه سور يبلغ ارتفاعه مترين، وعدة أشجار متشابكة يصل ارتفاعها حتى الطابق الثالث تقريباً..

تابع رئيس المباحث: العمارة قديمة، وبها عدة شقق خالية يؤجرها صاحبها بنظام القانون الجديد المحدد المدة، وبها شقة مفروشة أجرها منذ عشرة أيام لرجل فرنسي لمدة شهر، وعرف نفسه أنه مدرس جاء ليعمل في الجامعة الفرنسية بمصر، وأنه سيمكث في الشقة مؤقتاً، حتى يتم تأييث شقة له في مدينة الشروق التي تقع بها الجامعة، وعندما طالبه صاحب العمارة بإثبات شخصية، أظهر له باسبوراً فرنسياً باسم "جان بول بيريه" فقام الرجل بتصويره والاحتفاظ بالصورة..

مد رئيس المباحث يده بصورة الباسبور المغلفة داخل مظروف شفاف، والتقطه "مروان"، وألقى نظرة سريعة على الصورة، وهب واقفاً، وشكره، وقبل أن ينصرف التفت إليه وقال:

- القضية أصبحت عندنا..



عاد "مروان" إلى مكتبه، وأدرك أن القضية أكبر من وفاة رجل مسن يهودى، واستغرق في التفكير، وهو ينظر إلى صورة الرجل الفرنسى المطبوعة على ورقة تحمل بياناته، وتفيد أنه من مواليد عام 1972، وطوله 170 سم، وتاريخ إصدار الباسبور 13-6-2012، وتاريخ الانتهاء في 12-6-2017، كانت ملامحه عادية، ولا يوجد ما يميزها، فوجهه يميل إلى الطول، ولحيته خفيفة،

ويرتدي نظارة طبية ذات إطار مربع، وتغطي عدساتها وجنتيه، ويزحف الصلح إلى منتصف رأسه، وينسدل على أذنيه شعر بنى ناعم.

كان صوت الرياح يأتي من خلف النافذة المغلقة بإحكام، ليصدر صغيراً خافتاً، ويقتحم استغراق "مروان" في تأمل تفاصيل الصورة، وانبته إلى دقات متسارعة على باب مكتبه، فرفع رأسه منتظراً دخول "خالد"، فقد كان قادراً على تمييز طريقته في الدق على الباب..

ظهر "خالد" مبتسماً، ورغب في التعليق على حضور "مروان" مبكراً، ولكنه توقف بعد ما رأى ملامحه الجامدة، وكان يعرف معناها جيداً، فهو لا بد أن يكون غارقاً في مهمة عويصة، وفور جلوسه، أخبره "مروان" بتطورات الأحداث، وطلب منه جمع كل المعلومات المتعلقة بصاحب الباسبور، وتوقيت دخوله إلى مصر، وتحديد المطار أو الميناء الذي جاء منه، وأن يسرع في استدعاء صاحب العمارة الملاصقة لدار المسنين، وأن يتوجه بسرعة لجمع معلومات وتفاصيل كاملة عن تحرك كل شخص دخل الشارع أو خرج منه، قبل وبعد وفاة "يوسف"، وعدم إغفال أى ملاحظة مهما كانت صغيرة.

تحرك "مروان" من خلف مكتبه، وهويتأهب للخروج، وقال لـ "خالد":

- طبعاً صاحب العمارة عندما يأتي سيسأل في الاستعلامات عن المقدم "شادي عيسى" ..

رد "خالد":

- مفهوم طبعاً..

قطع "مروان" الممر الطويل بخطوات سريعة، ثم انحرف في نهايته، ليهبط السلم بسرعة، وحين اقترب من غرفة اللواء "عادل"، هب الحارس مؤدياً

التحية، فردها "مروان" متعجباً، ودخل مؤدياً التحية لرئيسه الذى أشار له بالجلوس..

سأله اللواء عن زيارته للدكتور "شوكت"، فأخبره "مروان" بكل ما حدث، وأن خاله أغرقه فى تفاصيل كان يراها ضرورية..

أطلع "مروان" رئيسه على التطورات الجديدة التي قد تكشف أن وراء وفاة "يوسف نسيم نقاش" جريمة قتل، خصوصاً بعد اختفاء الرجل الفرنسي من الشقة.

أصغى اللواء "عادل" باهتمام شديد، ووافق على خطة البحث، مشدداً على أهمية عدم تسرب أى معلومات للإعلام حتى لا تزداد جراحة الإثارة.

قطع حديثهما رنين هاتف "مروان"، ورد بسرعة على "خالد"، ليأتيه صوته منفعلًا، وأنه يبحث عنه، فطلب منه أن يأتي فوراً إلى مكتب اللواء "عادل"، ولم تمر ثوانٍ معدودة، حتى دخل "خالد" مندفعًا، وأدى التحية لرئيسه، ووضع أمامهما المغلف الشفاف التى تطل منه صورة الباسبور الفرنسى، وهما ينظران إليه فى ترقب..

فجر "خالد" المفاجأة.. الرجل الفرنسي لم يدخل مصر بهذا الباسبور، ولا توجد له بيانات دخول على الإطلاق فى كافة موانئ مصر..

رجع "مروان" فى كرسيه إلى الخلف، وقال للواء "عادل":

- كما توقعت يافندم..

أردف سائلاً "خالد":

- هل قمت بإدخال الصورة لبرنامج التعرف على الوجوه؟

أجابه "خالد":

- بعد أن غادرت مكتبك مباشرة.. وتحركت فرق جمع المعلومات.. وأرسلنا في استدعاء صاحب العمارة وهو في الطريق إلينا الآن..



بعد دقائق من مغادرة "مروان" و"خالد" مكتب رئيسهما، انطلق صوت من جهاز اللاسلكي، منادياً على المقدم "شادي عيسى"، ومعلنًا وصول الضيف المتنظر..

دخل الرجل متفضلاً كعصفور مبلبل، طلب منه "مروان" أن يجلس ويهدأ، لأنه يحتاج إلى تركيزه، وأن يذكر له بدقة شديدة متى وكيف حضر إليه الرجل الفرنسي؟

ابتلع الرجل ريقه بصعوبة شديدة، فقد كان يشعر أن حلقة مملوء بأشواك تفقده القدرة على النطق، وخرجت منه الكلمات متحشجة، فهدأه "مروان" وطلب له كوباً من الليمون، شربه دفعة واحدة، واطمأن أنهم لن يعاملوه بقسوة، كما يسمع عنهم، وبعد لحظات استعاد ثباته، ليقص كل ما حدث..

- من عشرة أيام حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، رن جرس الباب، فتحت له لأجد أمامي رجلاً متوسط الطول نحيفاً أبيض البشرة، ويرتدي نظارة طبية ذات إطار أسود عريض، وله لحية خفيفة، ويحتل الصلع منتصف رأسه، وينسدل شعره البني على جانبي رأسه.
- توقف صاحب العمارة، واستأذن "مروان" أن يدخن، فأوماً له برأسه، وتابع الرجل حكايته، ودخان سيجارته يتحلق في فراغ الغرفة.

أدرك "مروان" أن وصف صاحب العمارة، يتطابق مع صورة الباسبور، فسأله:

- ما هي اللغة التي كان يكلمك بها؟
- شوية إنجليزي على عربي مكسر..

- كمل وبعدين ..
- رحبت به وأدخلته وقدمت له الشاي، وسألته من أين عرف أن في العمارة شققاً للأيجار؟ فرد بأنه كان يجلس في كافيه بالجهة المقابلة، وسأل الجرسون عن شقة في المنطقة، وأن له أصدقاء في فرنسا سكنوا فيها، عندما جاءوا إلى مصر، لأنها من أفضل الأماكن في القاهرة، وتتميز بالهدوء، فدلّه الجرسون على عمارتي ورقم شقتي، واتفقت معه على قيمة الإيجار 1500 دولار في الشهر، فوافق وطلب أن يشاهد الشقة..
- وتجول فيها وأبدى إعجابه بها، وطلبت منه إثبات شخصية، فأخرج لي باسبوره، وأرسلت الخادمة لتصويره في المكتبة، ثم أعدت له الباسبور، واحتفظت بالصورة، واستأذن في الانصراف ليحضر حقيبة ملابسه، وعاد ومعه عدة أكياس من السوبر ماركت، وحقيبة سفر سوداء..

سأله "مروان":

- هل لاحظت عليه شيئاً غريباً أو زاره أحد في الشقة؟
- لا لم أر أحداً يزوره.. وكان هادئاً تماماً.. وفجأة اختفى بعد وفاة اليهودي في دار المسنين.. وبعدها قمت بتسليم صورة الباسبور لرئيس مباحث مصر الجديدة.. عندما جاء ليسأل عن سكان العمارة، وصعدت معه للدور الثالث، وطرقنا الباب فلم يرد أحد.. وحاولنا فتحه بالمفتاح الاحتياطي لكنه لم يدر في القفل، ومشى رئيس المباحث بعد أن وضع حارساً على الباب..
- صمت الرجل وهو ينظر بخوف إلى "مروان"، وسأله عن مدى تورطه في الموضوع، ومن هو الرجل الفرنسي وهل هو إرهابي؟ .. تجاهل "مروان" تساؤلاته، وكرر سؤاله:
- هل لاحظت عليه أى أمر غريب؟.

- كما قلت لحضرتك.. كان هادئاً جداً ولا يصدر عنه أي صوت.. حتى أنني لم أعرف متى خرج وكيف اختفى!

فرك الرجل يديه منتظراً كلمة تخرج من بين شفتي "مروان"، وتعنى خروجه آمناً من هذا المكان الذى يثير في داخله الرعب، وتنفس بارتياح عندما شكره "مروان"، وطلب منه أن يبلغه إذا عاد الرجل الفرنسي مرة أخرى، فخرج مهرولاً، فاستوقفه صوت "مروان":

- لماذا لم تقم بالإبلاغ عن تأجيرك الشقة المفروشة كما يلزمك القانون؟
رد الرجل بسرعة:

- كنت أنوى أن أذهب لقسم الشرطة.. ولكن أصبت بنزلة برد شديدة ألزمتنى الفراش عدة أيام.

صمت "مروان" قليلاً ليختبر مدى صدق الرجل، ثم أشار إليه بالانصراف. توجه "مروان" بعدها مباشرة إلى القسم الفني، لمعرفة ما حدث في الصورة، وتحرك الجهاز أمامه بسرعة شديدة، متخطياً وجوهاً لمطلوبين في كل أنحاء العالم، وثبت "مروان" عينيه على صورة الفرنسي، وطلب تكبيرها وطباعتها، وحين تناولها تفحصها بدقة، وأطلق صيحة انتصار، ثم خرج مسرعاً في طريقه إلى مكتب اللواء "عادل".



وضع "مروان" الصورة أمام رئيسه، وأشار إلى المنطقة التي تعلو الحاجبين، وظهور خط رفيع يكشف عن تنكر بالغ الدقة، تنهد "مروان" وهو يعلن للواء "عادل" أنهم أمام تنظيم عالمي قوي يستخدم محترفين، ولا بد أن هناك صلة بين وفاة "يوسف" وصاحب الباسبور الفرنسي، وسيعثر على أول الخيط في موقع الجريمة، وأنه سيذهب إلى هناك الآن.

قال رئيسه:

- بالتوفيق.. ولا تنس التنسيق مع أجهزة الأمن الفرنسية، حول الباسبور وصاحبه..

خرج "مروان" متوجهاً إلى موقع الجريمة، وقد نسق مع فريق الأدلة الجنائية، للقائهم في الشقة المفروشة، وحين وصل مبكراً، توقف بسيارته على الجانب الآخر من الطريق، وتأمل العمارة التي تقع على ناصية شارع جانبي يؤدي إلى دار المسنين.

تخيل "مروان" أن القاتل تسلل إلى الدار، وهو على دراية كاملة بموقعها، فجزء منها يقع في الشارع الجانبي، والجزء الآخر على الشارع الذي يقع فيه المعبد اليهودي على شكل زاوية قائمة.

عبر "مروان" الطريق متمهلاً، ومشى بجوار السور في الشارع الجانبي، ورفع عيناه إلى أعلى، فرأى نوافذ وشرفات العمارة، ثم انحرف جهة اليسار، ووقف في الجانب الآخر من الطريق في مواجهة دار المسنين.

استند على جدار الفيلا المقابلة للدار، وانطبعت في ذاكرته تفاصيل الموقع، فقد كان يمتلك حاسة بصرية دائماً ما ترشده إلى أدق التفاصيل، ولذلك شعر ببعض الارتياح، وقطع الشارع إلى دار المسنين، واجتاز الباب ليقف متأملاً صفّاً من أشجار المانجو الباسقة، وهي تلقى بظلالها المهيبة على ساحة الدار، وتتوارى النوافذ القديمة للعمارة خلف أوراقها وأغصانها المتشابكة.

استدار "مروان" ليدفع بيده الباب الداخلي الثقيل الذي أطلق صريحا يشبه الأنين، عبر البهو الداخلي متأملاً درجات السلم المفضية إلى الدور الأول، وحين رأى الحبل الممتد بطول الدرجات، أدرك أن "يوسف" سقط بفعل فاعل، فما

حاجته إلى النزول دون مساعدة خادمه، وليست هناك إشارات واضحة لمحاولته الانتحار..

صعد الدرجات، وجلس عند بداية السلم من أعلى، وأمسك بيده طرف الحبل المتدلى، وقام بتقليد زحف الرجل العجوز على الدرجات حتى وصل إلى البهو، وعاد ليصعد من جديد، وتلك المرة إلى غرفة "يوسف".

كانت الغرفة مرتبة ونظيفة تفوح منها رائحة عطر خفيف، وتمتزج بعبق الجدران العتيقة، والمزينة ببانوهات من الخشب المشغول، وتتوسطها لوحات زيتية، وأثار انتباهه أن إحداها تمثل "يوسف" وموقعة بإمضاء "صلاح طاهر" الفنان المصرى العالمي.

تأمل اللوحة جيداً، ولاحظ انبعاثاً خفيفاً لا تكاد تدركه العين، فمد يده ممسكاً باللوحة، وانزلها من فوق الجدار بحذر، ومر بيده على ظهرها، فالتقطت أصابعه شيئاً ما خلفها، وحين أدارها

ظهر فرخ من الورق الأصفر حائل اللون، وتحسسه من جديد، وأزال الحاجز الورقي الملتصق بجدار الإطار، لتقع عيناه على مجموعة كبيرة من الأوراق تشبه الخرائط، ومثبتة في جدار اللوحة من الداخل.

أدرك "مروان" أنه عثر على أول الخيط، وأخرج الأوراق الصفراء برفق، خوفاً من أن تتفتت بين يديه، ووضعها فوق السجادة.. كانت عبارة عن طلاس لا يمكن أن يحل شفرتها غير صاحبها نفسه، فهى أقرب إلى الرسم الكروكي، والشيء الوحيد الذى يجعل لها قيمة، هو حرص صاحبها على إخفائها بمثل هذه الطريقة..

للم ضابط الأمن الوطني كنزه الثمين، وأعاد اللوحة إلى مكانها، ثم جلس فوق مقعد "يوسف"، وتأمل المكتبة الضخمة التى تحتل جداراً بأكمله، وتتراص

في أرففها كتب معظمها بالفرنسية والإنجليزية، ونسخ من التوراة بالعبرية والفرنسية، وعدد قليل من الكتب في التاريخ والآثار بالعربية، وتتناول تاريخ العراق وفلسطين ومصر.

اتجه "مروان" ناحية النافذة الكبيرة، وأدار المقبض النحاسي القديم، ليفتح الضلفة الزجاجية، ثم حرك مزلاج الشيش الخشبي، ليستقبل نسائم منعشة من ساحة الدار، وشاهد حركة أغصان أشجار المانجو التي تشكل سوراً إضافياً للجدار، والذي يفصل الدار عن الجهة الخلفية للعمارة.



صعد "مروان" درجات السلم متمهلاً، وتوقف أمام شقة صاحب العمارة، ثم عاود الصعود إلى أعلى، حتى وقف أمام باب شقة الرجل الفرنسي.. كان رجال المعمل الجنائي، ينتشرون بداخلها، ويرفعون البصمات من أنحائها، حياهم "مروان"، ونظر إلى حقيبة السفر السوداء الفارغة، والقابعة فوق مائدة مستديرة في أحد الأركان، ثم تجول في الشقة، ولاحظ أن هناك طبقة من التراب الخفيف تعلو الأثاث، وتنتشر في أرجاء المكان، ولا ينطبع عليها أي أثر.

توجه ناحية غرفة النوم التي تطل على ساحة الدار.. غرفة واسعة يتوسطها سرير كبير، ويبدو عليه القدم، وتقع في مواجهته نافذة لها قاعدة عريضة من الداخل..

ارتدى "مروان" قفازيه قبل أن يفتح الشيش الخشبي على مصراعيه، واصطدمت عيناه بحاجز من الأغصان المتشابكة لشجرة المانجو، وبدا من خلالها مشهد متقطع للدار، كأنه لوحة زيتية رسمها عاشق للطبيعة.

ألقى بنظرة أسفل النافذة، فوجد إفريزاً بارزاً، ومطلياً بالجير الأبيض ويزدان برسومات متفرقة لورود وأزهار، ويسمح ارتفاعه بالوقوف على غصن الشجرة المنفرج بحوالى نصف متر تقريباً..

لاحظ "مروان" كشطاً بسيطاً على الإفريز، وبعض ذرات من الطلاء الجيري على الغصن، فنادى على أحد رجال المعمل الجنائي، وطلب منه معاينة الإفريز والغصن، وفحص أغطية السرير، وسرعة إعداد تقرير بالنتائج، أملاً في الحصول على الحمض النووي للرجل المجهول.

خرج "مروان" من الشقة، وهو متيقن أن رجال الأدلة الجنائية، لن يجدوا أثراً للقاتل، وأسرع متوجهاً لمكتبه بعد أن تلقى مكالمته من "خالد" للقاء شاهد مهم.



أدار "جمال" محرك سيارته، وفكر متعجباً في العلاقة الغريبة بين "عوض" و"هديل"، وشعر بنفور بمجرد تخيله لـ "عوض" وهو يعتصر "هديل" بين يديه، وتسقلت إلى جسده استشارة خافتة، ولكنها انكسرت أمام عجزه المزمّن الذى يخفيه بمظهره الرجولي، وقامته الفارعة، ونكاته الجنسية الفجة التى ينهيها بضحكات صاحبة، ويشاركه فيها مساعده "علاء"، وفتيات يحيط نفسه بهن، ويعملن تحت إمرته في النوادي الليلية التي يمتلكها في القاهرة والغردقة.

كانت نظرات الحسد تطارده من الرجال، وهم يرونه محاطاً بفتيات الشو الروسيات، وبمرور الوقت، تحول عجزه الجنسي الذي أصابه منذ أن كان مراهقاً إلى أسطورة في تجارة الجنس، وارتواء لا ينتهي من اصطيد الفتيات الفقيرات، وإلقائهن في أتون رغبات حيوانية لرجال يبحثون عن متع مفعمة بالألم.

اكتملت لديه أركان تجارة منظمة، وتحول عجزه إلى قوة مجنونة تبطش بضحاياه، وتفقدن منابت الإحساس في عروقهن، وتذوي رغباتهن تحت وطأة الانسحاق، ليتحول الجنس إلى عهر، والقواد إلى شيطان يترفع عن غواياته للبشر، ويسيطر على الغارقين في خيل الرغبات، ويحركهم وفق إرادته، ويقينه أنه الأذكي والأطهر بتحصنه خلف ضعفه المزمّن.

فكر "جمال" هل هو شيطان حقاً؟ أم أن الشيطان وجد ضالته في هذا الطفل القابع في حضن والدته الطيبة، والتي تحمد الله كلما هاجمتها آلام الكلى، وكلما منحها أحد سكان العمارة بضعة جنيهات نظير خدمتها في شققهم، أو أمانتها عند عثورها على قرط ذهبي ملقى بين أكوام أدوات التجميل في غرفة نوم سيدة ناعمة تستمتع بالكسل والدفع.

تذكر "جمال" المرة الأخيرة التي رأى فيها والده، وهو ينهي صلاته متمتماً "الحمد لله" ويجلس على باب العمارة التي يحرسها، بينما تصاعدت أنات أمه من غرفة أشبه بزنزانة ضيقة أسفل السلم، ولم تمض عدة شهور حتى غاصا أمامه في تراب مدافن الصدقة.

هجر "جمال" العمارة مع شقيقاته الثلاث، لم يحتمل كلمات التشجيع التي يلقيها عليه بعض السكان، وحثهم له على تحقيق حلم والده الطيب وأمه الطيبة، واستكمال تعليمه الجامعي، ولكنه ذهب بهن بعيداً عن كل من عرفوهم، ليسكنوا في شقة صغيرة، وينطلق في أولى مغامراته مع زميله البورسعيدى، الذى كان يحترف تهريب الملابس المستعملة، ويمر بها في شاحنات أمام أعين موظفين تكتنز أجسادهم من أموال الرشوة.

اكتشف العالم الموازي الذي يعيش فيه شياطين يكسدون الأموال الطائلة من تجارة المخدرات والسلاح وأجساد النساء، جمع من المال ما سمح له بشراء كيس

من الهيرودين، حمله مجهول في ثنانيا جسده مسافراً به نصف العالم، حتى أفرغه أمامه، وعرف كيف يخلطه بزجاج مطحون ناعم، وبودرة يعرفها المدمنون باسم "أبو ملف" وعظام الجماجم المطحونة، ومئات من شرائط الترامادول التي حولت الكيلو إلى ثلاثة والثلاثة إلى ثروة فَرَّ بها من عالم أسود كانت نهايته الموت أو التعفن في زنزانة مدى الحياة.

لم يقترب من تلك التجارة مرة أخرى، وهرب منها إلى عالم تدور فيه الأجساد التي أنهكها الفقر، فتنحول فيه لسعة رائجة نظمها بعقله الشيطاني. كان الملهى سيئ السمعة على النيل، أولى محطاته التي جعلته أحد ملوك الليل، بعد ما أنفق عليه كل ما كسبه من بيع كيس الهرويين، واشتهر ملهاه بعد أن قصر دخوله على أولاد الذوات وأصحاب الثروات وحدهم، وكانت فتياته اللاتي يعملن بالملهى مضرب الأمثال، فهن يشبهن نجومات السينما في جمالهن، ويتحركن بنظام صارم فرضه عليهن.

لم تكن عملية إعدادهن أمراً سهلاً، كان يختارهن بعين فاحصة، ولا يهتم بفقرهن ولا بأجسادهن التي أنهكها سوء التغذية، بل كان يبحث عن الأرواح المعذبة الخائعة، والتي تسقط في شبابه، مثل طيور ضريبة تتخبط في أقفاصها ولا تجد منفذاً للهروب.

أخضع فتياته لبرنامج صارم من التغذية، تحت إشراف أطباء متخصصين، ليحصل على أجساد رشيقة تخلصت من دهون أطعمة الفقراء، وبعدها تتسلمهن خبيرات في التجميل، ليتحولن على أيديهن إلى مرشحات لمسابقة ملكات الجمال.. فرض عليهن قوانينه، فكان يستأجر لهن شققاً في عمارات تسكنها عائلات محترمة، ليحتمن بينها بعدما قدمن أنفسهن كطالبات جامعات.

كانت قائمة التعليمات طويلة، فالصراخ ممنوع والحديث بصوت عالٍ جريمة لا يغفرها، والملابس المحتشمة وسيلة للخروج من المنزل، والذهاب إلى عملهن في الملهى، وكن يخرجن أمام الجيران بعد العصر ويعدن في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، فلا يعلم أحد عنهن شيئاً.

كانت هناك دائماً واحدة فشلت كل حيل المتخصصين في تخليصها من قبح مزمن، فتحولت لواجهة طيبة لا تغادر المنزل، وجاهزة لتقديم المبررات أمام جيرانهن المحترمين الذين أحبوا الفتيات الطيبات المهدبات، وعندما كانت تحتفى واحدة منهن، كان المبرر حاضراً بأنها أنهت دراستها وعادت إلى حضن أهلها.

تختفى الفتاة لتظهر كزوجة عرفية لسائح عربي أو حتى أجنبي، جاء ليقضي إجازة سريعة، ومليئة بالمتعة الحرام، والمقننة بأوراق صاغها محام محترف ضمن فريق "جمال"، وتعيش مع الزوج المؤقت عدة أيام، وتطمئن أنها تمتلك ربحاً عقيقاً، ثم تودعه، فيمزق الرجل عقد الزواج، ويظن أن الأمر قد انتهى..

تعود الفتاة إلى عملها في الملهى من جديد، وتنتظر ظهور بؤادر الحمل عليها، فينقل "جمال" الخبر الكارثة إلى الزوج، ويعرب له عن أسفه الشديد، ثم ينظر إليه مبتسماً:

- ولكن ماذا ستفعل المسكينة أمام قوتك الجنسية الخارقة التي غلبت علم الأطباء..

تسري كلمات "جمال" كالمخدر في جسد الرجل، ويبطل الإطراء ثورته، ليقول بهدوء:

- اتصرف يا "جمال" .. شوف حل للمصيبة دي..

وتكتمل خيوط اللعبة، عندما يخبره "جمال" أن الفتاة تحتاج إلى مبلغ، لتنفذ ما في بطنها فيسارع الرجل بتحويل ما يطلبه درءاً لفضيحة ستنتشر في أروقة سفارته.. وبعد أيام يبشره "جمال" بانتهاء الأزمة، والتخلص من الجنين الذي باعه مقدماً، وهو في رحم أمه، متباهياً بنفسه، وزعامته على مملكة الأجساد.

تحكم "جمال" في فتياته.. لم تكن واحدة منهن قادرة على دخول الحمام إلا بإذنه.. ماعدا واحدة سُرقت قليلاً من الوقت لتذهب إلى ساحر ماهر.. برع في تحقيق أحلام البائسين.. كانت نظراته الغريبة تشل حركة فريسته إذا أعجبته.. توسلت إليه الفتاة أن يحضر لها حبيباً مارقاً.

عرف "جمال" بزياراتها؛ حدثته كثيراً عن سطوته على العقول، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي لم يعاقب فيها فتاة خرجت عن إطار سطوته صاحبها في زيارتها الثانية له.. أدرك الاثنان منذ اللحظة الأولى أن الشيطان مهد لهما طريقاً حريراً.. من وقتها أصبح "عوض" شريكاً مناسباً "لجمال".. استطاعا معاً إخضاع مئات الفتيات البائسات.



غرق "داود" في كرسيه "البارجير" الوثير، رافعاً قدميه على "ستاند برجير" ومرت أمام عينيه ذكريات طفولته وشبابه، ووالدته تنادي عليهم:

- يا أولاد الغداء جاهز..

للحظة تخيل أنه سيلتفت للخلف، فيراها تطل برأسها من باب المطبخ:

- هيا حضروا السفرة..

لم يتمالك دموعه المنسالة على تجاعيد وجنتيه، بعد أن غيب الموت عائلته كلها، وآخرهم شقيقه "يوسف"، تنهد بحرقه شديدة متألماً لنهايته الغامضة، وأحس برعب شديد من افتضاح سره القديم، وعلاقته بالمنظمة الدينية

"وها-بويل ميزراخي" التي عمل معها لفترة طويلة، واستغلوا حماسه الشديد ليهوديته وتدينه ووفائه لتعاليم ديانته.

كانت المنظمة تحت شباب اليهود على السفر إلى إسرائيل وزراعة أرضها، كجزء من إيمانهم بالتوراة، ولكن "يوسف" كان رافضاً للهجرة من مصر، ويراهنا وطنه الوحيد، رغم تألمه مما يصيب اليهود لأنهم يهود.

كان كل ما حلم به، أن يثبت أنهم تركوا أثراً عبر مرورهم في التاريخ، بالرغم أن النشاط الصهيوني المنظم، بدأ في مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن الحركة الصهيونية في مصر كانت ذات أساس اجتماعي، وركزت نشاطها في العمل الخيري.

تذكر "داود" أن عدداً كبيراً من أقاربهم وأصدقائهم، خصوصاً من طائفة القرائين، كانوا ينظرون لتلك المنظمات ودعوتها لتمويل الجامعة العبرية في القدس على أنها لا تتعارض مع الولاء الوطني، حتى أن مبعوثي الصهاينة لمصر، وجدوا صعوبة كبيرة في إقناع اليهود المصريين بالهجرة إلى إسرائيل، فهم كانوا يشعرون بالأمان واستقرار حياتهم في مصر.

عادت ذاكرته إلى أيام المناقشات الحامية، التي كانت تشتعل في بيوت اليهود بعد عام 1943، وترويح الحركة الصهيونية إلى أن ما يتعرض له يهود أوروبا من حملات إبادة وقتل جماعي، هو أمر يمكن أن يطال اليهود في كل مكان بالعالم.

وقتها تحمس عدد من الشباب اليهودي اليساري ذي التعليم الفرنسي، ومعظمهم من "الأشكيناز"، لفكرة الهجرة لإسرائيل والعمل الجماعي في المستعمرات اليهودية، ونشطت آنذاك منظمات صهيونية أخطوطيه تمد أذرعاها في كل مكان، مستغلة كل طاقات شباب اليهود من المصريين، ومنهم من كان يتلقى تدريبات عسكرية في حلوان، استعداداً للمعارك مع العرب.

وبعضهم نشط لترويج فكرة إقامة دولة إسرائيل، وآخرون تكفلوا بجمع الأموال من أثرياء اليهود، لتوطين المهاجرين من فقراء أوروبا إلى فلسطين، وكانت تحملهم السفن، وتلقي بهم في الأرض العربية.

كان "يوسف" ينفر من فكرة الحرب والقتل، ويحذر المتحمسين من الشباب، بوجود فكرة عنصرية وراء الدعوه لإقامة دولة لإسرائيل، وأن ما عانى منه اليهود في بعض دول العالم، سيمارسونه هم على العرب من أهل فلسطين.. كان يحمل في ثنايا قلبه حزناً دفيناً على ما يتعرض له اليهود من حالة إنكار تنسحب على وجودهم في الحياة.

كان قارئاً جيداً للتاريخ الذى يحتل فيه اليهود مساحات واسعة من العالم، نتيجة تحركاتهم فيه، ويتألم بشدة لأن الجميع ينكرونهم ويتنصلون منهم.

فكر أن الحرب وحدها لا تكفى، ولكن إثبات الوجود هو الأهم، وعرف القائمون على المنظمة كيف يستغلون حماسه وتدينه الشديد، فكانت مهمته هى دفن الآثار اليهودية المزورة في المناطق العربية على أعماق حقيقة، حتى يتم اكتشافها بعد مئات السنين، لتكون إثباتاً على الوجود ينتج عنه حق في تلك المناطق.

عرفت المنظمة كيف تستفيد من براعته في رسم الخرائط، ودرايته بتاريخ اليهود في المناطق العربية، وخط هجراتهم المتتالية، واستغلت حماسه لدفن القطع الأثرية التى كانوا يتولون تزويرها بدقة متناهية، ليقوم بمهمة دفنها على أعماق يتم تحديدها بدقة، وكانت خطط المنظمة الصهيونية تدار برعاية أبرز العقول اليهودية في العالم.

سمع "داود" رنين جرس الباب، ليخرجه من سبل ذكرياته، وقام بصعوبة ليفتح الباب، فقد كان وحده في المنزل، بعد ذهاب "مايا" إلى الكلية، وجد أمامه

رجلاً يرتدى ملابس مدنية، وطلب منه التوجه لمقابلة رئيس مباحث مصر الجديدة.

ارتدى "داود" ملابسه، وأغلق الباب خلفه، وكاد يتصل بحفيده ليخبرها عن وجهته، ولكنه تراجع حتى لا يسبب لها قلقاً هي في غنى عنه. لم يطل انتظاره لمقابلة رئيس المباحث الذي أبلغه بانتهاء عملية تشريح الجثة، والتصريح لعائلته باستلامها لدفنها، وأنه تم إعلام رئيسة الطائفة اليهودية التي كانت على اتصال بهم، وأخرج رئيس المباحث تصريح الدفن من درج مكتبه، والتقطه "داود" بأصابع مرتعشة، وسأله وهو يختار كلماته بحذر:

- هل يوجد شك في أسباب وفاته؟

فرد عليه رئيس المباحث:

- هل كنت تتوقع أن هناك جريمة خلف وفاته؟

أجابه "داود" بسرعة:

- لا.. ولكن إصراركم على التشريح جعلني أسأل..

جاءته الإجابة المنطقية:

- وقوع حادث سقوطه ووجود إصابة في رأسه جعل التشريح ضرورة

للتأكد من وفاته بشكل طبيعي ..

شكره "داود"، وخرج من عنده، ليبدأ إجراءات مهمته الصعبة في تشيع شقيقه إلى مثواه الأخير.

عندما ابتعد عن قسم الشرطة، أخرج هاتفه، وطلب رقم رئيسة الطائفة اليهودية، ولكنها لم تجب على مكالمته، وبعد دقائق رن هاتفه، ليأتيه صوتها، فعرفها بنفسه، وهو متأكد تماماً بأنه لا يحتاج إلى ذلك، وأبلغها أنه حصل على

تصريح الدفن، ولا بد من اتباع المراسم حسب الشريعة اليهودية، وأنه مازال يمتلك مفتاح مدفن عائلتهم في مقابر اليهود بمنطقة البساتين.

صمت ليستمع إليها تقول، إن ترتيب الصلاة عليه ودفنه لا بد أن يقوم به حاخام يهودي، ويمكن للسفارة الإسرائيلية في مصر، أن ترتب قيامه بالأمر، إذا ما رغب بذلك.

رفض "داود" منزعجاً، وأخبرها أن "يوسف" كان يرفض التعامل مع السفارة الإسرائيلية تماماً، وأنه يرغب في استدعاء حاخام من فرنسا، كما كان يوصيه.

أبلغته أنها توافق على ما يرغبون فيه، ولكن استدعاء الحاخام من فرنسا، سيستغرق خمسة أيام، وإتمام الصلاة عليه، لا بد أن يحضره عشرة رجال على الأقل، ويمكن استدعاء بعض الرجال العاملين في السفارة. وافق "داود" على اقتراحها، وأنهى المكالمة بعد أن ذكرته بضرورة غسل المقبرة قبل فتحها لدفن الجثمان.

كانت أمامه مسافة يقطعها إلى المنزل سيراً على الأقدام، ويستعيد جزءاً من ماضيه القديم الذي طواه بعد وفاة والديه، وإعلان إسلامه في الأزهر الشريف. شعر بألم شديد يخترق قلبه، ويطلق ناراً تسري في جسده، فبعد كل تلك السنوات سيعود إلى مقبرة عائلته في حي البساتين، وتجهيزها لاستقبال "يوسف" ليرقد بجوار والده وأجداده، فمنذ وفاة والده لم يذهب إليها ولا يعرف ما آل إليه حالها، وقد كان يسمع عن تدهور حالة مقابر اليهود.

لم يكن الأمر يعنيه كثيراً، بعد أن رأى الموت يغيب كل من أحبهم، ولكن مواجهة والديه أكثر ما كان يؤلمه، واضطراره لتهيئة قبرهما لاستقبال جثمان

شقيقه، فكر في أن يستعين بـ"إسحاق"، فهو الشخص الوحيد الذى يستطيع مرافقته لإتمام تلك المهمة الصعبة.

شعر بالهدوء يتسرب إلى نفسه، بعد أن توصل لذلك القرار، وأشار إلى تاكسي، وطلب منه أن يذهب به إلى "مكتبة إسحاق" بوسط القاهرة. كان "إسحق" جالساً إلى مكتب قديم، ومستغرقاً فى قراءة كتاب، وأسرع بتنحيته عندما رأى "داود" يدخل من باب المكتبة، وبعد أن رحب به، توقع أن يسمع منه أخباراً جديدة، وهز رأسه موافقاً على الذهاب معه إلى مقابر العائلة في الصباح الباكر، وتلك المرة اكتفى بابتسامته الساخرة، ولم يعلق كعادته على بلاهة البشر فى التمسك بعادات بالية لتشجيع موتى سيتعفنون بين أكوام التراب.



عندما فتح باب الشقة، أدرك أن "مايا" لم تعد بعد من الكلية، وتوجه إلى غرفته متجاهلاً نداءات "أم أمينة" الخادمة بأن تحضر له طعام الغداء، وأغلق الباب عليه، وجلس على كرسيه الهزاز، ليلتقط أنفاسه، فلم تكن سنوات عمره قادرة على الصمود، أمام كل تلك الأحداث المتتالية.

ثبت نظره على الكومودينو المجاور لسريره، ثم قام متثاقلاً وأخرج من أحد أدراجة مفتاح مقبرة عائلته، وتساءل هل مازالت عائلة "أم محمود" ترعى مقابر اليهود، لم يكن على يقين من الإجابة، وظل قابضاً على المفتاح، ووضع في جيبه حتى لا ينسى مكانه، ثم بدل ملابسه، وألقى بجسده على السرير، واستغرق في نوم عميق.

رأى أطيافاً عابرة على نحو غائم، وهو في طريقه إلى المقابر، و"مايا" تنادي عليه، وتدعوه أن يقترب من والده ووالدته وابنته، و"إسحق" يحمل جثة

"يوسف" بين يديه، ويطلب منه أن يحملها معه، فيعدو بعيداً عنهم، ليرى جده يجلس عابساً في نفس المحل الذى ورثوه عنه في حارة الصالحية.

انتبه "داود" على صوت "مايا" تناديه برفق أن يستيقظ لتناول الطعام، شكرها بعقل ذاهل، وطلب منها أن تأتيه بكوب من العصير، ليعود إلى نومه ويواصل لقاء مع زائريه.

استيقظ في الصباح وهو يشعر أنه استرد عافيته، واطمأن أن مفتاح المقبرة بجيبه، تناول فنجاناً من القهوة أعدته له "مايا"، وهى صامته وتنظر إليه قلقة، بعد أن رأته غارقاً في أفكاره، فقبلها على وجنتيها وودعها، ليجد "إسحق" في انتظاره بسيارته أمام باب العمارة.



كانت منطقة البساتين قد حصلت على اسمها المبهج منذ أيام المماليك، وكانوا يطلقون عليها "بساتين السلطان" وتعني مساحات لا نهائية من الألوان المبهجة والمتداخلة لثمار الفاكهة والخضروات التي تتخللها ينابيع ماء وجداول وتظللها الأشجار، وتقف على حوافها النخيل كحارس أمين على جنة السلطان وبساتينه.

تابعت عينا "داود" جانبي الطريق، وتعجب من زحف المباني العشوائية على المنطقة، وكانت تحتلها مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية حتى نهاية الخمسينيات، أخفق في العثور على موقع لبقعة خضراء، ولم تصطدم عيناه إلا ببنيات بالطوب الأحمر متفاوتة الطوابق، وبينها دروب ترابية ضيقة، وتشيعها نظرات سكانها الذين أنهمكهم الفقر.

عندما مرت السيارة على مجموعة من ورش الرخام والجرانيت، أشار "داود"

قائلاً:

- آخر مرة جئت هنا، كان مكان هذه الورش منزل عمدة البساتين من عائلة الشيخ، والتي توارثت منصب العمدية عشرات السنين.. المنطقة كلها كانت أراضي زراعية تنتج كل أنواع الخضروات والفاكهة، وكانت المقابر في منطقة بعيدة عن المساكن..

وجد "إسحق" صعوبة في المرور بالسيارة، والوصول إلى المقابر عبر طرق متعرجة وملتوية، وأشار لـ "داود" بالنزول، ولاحتقتهما نظرات الأطفال وعمال الورش وتجمعات النساء اللاتي يجلسن أمام أبواب منازلهن، ويصحن بصخب خلفهما، إن كانا يحتاجان إلى مساعدة، ولكنهما تابعا سيرهما دون أن يلتفتا إليهن، مما ترك انطباعاً لدى أهالي المنطقة، بأنهما من العاملين بالآثار أو الجامعات. عندما وصلا إلى منطقة المقابر، جذب "داود" نفساً عميقاً، ليعينه على استكمال مهمته، وشق طريقه مع "إسحق" وسط الأضرحة المهدمة التي اختفى من فوق معظمها الشواهد الرخامية، وانمحت هوية أصحابها، وتهدمت أجزاء كبيرة منها.

ابتعدا عن مقابر الربانيين، وتوجها ناحية مقابر القرائين، تبادلا النظرات في دهشة، حين اكتشفا اختفاء جزء كبير من مقابر الطائفة.. بعد خطوات قليلة تراءى لهما شاهد ضريح الحاخام "حاييم كابوسي"، أحد أعظم علماء التوراة في عصره، والمتوفي عام 1631، ويطلق عليه اليهود "أبو الكرامات"، وبجواره يقع المعبد الصغير الذي شيده عائلة "إبرامينوكارو" في مطلع القرن العشرين لتأدية الصلوات.

أشار "داود" إلى المعبد الصغير المهجور قائلاً "إسحق":

- في شبابي شاهدت فتيات كن يأتين هنا ليتوسلن للحاخام "كابوسي"،
لمنهن زوجاً طيباً، وكن يرتقين درجات السلم، ثم يطفن حول ضريحه
سبع مرات، ورأيت في نفس المكان مكفوفين وأصحاب عاهات يأتين
إليه طالبين منه الشفاء، فقد كان عالماً جليلاً فقد نظره من كثرة العبادة
وقراءة التوراة، ثم استعاد بصره بمعجزة، وبعدها أصبح قادراً على شفاء
المرضى..

لم يتمالك "إسحق" نفسه، وأطلق ضحكة صاخبة، قابلها "داود" بنظرة تأنيب
لعدم احترامه لقداسة الموت.

كف "داود" عن الحديث الذي كان يلهمي به نفسه، حتى لا تستغرقه أفكار
تصيبه بالتوتر، وتلتف حوله باحثاً عن موقع مقابر أسرته، وكان يتذكر جيداً أنها
تقع وسط مقابر الأسر الثرية، وكانت بعيدة بمسافة أربعة أقدام عن مقابر العلماء
ورجال الدين، وتبعد أكثر عن مقابر الفقراء والمعوزين.

سنحت الفرصة لـ "إسحق"، ليثبت بالدليل القاطع الطبقة البغيضة التي
تعلق بها المتدينين من اليهود، حتى في التفرقة ما بين الموتى، فلأثرياء أماكنهم
المميزة، ولا يمكن للفقراء أن يدفنوا بجانبهم.

مد شفثيه محتقراً الفكرة، ورغب في إنهاء هذه المهمة التي يراها عبثية، وتطوع
بالبحث عن "أم محمود" المسئولة عن مدافن العائلة، والتي ورثت تلك المهنة
عن والدها وجدها.

لم يكن العثور عليها أمراً صعباً، وتكفل طفل صغير بأن يدهما على مكانها،
وخرجت إليهما من منزل صغير حشر بين الأضرحة وتاهت معالمه، فلا هو
منزل ولا هو قبر، وتفحصت العجوز وجه "داود" للحظات، ثم نادته باسمه،
فابتسم مرحباً بها، لتستغرق في حديث طويل عن الماضي، وعلاقة أسرهما

بالعناية بالمدفن اليهودية على مدى سنوات طويلة، وبالأموال التي كانت تجنيها من العناية بالمدفن، وتحضيرها لاستقبال سكانها من الموتى.
تركها "داود" حتى أنهت حديثها، ثم طلب منها أن تنظف المقبرة، وتغسل شواهد الأضرحة استعدادا لدفن شقيقه "يوسف"، ومنحها مبلغاً من المال، وظلت تلاحقها بدعواتها، وكان طريق عودتها للسيارة سهلاً، فاستقلها وغادرا المنطقة بسرعة شديدة.



تلقي "داود" مكالمات هاتفية من رئيسة الطائفة اليهودية، وأبلغته بموعد وصول الحاخام الفرنسي، وبإنهاء كافة الترتيبات المتعلقة بعملية الصلاة والدفن، فشكرها بعد أن حددوا موعد الصلاة على الجثمان بمعبد "بني عزرا" بمصر القديمة.

انتهى "داود" من تجهيز الكفن، وذهب إلى رئيس المباحث يستأذنه في إحضار شال الصلاة "الطاليت" الخاص بـ "يوسف" من غرفته بدار المسنين، حتى يوضع على الطبقة الأخيرة من الكفن، فأخبره الضابط أن الدار مختومة بالشمع الأحمر، وطلب منه الانتظار حتى يعود.

خرج رئيس المباحث من الغرفة ليتصل بـ "مروان"، فالقضية خرجت من قسم مصر الجديدة، وذهبت إلى الأمن الوطني، وأبلغه "مروان" بموافقته، وطلب منه أن يبقى "داود" عنده، حتي يصل النقيب "خالد" ويصطحبه إلى الدار.

وعلى الفور طلب "مروان" من "خالد" سرعة التوجه للقاء "داود"، وأوصاه بمراقبة كل تحركاته داخل الغرفة، ورصد كل ما تمتد يده إليه، وحذره من تركه وحيداً بداخلها، ولو لثوانٍ معدودة.

لم يستغرق وجود "داود" داخل غرفة "يوسف"، أكثر من دقائق معدودة، وضع خلالها الشال في حقيبة، وخرج يرافقه النقيب "خالد"، وبعد أن صافحه شاكرًا، قرر أن يتوجه إلى درب الصالحية، لتدبير أمور عمله، ويتفرغ بعدها لجنازة شقيقه.

ارتطمت عجلات طائرة الخطوط البريطانية بممر الهبوط بمطار القاهرة، ولم يمض وقت طويل حتى خرجت "أديرا"، وهي تحمل حقيبة صغيرة، وأشارت إلى تاكسي من أمام باب المطار، وحملها إلى الفندق. أنهت إجراءات إقامتها بسرعة، ودخلت إلى غرفتها، ولم تهتم بتفحصها، والتقطت سماعه الهاتف لتطلب رقم عمها "داود"، وتبادلت معه كلمات مقتضبة حول وصولها، واستمعت منه إلى تفاصيل الترتيب للجنازة، وعلقت بقولها:

- لو سمع كلامي وخرج من مصر.. كان سينال نهاية محترمة..

لم يعلق "داود"، وسارعت "أديرا" بإنهاء المكالمة، بعد اتفقاها على اللقاء في معبد "بني عزرا"، ورفضت بجفاء دعوته لزيارته في المنزل.

قادت "مايا" السيارة ببطء شديد، وجلس بجانبها جدها "داود"، واستقر عمها "إسحق" في المقعد الخلفي، متبرما من ارتدائه الملابس الرسمية وربطة عنق سوداء.

اخترقت السيارة طريق الكورنيش ثم استدارت عائدة في اتجاه أرض الأديان بمصر القديمة، وركنتها "مايا" في المكان المخصص، وترجل الثلاثة في اتجاه المعبد، ولاحتهم عيون رجال الأمن الذين كانوا يعرفون بفتح المعبد للصلاة على يهودى مصري.

تقدمت "مايا" المسيرة الصغيرة، فهي تحفظ المنطقة جيداً بحكم عملها، دخلوا بهدوء من الباب الخشبي للمعبد، ورأوا الحاخام الفرنسي ومعه عدد من الرجال يرتدون الطاقية اليهودية، و"أديرا" تتبادل الحديث معهم.

عابت "مايا" جدها بنظراتها، فرد بسرعة:

- نسيت أن أخبرك بوصولها أمس..

كانت أعمدة المعبد الاثنا عشر تنتصب في صفين بوسط صالته، فيقسمانها إلى ثلاثة أقسام، ويرتفع الهيكل الذي يضم دولا ب التوراة عن أرض صالة المعبد قليلاً، ويصعد إليه بسلام من الرخام، وتحمل التركيبة الرخامية المستطيلة كتابات عبرية من الجهات الأربع، وتشير إلى أن "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعبد الله في هذا المكان ويصلي من أجل إنقاذ بني إسرائيل..

وفي الطابق الأعلى تقع شرفة النساء، ففي أثناء الصلاة يمنع الاختلاط ما بين الرجال والنساء ويخصص للنساء طابق مختلف.

تبادلوا السلام مع "أديرا"، ووقفوا جميعاً في انتظار الجثمان الذي وصل للمعبد في سيارة حمل الموتى بعد أن تم غسله وتكفينه، ونقل داخل المعبد في صندوق، وبعد وصوله بدقائق دخل "صالح" يبكي بحرقة، ومن خلفه "فتح الله المصري" جار "داود" وصديقه، ومعه جارته "ماري علي"، ومن خلفهم "الحاج حسين" وعدد من تجار المجوهرات والأحجار الكريمة.

فكر "داود" أن المشهد يبدو مثالياً فكل أبناء الديانات السماوية ممثلون في جنازة "يوسف"، وتخلصوا من أعباء انتماءاتهم الدينية، واختاروا في تلك اللحظة أن ينحازوا للإنسانية، فقد كانت المآتم من هذا النوع، تخلق عالماً من القواسم المشتركة ليكتشف أصحاب الديانات المختلفة أن من يخالفهم في العقيدة، لا يمتلك ذليلاً ملوناً، ولا يقيمون طقوساً سرية شيطانية فالكل في حضرة الموت سواء.

انتهت بسرعة مراسم الصلاة على "يوسف"، بعد أن تلا الحاخام صلاة "القاديش" خرج التابوت فألقى عليه "داود" شال الطاليت، ووضع الجثمان في سيارة حمل الموتى، وتوجه الركب إلى مقابر اليهود.

توقفت السيارات تحت صف من الأشجار، ونقل الجثمان إلى المقبرة بعد إخراجهم من التابوت وأهيل عليه التراب ومن فوقه "شال الطاليت" وتمت إجراءات الدفن بسرعة، وتبادل الجميع عبارات العزاء والدعاء للميت، وتحرك المعزون إلى سياراتهم، ليفاجأوا بعدد كبير من الصحفيين ومندوبي القنوات الفضائية في انتظارهم، ويهرعون نحوهم للحصول على كلمات من أهل المتوفى، ويبحثون عن معلومات مثيرة تتعلق ب وفاة اليهودى الأخير في مصر، فكل المتبقى من اليهود مجموعه صغيرة من النساء كبار السن.

كان "عمر النواوى" يراقب المشهد من بعيد، حتى يستطيع أن يتعرف على أقرابه من المسلمين ولم يستطع تحديدهم، وشدت انتباهه "مايا"، وهى تسير بجانب جدها، ولم تكن تحمل وجهاً مختلفاً، ولكن تحامل جدها عليها جعله يتيقن أنها واحدة من عائلة "يوسف نقاش"، وظل يراقبها حتى وصلت إلى سيارتها، وتوقفت برهة لتنظر ناحية الرجل الذي رآته في دار المسنين يوم وفاة جدها "يوسف".

تابع "عمر" اتجاه نظراتها، وتعرف فوراً على المقدم "مروان حمدى الكيلاني" رئيس قسم النشاط اليهودي بالأمن الوطنى، وأدرك أن وجوده ليس لتقديم واجب العزاء، بل لابد أن هناك قصة مثيرة وراء وفاة "يوسف"، جعلت "مروان" يتتحي جانباً، ويراقب المشهد بعيداً عن الأنظار.

تعجبت "مايا" لوجود الرجل الذي يبدو واضحاً أنه أحد رجال الأمن، وزادت دهشتها عندما وجدته يقترب منهم، متوجهاً ناحية جدها "داود"،

وعرفه بنفسه بصوت خافت، ثم عزاه وتبادل معه عدة كلمات، وانصرف بعدها، ولم تكن "مايا" وحدها من لاحظت وجوده، ولكنها شاهدت نظرات "أديرا" تتابعه باهتمام.

عادوا جميعاً إلى المنزل بصحبة جيرانهم وأصدقائهم، وهذه المرة وافقت "أديرا" على ذهابها معهم، وكانت تعتمد الحديث بالفرنسية أو الإنجليزية، مما جعلها تبدو في صورة أجنبية متعالية، وعندما جلست في أحد أركان الريسيشن، استعادت ذكرياتها، وهي تعدو خلف "سارة" ابنة عمها "داود" و"والدة مايا"، فقد كانت صديقتها الوحيدة، ويذهبان معاً إلى مدرسة الليسيه في باب اللوق، قبل أن يتخذ والدها قرار الهجرة من مصر، وفشل في إقناع شقيقه "داود" أن يأتي معه.

أفاقت "أديرا" من ذكرياتها على صوت "مايا":

- هل تريدن شايًا أم قهوة؟

هزت "أديرا" رأسها أنها لا تريد شيئاً، وتلفتت حولها، ثم سألت "مايا":

- أين كرسي الحداد الذي سيجلس عليه جدك "داود"؟

فهمت "مايا" أنها تقصد مظهراً من مظاهر الحداد اليهودي، فطوال الأيام السبع التي تعقب الدفن، يجب على من هو في حالة حداد أن يبقى في منزله، وعليه أن يجلس على مقعد منخفض بلا ظهر أو متكأين، ولا أن يخلق شعر رأسه أو لحيته، أو يلبس حذاءً جلدياً، ويحرم عليه علاقه الجنسية والاستحمام والعمل والاستماع إلى الموسيقى.

أجابتها "مايا":

- نحن كمسلمين يمكن أن نجلس في أي مكان وعلى أي مقعد ولن ينقص هذا من حزننا أبداً..

تلقت "أديرا" الرسالة، وهبت واقفة، وارتسمت على شفيتها ابتسامة باهتة
وقالت لـ "مايا":
- آه.. نسيت أنكم مسلمون..

-4-

هــدـيـل

عاد "مروان" إلى مكتبه بعد انتهاء الجنازة، وقبل أن يستدعي "خالد"، وجده يدخل من الباب، ويقول لاهثاً:

- أنت على حق.. هناك زميل قابل "يوسف" يوم وفاته..
جلس "خالد" ملتقطاً أنفاسه، بينما عقد "مروان" حاجبيه، وبدت على ملامحه نفاذ صبره، فأكمل بسرعة:

- هناك شاهد رأى رجلاً نحيفاً متوسط القامة يرتدي زي الشرطة، وهو يخرج من دار المسنين حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً.. الشاهد اسمه "طارق" يعمل كوافير في صالون التجميل المقابل للدار.. كان قد خرج ليدخن سيجارة، وجلس فوق أحد درجات السلم المؤدي للصالون، ومن موقعه كشف بوضوح مدخل دار المسنين، ورأى الرجل يغادر الدار مسرعاً..

سأله "مروان":

- وأين هو؟

ابتسم "خالد" قائلاً:

- في مكنتي بانتظار عرضه عليك..

لم تفلح رنة المرح في صوت "خالد"، أن تغير حالة الضيق التي يشعر بها "مروان"، وقد تأكد أنه أمام جريمة قتل معقدة ومتشابكة الأطراف، فعاد ليسأله:

- هل وصل رد أجهزة الأمن الفرنسية حول الباسبور؟

أجابه "خالد" وهويهم بالانصراف:

- لم يصلنا رد حتى الآن.. آخر اتصال قالوا إنهم يواصلون البحث..

بعد دقائق، انتبه "مروان" لطرقات خفيفة على الباب، ودخل النقيب "خالد" ومعه شاب نحيف يكاد يتعثر وهو يخطو داخل الغرفة، ويقف مرتجفاً، ويراقب رأس الضابط المنكفئة على مجموعة من الأوراق أمامه.

جلس "خالد" فوق الكرسي المقابل لـ "مروان" دون أن يتحدث، وساد الغرفة صمت ثقيل قطعه في النهاية، صوت "مروان" الهادئ:

- اقترب يا "طارق" ..

تقدم الشاهد خطوة، ووقف محاولاً السيطرة على ارتجافه.. طلب منه "مروان" أن يشرح ما رآه بالتفصيل، فحكى ما شاهده وأضاف عليه أن الضابط المزيف كان يتحرك بسرعة شديدة، حتى أنه انشغل للحظة، فوجده اختفى من الشارع تماماً.

سأله "مروان":

- هل يمكن أنه دخل عمارة أو فيلا في المنطقة؟

رد الشاهد بسرعة:

- لا مستحيل.. لكي يختفي بهذه السرعة لابد أن يكون دخل في الشارع المقابل، ووصل إلى شارع الأهرام الذي يمر به المترو.
- هل تستطيع أن تصفه؟
- لا يمكن..

جاءت إجابة "طارق" حاسمة، وتابع حين رmqه "مروان" بنظرات حادة:

- كان يبعد عني حوالي ثلاثين متراً تقريباً.. ويرتدي نظارة شمسية، وألقى بنظرة سريعة في اتجاهي، وتحرك بسرعة، ولم اهتم بمتابعته، خصوصاً أن الشارع يكون مزدحماً في هذا الوقت.. كل ما فكرت فيه أنه واحد من المجموعة التي تتولى حراسة المعبد..

نظر إليه "مروان" طويلاً، ثم أشار له بالانصراف.

التفت "خالد" ناحية "مروان" قائلاً:

- لم نستفد منه شيئاً..

- بالعكس روايته تؤكد أننا نسير في الاتجاه الصحيح، وأمام جريمة قتل..
اختفاء الرجل الفرنسي واختياره للشقة الملاصقة لدار المسنين، وآثاره
على الشجرة تؤكد أنه تدلى منها ليدخل الدار.. كلها أمور تشير إلى
جريمة نفذهها محترف يمتلك إمكانيات هائلة، وأن التخطيط للجريمة لم
يكن عشوائياً، بل تم الإعداد لها بدقة شديدة..

استمر "مروان" في حديثه بصوت مرتفع وهو لا ينتظر تعليقاً من "خالد":
- يكفي أنه ترك خلفه صورة من الباسبور الفرنسي، وهو متأكد تماماً أننا
لن نستطيع الوصول إليه من خلاله، ولا تنس قدرته الفائقة على التكرار،
والأدوات التي استخدمها على مستوى عالٍ من الدقة، حتى أن صاحب
الشقة لم يشك ولو لحظة واحدة أن أمامه رجلاً زيف ملامحه وأيضاً
حرصه الشديد على محو أي آثار داخل الشقة يمكن أن تدلنا عليه..

وضع "مروان" كفيه أسفل ذقنه، وارتن بظهره على مقعده قائلاً:
- نحن أمام قاتل محترف من طراز رفيع، والسؤال الآن ما دوافعه لقتل
اليهودي العجوز؟ وهل هناك علاقة بين الجريمة والأوراق المخبأة في
اللوحة؟ أم أن "يوسف" امتلك شيئاً آخر أكثر أهمية، وتكبد القاتل هذه
النفقات الهائلة للعثور عليه.. الغريب أن كل ممتلكات "يوسف" داخل
الدار لم تمس، ومن المؤكد أن القاتل فتش الغرفة جيداً ولم يترك أثراً..

انتفض "مروان"، وقال لـ "خالد" الذي انطلق خلفه:
- لا بد أن أجد تفسيراً يكشف سر "يوسف"، ولنبدأ بملفه في الأرشفة..
تساءل "خالد":

- وهل سنعثر على ملف له بعد كل هذه السنوات؟

قال "مروان" بثقة:

- كل شيء موجود في مكانه..

كتب "مروان" اسم "يوسف نسيم نقاش" على ورقة صغيرة، وناولها إلى موظف الميكرو فيلم، وطلب منه جمع كل ما يتعلق بـ "يوسف" وعائلته منذ ولادته وحتى لحظة وصوله إلى المشرحة، ثم عاد إلى مكتبه وهو يقول لـ "خالد":

- الآن أصبحنا نبحث عن قاتل غامض لا نعرف وصفاً للملاحه، وكل ما نعرفه عنه أنه أجنبي متوسط الطول نحيف، رياضي، ذكي، ولا يترك شيئاً للصدفة.. والأهم أنه مازال موجوداً في مصر ولم يغادرها حتى الآن..

سأله "خالد" في دهشة:

- كيف عرفت أنه لم يغادر مصر؟

ابتسم "مروان"، وهو يجلس إلى مكتبه:

- لأنه لم يجد ما جاء لبحث عنه.

جلس "خالد" ببطء، فقد كان يعرف جيداً معنى اللهجة المليئة بالثقة التي نطق بها "مروان" كلماته الأخيرة، وتعني أنه يمتلك دليلاً على كلامه، وصدق حدسه عندما فتح "مروان" أحد أدراج مكتبه، وأخرج مطروفاً شفافاً به مجموعة من الأوراق الصفراء التي يبدو عليها القدم.

قال "مروان":

- لا بد أن نفحص البصمات الموجودة على تلك الأوراق أولاً، قبل أن نبدأ في فك شفرتها.. عندي إحساس قوي بأن هناك سرّاً وراءها، وإلا ما خباها "يوسف" في ظهر اللوحة..

توقف "مروان"، ثم نظر إلى "خالد"، وقال بلهجة أمرية:

- أريد قائمة بكل من دخل مصر ممن يحملون جنسيات أجنبية، وعلى الأقل قبل مقتل "يوسف" بشهر، وأن تضم كل المعلومات عنهم، وطبعاً صور جوازات سفرهم.

سأله "خالد":

- ألم تضع احتمالاً أن القاتل الذي نبحت عنه ليس أجنبياً.. ألا يجوز أن يكون مصرياً؟

هز "مروان" رأسه، مستبعداً فكرة مساعدته:

- لا تنس أن صاحب الشقة تحدث مع القاتل، وأكد أنه أجنبي، وأيضاً جرسون الكافتيريا.. كما أن أسلوبه في العمل يبين أنه ينتمي إلى منظمة إجرامية عالمية..

صمت للحظات وكأنه يمهّد لـ "خالد" ما يرغب في قوله:

- هل تعتقد أنه ينتمي للمافيا؟!

قطع حديثهما دقائق سريعة على الباب، دخل بعدها موظف الميكرو فيلم، وهو يحمل "فلاشة" وتناولها "مروان" بسرعة، ووضعها في جهاز الكمبيوتر، وأشار لـ "خالد" بالانصراف، وتنفيذ تعليماته، وانهمك في تصفح ملف "يوسف" نسيم نقاش".

قرأ "مروان" معلومات مفصلة عن "يوسف"، منذ مولده وطفولته وشبابه وحتى دخوله إلى دار المسنين، ورحلاته خارج مصر، وأثار انتباهه أن معظم سفرياته كانت إلى العراق وفلسطين وسوريا والمغرب، وأنه كان يشارك في رحلات لسيناء، وأخرى لصيد البط بالفيوم، وسافر مرتين فقط إلى فرنسا.

أغلق "مروان" جهاز الكمبيوتر، ورأسه مثقل بالأفكار، واعتراه شعور بأن شيئاً غير عادي، يكمن في ملف ذكريات اليهودي القتل.



استيقظ "داود" من نومه مثاقلاً، وهو يشعر بأن قدميه تحولتا لقطعتي حجر، وعدم الرغبة في مغادرة فراشه، لكنه تذكر مواعده مع "مروان" في المحل، ولم يجد سبباً معقولاً ليزوره ضابط الأمن الوطني بعد دفن شقيقه.

ارتدى ملابسه ببطء شديد، وتوجه إلى حارة الصالحية، وبطول الطريق إلى محله، خايل عينيه بريق الأحجار الكريمة المعلقة على واجهات المحلات، وخروج أصحابها ليقدموا له واجب العزاء، وظل "الحاج حسين" يرمق خطوات "داود" البطيئة، حتى ارتقى فوق مقعده الجلدي الوثير، فقال له:

- البقية في حياتك.. كلنا لها..

بدأ "الحاج حسين" فاصلاً من الثروة اليومية التي اعتادها "داود"، حول البيع والشراء وارتفاع الأسعار، وأغرقه بحكايات عن زبائنه الذين يترددون عليه طلباً للعلاج بالأحجار التي يصفها لهم..

ابتسم "داود" وقال له:

- هناك ضيف مهم سيأتي بعد قليل.. جهز الغرفة الداخلية لاستقباله، ولا أريد أن يقاطعنا أحد..

هز الرجل رأسه، واتجه إلى نهاية المحل، لينفذ تعليمات "داود"، وأدرك أنه كان شاردًا عن حكاياته.

خيم الصمت على المكان، وظلت عينا "داود" معلقتين بالباب في انتظار قدوم ضيفه المهم.

تلمل "داود" في مقعده بعد أن لمح "مروان" بقامته الرياضية، يخترق الحارة بخطوات ثابتة، ويلقي بنظراته على المعروضات، حتى توقف أمام المحل، متطلعاً إلى اللافتة المكتوب عليها "بهرمان" ثم دفع الباب الزجاجي، ملقياً التحية على "الحاج حسين" الذي أدرك أنه الضيف المنتظر.

نهض "داود" مرحباً بضيفه، واصطحبه إلى غرفة المكتب الصغير في نهاية المحل، وهناك شكره "مروان" بأنه لا يريد أن يشرب شيئاً، وبادر مضيفه بسؤاله عن معنى "بهرمان" فأجابه مبتسماً:

- الاسم اختاره جدي منذ زمن طويل، ويعني الزمرد..

هز "مروان" رأسه، وسأله:

- منذ متى تعيش عائلتكم في مصر؟

رجع "داود" بكرسيه إلى الخلف، ووجد الفرصة مواتية لسرد حكايات متوارثة:

- عائلتنا تعيش في مصر منذ حوالي ألف عام تقريباً، وهو ما جعلها مصرية

صميمة، بعد أن هاجر جدنا الأكبر من العراق، وكان من أتباع "عنان

بن داود" مؤسس الطائفة القرائية، وهرب من اضطهاد الربانيين لهم،

حيث شنوا حرباً لا هوادة فيها ضد القرائين..

حدث ذلك عندما أعلن "عنان" مذهبه ورفضه "التلمود"، وأن على اليهود

الإيمان "بأسفار موسى" الخمسة فقط، وتعرض لحرب شعواء من حاخامات

اليهود، واتهموه بالكفر، وطلبوا من الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور"

سجنه، لأنه كفر بدينه، وأنهم لن يرضوا به رئيساً عليهم بعد وفاة عمه،

وسيختارون بدلاً منه شقيقه ليصبح رأس الجالوت.

استجاب الخليفة لهم، لأنه لم يكن يتدخل في الأمور الشرعية لليهود، فأصدر

أمراً بسجنه والحكم عليه بالإعدام نزولاً على رغبتهم.. في سجنه التقى "عنان"

بالفقيه الإمام "أبو حنيفة النعمان"، الذي سُجن لرفضه أوامر الخليفة لتولي منصب قاضي القضاة..

عندما استمع الإمام "أبو حنيفة" لحكاية "عنان"، أشار عليه أن يخاطب الخليفة، ويشرح له الأمر بأنه ليس متمرداً ولا كافراً، كما ادعى عليه علماء اليهود، وأنه ليس بثائر على رأس الجالوت، إنما هو صاحب دين قائم بنفسه لا علاقة له بدين اليهود، وأنه يخالفهم في أمور تقربه من الإسلام وتبعده عنهم، ومن حق جماعته التي ترأسها قبل دخوله السجن، أن تتمتع بحرية المعتقد شأن سائر أهل الذمة، وهو بذلك لم يرتد عن اليهودية، وإنما هو باحث ومنقب عن أصلها التوحيدي.

التقط "داود" أنفاسه، وهو يسترجع تاريخ عائلته البعيد التي كانت من أتباع "عنان" وبدأ على "مروان" أنه يستمع بانتباه شديد، لعل هذا الماضي يلقي بشعاعه على الحاضر، ويبدد العتمة التي تحيط بوفاة "يوسف" الغامضة.

أكمل "داود" حديثه:

- قبل الخليفة الاستماع إلى "عنان" الذي خر ساجداً أمامه، وسأله: سيدي هل أنت ملكت اخي على دين واحد أم على ديارتين؟ فأجابه المنصور: على دين واحد، فقال عنان: ولكن أنا وأخي على ديارتين التقاؤهما في نقطة واحدة وهي التوراة التي نؤمن بأنها أوحيت وكتبت وشكلت على يد نبي الله "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ..

المهم أن "المنصور" عفا عن "عنان" الذي بدأ ينشر مذهبه، مخالفاً الربانيين، فكان متشدداً في أمور الطهارة والنجاسة، ويلزم من يريد تعلم التوراة أو الصلاة بأن يخلع نعليه ويغسل يديه وقدميه ويلتزم الطهارة، وجعل الصلاة فرضاً واجباً على كل ذكر، ابتداء من بلوغه عشر سنوات وجعل وجوب تأدية صلاة الشكر

لكل من أنقذه الله من مصيبة، أو منَّ عليه بالنعمة والفضل، وهو ما يتشابه مع "سجدة الشكر" عندنا..

نظر إليه "مروان" مستفهماً، فأوضح "داود" بلهجة مستنكرة:

- عندنا نحن المسلمين.. المهم تفرغ "عنان" لصياغة مذهبه، وجعل من يؤمن بقوله ويتبعه، لا بد أن يعتقد بستة أركان للإيمان هي الاعتقاد في الألوهية، وأن الله واحد لا إله غيره، وبرسالة "موسى" والتوراة والقبلة وموقعها بيت المقدس، ويوم القيامة والحساب والعقاب..

توقف "داود" كأن تذكر شيئاً.. للحظات انبثق من الماضي وجه جده الكبير "نقاش ناهور" كما صورته رسوم باهتة تناقلتها العائلة منذ مئات السنين، وجعلته الذكرى يسترسل في رواية الحكاية التي يعرفها كثير من اليهود القرائن في مصر، وكيف أن عائلته تحظى باحترام كبير بينهم:

- كان جدي "نقاش" ممن اتبعوا دعوة "عنان"، وكانت زوجته ابنة لأحد كبار الحاخامات الربانيين، ورفضت أن تتبع مذهب زوجها الجديد، حتى أنها اتفقت مع والدها على محاولة إعادته لمذهبهم ولو بالقوة، فهجرته إلى منزل أبيها، لتجبره على ذلك، فحاربوه بشتى الوسائل، وأحرقوا له مخازنه المليئة بالأقمشة الحريرية التي كان يتاجر فيها..

عندما شعر "نقاش" أن حياته في خطر، حمل ملابسه وما تبقى من ثروته، وانطلق متستراً بالظلام، وهرب متوجهاً إلى مصر، واستقر بها، ووجد فيها عدداً من أتباع "عنان" يعيشون في الإسكندرية فاندمج بينهم، وزوجوه واحدة من فتياتهم الجميلات، وأنجب منها، وتوسعت أعماله في تجارة الحرير، وأضاف إليها

تجارة الأحجار الكريمة التي توارثتها العائلة بعد أن ترك أفرادها الإسكندرية، وجاءوا للقاهرة في زمن الدولة الفاطمية.

ابتسم "داود" وهو يوجه نظراته ناحية "مروان" قائلاً:

- كما ترى نحن مصريون منذ مئات السنين، وعشنا فيها، ولم نرغب في تركها أبداً حتى الذين خرجوا منها، وخصوصاً من أبناء طائفة القرائين رفضوا الذهاب إلى إسرائيل، وهاجروا إلى أوروبا أو أميركا..

نظر إليه "مروان" بدهشة، وكيف أن ذاكرة هذا العجوز تختزن تلك التفاصيل بكل هذه الدقة، وقرر أن يباغته بسؤاله المؤجل:

- لماذا تركت ديانتك وأعلنت إسلامك بينما تمسك المرحوم "يوسف" بيهوديته؟

هز "داود" رأسه بعد أن لمعت في ذاكرته كل الأحداث التي مر بها، وأدرك أن إجابته هي ما يسعى إليها ضابط الأمن الوطني منذ البداية.. تنهد وهو يجيبه:

- الحياة اختيارات.. من يبحث عن الله سيجده بداخله.. عندما اقتنعت بهذه المقولة كان إعلان إسلامي أمراً يسيراً على نفسي.. وشعرت وقتها أن هذا الأمر يخرجني من دائرة صراع مريرة وشكوك بغیضة حاصرني لفترة ممن كنت أحبهم ويحبونني..

اخترت وقتها أن أنفض عن جسدي نظرات صامتة، لكنها تلقي عليّ باتهامات تمزق روحي.. نسي كثيرون أنني مصري تماماً، وحاسبوني على جرائم "بيجن" وطموح "جولدا مائير".. حاولت كثيراً أن أشرح أنني مصري وديانتي يهودية، ففشلت حتى في إزاحة نظرات الاتهام التي تلاحقني..

وقتها اتخذت قرارى، بأن أتحول لمسلم ينفذ تعاليم الله وحده لا شريك له، وأنا متيقن بأن الله سيساعدنى.. بعدها تزوجت من ابنة عائلة تحولت من اليهودية للإسلام، وهو أمر لجأت إليه كثير من العائلات اليهودية وقتها، وأنجبت ابنتى الوحيدة "سارة" التى تزوجت من شقيق "إسحق".. طبعاً أنت تعرفه..

أوماً "مروان" برأسه، فأكمل "داود":

- توفيت زوجتى بعد عام واحد من زواج "سارة"، وتوفيت ابنتى بعد إنجابها "مايا" بسبع سنوات، وأصبحت حفيدتى هى القوة التى تمنحني الحياة، ولم تعد مجرد حفيدة، بل ابنتى وصديقتى وحياتي كلها، فبعد أن رحل كل من أحببتهم، أصبحت الحياة مكاناً بارداً وحزيناً، ولم ينقذ روحي من الفناء سوى وجود "مايا".

لحظات من الصمت، أعقبت جملة الأخيرة، والسؤال الحائر لـ "مروان" الذى أجلته سطوة الذكريات، وأدرك "داود" أن هذا الضابط لم يأت ليسمع منه تاريخ العائلة، بل يبحث عن شيء ما يدور حول "يوسف"، فقرر أن يسأله دون مراوغة:

- "مروان" بيه.. ماذا تريد بالتحديد؟ وهل ما تريده له علاقة بـ "يوسف" ووفاته؟

منذ البداية، كان "مروان" يعلم أنه أمام رجل يتمتع بالذكاء وتاجر مخضرم يجيد كل فنون المراوغة، فأجابه:

- طبعاً أنت تعلم أن سقوط "يوسف" من أعلى السلم يحتمل عدة تأويلات.. ولا يمكن أن نترك واحدة منها بدون إجابات شافية..

اتسعت عينا "داود" من الدهشة، فقد فهم تلميحاته، وقال له:

- أنت تقصد أن هناك احتمال أن يكون سقوطه بفعل فاعل ..

شعر "مروان" بالارتياح، لتوجيه دفعة الحديث للناحية التي يريد لها، واقترب من وجه "داود" هامساً: شقيقك لم يمت على فراشه، بل مات وهناك جرح في رأسه، وسالت منه دماء، ولا بد أن تتأكد أن وفاته طبيعية..

غشا صوت "داود" حدة لم يخفها:

- بكل تأكيد وفاته طبيعية فلا يوجد إنسان على وجه الأرض، يرغب في إيذاء "يوسف" ليس لأنه عجوز فقط، بل لأنه طيب جداً، واعتزل الناس منذ سنوات طويلة، ولم يكن يزوره سواي و"مايا" و"إسحق" أحياناً.. وأصبحت القراءة والموسيقى هي كل ما كان يهتم به في الحياة..

باغته "مروان" مبتسماً:

- و"أديرا" ألم تكن تزوره؟

انتبه "داود" فقد فاجأه السؤال، وأدرك أن الضابط يعرف الكثير عنهم، وقال

باقتضاب:

- على فترات بعيدة جداً..

صمت "مروان"، فأكمل "داود" متنهداً:

- طبعاً أنت تعرف أن "أديرا" ابنة شقيقنا "إبراهيم"، وقد هاجر إلى فرنسا في بداية الخمسينيات، وغيّرت ابنته وجهتها وعاشت في لندن.. أكمل ولا حضرتك عارف الباقي؟

تجاهل "مروان" سؤاله:

- وماذا عن علاقة "يوسف" بـ "إسحق"؟

- أحياناً كان "إسحق" يزوره، ودائماً يسخر منه "يوسف"، ويقول له "طب داود" غير الطريق، ولكنه سيصل في النهاية إلى الله في ملكه، ولكن أنت وأبوك أين ستذهبان بعد أن طرد الله ماركس من الجنة والنار وكان "إسحق" يغرق في الضحك كعادته ويقول له سنذهب إلى باريس..

ابتسم "مروان" وقال:

- أنت ترسم لـ"يوسف" صورة مثالية جداً، ولا يمكن لشخص أن يعيش حياته بدون أن يكون له أعداء!

تعجب "داود" لإصرار "مروان" على البحث عن أعداء مجهولين لـ"يوسف"، وشعر أن من واجبه الدفاع عن شقيقه:

- أنت تعتقد ذلك لمجرد أنه يهودي، وهو ما يعني أنه شرير لا يكف عن تدبير المؤامرات..

إذا كنت تري أن تلك التصورات ستجعلك تصل إلى ما تبحث عنه، فأنت مخطئ تماماً، فـ"يوسف" كان يمتلك قلب طفل، ولم يتشاجر مع أحد طوال حياته.. كان رجلاً تسكنه أحلامه، ولم يعيش سوى الموسيقى والقراءة ورحلات السفاري التي كان يذهب فيها ليتأمل مخلوقات الله، فقد كان يعيش الصحراء، ويقول إن صمتها يعلم البشرية الحب، ولكن إذا سكنوها سيملاؤها بالكراهية والحق، وتلك هي حكمة الله في خلق الصحاري.

أمعن "مروان" النظر في وجه "داود" الذي كساه ظل حزين، بعد تذكره لكلمات شقيقه..

- هل تذكر رحلاته والبلاد التي كان يسافر إليها؟

ابتسم "داود" ابتسامة توشي بالانتصار:

- المرحوم سجل رحلاته كلها في صور تذكارية، وجمعها في ألبوم ضخمة، تركه عندي في المنزل، ويضم عدداً كبيراً من الصور التي تجمعتها في

طفولتنا وشبابنا ومع أبي وأمي، وكان دائماً يتفاخر بهذا، ويقول أنا الوحيد الذي أجمع تراثاً أصررتهم جميعاً على إهداره..

لمعت عينا "مروان" ببريق سرعان ما انطفأ، واختار كلماته بعناية حتى لا يشعر "داود" أنه وقع في فخ نصبه له خلال أكثر من ساعة، ونهض واقفاً وصافحه قائلاً:

- أتمنى ألا أكون سببت لك ضيقاً بالخوض في ذكريات عائلية.. ولكن لا بد أن تقدر موقفي، فأنا في النهاية أحاول البحث عن الحقيقة..

تجمد "داود" في مكانه، بعد أن أدرك أن تلك الزيارة لن تكون الأخيرة، وتأكدت ظنونه حين طلب منه ضابط الأمن الوطني تدبير موعد للقاء "مايا" و"إسحق" في المنزل، وتركه غارقاً في أفكاره.



اختفى ضوء النهار، بينما "عمر النواوي" مازال جالساً إلى مكتبه، وعينه معلقتان بشاشة الكمبيوتر، وأصابعه تحرك الماوث، متنقلاً ما بين المواقع، ومحاولاً جمع أكبر قدر من المعلومات عن عائلة "نقاش" وأخيراً عثر على إشارات قليلة عن أصولها العراقية، واستقرار بعض أفرادها في مصر.

كان لديه يقين بأن وجود "مروان" في الجنازة، لا بد أن يكون وراءه قصة مثيرة تتعلق بوفاة اليهودي العجوز، رغم أن تقرير الطب الشرعي الذي حصل عليه من أحد مصادره داخل المصلحة، يثبت أن الوفاة طبيعية، ونتاجاً عن سقوطه من أعلى السلم، وارتطام رأسه بالأرض.

شعر "عمر" بالإرهاق يتسرب إلى عينيه، فأغلق الكمبيوتر، وأدرك أن المعلومات التي جمعها ليست كافية، وأن أمامه رحلة استقصاء طويلة، فجمع أوراقه داخل حقيبته، وأسرع في العودة إلى منزله، ليكون بجوار شقيقه "سالم"،

الذي يساوره القلق عليه، لاسيما بعد رجوعه المفاجئ من إيطاليا، ومعه طفلاه "علي" و"فاطمة".

عندما دخل من باب الشقة، رأى والدته تعد مائدة الطعام، ويتقافز حولها حفيداها، وحين ألقى عليهم التحية، قالت له بصوت خافت:

- أنا قلقني كل يوم بيزيد على "سالم" .. حاول تتكلم معا..

انتقلت إليه عدوى القلق من عينيها المحترقتين بالدموع، وأدرك أنه دخل المنزل في الوقت المناسب، فاتجه إلى شقيقه الجالس في الأنتريه العتيق الذي احتل ركناً من الصالة، ووجده مستغرقاً في قراءة الصحيفة، وحين انتبه لخطواته، حياه بذهن شارد، فجلس "عمر" قبالة، وقال:

- مالك يا "سالم" فيه حاجة حصلت في إيطاليا؟

حاول "سالم" أن يستعيد طبيعته المرحية:

- لا تقلق على أخيك..

أدرك "عمر" أن شقيقه يخفي شيئاً يتعلق بزوجه الإيطالية "كلارا"، ولمح ابتسامته تتلاشى، وهو ينظر إلى "فاطمة" و"علي"، وهما يجلسان مع جدتها إلى المائدة في انتظارهما..

كانت "فاطمة" في السادسة من عمرها، وتحمل ملامح أمها الإيطالية، وشعر أبيها الأسود المجعد، بينما علي يصغرها بعامين، ويشبه جدته "نبيلة"، ويمتلك أنفها الصغير، وشعرها البني الفاتح الذي يميل إلى الأشقر الداكن.

أثارت عودة "سالم" قلق والدته، خوفاً من أن يكون قد تشاجر مع زوجته، التي ارتبط بها بعد قصة حب ملتهبة، بدأت في أروقة "الفاتيكان" التي كان

يعمل بها كمرشد سياحي، وبعد أن اتفقا على الزواج، أصر على أن تحضر معه إلى مصر، للتعرف عليها، والحصول على موافقتها.

لم تكن "كلارا" فتاة عادية، فوالدها "روبرتو جيانى" واحد من كبار رجال الأعمال في إيطاليا، وبارك زواجها من شاب مصري، وربطته بـ "سالم" صداقة واحترام، وكانت تمتلك جاليري لبيع الأنثيكات والتحف في شارع "فيا دي كوروناي" الذي تتراص على جانبيه محلات بيع القطع الأثرية والمفروشات واللوحات القديمة..

ورغم ثرائها الشديد، اشترط "سالم" أن ينفق على منزله، ويغطي احتياجاتها حسب مقدرته، ووقتها شعرت بالسعادة، وتأكدت كم كان صادقاً في حبه لها، وعاشا حياة مستقرة، وأنجبا طفليهما، وكانت تسافر معه إلى مصر في الإجازة الصيفية، وتعود بعد أيام إلى عملها، ليبقي هو وطفلاه مع والدته التي تنتظرهم من عام إلى آخر بفارغ الصبر.

تلك المرة، أخبر "سالم" والدته وشقيقه أنه سيستقر في مصر، ويبحث عن مدرسة مناسبة لطفليه، واعترت الدهشة ملاحظتهما من قراره المفاجئ، وأخفقا في الحصول على إجابة شافية، وبعد أيام استطاعت الأم أن تكشف جزءاً من اللغز، وحكت لـ "عمر" عن المكالمات التي تلقاها "سالم" من "كلارا" باللغة الإيطالية، ولم تفهم منها حرفاً، ولكنها أدركت أن صراخ ابنها في زوجته، يعني أن بينهما خلافات شديدة..

الأمر الذي زادها حيرة، أن "سالم" تلقى مكالمات أخرى من "كلارا"، ولكنه تحدث معها بهدوء شديد، بل طلبت منه أن تكلمها، وبادرتها بالتحية والسؤال عن صحتها بلغة عربية ركيكة، واستأذنتها أن تطمئن على "فاطمة" و"علي"،

وتسمع صوتيهما.. وتكرر اتصال "كلارا" يومياً ويرد عليها "سالم" بكلمات مقتضبة، ثم ينادي على طفليه، ويتركهما يتحدثان مع أمهما، وهو ينظر إليهما بحزن مشوب بالقلق.

حاول "عمر" أن يكسر حاجز الصمت على مائدة الطعام، وقال:

- أخبار شقتك إيه؟

رفع "سالم" وجهه الوسيم، وقد شابته ملامحه علامات حزن دفين، ولم تفلح نبرات صوته الهادئ في إخفائه:

- العمال انتهوا من طلاء الجدران ولم يتبق سوى وضع الأثاث..

كان "سالم" قد بدأ في تجهيز شقته في الطابق الثالث بنفس العمارة التي يمتلكونها، وكان هذا مؤشراً لأمه وشقيقه أنه لا يتتوي الرجوع مرة أخرى إلى إيطاليا.

خيم على المائدة صمت ثقيل، لم يكن يقطعه سوى مناوشات الطفلين، ونظرات متبادلة بين "عمر" وأمه التي حاولت أن تفتح حديثاً، حول مهارتها في صنع صينية الكوسة بالباشميل، فنظر إليها "سالم" وكأنه على وشك البكاء:

- تسلم إيدك يا أمي..

أنهى طعامه بسرعة، وعاد ليجلس في الأنتريه، واستغرق في كتابة ملاحظات بأجندة لا تفارقه، ويسجل فيها كل ما يتتوي القيام به ومصرفاته، بخط دقيق ومنظم كعاداته في كل شيء، ولم يتنبه إلى "عمر" الذي جلس قبالة، وأشعل سيجارة، ونادي على أمه بصوت مرح:

- الشاي من فضلك يا حاجة..

حمل الطفلان الأطباق ليساعدا جدتهما، فحذرتهما من التعثر بها يحملانه، وعادت من المطبخ حاملة صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاي بالنعناع،

وانضمت إلى ولديها في جلسة الأنتريه الذي أصرت على عدم تغييره، لأنه من رائحة زوجها المرحوم "أبو سالم"، وناولت عمر كوب الشاي، بينما تركت الكوب الآخر ليبرد كما يحبه "سالم"، وكان منهمكاً في تدوين ملاحظاته..
دأبت الحاجة "نبيلة" القلادة المدلاة على عنقها التي لا تخلعها أبداً، فبداخلها صورة المرحوم، وسألت ابنها "عمر":

- ما هي أخبار قضية الرجل اليهودي؟
- عندما طرحت سؤالها، توقف "سالم" عن الكتابة، ورفع رأسه متسائلاً:
- أي رجل يهودي؟
- رجل يهودي عجوز توفي في دار للمسنين بجوار معبدهم.. وأخوك أول واحد نشر الخبر..
- أدار "سالم" رأسه، واستقرت نظراته تلقائياً على "عمر" الذي شعر بسعادة، لأنه استطاع في النهاية أن يحظى باهتمام شقيقه، وقال:
- لديّ اعتقاد أن وراء موته جريمة قتل وليس كما يقال إنه تعثر وسقط من أعلى السلم..
- احمرّ وجه "سالم"، وهو يضع كوب الشاي على المائدة، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف يده، وسأل شقيقه:
- هل مازال هناك يهود في مصر؟

حكى "عمر" لشقيقه كل ما حدث منذ عرف بالخبر، وحتى رؤيته للضابط "مروان" في المقابر، وعند الجملة الأخيرة، امتقع وجه "سالم"، ووقف قاصداً غرفته، وأغلق الباب خلفه، ليترك والدته وشقيقه في حالة من الذهول.
قطعت "نبيلة" الصمت الذي خلفه "سالم"، وقالت لـ "عمر":

- أنا متأكدة أن هناك مشكلة كبيرة بين أخيك وزوجته.. رغم أنه أخبرني بأن "كلارا" ستقسم إقامتها بين مصر وإيطاليا، لكنني غير مقتنعة بهذا..

لم يجد "عمر" ما يعلق به على كلامها، وانشغل بقضم أظافره كعادته كلما شعر بالحيرة والقلق.



انتشرت رائحة بارفان صارخة في مدخل العمارة الرخامي، وانتفض حارس الأمن واقفاً، عندما رأى "جمال"، وأدرك من اللحظة الأولى أن الزائر يقصد شقة الفنانة "هديل"، فكل زوارها لم ير لهم مثيلاً، ففتح له باب المصعد، ضاعطاً بإصبعه على رقم الطابق.

توقف "جمال" قليلاً أمام الباب المطلي بلون ذهبي، وضغط على الجرس، فظهرت صورته على الشاشة، وفتح بعدها الباب آلياً، حيث يتصل بجهاز تحكم داخل الشقة، فدخل ليجد نفسه واقفاً في بهو تتوسطه سجادة حريرية ذات زخارف لزهور ملونة، فظن أنه يدوس بقدميه على أزهار حقيقية.

انتزعته من أفكاره صوت ضحكة أنثوية مجلجلة، لتصبح دليلاً في الوصول إلى الريسبشن الواسع الذي تتناثر فيه قطع الأثاث الفرنسية، وتعلوها تابلوهات زيتية وأبليكات من النحاس المشغول، وفي الأركان تعلو الموائد تحف رائعة من الفازات الجالية والشمعدانات والمشغولات الفضية.

لم يستطع "جمال" أن يخفي انبهاره، ليس لشراء المكان فقط، بل للذوق الرفيع والتناغم بين ألوان الأثاث والجدران والستائر.. ذوق لم ير مثله إلا في قصور أصدقائه من أولاد الحسب والنسب الذين تتوارث أمهاتهم قطع الأثاث الفرنسية والتحف النادرة.

هبت من المطبخ رائحة قوية مفعمة بالسمن البلدي والتوابل القوية، لنتزعها من المشهد الراقي، ويرى "عوض" آتياً من نهاية الريسبشن، ليخفي بقبحة بهاء المكان، ويبدو في جلبابه الواسع المفتوح من عند الصدر كعلامة سبعة، كمنسج هرب من عبودية مارد جبار.

أشار له "عوض" أن يتبعه، فرأى "جمال" وجه "هديل"، كومضة حجبها رأس المسخ السائر أمامه، وحين ارتقى بجوارها، سطعت في عينيه بكامل جمالها وفتنتها، وهي ترحب به بدلال أنثوي دون أن تنهض، فانحنى وقبل يدها، وجلس قبالتها، واضطربت مشاعره بين الغيرة من شريكه، والألم من ضعفه المزمّن.

بدأت "هديل" كملكة متوجة، ويحيطها الرجال الأكثر تأثيراً في حياتها، وبفضلها أصبحت نجمة مصر الأولى، وأبهرت الوسط الفني بمواهبها المتعددة، وهي ترقص مثل ثعبان كوبرا يتلوى متحرراً من سلة ساحره الهندي، وتتقمص الشخصيات الدرامية، وكأنها تستعيد قبائل من الجان، فتُسكنها جسدها، لتُخرج منها ما تريد تقمصه من أرواح البشر، حتى الحيوانات كانت قادرة على تقليد أصواتها بمهارة فائقة.

لأول مرة خرجت "هدية" - "هديل" فيها بعد- من عزبة أبو حشيش كخادمة في منزل احد تجار الخردة الكبار الذي لمحها من بين أكوام الخردة التي كانت تغرق في وسطها.

سحبها خلفه لتعمل في منزله.. أياماً معدودات وأدركت أن فرصتها الذهبية قد حانت، بعد أن تمكنت من فك شفرة نظراته الملتهبة التي كانت تحترق جسدها.

الحلال كان شرطها الوحيد.. في شقة صغيرة بعيدة أخفاها عن اعين أبناء العزبة وزوجته، لم يكن يتسلل إليها في وحدتها سوى "منى" التي كانت تنتظر بالساعات لحظة مغادرته المنزل لتصعد هي.

لم يكن كريماً معها بما يكفي لتأمين مستقبلها المضطرب.. رفض حتى مجرد اقتراح بأن يشتري لها الشقة.. اكتفى بدفع الإيجار ونفقات الطعام وبعض الحلي

الذهبية.. وعندما غاب عنها عدة أيام لم تجد أمامها سوى أن تذهب إلى منزل سيدتها القديمة بحجة أن "العشرة متهنوش إلى على ولاد الحرام".

فوجئت يومها بالزوجة ترتدي ثياب الحداد وبأقاربه يحيطون بها محاولين التهامها مع أطفالها الصغار والهيمنة على ثروته الضخمة، بلمحة سريعة أدركت "هديل" أن إعلانها عن وجودها في حياة الزوج سيصبح مصيرها عنواناً في صحيفة مغمورة عن العثور على جثة فتاة ملقاة داخل صندوق قمامة.

انسحبت بهدوء.. بعد أن قدمت واجب العزاء لتحصي ثروتها الصغيرة. انفلتت "هديل" من الصدمات والجروح، وليالي الفقر الطويلة، وتمرد جسدها الفائر على العيش في منزل من الصفيح، ونش العيون الجائعة، وأدركت أنها على موعد مع حياة أخرى، وحين تعثرت في طريق "جمال" و"عوض"، اصطحبت معها "منى" جارتها وصديقة عمرها، والتي تعلمت الرقص على نقراتها في طفولتها، وتحولت إلى حارستها الوفية في زمن الشهرة والثراء، وكاتمة أسرار زيجاتها من أمراء عرب وتجار وأثرياء من كل جنسيات العالم.

نصحتها "منى" أن تحول ثروتها المتراكمة من بيع جسدها إلى عملة صعبة، وسبائك ذهبية تخفيها في خزانة ضخمة خلف دولا ب ملابسها، وعندما تحركه بضع خطوات، يظهر موطن كنزها، كما قالت لها حارستها الوفية:

- لا تجعلي سرك مفصوحاً في حسابات بنوك يتابعها موظفون، ويرسلون بها كشوف حسابات سيقروها في يوم من الأيام جار فضولي أو بواب حقوق..

اعتذر "جمال" عن تناول الطعام مع شريكه وزوجته، فناولته "هديل" زجاجة من النبيذ، وقالت في دلال:.. ده أفخم نوع نبيذ فرنسي.. جاءني هدية من يومين..

نظر "جمال" إلى الزجاجة، وقال:

- أه "شاتوكلودو فوجوه" نوع ممتاز..

انتبه "جمال" إلى ظل ينعكس من الخلف على المائدة الزجاجية أمامه، فانتفض جسده، والتفت برأسه، ليجد "منى" واقفة تنظر إليه بابتسامة صفراء، وتحمل صينية عليها أطباق صغيرة من الكريستال مليئة بالمكسرات والجمبري وشرائح الجبن السويسري، وأثار رعبه عاصفة من الضحك، اختلطت فيها رنات ضحكة "هديل" وقهقهات "عوض" التي تشبه قرقرة سوط يهوي على جسد حيوان، فيهدر بالصراخ والأنين.

تلاشت ضحكة "هديل"، ولم تترك الفرصة، دون أن تصب لعناتها على حارستها الوفية:

- بطلي تتسحبي زي الحية.. وأنتِ شبه البومة كده..

لم تغضب "منى" من سيل الإهانات المتواصلة، بل اتسعت ابتسامتها، وهي ترى "هديل" ترد إلى طبيعتها، وتربيتها المتدنية في عزبة أبو حشيش، وتنزع قناع النجومية غير عابئة أن يرى الآخرون وجهها الحقيقي، بل يبدو أنها تشعر بارتياح شديد، كلما دفعتها أن تفلت قذائفها أمام الغرباء، وكأنها تزيح عنها غطاءً ملوناً حريراً، يخفي تحته أكواماً من القمامة، ورغم جمالها الساحر، وبراعة خبراء الموضة والتجميل والإتيكيت في منحها طلة تفوقت بها على نجومات هوليوود، إلا أنهم أخفقوا في محو نبرة صوتها القبيحة، حين تتخلى عن دلالها الزائف، وتبدأ في وصلة من الردح.

حكاية "هديل" يعرفها كل العاملين في الوسط الفني، ويتندرون بها في جلساتهم الخاصة، ولكن سخرتهم تنهاوى أمام إيرادات أفلامها، وحقيقة أنها أصبحت نجمة الشباك الأولى، وأيقونة إغراء يتسابق إليها الجمهور، وكانت

تستطيع أن تملك العالم بصمتها، وكفت عن إثارة الاشمئزاز من حديثها بلغة سوقية في لحظات غضبها.

صعدت "منى" إلى الطابق الأول، ووقفت برهة لتلقي نظرة على "هديل" وضيئفيها، وبدوا لها كثلاث بقع داكنة تلوث ثوباً أبيض من أفخر أنواع الحرير، وهم يجلسون في الرئيسيشن الذي أشرف على تصميمه واحد من أشهر مهندسي الديكور في مصر.

صبغت كؤوس النبيذ الفاخر وجوههم بحمرة داكنة، لكنها لم تفلح في أن تغيب عقولهم وتناثرت أصداء نقاشهم بها اجتمعوا من أجله، وأزاح "عوض" يد "هديل" التي طوقت عنقه، وقال:

- وصول "إديرا" من لندن وحكاية قريبها اليهودي ممكن يسبب لنا متاعب..

تجرع "جمال" كأسه دفعة واحدة، وقال مستنكراً:

- حضورها الجنازة أمر طبيعي ولا يستدعي كل هذا القلق.. خيلنا في المهم.. تجهيز الفتيات وتسفيرهن أصبح يحتاج لمصاريف كثيرة.. والمشكلة أن بعض السفارات تعقد منح التأشيرات، حتى للمتزوجات منهن.. ولا بد من ستار جديد لتسهيل خروجهن للعمل بالخارج.. قاطعه "عوض":

- ستار جديد من غير وجع دماغ ومساءلة قانونية.. عندك فكرة؟

ابتسم "جمال" قائلاً:

- طبعاً.. أرى أن الوقت حان لإنشاء شركة إنتاج فنية، وتقوم بتقديم أعمال حقيقية، وتشارك فيها الفتيات، وبالتالي يسهل سفرهن للخارج

حتى بدون عقود زواج.. ملتفتاً ناحية "هديل" ومهمتك اختيار فتيات
لا يحتاجن لجهد كبير في تجهيزهن..

أومات برأسها موافقة وقالت:

- عشرات الفتيات يتوسلن لي على فيسبوك يومياً، لمساعدتهن في دخول
مجال الفن، وسأختار من تصلح منهن، وعندى مجموعة من
السيناريوهات الجاهزة، وسأبدأ فوراً في إجراءات تأسيس الشركة..

في هذه اللحظة غمرت "عوض" موجة جديدة من القلق، وشعر أن الحديث
يبتعد عن مساره، فعاد ليقول:

- أنا أشعر بقلق حقيقي من تسليط الضوء على "أديرا" في وفاة عمها،
واحتمال أن يكشف عن الشبكة كلها..

وقعت كلماته على "جمال" كنذير سوء، فترك الكأس من يده وقال:

- أريد أن أمشي قليلاً..

استوى واقفاً، وتحرك بضع خطوات، لكي يسيطر على خوف تسلل إليه، كاد
أن يتحول لنوبة من الرعب، تحتاحه دائماً في لحظات الخطر.. التفت إلى
"عوض"، وشوح بيده منفعلًا:

- أنا لا أفهمك! هل أنبأتك عفاريتك بأن هناك ما يهددنا؟

استنكر "عوض" رنة التهكم في صوت "جمال"، وانفجر فيه غاضباً:

- لا تسخر من عفاريتي بدلاً من أن أحولك لأبله ينظم المرور في ميدان
العتبة..

جلجلت ضحكة "هديل" وسألته:

- وليه العتبة.. خليه يطوق العرييات على باب الكازينو..

نظر إليها "جمال" بغضب:

- إنتي سكرتي ولا إيه.. لم مراتك يا "عوض" ..
- بهت وجه "عوض"، والتوي فمه من شدة السكر:
- خلاص انتهينا.. أنا مسافر الغردقة وسأقابل "هادي" لأطمئن، وإذا لم أصل لنتيجة مرضية، سأسافر إلى إيطاليا، وأقابل "روبرتو جيانو" نفسه..

أطلق "جمال" صرخة مكتومة، مشوحاً في وجه "عوض":

- أنت مجنون.. عاوز تودينا جهنم.. إزاي تخالف التعليمات.. أنت أول واحد يعرف أن الاتصال بـ "هادي" ممنوع بتاتا..
- قال "عوض" مبتسماً:

- بطل غباء.. سأسافر مع "سوسو" مراقي لنقضي إجازة بقريته في الغردقة.. حاجة عادية.. في تلك اللحظة نادى "هديل" على "منى" التي هبطت بسرعة، لتلملم بقايا السهرة، بينما اتجه "عوض" ناحية غرفة النوم لارتداء ثيابه، واطمأن "جمال" على مفاتيح سيارته وعلبة السجائر والولاعة، ونهض ليودع "هديل"، وهو يذكرها بضرورة حضورها افتتاح مركز تجميل "شاهينار" الجديد، وأن تصطحب معها عدداً من الفنانات والصحفيين، ثم غمز لها بعينه مشيراً ناحية غرفة النوم، فأطلقت ضحكاتها المجلجلة.

خرج مسرعاً، واصطدم بـ "منى"، وهي تهم بالخروج من المطبخ، فسبقته لفتح له الباب، وشيعته بنظرة متواطئة حركت بداخله خوفاً غامضاً، وسرى في جسده كتيار كهربى كاد يشل حركته.



جذب "جمال" نفساً عميقاً، زفره بارتياح، ولفحته نسمة هواء باردة، وحين هم بركوب سيارته، استشعر أن هناك شخصاً يراقبه، وظن أن "عوض" أرسل وراءه أحد عفاريتة، وحين نظر خلفه لم يجد شيئاً، فأدار المحرك وانطلق بالسيارة مسرعاً.

نظر إلى ساعته، فوجدها لم تتجاوز منتصف الليل، واتجه بالسيارة إلى منزل "شاهيناز".

كان إصرار "عوض" على الذهاب إلى الغردقة، قد أثار قلقه، فربما شريكه على حق في مخاوفه، والآن ليس لديه سوى المرأة التي تدين له بالفضل، ويشعر معها بالراحة، فهي ليست شريكته مثل "عوض" و"هديل"، بل كاتمة أسرارها، ورغم مهارتها في عملها، فإنها لا تخطو خطوة واحدة دون استشارته.

اجتاز شارع التسعين في التجمع الخامس، وانحرف يميناً قبل أن يصل للجامعة الأمريكية، توقف أمام فيلا تنبعث الأضواء من خلف نوافذها، فتتير الشارع المظلم الذي تحفه الأشجار من الجانبين.

كانت "شاهيناز" واقفة في البهو، تراقب تنسيق مواد التجميل داخل فتارين أنيقة، وحين رأت "جمال"، فتحت ذراعيها واندفعت لتحتضنه، أبعدها برفق متأملاً أناقتها، وبدت في عينيه كأمية أوروبية لا ينقصها سوى قبعة وقفازين حريرين.

لاحظت على الفور علامات الضيق على وجهه، فنشرت تعليقاتها للعاملين، وقادته إلى مكتبها الأنيق، ألقي "جمال" بجسده فوق المقعد، وهو يشعر بدوار خفيف من تأثير كؤوس النبيذ، وسرت حرارة شديدة في مؤخرة عنقه.

جلست "شاهيناز" قبالة، واحتضنت كفيه، وسألته:

- خيراً يا "جمال" .. قلقتني عليك ..

ارتعش جفناه، ولم يفارقه الإحساس بالخوف والتوجس، وحكى لها عن مجيء "أديرا" من لندن لحضور جنازة عمها، وقلق "عوض" من كشف العلاقة التي تجمعهم بها، بعد أن لمحت الصحف أن وفاة اليهودي العجوز ربما خلفها جريمة قتل.

استمعت إليه بهدوء شديد وردت:

- وإحنا مالنا بالقصة دي كلها؟.. حتى لو كان عمها مات مقتولاً ماهي الصلة التي تجمعنا بها؟

شعر "جمال" أنها مدت إليه طوق نجاة، فقال بسرعة:

- هذا هو رأيي.. ولكن لاتنسي أن عمها يهودي وأن من يتولي التحقيق في مثل هذه القضايا ليس رجال المباحث العاديين.. لكنهم رجال الأمن الوطني الذين يستطيعون الوصول إلى معلومات حتى من خارج مصر.. ولو توصلوا لعلاقة "أديرا" بـ"روبيرتو جيانى" المعروف لدى أجهزة المخابرات العالمية بأنه أحد كبار رجال المافيا، والمتحكم في تجارة الرقيق بمناطق واسعة من العالم.. فقد يصلوا إلينا بسهولة.

صمتت "شاهيناز" لتستوعب ما قاله، ومسحت بيدها حبات من العرق

ظهرت على جبينها، وقالت له بصوت هادئ:

- سفر "عوض" لـ"هادي" أمر طبيعي.. لينقل إليه الصورة كاملة.. ويعرف كيف ستسير الأمور.. وهل يتوقفون عن نشاطهم في تسفير الفتيات أو بيع الأطفال.. ويستغلون الفرصة ليتفرغوا لأعمالهم المشروعة في الفترة القادمة..

رغم بساطة الحل إلا أنه شعر أنها مدت يدها، والتقطته من دوامات رمال متحركة، كادت تبتلعه، فقفز من مقعده، وقبل وجنتيها وخرج مسرعاً إلى ملهاه.

أشار "مروان" إلى سائقه بغلق جهاز التكييف، وفتح زجاج نافذة السيارة، ليستنشق نسمة هواء باردة في هذا الصباح الخريفي، وراح رأسه يعصف بأسئلة لا يجد لها أجوبة، بينما القاتل الغامض يتجول حراً في شوارع القاهرة؛ أو ربما غادرها بعد ارتكابه الجريمة، ولم يترك خلفه دليلاً واحداً على هويته وملاحمه الحقيقية، وهل كان يعاونه أحد، وهل هو رجل أم امرأة، وطبيعة مهمته في مصر وهل انتهت أم أن هناك مزيداً من الضحايا؟

تدافعت الأسئلة التي لا يجد لها إجابة، وشعر بجفاف في حلقه، فطلب من سائقه بأن يحاول التخلص من زحام شارع "صلاح سالم" حتى يصل إلى مكتبه بسرعة، أوماً السائق برأسه، وتنقل بين السيارات بحركات ملتوية، ودخل إلى شارع جانبي، واندفع في عدة طرق متعرجة، حتى وصل إلى أحد الأبواب الخلفية لمبنى الأمن الوطني بمدينة نصر.

فتح "مروان" باب السيارة قبل أن تتوقف تماماً، وطوى عدة درجات في قفزة واحدة، وبنفس الخطوات السريعة وصل إلى مكتبه، وفتح الثلاجة الصغيرة القابعة في أحد الأركان، وتناول زجاجة من الماء البارد شربها دفعة واحدة، شعر بعدها بأنه استعاد توازنه، وأزاح الصداق الذي استولي على مقدمة رأسه.

تناول سماعة الهاتف، وسأل عن فحص البصمات على الأوراق القديمة، وبعد دقائق قليلة دخل الموظف حاملاً ورقة التقرير والمظروف الشفاف، وبدخله الخرائط، فالتقطها "مروان" بسرعة.

ذكر التقرير أن ورق الخرائط من النوع الفاخر، وصنع من لحاء التوت والقمح وبعض من نسيج الكتان، وأن تلك النوعية الفاخرة من الورق، لم تصنع منذ أكثر من خمسين عاماً تقريباً، وأن الخطوط تم رسمها باستخدام نوعية فاخرة من الأقلام الرصاص القاتم الثقيل، والمصنوع من أنقى أنواع الجرافيت، ولا

توجد على الأوراق كلها سوى بصمات لشخص واحد هو "يوسف نسيم نقاش".

تأكد "مروان" بعد قراءة التقرير أن تلك الأوراق لم يلمسها أحد سوى "يوسف"، وأنه حرص على إخفائها، وعدم وقوعها في يد أحد غيره.. عادت الأسئلة التي بلا إجابة، تلح على عقله.. ماذا تعني تلك الخطوط المبهمة التي لا يوجد بها سوى علامات ونقاط وخطوط داخل رسوم كروكيه؟.. الغريب أن الخريطة خلت من تحديد مدن أو أماكن محددة، وكل ما يوجد عليها علامات ودوائر ورسم "لنجمة داود"، ولا توجد بها كلمة واحدة مكتوبة، ويمكن من خلالها الوصول إلى مكان بعينه.

وضع "مروان" الأوراق القديمة داخل مظروفها، وأغلق عليها درج مكتبه، وهو يتمم لنفسه، بأنه سيصل إلى الحقيقة في نهاية المطاف، رغم ازدياد الغموض الذي يحيط بمقتل اليهودي، ومحاولة قاتله أن يصور جريمته على أنها وفاة طبيعية، بعد تعثر العجوز وسقوطه من أعلى السلم.

اقتحم ذاكرته وجه "مريم" الجميل، وتذكر موعده معها لتناول طعام لا هو غداء ولا عشاء، بعد أن تنتهي من عملها في القرية الذكية، واتفقا على اللقاء في مطعم أسماك على إحدى البواخر الراسية على النيل، والمعروف بتقديم وجبات مميزة.

أغمض عينيه وهو يسترجع نبرات صوتها الذي كان يتقافز عابراً الأثير، ليخترق قلبه، ويحول غمام الشك والضيق واليأس إلى سحابة قطنية بيضاء تمتص همومه ومتاعبه، وتخلف له فيضاً من النور والسعادة.

شعر برغبة لا تقاوم في النوم، وتحدثت أوصاله، فاضطجع في مقعده ومد ساقيه أسفل مكتبه، وأغمض عينيه على وجه "مريم" الذي ملك عليه تفكيره،

وامتدت فترة غفوته نحو نصف ساعة، ليفيق على طرقات "خالد" المعتادة، وكاد يتراجع إلى الخلف، بعد أن رأى "مروان" مستغرقاً في النوم، ولكنه سمع صوته:

- تعال يبدو أن عندك أخباراً جديدة..
جلس "خالد" قائلاً:

- ليست جديدة فقط.. لكنها تؤكد نظريتك في شخصية القاتل المحترف..
فأجهزة الأمن الفرنسية أرسلت لنا تقريراً يفيد أن جواز السفر غير مزور وصاحبه شخصية حقيقية..

ولكنه مات منذ عامين.. وبعد وفاته بشهرين تقريباً أبلغت أرملته الشرطة عن محاولة لاقتحام منزلها أثناء غيابها.. وكانت المفاجأة أنه لم يسرق من المنزل شيئاً.. واشتبهت الشرطة وقتها أن بعض أبناء الجيران كانوا وراء الحادثة.. وبعد أن أرسلنا إليهم للتحقق من جواز السفر عادوا إلى الأرملة.. وعندها اكتشفت اختفاء الباسبور من الصندوق الذي به متعلقات زوجها..

أشرق وجه "مروان"، وتأكد أنه يسير على الطريق الصحيح، فنهض مبتسماً، وقال لمساعدته:

- سأذهب الآن لدي موعد مهم..
وأسرعت خطواته في طريقه إلى "مريم".

كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، و"مروان" يستخدم كل براعته في القيادة، حتى يسبق "مريم" بدقائق، وحين وصل اختار مائدة تشرف على النيل وجلس منتظراً، وكأنه مراهم يقابل حبيبته لأول مرة.

هلت "مريم" بقامتها المشوقة، وكان ظهورها كافياً لإثارة البهجة في نفسه، واقتربت منه بخطواتها الواثقة، وأناقته الموحية بالبساطة، وهي ترتدي بنطلون جينز ماركة "تروجينز" وقميصاً أزرق فاتحاً، وإشارب تضعه على رقبته من الحرير المزين بورود ملونة، وتزين بطاقم من الفضة المشغول عليها كلمات "الصب تفضح عيونه"، وكان شعرها الأسود المموج يحيط بوجهها الخمرى الجميل الذي تنيره عينان واسعتان سوداوان، وأنف دقيق ترتسم تحته شفتان مكتنزتان.

صافحت "مروان"، وجلست مبتسمة، وهي تنظر إليه بطرف عينها، وسألته:

- تأخرت عليك؟

- أبداً.. أنا جيت بدري..

كان ينظر إليها بسعادة، فوجودها كان كافياً لتأجيل مشاغله، وجعلها تنزوي في ركن قصي من عقله، وأتى الجرسون ليدون طلباتها، فتفحصاً معاً قائمة الطعام، واختاراً عدة أطباق، وظلاً يتحدثان أثناء تناولهما الطعام بشهية، فحدثها عن انشغاله بقضية مهمة، وبذكائها الحاد لم تحاول أن تعرف تفاصيلها، وهذا الذكاء جعلها واحدة من أهم مصممي برامج الكمبيوتر، ليس في مصر وحدها ولكن في العالم.

كانت "مريم" أثناء دراستها في العام الأخير بالجامعة الأمريكية، قد تلقت عرضاً للتعاقد معها للعمل في مؤسسة "مايكروسوفت" بالولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها رفضته ببساطة شديدة، لرغبتها في العمل والحياة بمصر، حتى أن كثيرين من أصدقائها، كانوا يعتبرونها مجنونة لرفضها تلك الفرصة الثمينة..

ولكنها كانت تمتلك سبباً آخر مهماً، ولم تكن تصرح به لأحد، وهو قصة الحب التي تجمعها بـ "مروان"، ولا يمكن أن تكتمل إذا اختارت العمل خارج مصر، ولم تسمح لها كرامتها أبداً أن تسأله عن موعد ارتباطهما. عندما انتهى الجرسون من رفع الأطباق، فوجئت "مريم" بفتح "مروان" لموضوع زواجهما، وأنه سيحدد موعداً مع والدها، فور انتهائه من القضية التي يعمل عليها وتستحوذ كل وقته.

عند ذكر الوقت، نظر "مروان" في ساعته وصمت، فبادرت "مريم" بلطف:

- أنا تأخرت ولا بد أن أنصرف..

نظر إليها بامتنان وطلب فاتورة الحساب، وخرجاً معاً متشابكي الأيدي، وظل يراقبها حتى انطلقت بسيارتها، وفور أن ركب سيارته، ليعود إلى مكتبه، انشغل ذهنه من جديد بالقضية، وضرورة فحص قائمة الأجانب الذين دخلوا مصر قبل مقتل "يوسف".

- 5 -

الوطاويط

صر الباب القديم مطلقاً صوتاً أشبه بالأنين، حين دفعته "شادية" وأغلقتة برفق أمّ تخاف أن توقظ طفلها الرضيع، وسرعان ما تألفت عيناها مع ظلام الغرفة، والتقطت أذان وطاويطها وجودها، واشتموا رائحة الأسماك النافقة التي اعتادت أن تضعها لهم، بجانب اصطيادهم للحشرات والذباب، فور سماعهم لرفرفة أجنحتها.

ارتطمت أجنحة الوطاويط اللزجة ببعضها، وتصارعت للحصول على وجبتها المفضلة، فتطايرت قطرات من الدماء سابحة في فضاء أسود، وتناثر رذاذها على وجه شادية التي شعرت بالارتياح لوجود مخزون من الدماء في أجسادها الصلبة.

خرجت وأغلقت الباب خلفها، وظلت تصغي لصوت معاركها، وتنتظر انتهاءها من تناول وجبتها، حتى تعود لاصطياد بعضها، لتصفي دماءها، وتبيعها لعدة مراكز تجميل، ومن بينها مركز "شاهينار" التي تحصل على أرقام فلكية من زبائنهن، وتخصص امرأة لعمل الوطوة للأطفال الرضع من الإناث، وتقدمها على أنها خبيرة جلبتها خصيصاً من الهند، وشرط نجاح المهمة ألا تكمل الطفلة أربعين يوماً.

كانت الطقوس الغريبة تتم على مدار يومين، ففي اليوم الأول تقوم المرأة الهندية، بنزع ملابس الطفلة تماماً، وتدهن جسدها بدماء الوطاوط، وإذا وافقت الأم؛ التي غالباً ما تقف فزعة، تقوم بدهن وجه الطفلة أيضاً، وتنتظر حتى تجف الدماء، ثم تعيد إلباسها، وتظل ملطخة بالدماء لمدة يوم كامل، وكأنها تقدم قرباناً لإله غامض.

وفي اليوم الثاني تعود الهندية، لتحمل الطفلة بين يديها، وتغمرها بهاء دافئ، وتزيل كل آثار الدماء، وهي تتمم بكلمات تبدو كتعاويذ سحرية، وتجفف

جسدها الصغير جيداً، ثم تمزج كمية من الزبد مع الملح الناعم، وتقوم بتدليك جسدها بذلك الخليط الغريب عدة مرات، ثم تقوم تغسلها بالشامبو وتعيد تجفيف جسدها برفق، لتمتلك الفتاة بعد ذلك نعومة أبدية.

عادت "شادية" إلى داخل المنزل لتجد "عوض" قابلاً في مكانه المفضل فوق الكنب، وينظر إليها باشمئزاز ظهر على قسماط وجهه الملتوي فزاده قبحاً، وسعل حتى كاد يتقيأ وهو يشير إليها بالذهاب بعيداً عنه لتنظيف نفسها، والتخلص من الدماء التي تغطيها.

ابتعدت عنه وهي مستغرقة في ضحك متقطع، فشيحها بسيل من السباب أطلت في نهايته "سوسو" من الطابق الثاني، أشار إليها أن تأتي، فهبطت الدرج وهي تتمايل وتدفع بثنايا جسدها المترهل، وجلست بجواره وأشعلت سيجارة نفتت دخانها في وجهه، فارتد ليحلق في أرجاء البهو كسحابة مبعثرة.

أزاح الدخان عن وجهه، وهمس لها بصوت منخفض:

- جهزي نفسك .. حنساfor الصبح للغردقة..

اتسعت عيناها من الدهشة، فهو لم يكن معتاداً على اصطحابها معه في أعماله،

فرفعت حاجبها وقالت:

- مش عوايدك يعني؟

- أشعر بالإرهاق وعاوز أرتاح شوية ..

نظرت إليه من جانب عينيها، ولم تهتم كثيراً بمبرراته، فهي تعلم أنه كاذب، ولكنها لم تخف سعادتها بفكرة السفر، وتعنى إخراج المايوهات المهملة داخل خزانها منذ سنوات طويلة، وخشيت ألا تستطيع ارتدائها، فقد كانت أقل بدانة من الآن، وربما يرفض "عوض" نزولها إلى البحر، ويعايرها بترهلاتها.

تعمدت "سوسو" إثارة أكبر قدر من الضجة، أثناء تحضيرها لحقيبة السفر، ليصل الخبر إلى مسامع "داليا" وأمها، ونجحت خططها في تحقيق أهدافها، وعلى الفور أطلت ابنة زوجها من الباب بحركاتها الذكورية، وهى تراقبها عاقدة ذراعيها.

لم تكثرث "سوسو"، ودندنت بأغنية، وهى تختار ما بين كومة من الملابس الصيفية، وفركت عينيها حتى تتحمل ألوانها الصارخة، وتصيدت "داليا" الفرصة للسخرية من زوجة أبيها:

- خير إن شاء الله .. هل سيتم اختيارك ملكة جمال العرقسوس؟

أطلقت "سوسو" واحدة من ضحكاتها الصاخبة:

- لا ملكة جمال الغردقة ..

ألقت "داليا" بجسدها فوق كومة الملابس المتناثرة على السرير، وهى تنوى الحصول على قدر أكبر من المعلومات عن أسباب السفرية المفاجئة، ولم تحصل سوى على عدد من الاهتزازات أطلقتها "سوسو" بخصرها وصدرها، وتعني أنها لا تعرف ولا تهتم بأن تعرف:

- المهم يا حبيبتى أننى سأبتعد عن البيت ورائحته الكريهة .. حتى تتفرغ

أمك لذبح الوطاويط .. وأستريح يومين من الرعب الذى أعيش فيه ..

قالتها "سوسو"، وهى ترتب ملابسها داخل الحقيبة .. قهقهت "داليا" ساخرة

منها:

- آه طبعاً أنت مسافرة مع الفتى الوسيم الوديع "براد بيت" .. مش

"عوض" مدرب الشياطين .. نجحت "داليا" فى إثارة غيظ زوجة أبيها

التي طردها من الغرفة، وهى تصبح فيها:

- قبل ما يكون جوزي هو أبوكي..

انتهت من حزم حقيبة انتفخت جوانبها، وتنبهت إلى أنها لم تسمع صوت "عوض" منذ أن تركته، فظرت من أعلى السلم، وندت عنها تنهيدة طويلة، بعد أن شاهدت أنوار الغرفة التي يستقبل فيها زبائنه وأكثرهم من النساء، وقدرت أنه سيستغرق وقتاً قبل أن يصعد لينام.

عادت إلى غرفتها وأخذت في إزالة شعر ساقها وذراعيها، ثم اغتسلت جيداً بالماء الساخن، ووقفت أمام المرآة لتفرك جسدها بماء الورد، وكريات التنعيم، وخلعت المنشفة لترتدى ثيابها، ووقفت أمام المرآة، ووضعت كمية أكبر من الكريم على راحة يدها وراحت تدهن ساعديها ومرفقيها.

ظلت تحديق في جسدها المترهل، وشعرت بضيق شديد، وهى ترى الترهلات وأكوام الدهون والشحوم على بطنها وجانبي خصرها، وصدرها المتهدل، وشعرت بالأسى لما أصبحت عليه، وزوال قوامها الفاتن الذي أثار غيرة النساء، وأدار عقول الرجال، وبفضله تحولت لنجمة ساطعة في الرقص الشرقي.

ارتدت ملابسها ببطء، وأمسكت بالفرشاة لتمشط شعرها، وتميل برأسها للأمام والخلف مع حركة الفرشاة ثم ألقتها بعنف، وانخرطت في بكاء مرير، بعد أن أدركت أنها ستقضى ما تبقى من حياتها مع البدانة المفرطة، وستتراكم عليها عشرات الكيلوجرامات من الدهون، وستظل زوجة لـ "عوض" الذى عرف كيف يسيطر عليها منذ أن عرفته، وستظل "داليا" ابنته الكريمة تراقبها بعين صقر، أما "شادية" فقد كانت تستحق أن تحظى بشفتها، فرغم أنها ضرتها، إلا أنها لم تنس تحذيرها لها بأن تهرب بعيداً في أول يوم وضعت قدميها في هذا المنزل.

يومها دخلت يسبقها "عوض" حاملاً حقيبتها، بينما كانت "شادية" جالسة أمام التلفزيون، تتابع فيلماً عربياً بطولة عمرو دياب ومديحة كامل، وفجأة شهقت بصوت مرتفع وهى مرتعبة، ثم عادت أساريها للانفراج لتطلق زفرة ارتياح بعد انتهاء المشهد المثير في الفيلم، والتفتت إليهما، وارتسمت في عينيها نظرة كراهية مختلطة بشفقة لم تدرك "سوسو" معناها، واحتفظت في ذاكرتها بنظرة الكراهية الموجهة إليها.

- سوسو تهتئش معنا وغرقتها في الطابق الثاني..

كانت كلمات "عوض" المقتضبة، كسهام مسمومة اخترقت أذني "شادية"، واكتفت بهزات متتالية برأسها، وعادت بعدها لتتابع الفيلم بلا مبالاة.

- الليل وحرقة الآهات في عز الليل..

انساب صوت أم كلثوم آتياً من بعيد، ليمتزج بأصداة ذكريات زوجة الساحر، واهتزت يداها وجسدها بالرقص التعبيري على إيقاع آهات ملتاعة، حركت بداخلها الأسى تجاه حياتها كلها، وظلت مبهورة الأنفاس ترتعد خوفاً كامراً لم تعرف السعادة إلا ممزوجة بالألم، وأن ضحكاتها ودلاها يواريان خبيتها وحظها التعس.

صار الرقص لديها لغة تعبر بها عن رغبتها في الانفلات من عالم ضيق، وكان جسدها يرتجف من الخجل، فتغلق عينيها لتغرق في ظلام تختمي به من نظرات تحترقها، وتشعر بأن جلدها يحترق، وكلما اجتمعت عليها العيون كأسراب من الذباب، دارت في دوامات تبتلع آثامها وخطايا الآخرين.. تنفض جسدها لتسقط ذنوبها فتصاعد آهات الإعجاب..

كانوا يتصورون انتفاضات الإثم غنجاً، بينما كانت ترتعش باحثة عن التوبة والغفران، حتى قفزتها الأخيرة التي تنهى بها الرقصة أشبه بانتفاضة طير

مذبوح، وتهول في نهايتها وتطاردها صيحات تطالبها بالبقاء، فتحملها قدمها بسرعة إلى غرفتها، لتغرق بين جدرانها في وصلة بكاء مرير.

في اليوم الذي خرجت فيه سحر من قريتها مع شقيقها الوحيد، سعى جاهداً ليبحث لها عن منزل تعمل فيه كخادمة. لم يكف طوال الطريق عن الإقرار بأنه ينفذ وصية أمها في رعايتها، ولهذا بحث لها عن مستقبل أكثر إشراقاً، واهتدى إلى عائلة محترمة تبحث عن فتاة طيبة لتخدمهم، وسيعطونها أجراً مجزياً، ويمكنها إذا أجادت عملها، أن تصبح من رواد البنوك وأصحاب الثروات...

داعب خيالها بأن ثروتها ستدير رؤوس شباب القرية، وسيطرقون بابها لتختار منهم العريس الأكثر شباباً ووسامة، وأفادت من أحلامها، وهو يتوقف أمام عمارة عالية، وتركب معه الأسانسير لأول مرة في حياتها، ويخرجان إلى ممر يموج بأبواب مغلقة، فضغط الجرس، وسلمها إلى سيدة خمسينية، دعته للدخول، وودعها شقيقها عائداً إلى القرية.

تزوج شقيقها وانشغل عنها بحياته الجديدة، وخدمت هي في المنزل لعامين كاملين، قررت بعدها أن تحصي ثروتها التي تراكمت في البنك، وسلمتها سيدة المنزل دفترًا أخضر اللون مليئاً بصفحات تثبت أنها منحتها كامل حقوقها.

في أول يوم أحد من شهر مايو حملت حقيبتها، وتوجهت ناحية البنك، بثقة تعلمتها من سيدتها، ومدت يدها للموظف تطالبه بمنحها كامل ثروتها، تعلق عيناها بدقات أصابعه على مفاتيح جهاز الكمبيوتر، ثم حذرها بأنها إذا سحبت كل ما في الدفتر فسيتم إغلاقه، فهزت رأسها بالموافقة فهي لن تحتاج بعد ذلك للبنوك...

ثوان قليلة استغرقها الموظف، ليضع أمامها مائة جنيه، ثم يدق على الآلة فيسري في المكان صوت يطالب الرقم الذي يليها بأن يتقدم، كانت نظراتها تستجدي "أبو الهول" الذي كان يرقد مرتاحا على الورقة المالية، ومدت يدها مجددا لموظف البنك تطالبه ببقية ثروتها، فقال لها:

- ده كل اللي في الحساب .. أخوكى كان بياخد الفلوس بالتوكيل الى معاه..

نزلت كلماته عليها كالصاعقة، وأعاد مدير البنك على مسامعها تلك الكلمات، وانطلق صراخها ليردد صدها بين الأعمدة الرخامية للبنك.
لم تصمت إلا بعد أن هددوها باستدعاء رجال الشرطة ..

- معلى الناس بقت وحوش..

قالها الرجل الأنيق الذي تكفلت رائحة عطره بأن تعيدها إلى وعيها، وتحول دون أن تسقط مغشياً عليها.

وبهدوء من اعتاد على مواجهة صدمات الزمن، دس في حقيبة يدها كارت:

- إرجعي لأخوكى واسأليه على فلوسك وبعدها أنا موجود ..

رفعت رأسها فلم تجده. كل ما لمحتة منه كان قميصه الأحمر، وبعدها اختفى من البنك.

ثلاث ساعات استغرقتها سيارة الأجرة، لتلقي بها في مدخل القرية ..

لم تلتفت لمن يشير ناحيتها من شباب القرية، ولا لنساءها اللاتي كن يتغامزن عليها.

- أنت مجنونة ولا مهبولة، علشان تخبطى على الباب بالطريقة دى؟

صرخت فيها امرأة تسبقها بطنها المتنفخ والمتدلي لأسفل.

تجمدت الكلمات على شفتي "سحر"، وهى ترى شقيقها يقف خلف زوجته التى تولت تأنيبها، ولم تتزحزح لتفسح لها مكاناً تمر منه إلى داخل المنزل.. لم تهتم كثيراً بفكرة الدخول واكتفت بسؤال شقيقها عن ثروتها.. انهارت عليها صفعاته وركلات زوجته، ودفعها بعيداً عن الباب، وكأن شقيقته سيئة السمعة، وسبها ولعنها وبكى على شرفه الضائع، ورفع يديه إلى السماء شاكراً الله على أن أمهما الطيبة ماتت قبل أن ترى أفعالها الشنيعة. صرخت وبكت وانتظرت أن يسعى أحد لسماع حكايتها، انصرف الجميع عنها، فهم لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة، لأنهم لو عرفوها، فلن تكون هناك قصة يتبادلونها في أمسياتهم الطويلة المملة، ولن يكون لديهم مبرر لطلب العفو والمغفرة من الله.

عادت من حيث أتت، ألقت برأسها على قائم السيارة الأجرة التى كانت تنهب الطريق الزراعي عائدة إلى القاهرة. كادت تغفو فأعادها إلى اليقظة صوت السائق، وهو يطالبها بدفع الأجرة. مدت يدها داخل حقيبتها لتخرج المائة جنيه كل ما تملكه، ومعها كارت مذهب الخواف يتوسطه اسم "جمال ناصف الحناوي" رجل أعمال، ورقم التليفون.

صوت فتح باب الغرفة في الطابق الأرضي، أعادها إلى الواقع بعد أن أنهكتها ذكريات ماضيها، قامت وهى تسير ببطء وحذر، وألقت بجسدها على جدار السلم الخشبي، ورأت "عوض" يسير أمام سيدة أنيقة، ويسبقها ليفتح لها الباب، وانتظر قليلاً حتى ركبت سيارتها، فأغلق الباب وعاد إلى الغرفة مسرعاً.

انهمك "عوض" في ترتيب الغرفة، وجمع أوراقه وأغلق زجاجة الحبر الأحمر، وقبل أن ينتهى تماماً دق جرس الباب، فهرول ليفتح الباب مستقبلاً سيدة تضع

إشارباً من الحرير على رأسها. تنحى جانباً باحترام شديد ليسمح لها بالدخول. دلفت بسرعة وتوقفت لثوان ليسبقها للغرفة.

اختارت مقعداً وجلست عليه، وأزاحت الإشارب من على رأسها، محررة خصلات شعرها الأشقر. قبع عوض خلف مكتبه منتظراً أن تبدأ زبونتة المهمة بالحديث. لم تبد أنها متعجلة، وأخرجت من حقيبتها "السيلفاتور فيرجامو" علبة السجائر وأشعلت واحدة، ونفث دخانها ببطء، وبلهجة آمرة اجتهدت أن تكون رقيقة:

- طبعاً حضوري عندك سر..
- لم تتغير ملامح عوض، وأجابها بهدوء:
- أنا أفضل من يحفظ الأسرار.
- زوجي على علاقة بامرأة أخرى.. أنت طبعاً تعرفه كويس؟
- هز رأسه، فقد كان زوجها من أشهر وأغنى رجال الأعمال في مصر، وتم ترشيحه لتولي عدة مناصب وزارية، كان يرفضها بلا تردد، فوجوده تحت الأضواء يعرض أعماله المتشابكة لخطر الكشف عنها.

هم عوض بالكلام، لكنه تردد قليلاً ليختار كلماته بعناية:

- اعذريني ولكنك كثيراً ما تغاضيت عن علاقاته النسائية فما الذى يثير قلقك هذه المرة؟

نظرت إليه بتمعن شديد في محاولة منها لاكتشاف مدى ما يعرفه عن زوجها، وهل تقتصر معلوماته على ما ينشر في صحف الفضائح.

أدرك "عوض" أنه يخوض مبارزة صامتة مع ندى قوى، وكان لابد أن يستعرض أمامها مقدرته التى تقاس بما تعرفه هى ولا يعرفه أحد غيرها.

انتظر "عوض" ثوان، وثبت نظراته عليها:

- لقد استطعت دائماً حل مشاكلك معه كلها، حتى زواجه العرفي من المطربة "همسة".. كنت على علم به وتدخلت في الوقت المناسب للتخلص منها.. بعد أن تعرضت لعدة حوادث غامضة.. كان آخرها محاولة الاعتداء عليها في منزلها وتجريدها من ملابسها، وتكميم فمها مع رسالة شفوية منك بأن المرة القادمة سترسلين لها من يصب في فمها ماء نار من النوع الفاخر.. ليدمر أحبالها الصوتية ويحرق جوفها للأبد.. ضاقت عينها ورفعت رأسها لأعلى فبانت حدة ذقنها، وباعدت ما بين شفتيها، فظهرت أسنانها البيضاء التي كشفت شحوب وجهها المفاجئ.

أدرك عوض أنه حاز على ثقتها تماماً، فمال إلى الأمام وخرجت الكلمات من فمه شديدة الوضوح:

- المشكله هذه المرة أكبر بكثير، فزوجك شعر بالملل من كل نساء العالم، فقرر أن يجرب النوع الثاني، فمشكلتك هذه المرة ليست مع امرأة لكنها مع رجل استحوذ على مشاعر زوجك بالكامل..

قال جملته وعاد إلى جلسته الأولى منتظراً ردة فعلها التي جاءت سريعاً. مدت يدها داخل حقبتها وأخرجت منها رزمة تحوي عشرة آلاف دولار. وضعتها على المكتب أمامه..

- الباقي بعد انتهاء المهمة..
قالتها بحسم من هو قادر على اتخاذ القرار.
فتح عوض أحد أدراج المكتب، وأخرج منه ثلاث قطع تشبه حلوى التوفي، ووضعها أمامه، وسألها:

- هل اقترَب موعد دورتك الشهرية؟
- بعد خمسة أيام تقريباً..
- قالتْها بإستسلام عاشقة محطمة الفؤاد.
- وضع أمامها قطع الحلوى، وبدأ صوته آمراً:
- إذا اتبعت تعليماتي بدقة شديدة .. سيتحول زوجك لخدام أمين ..
- مهمته الوحيدة في الحياة.. الامتثال لأوامرك وتنفيذ رغباتك قبل أن تفكري فيها..

أمسك بالقطعة الأولى المغلفة بورقة حمراء:

- أريدك ان تغمسيها جيداً في دماء أول يوم من الدورة الشهرية، ثم تضعينها في كوب من العصير ويفضل أن يكون عصير توت أو عنب أو خوخ .. عندما تضعينها في العصير ستفور لثوان قليلة ثم يختفى الفوران ولا بد أن يشربه بعدها..

فرد راحة يده ووضع فيها القطعة المغلفة بورقة زرقاء:

- أريدك ان تنتبهي جيداً لتلك الخطوة.. في ثاني أيام الدورة الشهرية .. تبولي في إناء وتأكدى من اختلاط الدماء بالبول.. واغمسي قطعة الحلوى جيداً وانتظري حتى تجف وسيحدث ذلك في خلال دقيقة.. ثم ضعها في كوب من المياه الغازية..

أما القطعة الثالثة فلن تحتاجي لأن تفعلى بها شيئاً.. كل ما عليكى هو ان تصنيفها إلى كوب من اللبن أو الزبادي أو أى نوع من منتجات الألبان وستذوب على الفور.

لم تطرح عليه السيدة الأنيقة أي سؤال. مدت يدها ولمست قطع الحلوى برفق شديد، ورفعت إليه عينين محمومتين .. وكانت آخر تعليماته أن تحرص على أن تكون المشروبات باردة.

بلعت السيدة ريقها بصعوبة، ووضعت كنزها بحرص داخل حقيبتها، وكادت تتعثر وهى تهم بالخروج من الغرفة، فنادها "عوض" مشيراً إلى الإيشارب الحريري، فسارعت بالتقاطه، وظل يراقبها وهى تبحث بخطى متعثرة عن طريق للخروج.

تمطى "عوض" محركاً ذراعيه في الهواء، وقد استبد به ألم شديد لم يجربه من قبل.

أغلق باب الغرفة جيداً، وصعد درجات السلم متمهلاً . تعجب لحالة السكون التى تخيم على غرفة "سوسو"، فلا أغانى ولا مسلسلات ولا صوت لضحكاتها الرنانة.

لم يهتم "عوض" بحالتها، وهى تنظر إليه صامتة، ولا بعينها التى بدا عليها الانتفاخ. تخلص من ملابسه، وألقى بجسده على السرير، وغمغم من بين أسنانه:

- سنستيقظ مبكراً من أجل السفر..

تركها جالسة على طرف السرير، وغرق في نوم عميق.

استيقظ "سالم" فرعاً، وتلفت حوله متفقداً "فاطمة" و"علي"، واندفع خارج الغرفة منادياً بأعلى صوته على أمه، فوصلها صراخه وخرجت مفزوعة من المطبخ، وجرت نحوه، فبادرها بالسؤال عن ولديه. أشارت إليهما وهما يجلسان حول مائدة المطبخ، ومنهمكان في ترتيب قطع من البازل تمثل سفينة من عدة طوابق.

هدأ قليلاً وربت أمه على يده، وطالبتة بقراءة آية الكرسي .

بعد دقائق ظهر "سالم" مرتدياً ثياب الخروج. دخل إلى المطبخ، وقبل ولديه، وتناول كوباً من النسكافيه، وتظاهرت أمه بإستغراقها في إعداد صينية الكيك. أمسك بيدها وقبلها وأحتضنها بشدة، وطلب منها أن تسامحه على نوبات غضبه، ولم يترك لها فرصة لكى تعلق على تصرفاته.

كعادته وضع أجندته التى لا تفارقه فى حقيبته، وودع والدته طالباً منها ألا تسمح للطفلين بأن يخرجوا إلى الشرفة، ولا بفتح الباب، وتوسل إليها ألا تجعلها يغيبان عن عينيهما. طمأنته وهى تتساءل عن وجهته، فقال:

- سأصعد لأنتظر العمال الذين سيأتون بالمفروشات اليوم.. ولديّ بعد ذلك موعد عمل..

قال جملة الأخيرة وهو يغلق الباب، ويصعد لشقته فى الدور الثالث والأخير.

قضى عدة ساعات مع العمال أصبحت الشقة جاهزة لمعيشته مع ولديه. تأكد من وضع عدد من المزاليج خلف بابها، وهبط السلم مسرعاً. لم ينس أن يتفقد الشقة الخالية فى الطابق الأول التى كانت من نصيب شقيقه "عمر" لحين زواجه. فتح الباب الحديدى الضخم عن طريق "الإنتركام" وأغلقه جيداً خلفه. بحث عن سيارة "عمر" حتى وجدها. أدار محركها واتجه ناحية مصر القديمة، قاصداً مجمع الأديان بالفسطاط.



ركن السيارة فى الموقف المخصص، وتنشق روائح المكان المفعمة بالتوابل والفخار النّئى، وقد حملتها الرياح من خلف "مسجد عمرو بن العاص". دخل إلى المجمع من الجهة التى يقع فيها المسجد. كان يعرف طريقه جيداً، فلقد سار

في دروب المنطقة العتيقة مئات المرات، قبل أن ينشغل في مهمته التي جاء من أجلها، أخرج هاتفه واتصل بوالدته واطمأن عليها وعلى ولديه، ثم اتصل بـ"عمر" الذي رد عليه متعجباً من سؤاله عن وصوله لعمله بخير. تعلل بأنه يطمئن عليه لأنه استعار منه سيارته، ولم يفلح في إخفاء نبرة القلق في صوته، فلمحها شقيقه، واكتفى بشكره على قلقه.

أغلق "سالم" هاتفه وتوجه ناحية "معبد بن عزرا"، وقبل أن يصل إليه، لمح أحد أصدقائه من الأثريين العاملين في المنطقة، فناداه وتبادلا التحية، وجلسا على أحد المقاعد المنتشرة في ساحة مجمع الأديان القريب من "دير الراهبات". ساد المكان سكون مهيب. استمد روعته من قداسة البيوت التي يذكر فيها اسم الله. صمت هادئ طغى على ضجيج البشر، وأشاع في المكان هسهسة غامضة من الأصوات الخفية. هبت عليها روائح خبز ساخن. تسلفت من بين أروقة الدير، لتنشر حالة من الدفء والحميمية في الأرجاء.

كانت عودة "سالم" من إيطاليا محور الحديث بينه وبين صديقه، ولامه الأخير بشدة على قراره، وأسهب في الكلام عن تراجع الوفود السياحية، والمشاكل التي يعاني منها المرشدون السياحيون، وحذره من المشكلات التي ستواجهه، إذا فكر في البحث عن عمل.

كان "سالم" ينظر إليه مقوساً كتفيه، غارقاً في أفكاره، متظاهراً بالاستماع إليه باهتمام، وانتظر حتى ينتهي من كلامه، ليصل إلى هدفه، ولكن صديقه واصل الحديث عن احوال العمل، ومشاكله الشخصية، وظروفه المالية المتدهورة، وكيف تقف حائلاً أمام زواجه من خطيبته، وتهديدها اليومي بفسخ الخطبة التي

استمرت ثلاث سنوات، وسأله بلهجة شابهة التوسل عن إمكانية أن يجد له عملاً في إيطاليا.

شعر "سالم" أن القدر يخدمه بتحويل دفعة الحديث ناحية أماني وأحلام صديقه في السفر إلى إيطاليا، وحاول أن تكون نبرات صوته متعاطفة، وهو يعده بأنه سيتصل بمعارفه وأصدقائه هناك لتدبير عمل له.

تهللت أسارير صديقه، وأصر على إحضار كوبين من الشاي، وأعرب له "سالم" عن حنينه للمنطقة، ورغبته في زيارة الكنيسة المعلقة، وكنيسة أبو سرجة التي يشعر فيها براحة غريبة، فأسفلها المغارة التي عاش فيها المسيح وأمه عليهما السلام، ومشاهدة الترميم الذي أجرى على "مسجد عمرو بن العاص" وزيارة "معبد بن عزرا".

- أشعر أنني أريد أن أستعيد نفسي بعد سنوات من الغربة..

قالها "سالم" بصوت خفيض، وهب صديقه الأثري واقفاً، وهو يشعر بسعادة بالغة، وعرض عليه مرافقته في الجولة، مقتنصاً الفرصة الذهبية لتقديم خدمة لصديقه القديم، وسارا معاً، وصعدا سلام الكنيسة المعلقة، وتجولا في سرايب "كنيسة ماري جرجس"، وشاهدا أدوات التعذيب التي استخدمها الطغاة ضد الشهيد العظيم.

توجه "سالم" وصديقه ناحية المعبد. لاحظ الأثري أن الباب الخارجي للمعبد مفتوح، فسبق "سليم" مستطلعاً الأمر، وعاد إليه مبتسماً قائلاً له:

- هناك مجموعة من الباحثين والأساتذة في كلية الآثار بالداخل، ويرافقهم

وفد أثري من كندا، ويقومون بتوثيق مقتنيات المعبد.

دخل "سالم" خلف صديقه الذي أسرع بإلقاء التحية عليهم. بادلوهم السلام وعادوا سريعاً لعملهم في فحص الهيكل الخشبي المطعم بحشوات من الصدف والعاج.

ظل "سالم" يراقبهم بين لحظة وأخرى، وهو يسير متمهلاً بين أعمدة المعبد، ثم ركز بصره على النجفة المعلقة في السقف على يمين الهيكل، وتحمل أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة "أبو بكر وعمر وعثمان وعلي" باللغة العربية، وتحول ناحية نجفة أخرى من النحاس، ومدلاة من السقف على شكل مخروط، وتحمل اسم السلطان المملوكي "قلاوون" باللغة العربية.

كانت الشمس تلملم أشعتها لتستعد للرحيل مستديرة فوق المعبد، وملقية بضوئها الأخير على الشخصيشة التي تحيط بها النوافذ، وتستقبل الضوء الباهت، وقامت بتوزيعه داخل المعبد بعدالة إلهية، وانعكس ما تبقى من أشعتها الباهتة على وجه "سالم"، والذي انحنى متفحصاً الكتابات العبرية المحفورة على التركيبة الرخامية في صالة المعبد، ووجد صديقه الفرصة مواتية، لتقديم مزيد من الخدمات، فتبرع بترجمة الكتابات العبرية له "عندما أخرج من المدينة سوف أرفع يدي إلى الرب فتتوقف الرعود فلا يكون البرد لكي تعرف أن الأرض لله" ..

تابع الأثري شارحاً لسالم:

- يعتقد اليهود أن سيدنا موسى عليه السلام، كان يصلي ويتعبد ويدعو الله لإنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون في نفس المكان الذي نقف فيه الآن، ومن أجل ذلك صنعوا تلك التركيبة الرخامية وزينوها بآيات من التوراة، منها الآية التي ترجمتها لك الآن..

زمت الدكتوراة "مايا" شفيتها، ورفعت رأسها عن نقوش الهيكل، بعد أن تسلت إليها كلمات الأثري إلى الواقف معه، وكانت منهمكة في عملها،

وشعرت بالضيق لوجود غرباء عن الباحثين الذين يشاركونها العمل، والتقت عيناها بعيني "سالم" في لمحة خاطفة.

شعر "سالم" أن تلك النظرة الخاطف، تحمل تأنيباً له، فشكر صديقه وطمأنه بأنه لن ينسى وعده بالبحث عن عمل له في إيطاليا، وخرج مسرعاً متوجهاً ناحية سيارته.



فتح "سالم" الباب مندفعاً، فوجد ثمانية عيون تحدق به، فتح ذراعيه فجرت "فاطمة" نحوه، وتبعها علي وتقاظا عليه، وانطلق صوت أمه:

- يا أولاد الأكل برد..

كان ييدو على "سالم" بعض الارتياح، وتحدث مع "عمر" عن زحام القاهرة. انتهوا من طعامهم، وطلب "سالم" من شقيقه معاونته في ترتيب أغراضه الشخصية وملابس طفليه، وأمضيا الليل كله في نقلها إلى شقته، واعترض أحياناً على عدم دقة "عمر" في ترتيب الأغراض، وصعدت "نبيلة" مع حفيديها، لتجهز فراشهما في غرفتهما الجديدة.

ودع "سالم" والدته وشقيقه، وأخبرهما بأن لديه ارتباطاً مهماً في الصباح الباكر، واستأذن من والدته أنه سيوقظها، ليترك الطفلين معها. هزت رأسها بالموافقة مذكراً إياه بأنها تستيقظ لأداء صلاة الفجر ولا تنام مرة أخرى.

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، عندما دق "سالم" جرس الباب، ففتحت أمه على الفور، وهي تحتضن "علي" الذي كان مازال نائماً، ووضعتة في السرير، وجلست "فاطمة" بجانبها رافضة النوم. ودعهم "سالم" متوسلاً لأمه أن تراقب الطفلين جيداً، وألا تفتح باب العمارة لأى غريب، طمأنته والدته

واحتضنته، حتى يشعر بالهدوء والأمان، كعادتها منذ أن كان طفلاً صغيراً يستيقظ مفزوعاً من الظلام، فيسرع ليختبئ في أحضانها.

تسلل نور الصباح ببطء، وبدد ظلمة الليل.. للمرة الأولى في حياته خشي "سالم" السير في الشارع خلال هذا الوقت، وكان يتلفت حوله كلما تهيأ له أنه يسمع صوت أقدام تتبعه، فيسرع بخطاه ثم يركض مسرعاً، وكلما نظر خلفه لا يجد أحداً، وأخيراً التقط أنفاسه المتسارعة، ولمح مصابيح مضاءة لسيارة أجرة قادمة نحوه، فأشار إليها، وطلب من سائقها التوجه إلى المطار.

هبط "عوض" مترنحاً من السوبر جيت، وهو يحاول أن يحفظ توازنه حتى لا يتعثر تحت ثقل "سوسو" التي ألقت بجسدها المترهل عليه بعد أن أصابها الدوار من طول الطريق، وساعدها حتى استقرت بقدمها على الأرض، واستنشقت نسائم منعشة، زفرتها بارتياح.

تلفت "عوض" باحثاً عن أتوبيس القرية السياحية، وحين وجده أسرع ناحيته ومن خلفه "سوسو"، واستقرا على المقعدين الأماميين، بينما السائق ينتظر اكتمال عدد الركاب المتوجهين للقرية.

كان يبدو على وجه "عوض" التعب والكسل، وهو يراقب من النافذة تتابع المشاهد التي تتغير أمام ثبات البحر الهادئ الذي يرقد مراقباً حركة البشر والبنائات على ضفافه، ويتحمل بصبر الصخب البشري، وصراخ الطيور والنوارس، ويرد عليها بطرطشة أمواجه التي تتكسر بخجل فوق شواطئه.

توقف الأتوبيس أمام الباب الزجاجي الدوّار، فنزل منه الركاب، وتعالَت كلمات المرح التي تتبأ بأيام سعيدة. أسرع "عوض" لإنهاء إجراءات تسجيل

سرابيط الخادم

إقامته، وهرع إلى غرفته مع "سوسو" طلباً لقسط من الراحة، واستلقيا على السرير الواسع، وغرقا في نوم عميق.

انقضت "سوسو" مستيقظة من أجل موعد العشاء. ارتدت فستاناً أصفر مفتوحاً من أعلى الصدر وسابو بكعب عالي، وانهمكت أمام المراة في وضع ماكياجها.

استيقظ "عوض" بوجه متجهم، وألقى عليها نظرات نارية، وارتدى ثيابه مسرعاً، ولم يلتفت إليها، وهى تطلب منه أن يغتسل أولاً. نهرها بجفاء وهو يطلب منها الإسراع للحاق بالمطعم قبل أن يغلق، بينما اهتمامه كان منصباً على لقاء "هادي" صاحب القرية السياحية في موعد العشاء بشكل طبيعي.

انبعث صوت الموسيقى الخافتة في أرجاء صالة الطعام. اختار "عوض" مائدة يرى من خلالها مدخل القاعة، وأشار لسوسو بأن تجلس، بينما كانت عيناها زائغتين، وتتفقدان المكان الراقي بشغف. نسيت كل مشاعر الألم التي داهمتها في الليلة السابقة، وتفرغت لاختيار عدة أطباق أملتها على الجرسون الذي انحنى برأسه، ولم يستطع أن يخفي ابتسامته.

نظر إليها عوض بضيق:

- إنتي ناوية تفضحيننا.. هل ستأكلين كل ده؟..

هزت رأسها دون أن ترد عليه، وحين اكتمل صف الأطباق الفاخرة، التهمت بسعادة، بينما فقد عوض شهيته المعتادة، والتقط قطعة لحم في طبقه، وظل يقطعها بالسكين، وعيناه معلقتان بالباب، حتى لمح أخيراً.

دخل "هادي" القاعة ومن خلفه شقيقه "عثمان" ومن خلفهما الشيف اللبناني. تنقل بسرعة بين الموائد متفحصاً كل الأصناف المعروضة، ويومئ

برأسه لتحية نزلاء القرية، ويتوقف عند بعض الشخصيات المهمة، ويطمئن على رضائهم عن مستوى الخدمة.

اعتاد العاملون في المطعم على جولات "هادي" في أوقات تناول الطعام، ويتبادلون النظرات خوفاً من أن يكتشف خطأ ما، فيعاقبهم عليه بشدة، فقد كان يفتش على كل كبيرة وصغيرة في القرية، ويتحرك بخفة في المطبخ وبين الغرف يراقب عمال التنظيف وعلى الشاطئ، وينزوي بين الأعمدة لمشاهد حركة العاملين على حمام السباحة، حتى أنهم كانوا يلقبونه بالشبح.

كان العاملون يخافون أن يسخروا منه أو يشتكوا لبعضهم من مراقبته لهم تحسباً لأن يجدوه خلفهم أو أمامهم، لم يكن يسمح بحدوث خطأ واحد، فقد كان يتحرك وحده كأنه كتيبة من الجنود، ولا يكف عن ترديد أنه رجل عصامي كَوْن ثروته بالحلل، وأنه لن يسمح لأولاد الحرام بتبديدها.

تعلقت عينا "عوض" بـ"هادي"، وهو يتجول في قاعة الطعام محيياً الزبائن، ومتحدثاً بالإيطالية حيناً وبالفرنسية حيناً آخر.

لم يكن أحد من المتحلقين حول موائد الطعام، يمكن أن يتخيل كيف بدأ "هادي" حياته، ولا حالة قريته شديدة الفقر والجفاف التي تقع أسفل الجبل في محافظة سوهاج، فقد كانت قامته المشوكة ووجهه الأسمر الوسيم وملابسه الأنيقة البسيطة، تؤهله لأن يتسبب لعائلة عريقة من عائلات الصعيد.

كان دائماً يتحفظ حول ماضيه، ولا يعرف أحد شيئاً عن زوجته وأولاده المقيمين في "سوهاج" نفسها، بعد أن بنى لهم منزلاً فاخراً على النيل، ويذهب إليهم في زيارات لا تزيد على ثلاثة أيام كل شهر.. كان ماضيه يشبه حجراً ألقى به داخل المحيط، فتلقفته جنيات الماء وأخفته بخزائنها السرية في قاع سحيق.

كان عمر "هادي" سبعة عشر عاماً عندما خرج من قريته بعد أن استخرج بطاقة الرقم القومي بحثاً عن الرزق في "الغردقة" التي تبعد عن "سوهاج" مائتي كيلو، وعبورهما يعني لديه إمكانية تناول قطعة من اللحم بدلاً من المش والعيش الجاف وفي أيام الرخاء "الشلولو" الذي كانت تصنعه أمه من الماء البارد الذي تذيب فيه ملوحيه جافه مع حفنة من الثوم النيئ.

استقبله في "الغردقة" أحد أبناء قريته الذي وجد له عملاً في إحدى القرى السياحية، وظل ينظف دورات المياه حول حمامات السباحة، حتى لفت إليه النظر بتفانيه في العمل وقلة كلامه، فتمت تربيته ليعمل في خدمة تنظيف غرف النزلاء، ولأول مرة في حياته يتناول طعاماً يشعر بعدها بالشبع.

تأكد أن المكان الذي يجعله يشعر بالشبع، هو قادر على جعله ثرياً في يوم من الأيام.

كانت أمانته مضرباً للأمثال، فكلما وجد مبلغاً من المال أو قطعة من الحلوى، تركها سائح في غرفته، سارع بتسليمها للإدارة حتى أنهم لقبوه بالعامل المثالي. ادخر كل قرش كسبه ولم يكن ينفق منه جنيهاً واحداً، عدا الحوالة الشهرية التي يرسلها لعائلته في القرية البعيدة.

وفي كل ليلة كان يحصى جنيحاته بعيداً عن الأنظار، ويضعها في جيبه. لم يكن يجعلها تغيب عن عينيه بعد أن سمع قصص زملائه الذين كانوا يتكلمون بجانبه في آخر الليل، وهم يشكون من سرقة أموالهم.

في العاشرة صباحاً، دخل غرفة سائحة إنجليزية، بعد خروجها في ساعة مبكرة، وكعادته أزاح الستائر الثقيلة وفتح النافذة، ليدخل ضوء الشمس، ويتجدد هواء الغرفة. استغفر الله كثيراً وهو يضع زجاجة من الخمر في مكانها، وتنهد وهو يجمع أكواباً ليغسلها من بقايا المنكر، وحين قربها من أنفه، كاد يتقيأ

من رائحتها، وانهمك في ترتيب الملابس المبعثرة، وتنظيف قطع الأثاث، ولم يشعر بوصول صاحبة الغرفة التي توقفت قليلاً لتراقبه.

كان عمرها تجاوز الخمسين عاماً بعدة سنوات، وترتدي ثوب سباحة يكشف عن جسدها الذي اكتسب لوناً برونزياً خفيفاً، لم ينجح في حجب شحوب لون بشرتها، توجهت ناحية الستائر فأغلقتها، فشعر بها واعتذر عن تاخره في تنظيف الغرفة، فأشارت إليه بأن يهدأ، وتوجهت ناحية باب الغرفة وأغلقتها، بعد أن وضعت لافتة عدم الإزعاج من الخارج. تجمد "هادي" في مكانه شاعراً برعب يكاد يشل حركته.

مشت عدة خطوات حتى أصبحت خلفه، والصقت جسدها اللزج من ملوحة البحر به، انتفض محاولاً الهرب. أدارته بلطف وزاد التصاقها به، ودفعته بهدوء وألقت به على السرير، وأندست فيه بعد أن خلعت ثوب السباحة، وبحركة مدربه خلعت ملابسها، لتفتح له أبواباً من المتعة كان يشاهدها في أحلامه.

مرت أكثر من ساعة وعربة التنظيف تقف بعيداً عن الغرفة بمر واحد، وخلالها كان زملاؤه يبحثون عنه في كل مكان.

تقلبت السيدة الإنجليزية في السرير، وأشارت له بأن ينهض، ويرتدي ثيابه، وقبل أن يخرج مدت يدها في حقيبتها الملقاة بجانبها، وأخرجت مائة دولار دستها في يده، وأشاحت بوجهها عنه، وطلبت منه الانصراف، وأنها ستكون بانتظاره في الغد بعد منتصف الليل.

خرج إلى الحديقة، وألقى بنفسه على الأرض، وظل جالساً حتى وجده زميله، فادعى أنه شعر بالتعب، وخرج لاستنشاق الهواء.

تتابعت زيارته للغرفة، وتكومت الدولارات التي يخفيها في حزام حول وسطه، وأصبح زائراً مرغوباً فيه بشدة في غرف السائحات الأجانب، وجمع عدة آلاف من الأوراق الخضراء، وكانت كل مائة منها ثمناً لإرواء جسد امرأة داهمتة الشيخوخة، ونفخ فيه هو من شبابه متعة مدفوعة الثمن.

بعد مرور عام على استثماره المربح في بيع جسده. شعر بالملل والقرص من نزوات العجائز، فقرر أن يكف عن زيارتهن ويبحث عن مصدر جديد للرزق، فقام بتأجير مركز للغطس وأسس به بعد أن أخرج ثروته التي كانت مكونة من عدة عملات أجنبية.

لم يكتف بمهارته في السباحة التي تعلمها عندما كان طفلاً يلقي بنفسه في النيل، بل حصل على عدة دورات في الغطس. مكنته من اكتشاف أعماق البحر والوصول للشعب المرجانية التي كانت تتراقص بين يديه كعشب طائع في بساينها الغارقة منذ آلاف السنين.

عرف قيمتها واقتطفها من قاع البحر الذي تلتصق به، وهى تقاومه من أجل حياتها فخروجها من الماء يعنى تحولها من كائن حي إلى حجر فاقد الروح. كان ينتزع مستعمرات من المرجان نمت في مئات السنين، ليضعها على طاولة تاجر يلمسها بحذر خوفاً من أن تجرحه بحوافها المسننة.

وكلما ازدادت براعة "هادي" في الغطس لأعماق سحيقة، تراكمت ثروته من بيع بساين المرجان.

بعد ثلاثة أعوام، كان في حاجة إلى التقاط أنفاسه، فمنح نفسه إجازة عاد فيها إلى قريته بعد غياب طويل، ولكنه لم يتحمل البقاء في البيت الفقير، وجافاه النوم من أسراب البعوض التي تطن في أذنيه، وكأن شيئاً لم يتغير، فأمه لازالت ترتدي

ملابس الحداد، وتنبعث الروائح الكريهة من ملابس أولاد شقيقته المشبعة برائحة البول.

كان شقيقه ينظر إليه كنصف إله، بعد أن وفر لهم غذاء لا ينقطع من لبن الجاموسة التي اشتروها من الأموال التي كان يرسلها لهم. كانت تدر لهم سبعة كيلوات من اللبن، ويستحوذون لأنفسهم على ثلاثة منها، ويبيعون الباقي، وبفضل الثروة التي هبطت عليهم، استطاع شقيقه "عثمان" أن يحصل على دبلوم التجارة.

في صباح أحد الأيام استدعى "هادي" شقيقه، ووضع أمامه عدة آلاف من الجنيهات، وبكلمات سريعة أمره أن يقوم ببناء المنزل بالطوب الأحمر بدلاً من الطين، وأن يبني بداخله دورة مياه، ويقدم أوراقه لمعهد حتى يحصل على تأجيل من الجيش، ويأتي إلى الغردقة بعد انتهائه من مهمته في أسرع وقت. راقب أنفاس شقيقه المتقطعة، وقام من فوره عائداً إلى الغردقة.

استبد به الأرق، وتقلب يمنة ويسرة، مفكراً في أحوال عائلته، وفي المبلغ الذي اضطر أن يتركه لشقيقه من أجل بناء المنزل.. في تلك الليلة بدأ يفكر في ضرورة زواجه من فتاة محترمة من قريته، وامتدت عيناه خارج نافذة الغرفة التي تقع خلف مركز الغطس، ورأى منها البحر كبساط أسود منبسط وهادئ تماماً.

أخرجه من أحلامه صوت يطرق على باب غرفته مناديا عليه، وفتح ليجد واحداً من الغطاسين يجذبه إلى الخارج، ويدعوه لإحضار عدة الغطس بسرعة، كان الغطاس يبلع ريقه بصعوبة، وهو يصيح به أن يسرع، ليذهبا للانضمام إلى فرق الأنقاذ التي تحاول الوصول إلى أحياء بعد غرق العبارة السلام 98 بالقرب من شواطئ الغردقة.

فى الطرىق كان صدىقه ىنقل له حجم الكارثة؁ فأكثر من ألف وخمسةائة راكب كانوا على ظهر السفينة التى ابتلعها البحر واختفت مع طاقمها؁ ولم ىسارع أحد إلى إنقاذهم إلا بعد ساعات من غرقها؁ مما زاد من حجم المصيبة التى ستخلف مئات الضحايا.

توافد أهالى الضحايا على الشاطئ. واختلطت أصوات النواح والصراخ بدعوات الأمهات والزوجات اللاتى كن ىنظرن للسماء؁ وىطلبن من الله إنقاذ ذویهن؁ وكلما نجح الغطاسون وفرق الإنقاذ فى انتشار الجثث؁ كانت تبتلعها سىارات الإسعاف؁ والأهالى ىسرعون خلفها إلى المستشفى.

وقف "هادى" على الرصیف؁ مندهشاً ومبهوئاً؁ وبعد لحظات حشر نفسه فى القارب السرى؁ ونجح مع مجموعة من الغطاسین فى انتشار عشرات الجثث؁ والأهالى ىستقبلونها بالصراخ والنواح.. سمع سيدة وهى تصرخ وتفتش فى جثة زوجها؁ وتصریح "ضعت وضاعت معاك تحویشة العمر".. كانت كلماتها تطن فى أذنیه؁ وهو یراقبها مبعداً عن الشاطئ؁ وظلت تتضاءل حتى تحولت فى نهاية الأمر إلى نقطة ابتلعها الظلام الدامس.

انتهت ليلة "هادى" المشحونة بالمآسى؁ ولم ىنجح سوى فى انتشار عدد من الجثث التى تراکمت فوق الرصیف وفى المستشفى. ألقى بنفسه على الرصیف؁ وغرق فى نوم عمیق؁ قطعه صوت بعض الغطاسین؁ وهم یتحدثون عن استحالة العثور على أحياء بعد مضى كل هذا الوقت؁ وتبادلوا فیما بینهم قصص الزوجات والأمهات وحكايات المفقودین؁ وتبادلوا فى أمر كونهم شهداء واتفقوا فى النهاية على أن من مات غرقاً فهو شهید؁ خصوصاً أن معظمهم كانوا

من العاملين في السعودية، بما يعني أنهم يسعون من أجل الرزق، وهو ما يؤهلهم لأن يكونوا من الشهداء.

كان الحديث عن دخول الجنة على قائمة الشهداء، أمراً لم يفكر فيه "هادي" أبداً، حتى أنه لم يكن يعي من الموت سوى صراخ أمه و جلبها للطين من التربة التي تشق قريتهم، لتغطي به رأسها. لم يتصور أن والده يمكن أن يكون شهيداً، أو حتى له مكان في الجنة، فهو كان يؤمن بأن الفقراء لا يدخلون الجنة، ولا يمكن أن يسكنوا في قصور فيها، فالأغنياء حتى لو كانوا من الأتقياء لن يسمحوا لهم بأن يكونوا جيرانهم في الجنة، ولم يصدق أبداً شيخ المسجد، عندما يتحدث عن جزاء الجنة، وكان يصدق تماماً عندما كان يصف لهم في خطبة الجمعة نيران جهنم التي ستبتلع الكذابين واللصوص ومن يخالفون شرع الله.

سار "هادي" فوق رصيف الميناء مدفوعاً بنداء شيطاني جنوني، وقد قرر الغطس من جديد، ومضى ناحية القارب، وقدماه تؤلمانة وساقاه ثقيلتان مثل الخشب المبلل بالماء، وظهره يئن من ثقل أنابيب الأكسجين، وجبينه ينز عرقاً، وشيعته دعوات المكومين لأنه الغطاس الوحيد الذي يصدق أنه قد يجد أحياء بعد مرور كل هذا الوقت.

ألقت المركب، فقفز في الماء متناسياً كل آلامه، ورأى مزيداً من الجثث الحائرة بين الهبوط للقاع والطفو على سطح الماء، أنهى حيرتهم واجتذب الواحدة تلو الأخرى، وفتشهم جيداً واستخرج من بين ثناياهم أموالهم التي خبأوها أسفل ثيابهم، بعد أن عرفوا أن السفينة في سبيلها إلى الغرق.

كان يجرد الجثث من ممتلكاتها أولاً، ثم يصعد بها إلى سطح المركب ليسلمها لهم، في تلك الليلة نجح وحده في العثور على أكثر من خمسين جثة، ساهموا بأموالهم وذهب نساءهم في شراء أرض القرية السياحية.

لم يكن أحد يعلم مصدر ثروته، حتى ولا شقيقه "عثمان" الذى يتبعه كظله، وهو الذى أشار عليه في المطعم ألا ينسى الترحيب بوجود العائلات المصرية. فتح "عوض" فمه وأغلقه، وهو يرى "هادي" يتبعد عن ناظره، وكاد يخطو باتجاهه خطوة واحدة. عندها لمح "هادي" وأسرع إليه مرحباً به في القرية، متمنياً له إجازة سعيدة، ولم ينس توجيه التحية لـ "سوسو" التي راقبته باهتمام، ولم تتبين الكلمات المقتضبة التي همس بها قريباً من أذن زوجها، ثم انصرف بخطوات ثابتة.

سألت عوض، وفمها مليء بقطعة من الحلوى:

- من هذا الرجل؟

نظر إليها طويلاً وقال لها:

- صاحب القرية يرحب بالنزلاء ..

همهمت موافقة، وأنها طعامها وهي تطلب منه أن يذهب لحضور الحفلة التي ستقام على حمام السباحة. رفض "عوض" بسرعة، وادعى انهما مرهقان من الرحلة الطويلة، ولا بد أن يذهب للراحة في غرفتهما.

كان يعلم جيداً أن رفضه ستقابله بتوسلات أن يسمح لها بالذهاب بمفردها، إذا كان هو راغباً في النوم، وبعد إلحاح منها، وافق بشرط ألا تزعجه عند عودتها، فوعده وقفزت من المقعد، وهي تكاد تطير فرحاً، وأسرعت لتجد مكاناً لها في الصفوف الأولى.

راقبها حتى اطمأن على اندماجها في الحفل، وأسرع عائداً إلى غرفته، وفتح الباب ولم يفاجأ عندما رأى "هادي" جالساً فوق المقعد يدخن سيجارته بهدوء، وبادره بقوله:

- لا بد من أن لديك سبباً لطلبك مقابلتي ..

أوماً "عوض" برأسه، وشرح له مخاوفه من وفاة "يوسف" ووجود "أديرا" في مصر وقلقه من كشف أمرهم وعلاقتهم المتشابكة.

صمت هادي قليلاً، ثم سأله عن جمال وأعماله، فأجابه عوض بسخرية:

- جمال غير مقتنع بوجود خطر يتهددنا ..

رد هادي بحذر كأنه ينصح صيباً متهوراً:

- أريد منكم جميعاً ان تلتزموا الهدوء.. وتوقفوا كل أعمال سفر الفتيات

والأطفال.. واهتموا فقط بأعمالكم المشروعة.. هناك أمور ضخمة

تحدث ليس لكم علاقه بها.. وحاذروا من الاتصال بـ "أديرا" أو

الاقتراب منها..

صمت هادي متفحصاً ملامح عوض التي بدا عليها التركيز التام، فأكمل

بلهجته التحذيرية:

- أبلغ "جمال" أن يقوم بإلغاء الاجتماع مع التجار الذين سيتسلمون

البضاعة الجديدة.. وابتعد تماماً عن مقبرة الصعيد فالوقت الآن غير

مناسب..

- ولكنى حددت موقعها تماماً ولم يتبق إلا فتحها وإخراج ما فيها ..

- سنؤجل كل هذه الأعمال في هذه الفترة..

جحظت عينا "عوض" حتى كادتا تسقطان من محجريهما، بعد أن أدرك أن

شكوكه لها أساس من الصحة، وانتبه على صوت هادي المنذر:

- وأحذرك أنت شخصياً من محاولة معرفة المزيد عن طريق عفاريتك

حتى لا نقضى عليها.. أطلق "هادي" ضحكة مكتومة خرج بعدها من

الغرفة، وترك "عوض" غارقاً في محاولة يائسة لفهم ما يحدث.

مر "مروان" على مكتب "خالد"، وأشار له أن يتبعه..
أدرك "خالد" أن "مروان" في حالة مزاجية جيدة، بعد أن لاحظ تهلهله،
وعدم قدرته على نحو ابتسامة سكنت ثنايا وجهه.

تجاهل "مروان" نظرات مساعده الفاحصة، وانهمكا في محاولة إيجاد تطابق ما
بين القاتل الغامض والرجال الأجانب الذين دخلوا إلى مصر قبل مقتل
"يوسف" بشهر، واستبعدا كثيرين من كبار السن والشباب الصغير، وتبقى
أربعمائة شخص من جنسيات مختلفة لم يخرجوا من مصر، وبعضهم يعمل في
شركات بترول، وثلاثة منهم يعملون في جامعات ومدارس خاصة وبعض
السائحين ورجال أعمال وفنانين.. أعادا فحص الصور والبيانات، فتم استبعاد
طوال القامة وأصحاب الأجساد البدينة، فتبقى لديهم مائتان وثمانون شخصا،
تكاد مواصفاتهم تتطابق مع القاتل.

نظر "مروان" إلى ساعته، وهو يشعر بإرهاق شديد، واكتشف أن الوقت
اقرب من الثالثة صباحا..

- الآن نحن في حاجه لمعرفة أماكن إقامتهم وتتبعهم حتى نصل إلى
القاتل..

قال "مروان" بجملة الأخيرة، فأوماً "خالد" برأسه، منتظراً أن يكمل رئيسه:

- وغداً لديّ موعد في الثانية عشرة ظهراً للقاء "مايا" وعمها "إسحق"..

خرج خالد خلفه وهو يتشاءب قائلاً:

- لن أعود إلى المنزل، سأنام في مكتبي فلم يتبق على الصباح سوى عدة
ساعات قليلة، وأمامي عمل كثير في تفحص هؤلاء الأجانب..

اقتربت الساعة من العاشرة صباحاً، وفاحت من المطبخ رائحة البيض المقلي الذي تفضله "مايا" في الإفطار. أعدت "أم أمينة" المائدة ونادت عليها:

- الإفطار جاهز ..

كانت "أم أمينة" تعمل لديهم منذ أربعين عاماً، وتعرف كل صغيرة وكبيرة في المنزل، وقبل كل ذلك عاداتهم وطباعهم، وفي ذلك الصباح كانت تعلم أن هناك أمراً غريباً يحدث، فلم يكن من عاداتهم استقبال "إسحق" في ذلك الوقت المبكر، ولا أن يستقبلوا ضيوفاً أيضاً، ولكن كل الأمور الغريبة أصبحت واردة من بعد وفاة "يوسف" ..

تنهدت بعد أن حدثت نفسها بتلك الكلمات، وعادت إلى أعمالها المنزلية.

التف الثلاثة حول المائدة، وتناولوا إفطارهم في صمت، وانتقلوا لتناول القهوة بالصالون.

كسر "إسحق" حاجز الصمت متسائلاً عما يبحث عنه "مروان"؟ ولم يصر على لقاءهم؟

لم يكن لدى "داود" سوى أجوبة مقتضبة، فماضى شقيقه أصبح أشبه بلوحة زيتية اختفت ألوانها من كثرة تعرضها للشمس، ولم يتبق بها سوى خطوط باهتة ..

رفع رأسه مخاطباً إسحق:

- أنت محق في أن "مروان" يبحث عن أمر ما.. وهو يلمح إلى وفاة "يوسف" مقتولاً ..

تأوهت مايا وهمست بصوت يلتوى من الألم:

- كنت أعلم من البداية أن هناك خطأ ما.. فأنا لم أر أحداً مات وأنا مستغرقة في النوم.. كانت أول مرة يحدث ذلك.. هل يمكن أن يكون ذلك دليلاً على مقتله؟.. هل كان يرغب في أن يبلغني رسالة ما؟

التفت ناحية جدها وأكملت:

- هل تذكر أن جاءتني رؤية الموت قبل ذلك وأنا نائمة؟
لم تنتظر إجابة جدها. بدأت تستعرض ذكرياتها من أيام طفولتها، وهي تنظر ناحية عمها "إسحق"، وكأنها تنتظر منه أن يساعدها..
- منذ ماتت أمي وأنا أرى كل من يغادر العالم يأتي ليقترح عقلي.. يتجسد أمامي كصورة..
- في كثير من الأحيان لا ينظرون لي بل يتجاوزونني بنظراتهم.. أتذكر والد صديقتي "عليا" وزوج طنط "ماري" جارتنا وشقيقها وعم "أحمد المكوجي" وعم "ناشد" بواب المدرسة وغيرهم كثيرون..
- أكملت جملتها الأخيرة وانخرطت في بكاء مرير، فهرع إليها جدها وعمها، والأخير كان أسرع بالتحرك لاحتوائها وتهديتها، وهو يذكرها بأن ما تمتلكه موهبة. نظرت إليه من بين دموعها وكأن هناك قطعة من الضباب لفته فحجبت عنها رؤيته:

- ما أراه لا علاقة له بالموهبة بل هو أشبه بكابوس لا ينقطع.. فأنا لا أقدم للمغادرين شيئاً..

وقف جدها بجوارها، وأمسك يديها مربتاً عليها:

- أنت لا تعرفين إلا الجزء الخاص بك.. ولكن لا بد أن هناك منحة ما تقدمينها للخارجين من عالمنا إلى العالم الآخر، فالله يعلم ونحن لا نعلم..

جلس "داود" وتابع:

- أريدك أن تتهاكى نفسك الآن، فلا أريد لذلك الضابط الفضولي أن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع.. فلمجرد أن أصولنا يهودية ربما يعتقد

أننا أشرار ونمارس السحر الأسود.. وسيجعلنا في النهاية نعترف باسم
المؤلف الحقيقي لبروتوكولات حكماء صهيون..
ابتسمت "مايا" واحتضنت جدها بشدة، وتوجهت ناحية الحمام لتغسل
وجهها، وتضع بعض الماكياج لتخبئ انتفاخ عينيها.

رن جرس الباب. التقت نظرات "داود" و"إسحق"، كأنهما فوجئاً بقدومه..
خرجت "أم أمينة" من المطبخ بسرعة، لتفتح الباب، فسبقها "داود"، وأشار
إليها بالعودة للدخل، وفتح الباب ليجد "مروان" مبتسماً كعادته. رحب به
وقاده للصالون، واستقبله "إسحق" بلا مبالاة.

كان الصالون أشبه بمتحف صغير فخم، ففي مواجهة المدخل كان يتصدر
الجدار تابلوه ضخمة من الجوبلان الفرنسي القديم، يمثل حفلاً لمجموعة من
الفتيات يتناولن الطعام في حديقة مليئة بالزهور، وتتوسطهن فتاة تمتلك وجهاً
مستديراً له ملامح ملائكية.

وفي الجدار الآخر تراصت مجموعة من اللوحات الزيتية مهمورة بتوقيع كبار
الفنانين المصريين والأجانب، ويتوسطهم لوحة زيتية كبيرة، تضم العائلة كان
فيها "إبراهيم ويوسف وداود وسارة" أطفالاً سعداء يرتدون ملابس فاخرة
وينظرون بثقة وسعادة.

وافق "مروان" على فنجان قهوة مضبوط، سرعان ما أحضرته "أم أمينة"،
فتناوله منها وشكرها، وسأل بلطف عن الدكتوراة "مايا"، وقبل أن يتحرك
"داود" ليستدعيها، دخلت بهدوء وحيث الضابط، وتبادلوا جميعاً أحاديث
عادية، تتعلق بحالة الطقس والزحام الخانق لمنطقة وسط البلد، وتطرق
"داود" لأناقة الشوارع في الماضي، والزهور التي كانت تزين مداخل العمارات،
وتتناثر بين مرآتها في المنطقة.

انتظر "مروان" تعليقاً من "إسحق" الذي شعر أن الفرصة جاءتة:

- أنا لا أعلم لماذا يهتم الناس بالزهور وزخارف المباني التي هي في واقع الأمر عنوان فاضح على الفروق ما بين الفقراء والأغنياء الذين يسعون دائماً للانغزال في علب من القطيفة يصنعها لهم الكادحون الذين يلقون أجسادهم المنهكة في أكواخ من الصفيح، وفي أحسن الأحوال في جحور ضيقة من الأسمنت تزين شوارعها أكوام من القمامة، بدلاً من الزهور التي تتحسرون عليها.

تعلقت عيونهم جميعاً بـ"إسحق" الذي أنهى كلماته الأخيرة وهو واقف منفعلاً، وكأنه في خطبة أمام حشد من أتباع ماركس. أخفى "مروان" ابتسامة كادت ترسم على وجهه:

- أنت طبعا لك تاريخ طويل في الفكر الماركسي والاشتراكي..
صحح له "إسحق":
- بل الشيوعي ..

نظر إليه "مروان" مشجعاً ليواصل حديثه، وتبادل "داود" و"مايا" نظرات مرحة، وكأن الضابط أطلق المارد من عقاله، ولن يكف عمها عن الحديث حول كفاح والده وقصة نضاله مع الرفيق "هنرى كورييل".
أراح "إسحق" ظهره على المقعد، وقد شعر بسعادة بالغة لوجود جمهور يستمع إليه، وتحدث بحيوية واضحة:

- طبعا "هنرى كورييل" مصري .. ولد بالقاهرة في قصر والده الفخم بشارع حسن صبرى بالزمالك.. كان القصر يضم سبع عشرة غرفة، وعدداً من قاعات الاستقبال والموسيقى والفراندات وحديقة رائعة،

ومن حوله كتيبة من الخدم والسائقين والطباخين والسفرجية، وكان والده يمتلك بنكاً للتسليف والرهنات بشارع الشواربي ..
وتخيلوا أنه رغم كل هذا الشراء الفاحش كان يحتقر طبقته ويبحث عن حقوق الفقراء والعمال، حتى أنه كتب في مجلة "دون كيشوت" التي كان يصدرها مع عدد من أصدقائه في نهاية الثلاثينيات: "إن ما تحتاجه مصر حتى تتقدم صناعتها بشكل أسرع، هو اليد العاملة المتخصصة، وليس برؤوس الأموال أو المواد الأولية أو المبادرات الفردية، فإذا ظل العمل بالنسبة للعمال جحيماً، فسوف يظل العمال على حالهم. ولا بد أن يحصلوا على أجر مجزٍ يحسن أوضاعهم، ويتيح لهم أوقات الفراغ لتُهيأ لهم سبل الراحة، وتتاح لهم فرص الثقافة، وضرورة منحهم المسكن الصحي الذين يعيشون فيه بمنأى عن الأوبئة والحشرات. عندئذ سيكون للصناعة المصرية أيدي ماهرة تنمي في آن واحد مردود الصناعة وأسواقها" ..

عند وصوله للكلمات الأخيرة كان وجهه قد ازداد احمراراً:

- "هنري كورييل" المناضل العظيم الذي كان عدواً للإمبريالية، وكان ينادي بحق تقرير المصير والكفاح المشترك بالنسبة للسودان، وأسس "الحركة المصرية للتحرير الوطني" وكان والدى المحامى الذي يدافع عن حقوق العمال والفقراء عضواً في منظمة "أسكرا" ورغم توجهه الشيوعى، إلا أنه اعتنق الإسلام حتى يصبح مصرياً تماماً، وكان ذلك في عام 1938.. ووقتها فكر "هنري" أن يتخذ نفس الخطوة، ولكنه تراجع حتى لا يفسر إسلامه بأنه محاولة لإنقاذ نفسه من الخطر النازي الذى كان يقف على أبواب مصر، وعندما اعتقلوه عام 1942 مع مجموعة من الشباب التقدمي كان يصوم رمضان مع زملائه احتراماً لشعورهم.

كان أول لقاء لأبي مع "هنرى" وشقيقه "راؤول" في الندوات التي كان يعقدها "جورج" بوانتي المدرس السويسري الذى كان يعمل في مصر، وينظم اللقاءات لدراسة الماركسية مع بعض أصدقائه الأجانب والمصريين، ومنذ اللقاء الأول لم يفارق أبي "هنرى"، حتى انضمت كل التنظيمات الشيوعية تحت تنظيم "حدثو" وظلا معاً يناضلان من أجل حقوق الفقراء، حتى خرج "كوريل" من مصر، ورفض أبي الخروج منها، وظل يعمل محامياً حتى مات.

- وورثت أنت مكتبته ومهنته، ومكتبته التي كان كوريل شريكاً فيها مع والدك، ولكنه انسحب من شراكته، ليؤسس مكتبته الخاصة في ميدان مصطفى كامل ..

قالها مروان منتظراً رد الفعل الذي جاء سريعاً من إسحق في صيغة سؤال:

- أنت تعرف تاريخ هنري كوريل؟
- آه طبعاً.. ولكنى درسته بعين محايده.. فهو لم يكن المناضل اليساري الذى يذوى في حب مصر كما أرادت الحركة الصهيونية تصويره ..
انتفض إسحق غاضباً:

- أنت تشوه تاريخ المناضل بنفس الكلمات التي حاربه بها أعداؤه.. لا تنس أنه كان داعماً ومؤيداً لثورة 52، وكان على اتصال بـ "جمال عبد الناصر" و "أحمد حمروش" وعدد من القيادات في مجلس قيادة الثورة.. وكان له موقف معلن من الاعتداء الثلاثي على مصر..

رد "مروان" بهدوء شديد:

- حتى مكتبة "هنرى كوريل" التي أنشأها عام 1941 في ميدان "مصطفى كامل"، لم تكن غير مركز لتجمع عناصر من الصهيونية،

وكانت المكتبة تلعب دوراً مهماً، كحلقة اتصال بين جنود الحلفاء "الماركسيين"، ومن بينهم جنود الفرقة اليهودية التي كونها الصهاينة في فلسطين..

بدأت علامات الانفعال الشديد على "إسحق"، وهم بمقاطعة "مروان"، ولكن الأخير تابع حديثه متجاهلاً غضبه:

- ولا تنس أن "أريك رولو" الصديق الحميم لهنرى كورييل ورفيق كفاحه.. وهو أحد أفراد عائلة رولو المصرية اليهودية الثرية، هو المسئول عن شبكة "شتيرن" الصهيونية في مصر وفلسطين، وكان هو وصديقه "هنرى" يلعبان أدوارهما طبقاً للاستراتيجية الصهيونية العالمية، وبسبب اتصالاته المشبوهة تم طرده من مصر عام 1950..

انتفض "إسحق" وهو يكاد يشتعل من الغضب:

- أنت تحاول بمثل هذه الادعاءات محو تاريخ نضالي عظيم لرجل كل ذنبه أنه كان يهودياً..

شعر داود أن الحديث أخذ منحى مختلفاً، فتدخل بلطف قائلاً:

- فلندع التاريخ للمتخصصين فيه..

والتفت ناحية "مروان" ليسأله:

- مروان بيه كيف يمكن أن نساعدك؟

اختار "مروان" كلماته بعناية شديدة:

- قد يكشف التاريخ أسرار الحاضر "موجهاً حديثه لإسحق" بما أنك

خبير في تاريخ التنظيمات فهل تعرف طبيعة المنظمة التي كان المرحوم

"يوسف" عضواً بها وما هي طبيعة نشاطه بها؟

كان "مروان" يسأل وهو متأكد من أنه سيتلقى جواباً بلا مواربة، لكونهم مطلعين على ماضى "يوسف" ... لم يجب "إسحق" مباشرة، وإنما فضل أن يشرح طبيعة المجتمع اليهودي بمصر في تلك الفترة، وكان الضابط يمتلك قدراً كبيراً من الصبر ليستمع، فهو يتبع أسلوباً مميزاً من أجل الحصول على المعلومات، فكلما تكلم الشخص، وأفاض في الحديث، كشف عن جوانب خفية بدون أن يشعر، المهم عنده هو التحلي بفضيلة الصبر التى منحها لـ "إسحق" ليقول:

- في نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد في عام 1896 حضر إلى مصر "جوزيف ماركو باروخ"، ونجح في تأسيس أول جمعية صهيونية في القاهرة، حملت اسم "باركو خابا" وتم الاتصال ما بين الجمعية و"تيودور هرتزل" مؤسس الحركة الصهيونية الذى حضر إلى مصر، وأمضى أياماً في القاهرة والإسكندرية التى كانت وقتها مركزاً لتجمع اليهود، فقد كان يعيش بها حوالى نصف عدد اليهود في مصر، وكانوا يعملون في الأنشطة التجارية..

ومن بعدها تم تأسيس العديد من الجمعيات الإسرائيلية ذات الطابع الخيري، وكانت تجتذب اليهود ومنها جمعية "موهار هايتولوت"، لدفع مهور الفتيات الفقيرات، وجمعية أزرأت لمساعدة المتسولين اليهود، وجمعية بيكور هوليم لمساعدة المرضى وتقديم العلاج لهم، وجمعية أسيل رفيوج لبناء دور المسنين، وكذلك إنشاء المستشفى الإسرائيلى بسيدي جابر، وكان ذلك في عام 1930، وجمعية قطرة اللبن لمساعدة التلاميذ الفقراء من اليهود..

وكان من بين تلك الجمعيات، منظمة "وها- بويل - ميزراخى" ذات الطابع الديني، وكانت تقوم بتقديم شروح للتوراة بصورة مبسطة..

قاطعه مروان مستفهماً:

- هل هذه هي الجمعية التي كانت تدعو الشباب اليهودي في مصر للهجرة إلى إسرائيل وزراعة أرضها تنفيذاً لتعاليم التوراة؟
أجابه إسحق:

- كانت تلك واحدة من أنشطة المنظمة، ووقتها كان ذلك الحراك أمراً عادياً في المجتمع المصري، بعد كل الدعاية التي تروج لها المنظمات الصهيونية عن تعرض اليهود للإبادة في أوروبا، وضرورة العوده للوطن القديم، ورغم ذلك كان هناك عدد كبير من اليهود يرفضون الفكرة تماماً، حتى أنهم في السنوات التي تلت تأسيس إسرائيل، لم يهاجروا إليها، وفضل من خرج من مصر السفر إلى أوروبا وأمريكا، ما عدا أقلية فضلت الهجرة إلى إسرائيل..

وطبعاً كان المرحوم "يوسف" لا يعنيه في الحياة سوى سيرة اليهود، ومحاولة الدفاع عن اليهودى الطيب وتنقية سيرته، ولذلك رفض أن يهاجر من مصر، ورفض أن يتخلى عن دينه من أجل تحسين صورته أمام سيل الاتهامات الذى كان يلاحقه لسنوات طويلة..

ظل "مروان" متمتعاً بهدوئه، ثم التفت ناحية مايا ببطء، وبثقة سألها:

- هل اخترتِ دراستك للآثار والتاريخ تأثراً بالمرحوم يوسف؟
أجفلت "مايا" فهي لم تتوقع أن يكون سؤاله حول دراستها أوهوايتها. مالت إلى الوراء في كرسيها، وأخذت نفساً عميقاً، وكأنها تسحب ما يكفى من الهواء حتى يصفو ذهنها، ودون أن تحول نظراتها عنه، خرجت الكلمات منها بصوت رقيق:

- هذا صحيح.. كان له الفضل الأول في اكتشاف عشقي للتاريخ والآثار.. كان يحضر لي الكتب التي تتحدث عن تاريخ مصر وحضارتها

وحضارات العالم.. كان دائماً يقول إن التاريخ سراج له وهج يزيح غموض المستقبل..

وافق "مروان" على مقولة "يوسف"، وزاد عليها:

- إن من لا يقرأ التاريخ لا يمكن أن يعبر إلى المستقبل.. أنا عرفت أن المرحوم "يوسف" كان يعيش رحلات السفارى الصحراوية.. وزار معظم المعالم الأثرية في كثير من البلاد العربية.. كان حديثه مازال موجهاً لـ"مايا" التى بدأت تشعر بأنه مصر على أن يضرب حولها سياجاً غير مرئي، ومع ذلك هزت رأسها موافقة، وهى لا تجد ما تعلق به على ما يبدو أنه معلومات جمعها بدقة.

ركز "مروان" بصره على وجه "مايا" الوردى، وراقب متحيراً انتفاض عرق في رقبتها وتساءل فى نفسه هل هى متوترة أم تخفي شيئاً ما؟، وقرر أن يطرح عليها سؤالاً مباشراً:

- هل كان لجدك "يوسف" أعداء أو خلافات مع أى شخص يتمنى له الموت أو السوء؟

راقب جيداً الاحمرار الذى كسا وجهها، وزيادة انتفاض عروق رقبتها، دليلاً على الغضب وبذلت مجهوداً هائلاً حتى تجيبه بنبرة صوت هادئة:

- مستحيل... فهو كان رجلاً مسالماً هادئاً..

لم يترك "مروان" الفرصة تمر بعد شعوره بأنه نجح فى إثارة مشاعرها، وجعلها تنتقل من التوتر إلى الغضب ومنه إلى التركيز فى الدفاع عن "يوسف":

- هل كنت تلاحظين عليه أحياناً أنه خائف أو متوتر أو أن هناك من يترصد به ؟

فكرت "مايا" بأن كل ما ذكره كانت تلاحظه، فهو كثيراً ما كان يتنفذ متوجساً لأقل صوت يصل لسمعه، ولم يكن يسمح لأحد غريب على الإطلاق

بالدخول إلى منزله، وقتما كان يعيش وحده، حتى أنه كان يرفض بشدة وجود أى نوع من أنواع الخدم، ولم يكن يسمح للبواب الذى كان يقضى له حاجاته أن يتخطى عتبة منزله، ولكنها كانت تعزي ذلك لأنه من سلالة عائلة ضخمة ذات ماض مؤلم ومتشابك ومعقد للغاية.

نفضت رأسها ببطء، وكأنها ترغب في التخلص من سيل ذكرياتها، بعد أن التقطت منها ما تريده، وعادت به لتلقى به أمام "مروان" الذى كان ينتظر بصبر إجابتها:

- نعم كثيراً ما كنت أشعر بأنه قلق ومتوتر بل وخائف..

سادت لحظات من الصمت.. تركت كلمات "مايا" الأخيرة معلقة بثقال شديد فوق رؤوسهم، ومن مكان بعيد تسربت أصوات ضجيج بشري مختلطة بأبواق السيارات وصياح بائع يبذل جهداً هائلاً لترويج بضاعته، ونافسه صوت شجى لمطرب مغمور يزعم من داخل جهاز تسجيل بأحد الميكروباصات "مافيش صاحب بيتصاحب" ..

كسر "مروان" حاجز الصمت ملتفتاً إلى "داود":

- حدثني عن ألبوم يضم مجموعة من الصور لـ "يوسف" .. أريد أن أطلع عليه..

كانت كلماته باردة، ولم يستطع اخفاء صيغة الأمر فيها التي تجاهاها "داود"، واتجه ناحية غرفة المكتب، وعاد حاملاً بين يديه ألبوم صور ضخماً له غلاف حريري حال لونه الأبيض، ومال إلى الإصفرار..

قام "مروان" ليضع الألبوم على مائدة أمام كنية، ليسمح لـ "داود" بالجلوس بجانبه.. تصفحاً معاً صفحات الألبوم التي ضمت حياة كاملة لأسرة سجلت لحظات فرحها وسعادتها، وطوت بداخلها أسراراً دفنت مع أصحابها.. كانوا

يبدون وهم مجتمعون في رحلة أو متحلقون حول مائدة طعام ، أو متشابكو الأيدي يحتفلون بعروس، بما يوحي للرائي أن مصير أحدهم مرتبط بالآخر إلى الأبد...

ظهر "يوسف" في الصور طفلاً وشاباً ورجلاً ينتقل ما بين مدن غربية، ويقف أمام معالمها مبتسماً، تطل من عينيه نظرة انتصار.

مرت عدة دقائق على تصفحها الألبوم، كان خلالها يتولى "داود" تعريفه بكل الشخصيات التي حفظتها الصور. أغلق "مروان" الألبوم بلطف، واستأذن من "داود" ان يحتفظ به لعدة أيام، ثم يعيده إليه، ورغم غرابة الطلب، وافق "داود" مستسلماً، وتولى هو مهمة توديع ضابط الأمن الوطني الذي حياهم وانصرف.

- 6 -

الرؤيا

عاد "بيترو" إلى غرفته في الفندق، يسيطر على عقله مشهد أبو الهول الرابض في هدوء بصحراء الجيزة، حاملاً بقايا شبه بالملك خفرع صاحب الهرم الثاني.. لم تكن عظمة الأسد الملكي حارس الأماكن المقدسة وحدها التي جعلته مبهوراً، لكنه نجح في جعل الخوف يسري بجسده، بعد ما شرح له المترجم أن القدماء كانوا يعتقدون في قواه الغامضة، وأكد ما جاء على لسان "أبي الهول" في أحد النقوش "إني أحافظ على هيكل مقبرتك، وأحرس حجرة دفنك، وأطرد الغرباء المتطفلين، وأرمي بالأعداء إلى الأرض وأسلحتهم معهم، وأطرد الشرير من هيكل قبرك، وأهلك خصومك من مخائبتهم، ساداً إياها، فلا يخرجون منها ثانية".

فكر في قوي أبي الهول القادرة على كشف مهمته، وشعر بالندم الشديد لزيارته، فصورته انطبعت في ذاكرة "أبي الهول" الحاضرة منذ آلاف السنين. كان "بيترو" مهووساً بالسحر والخرافات، ويعتقد أنه لا توجد أسطورة على وجه الأرض، ليس لها ظل من الحقيقة.

شعر بارتباك شديد أفقده الرغبة في الخروج من غرفته لتناول طعام العشاء، وقرر أن يتناوله في غرفته، مفكراً في خطواته التالية، فما زال أمامه عدة أيام يقضيها في القاهرة لتنفيذ مهمته الثانية قبل خروجه من مصر.

انتفض مرتعباً من صوت هاتفه المحمول. تمالك نفسه في ثوان، ليأتيه من الطرف الثاني صوت "عبد الحميد غالب" رجل الأعمال المصري الذي يتفاوض معه من أجل صفقة الدراجات الهوائية. حياه الرجل بلطف، سائلاً عن رحلته، ورغبته في لقائه لاستكمال أعمالهما.

اتفق معه "بيترو" على لقائه في الصباح، معرباً له عن ضيقه الشديد من الإقامة في الفندق، فبادره "عبد الحميد" بدعوته للإقامة في شقة يمتلكها في

المهندسين الفترة المتبقية له بالقاهرة، فوافق على الفور شاكرًا له كرمه الشديد، وأنهى المكاملة بعد ما وعده محدثه أنه سيمر لاصطحابه في التاسعة صباحاً ليتناولوا معاً طعام الإفطار، وبعد انتهائهما من أعمالهما، سيذهب به إلى مقر إقامته الجديد.

في الثامنة صباحاً، أنهى "بيetro" معاملات إقامته بالفندق، ووقف ومعه حقيبته على باب الفندق، وحضر صديقه في الموعد المحدد، وركب معه سيارته الفاخرة، واختاروا مطعماً أنيقاً على النيل لتناول الإفطار، وأنهى كتابة العقود التي تجعل "عبدالحميد" وكيلاً للشركة الإيطالية للدراجات البخارية في مصر.

توقف سائق سيارة "عبدالحميد" أمام عمارة أنيقة بشارع الحجاز المتفرع من شارع شهاب، وأسرع بحمل حقيبة "بيetro" الذي شكره وأصر على حملها بنفسه، وصعد خلفه إلى الطابق الأول.

كان أثاث الشقة بسيطاً وأنيقاً في الوقت ذاته، ولاحظ "بيetro" أنها نظيفة وبها كل ما يحتاجه من أطعمة خفيفة ومياه وعصائر ونسكافيه، فشكر "عبدالحميد" على كرمه الشديد، وتأهب الأخير للانصراف، وهو يشعر بالسعادة، آملاً أن يؤثر كرمه في إتمام صفقته الناجحة مع صديقه الإيطالي، واستأذنه أن يأتي إليه بحارس العمارة ليجعله تحت إمرته إذا احتاج لأي شيء.

رفض "بيetro" شاكرًا، وتعلل بأنه لن يحتاج شيئاً، وأن عائق اللغة سيجعله غير قادر على طلب شيء منه.

تفقد "بيetro" الشقة، بعد أن ارتدى قفازاً، ليطمئن على وجود تركيبات حديدية على الشبابيك تحصنها من السرقة. وضع حقيبته المغلقة بأرقام سرية داخل الدولاب، وخرج.

لم يستدع سيارة أجرة من أمام العمارة، بل سار حتى وصل إلى شارع جامعة الدول العربية، وأشار لسائق بالذهاب به إلى شارع عدلي بوسط المدينة، وحين ترجل مشى عدة خطوات، ثم عاد متوجهاً ناحية شارع قصر النيل.

توقف أمام فتارين المحلات، مطالعاً المعروضات، ومركزاً على صور المارة المنعكسة على الزجاج، حتى يتأكد أنه غير متبوع، وعاد السير حتى وصل لميدان مصطفى كامل، فأشار لتاكسي، طلب من السائق أن يذهب به إلى "سيتي ستارز" المول الشهير بمدينة نصر.

اندفع "بيترو" وسط الزحام إلى داخل المول. كان الهواء عابقاً بروائح العطور والقهوة الطازجة. جلس في أحد الكافيهات، واستمتع برشقات من فنجان الكابتشينو، وهو يراجع في عقله العنوان الذي سيتوجه إليه في المنطقة الأولى بمدينة نصر القريبة من "جنيته مول".

انشغل بتحديد موقع الشارع، مستخدماً برنامج "مابس" في تليفونه "الآي فون" وتعرف على أماكن الكافيهات والمطاعم به.

أنهى قهوته وبحث عن دورة المياه حتى وجدها، وأغلق خلفه الباب، وأخرج من حقيبته شعراً أشقر ناعماً، وضعه على رأسه فانسدل حتى كتفيه، وأخرج شارباً من داخل علبة صغيرة، لصقه بحرص شديد مستخدماً مادة لاصقة، وخلع قميصه فظهر من تحته "تي شيرت" أسود، وقبل أن يخرج وضع نظارة طبية، وألقى نظرة أخيرة على تنكره الخفيف في مرآة أخرجها من حقيبته، واطمأن على مظهره الجديد وخرج.

سار متمهلاً بين طرقات المول، واختار باباً مختلفاً عن الباب الذي دخل منه، وخرج إلى الطريق وسار حتى شارع النصر، ومن هناك أشار إلى سيارة أجرة، وطلب من سائقها الذهاب إلى "جنيته مول".

وقف "بيترو" أمام المول، ليحدد موقع الشارع الذي يرغب في الذهاب إليه، استرعى انتباهه لوحة إعلانية عن مطعم صيني في شارع "السحاب". شعر بالارتياح بعد أن عبر الطريق، ومشى عدة خطوات حتى وصل للشارع من بدايته.

كانت الأشجار تحف الشارع من الجانبين، ومعظم العمارات واطئة، ولا تتجاوز خمسة طوابق، يتخللها أحياناً برج مرتفع، وكانت معظم أعمدة الإنارة مطفأة، والسيارات تصطف على الجانبين، وعلى مسافة بعيدة يوجد عدد من المحال الصغيرة التي تقدم خدماتها لسكان الشارع الهادئ.

اقترب "بيترو" من كافيتريا ومطعم صيني، وأدرك أن موقعه جيد، سار خطوات قليلة، ورأى العمارة الصغيرة بطوابقها الثلاث، ويحيط بها سور بسيط يقع خلفه شجيرات قصيرة.

توقف على الجانب الآخر، وراقب الباب الحديدي الضخم المغلق الذي لا يمكن فتحه إلا عن طريق الإنتركم من داخل الشقق. سار حتى نهاية الشارع وانعطف يميناً ودار في الشارع الخلفي ليرى ظهر العمارة.

عاد مره أخرى إلى شارع "السحاب" قاصداً المطعم الصيني، صعد عدة درجات من السلم التي تفصله عن الطريق ودفع الباب بيده. اختار مائدة يمكن له من خلالها أن يراقب الجانب الآخر من الشارع. طلب قائمة الطعام واختار ما يريده.

استغرق تناوله للطعام والحلوى أكثر من ساعة. راقب خلالها تحرك الأضواء في الطابقين الأخيرين للعمارة، ولاحظ صبيّاً صغيراً يحمل عدداً من الأكياس في يده، ولم يفتح الباب له إلا بعد أن تحدث في الإنتركم.

أدرك "بيترو" أنه أصبح قريباً من هدفه بعد أن حدد الطريقة الوحيدة لدخوله. دفع فاتورة الحساب، وانصرف عائداً إلى جنيته مول، وأزال تنكره داخل دورة المياه، وخرج عائداً إلى شقة المهندسين مغيراً عدة سيارات أجرة.



شع وجهه "نبيلة" بالفرح عندما رأت ابنها "سالم" أمامها، بعد أن كاد القلق يقتلها لغيبابه الطويل، فهي لم تستطع الاتصال به طوال اليوم، ولم تسمع سوى رسالة مسجلة بأن تليفونه مغلق وغير متاح. لم تكف عن الاتصال به حتى أجابها قبل منتصف الليل بقليل، فانهارت باكياً وهي تلومه على إغلاق تليفونه. طمأنها واعتذر لها بأن بطارية التليفون فرغت ولم يجد شاحناً.

أسرع إلى والدته، وقبل رأسها فلم تتمالك نفسها، وانخرطت في بكاء انتقلت عدواه إليه، فكفت دموعها، واحتضنته وهي تسأله عما يشغل باله. طمأنها بأن كل شيء يسير في الاتجاه الصحيح وداعبها قائلاً:

- كنت أعتقد أنك سعيدة لعودتي للحياة معك، إذا غيرت رأيك فسأعود إلى إيطاليا..

لم تفلح كلماته في تهدئتها، لكنها بدت حائرة لما آل إليه الحديث. انتهاز فرصة صمتها ليسألها عن ولديه، فأشارت إليهما وهما نائمان في غرفتها، وأخبرته أن "عمر" اتصل بها، وقال إنه سيتأخر في عمله. وقف متتوياً الصعود لشقته، فنادته أمه أن يبيت معها، وأن يترك الطفلين نائمين. استجاب للطلب الثاني، واستأذنها في الصعود لرغبته في ترتيب بضعة أشياء.

كان في الأحوال العادية سيستجيب لرغبتها مسروراً، أما الليلة فلم تكن عادية بالنسبة له، ولم يشأ أن يزعج أحداً، وهو يوشك على إنهاء العمل الذي أمضى فيه عدة شهور.

قبل رأسها ووعدتها أن يتناول معها طعام الإفطار مبكراً، صعد إلى شقته واستغرق في الكتابة على أوراق بيضاء، نظر إليها أخيراً راضياً، وأخرج الأجندة التي لا تفارقه، وكتب بها عدة سطور، ثم خلع ملابسه ووضعها في صندوق الغسيل، وأخذ حماماً دافئاً.

رغم إرهاقه الشديد إلا أنه قام بتلميع حذائه، ووضعها في مكانه بخزانة الأحذية، وألقى بنفسه على السرير، ولأول مرة منذ عدة شهور، يستغرق في نوم عميق لا تقطعه الأحلام ولا الكوابيس.

"كيف يمكنه أن ينام حتى الثامنة صباحاً" ..

كان ذلك أول ما فكر فيه "سالم"، وهو يفرك عينيه محاولاً أن يفيق، رفع جسده لأعلى متكئاً على ظهر السرير. لم يستطع أن يبعد عن تفكيره المشكلة المخيفة التي وجد نفسه فيها. لم يسع إلى المتاعب، لكن هي التي لحقت به.

تنهد بحرقة مردداً "يا الله.. أنت أقرب إليّ من حبل الوريد.. ضاقت بي الحيل.. وضلت بي السبل.. وتقطعت بي الأسباب.. وسدت أمامي جميع الأبواب.. فساعدني على الخروج من هذه المحنة".

أنهى دعاءه، وانسل بعدها من السرير، شاعراً براحة كبيرة، توجه إلى الحمام استعداداً لصلاة الصبح، وهو يفكر أنه أمضى وقتاً أكثر من اللازم في النوم، توضاً وصلى. رتب سريره، ونزل إلى شقة والدته.

قبل أن يطرق الباب، ابتسم في سعادة، بعد أن تناهى إليه صوت "فاطمة" وقد تحسنت لغتها العربية المتعثرة، بفضل الدروس التي تعطيها لها والدته يومياً.

اندفع الطفلان وتعلقا برقبتة وهما يتسابقان في طرح الأسئلة عليه، احتضنهما معاً، وقبل والدته التي لاحظت أنه تخلص من توتره. حمدت الله في سرها، وعادت إلى المطبخ لتحضير طعام الإفطار.

سألها عن "عمر" فأجابته بأنه ظل على الإنترنت لوقت متأخر من الليل، وطلب منها ألا توقظه على الإفطار.

تناولوا إفطارهم، وفاجأهم بأنهم سيتناولون طعام الغداء في الخارج، وسيذهبون إلى السينما بعدها. أطلق الطفلان صيحات الفرح، وابتسمت أمه وهي ترى ابنها يعود إلى طبيعته المرحّة، وانتهزت الفرصة لتسأله عن مدرسة الطفلين، فطمأنها بأنه وجد مدرسة دولية مناسبة في المعادي، وتدرس اللغة الإيطالية بجانب الإنجليزية والفرنسية، وأنه حدد معهم موعداً عن طريق الإنترنت بعد ثلاثة أيام.

في تلك اللحظة رن هاتفه المحمول، فنظر إليه متثاقلاً، ووقف مبتعداً وتحدث بالإيطالية، فعرفت أمه أنها "كلارا"، وراقبت ملامحه المتقلصة كلما حدثها، لكن في هذه المرة كان يحدثها دون أن يبدو عليه التوتر. كانت "فاطمة" و"علي" يقفان على مقربة منه في انتظار أن يحدثا أمهما، وحكيا لها عن تقدمهما في التحدث بالعربية وعن نزتهما المرتقبة وغرفتهما الجديدة في شقتهم، وتوسل "علي" إليها أن تطلب من والده أن يسمح له بالنوم بجوار جدته.

من طرف عينيها شاهدت "نبيلة" ابنها، وهو يشني أصابع يديه ويفردهما عدة مرات، وكانت تعلم أنها عادة يمارسها منذ طفولته، عندما يكون غارقاً في مشكلة ما. سألتها إذا كان يرغب في شرب كوب من النسكافيه معها، فhez رأسه موافقاً واستغرق في قراءة الصحف.

عاد هاتفه إلى الرنين، فنظر إليه مطولاً، ظهر اسم "ممدوح". استغرق ثواني ليتذكر أنه صديقه الأثري الذي التقى به في مجمع الأديان. رد عليه مرحباً به،

وسأله عن أحواله وإذا كان يرغب في العمل مع إحدى شركات السياحة التي تتعامل مع الوفود الإيطالية. رحب "سالم" بالفكرة، وابتسم بعدما أدرك أن صديقه يتودد إليه، حتى يسهل له سفره إلى إيطاليا، واتفقا على اللقاء في اليوم التالي أمام مسجد "السيدة نفيسة" بمنطقة الخليفة.

جلست "هديل" فوق كرسي المكتب الفخم، وهي تدور به يمينا ويسارا، ومولية ظهرها للباب، وتنظر إلى المشهد الرائع للنيل الذي كان يعلوه طبقة خفيفة من الضباب، يحجب ضوءا المدينة عن النهر الراقد بهدوء يصرف أمور البشر بحكمة.

تمنت أن تعيش بالقرب من النهر، وتراقب المراكب الصغيرة التي تتأرجح على مياهه برقة.. المراكب التي كانت تذهب إليها منذ بدأت علامات جسدها تتشكل، لتشي بجسد مكتمل الأنوثة تفوح منه رائحة الفقر.. جنيها كانتا أجرتها، تتقاضاهما لترقص طوال ساعتين مدة الرحلة النيلية، ووجبة طعام كان يصبر رواد المركب أن تتناولها.

كانت ترقص لطلبة المدارس والجامعات، الذين فضلوا أن يقضوا وقتهم في المركب بدلاً من قاعات الدراسة، ورجال في منتصف العمر تركوا زوجاتهم في المنازل يراقبن أطفالهن، وهم يحاولون فك طلاسم المناهج على أيدي المدرسين الخصوصيين.

كانت أصعب الأوقات عليها عندما كان زبائن المركب يمدون أيديهم على جسدها، بعد أن يلعب المخدر برؤوسهم، ويشعرهم أنهم قادرون على الطيران في السماء، والغوص في قاع النيل. شحب وجهها عندما برقت صورة الرجل ذي

الرائحة الكريهة، الذي حاول أن يتحسس جسدها وهو يتظاهر بالرقص معها، وظل يدفعها بيديه ليختلي بها في الغرفة الصغيرة أسفل قمرة القيادة، كاد ينجح في اغتصابها بعد أن ابتلع صوت المحرك صراخها اليائس.

أنقذتها فطنة المراكبي، فأسرع ناحية الغرفة، ووجدها تصارع ثوراً هائجاً كرية الرائحة. تصدى له بعد أن استدعى من كانوا معه، فأزاحوه وسحبوها وهي ترتجف. سبها الرجل وبصق على وجهها، قبل أن يطالب المراكبي بالعودة إلى الشاطئ.

اندفعت الدموع من عينيها، وتأوهت وهي تمسك بخاصرتها في نفس المكان التي تلقت فيه ركلات الرجل كرية الرائحة.

دقات الباب، أخرجتها من أفكارها الحزينة. لم تهتم بتجفيف دموعها، وإصلاح زينة وجهها، فقد كانت تميز طرقات مساعدتها "منى" التي دخلت، وأغلقت الباب خلفها، وهي مبتهجة وتكاد تطير من الفرح:

- آه لو شفتي المؤلفين والكتاب وهما قاعدين.. كل اللي طالبيه إنك تمنى عليهم بدقائق قليلة..

قالتها "منى" وهي تضحك بسعادة. لم تلتفت إليها "هديل" التي مازالت مولية ظهرها لها.

أدارت الكرسي ببطء لتواجهها، فلاحظت "منى" آثار الدموع التي حفرت خطأً محاً مساحيق التجميل من على وجهها.

صرخت "منى" واندفعت ناحيتها تسألها عن سبب بكائها.. نفضت "هديل" رأسها ببطء، ورفعت وجهها الجميل، وهمسّت:

- لا تقلقي..

أشارت إلى مساعدتها، أن تحضر لها أدوات التجميل. أسرعت بخطوات قلقة لتنفيذ طلبها، وبعد أن اطمأنت على ماكياجها، أشاحت "هديل" بوجهها أن تدخل من ينتظرونها..

وبسرعة البرق، رسمت على وجهها ابتسامة مرحة، استقبلت بها "عامر الشهاوي" كاتب السيناريو الشهير، وأفضل من يفصل الأدوار على مقاس النجمات الشهيرات، فيضع للنجمة رقصة مثيرة وأغنية مرحة، وعدداً من المواقف التي تستدعي ارتدائها فساتين سواريه تبرز فتنتها وجمالها، ولذا كان السيناريست المفضل لدى كثيرات منهن.

أخرجت "هديل" سيجارة. أسرع وأشعلها لها وهو يحذرهما من كثرة التدخين حتى لا يؤثر على جمال بشرتهما:

- دي أول سيجارة لي النهارده.. المهم أنا محتاجة لسيناريو كبير.. وبه مساحة لعدد كبير من النجوم الشباب والوجوه الجديدة.. المهم أن السيناريو يكون حلو وحراق.. ولازم تحط فيه المطرب الشعبي الجديد اللي بيغني ويرقص.. ومعاها المطربة الشعبية اللي شكلها بقي شيك بعد ماراحت لبنان وعملتها كام عملية هناك..
- طلبك عندي.. بس محتاج شوية وقت لعمل بعض التعديلات..
- علشان حكاية الوجوه الجديدة دي..
- شد حيلك أنا مستعجلة..

قالتها وهي تودعه على الباب.

قضت ساعة أخرى، استقبلت فيها عدداً من المؤلفين وكتاب السيناريو الذين أحضروا معهم عدداً من أعمالهم، وتركوها لها طالبين منها قراءتها.

أطلقت "هديل" تنهيدة تنم عن إرهاقها، فسارعت "منى" لتهدئتها برقة، وهي تذكرها أنه لم يتبق سوى لقاءها بالمنتج الفني الذي اقترب موعده. لم تنته من كلمتها حتى طرق الباب، وأطل "حسن البطل" برأسه. أسرع إليها وقبلها على وجنتيها، ووضع هاتفه وسجائره ومفاتيح سيارته على المكتب، وألقى بجسده على الكرسي مطلقاً سيلاً من السباب لزحام الطريق والحر الشديد، ومعاناته في العثور على مكان ليصف فيه سيارته. ثم التفت إليها وهناً بشركة الإنتاج الجديدة، واقترح عليها إقامة حفل كبير في أحد الفنادق الكبرى.

أعجبته الفكرة وطلبت من "منى" أن تبدأ في تنفيذها، وغمرت بعينها:

- ولا تنسي أن تبلغني عدلي بيه..

فهمت "منى" الرسالة على الفور، ف"عدلي" من أشهر تجار المجوهرات في مصر والعالم العربي، وكل ما يتمناه في الدنيا أن ترضى عنه "هديل"، وفي سبيل ذلك يضع دفتر شيكاته تحت أمرها.

كان صاحب فكرة الحفل "حسن البطل" أشهر منتج فني عرفه الوسط في الفترة الأخيرة، وكان قادراً على صناعة أي فيلم بنفقات معقولة، مستغلاً شبكة علاقاته الواسعة مع سياسيين ورجال أعمال وأصحاب نفوذ تفتح بكلمة منهم الأبواب المغلقة، مقابل خدمات لا يقدر أحد على تقديمها لهم سواه.

امتلك "البطل" موهبة الحفاظ على الأسرار، ولم يضبط مرة واحدة متبجحاً بمعلومة عرفها أو خدمة قدمها لمعارفه، وبالتالي حفظوا له جميله، وساندوه وسهلوا له كل أعماله.

كان الوحيد القادر على الحصول على تذاكر طيران بربع القيمة، وأحياناً مجانية لطاغم العاملين معه في سفرياتهم للخارج، أو نيل تصاريح بالتصوير في أماكن شديدة الخصوصية بأرقام لا تكاد تذكر.

كان يؤمن أن الحياة ليست عادلة، وأنه يوفر لنفسه حياة مضاعفة بتبادل المصالح مع الآخرين، فالحياة بالنسبة له قطار سريع يحاول اللحاق به طوال الوقت.

أدركت "هديل" أنها أمام الرجل المناسب الذي سيحقق لها ما تريده، ولو صدف وعرف شيئاً أو سمع معلومة ما، فلن يهتم كثيراً سوى بما سيجنه من أرباح.

حدثته عن الفيلم الكبير الذي تحلم بأن يكون من إنتاجها وطبعاً بطولتها، ورغبتها في تقديم وجوه جديدة شابة يدينون لها بالفضل، وفي نفس الوقت لا يكلفونها أجوراً كبيرة. تناقشا كثيراً واتفقا على اللقاء بعد أسبوع لاختيار الفتيات اللاتي سيصبحن نجومات المستقبل.

شعرت "هديل" بإرهاق شديد، وطلبت من "منى" تأجيل لقائها بعدد من الصحفيين، كانت قد اتفقت معهم على إجراء عدد من الحوارات، نبهتها مساعدتها أن اعتذارها عن مقابلتهم سيثير غضبهم.

وقفت "هديل" وكورت كتفيها، وأسندت يديها خلف ظهرها، فدفعت بصدرها إلى الأمام، وأزاحت شعرها الطويل الناعم إلى الخلف. تخلصت من آلام جسدها التي هاجمتها من طول فترة جلوسها. التفت إلى "منى"، وطلبت منها أن تجد حلاً.

استغرقت "منى" في التفكير لدقائق، ثم أشرق وجهها، وقالت:

- وجدت الحل.. سنقوم بدعوتهم الليلة على العشاء، وبعدها سأحدد معهم مواعيد لإجراء الحوارات..

وافقت هديل على الفكرة التي ستتيح لها أن تعود إلى منزلها، وتنال قسطاً من الراحة حتى موعد العشاء.



تذكر "مروان" أنه لم يتناول طعاماً طوال اليوم، جعله ذلك يشعر بجوع شديد، لم يكن من النوع الذي يفضل تناول الطعام وحده. رفع ساعة التليفون وطلب "خالد"، ووافق الأخير على الفور، فهو يشعر أيضاً بالجوع، وأرسلوا لشراء طعام.

لم يأت "خالد" بيد فارغة، بل كان معه مجموعة من الأوراق، وضعها بجانبه، حتى انتهيا من طعامها، وصارت أمام "مروان" معلومات كاملة عن ثلاثين شخصاً من القائمة التي كان يتبعها مساعده عن الأجانب، والبحث بينهم عن القاتل.

كانوا كلهم من العاملين في مصر، وتم التأكد من حجة غيابهم في وقت ارتكاب الجريمة..

- قمت بحذف أسمائهم من القائمة..

قالها "خالد" وهو يهم بالانصراف لمتابعة مهمته، لكنه توقف بعد أن سمع "مروان" يقول:

- هناك أمر غريب في صور "يوسف"..

عاد "خالد" مرة أخرى، لينظر من فوق كتفي "مروان" على مجموعة من الصور القديمة بالأبيض والأسود، تعود إلى الأربعينيات. كان "يوسف" يبدو فيها شاباً أنيقاً في أماكن مختلفة، مرة يقف أمام ضريح، ومرة مع مجموعة من الحاخامات، وفي صورة أخرى يقف أمام معبد فرعوني، وكانت اللقطة الوحيدة التي حدد موقعها بسهولة، ظهر فيها ومن خلفه "دير سانت كاترين" في سيناء.

- ماهو الغريب في الصور؟

سأل "خالد". لم يتلق جواباً فلم يلح وخرج.

بحث "مروان" عن عدسة مكبرة، تفحص بها الصور بدقة، ثم وضع بجانبها رسومات "يوسف"، وظل يخلق فيها أمامه لأكثر من نصف ساعة. كان يشعر أن هناك رابطة ما تجمع بين الصور والرسومات.

عاد إلى الخلف ملقياً برأسه على حافة الكرسي، وفكر أنه لا بد أن يعرف ماهية الأماكن التي تظهر خلف "يوسف". عندما وصل لهذه الفكرة ابتسم وأمسك بسماعة الهاتف، وطلب رقم خاله الدكتور "شوكت" الذي رد بسرعة، فالتفت ابتسامته، وهو يقول له:

- لا أعرف كيف تحتفظ بصوت شاب في الثلاثين.. يمكنك أن تتحدع الفتيات بذلك الصوت الشاب..
ضحك خاله وقال له:

- السريا ابني في السعادة "لا أحد يعلم ما يجعل الروح تستيقظ في غاية السعادة، لعله نسيم الفجر أراح الحجاب عن وجه الله"..
صاح مروان:

- الله الله على كلامك الجميل..

رد شوكت:

- ليس كلامي بل هو كلام مولانا جلال الدين الرومي "فعندما تكون في حضرة الله ينطوي الزمان ويتركك كما أنت روحاً عاشقة تسبح بحمد من ستعود إلى ملكه في النهاية".
- يادكتور الحديث معك متعة لا نهاية لها..

قالها "مروان" وهو يعزم أن يصل لهدفه الذي أدركه خاله فرد عليه:

- ادخل في الموضوع مباشرة.. ماذا تريد أيها الضابط الذكي؟

ضحك "مروان"، وقال بلا مواربة:

- متى ستأتي لزيارة شقيقتك.. أريد منك أمراً مهماً..
- إني متشوق لمعرفة المزيد.. وهو ما سيجعلني أترك جيتي وأعود إلى جحيم حياتكم.. عامة سآتي لزيارتكم الأحد القادم أي بعد ثلاثة أيام.. حتى أتمكن من قضاء اليوم كله معكم..
- تنهد "مروان" موافقاً وأنهى المكالمة، نظر في ساعته وتأهب للقاء "أديرا" بالفندق.



وصل في الموعد المحدد رآها تجلس في بهو الفندق الفخم، كانت تبدو متغطرة في جلستها المعتدلة وساقها التي تلفها على بعضها، كأنها ملكة في المنفى.

لم تتحرك من مكانها، حتى اقترب منها "مروان"، وبادرها بالتحية، فمدت له أطراف أصابعها. تغاضى عن برودها الواضح، وجلس على الكرسي المقابل لها، وقبل أن يتكلم، سألته:

- ممكن أعرف سبب هذا اللقاء؟
- عمك "يوسف" ..

قالها وهو يتشاغل بالبحث عن الجرسون، وفي نفس الوقت، كان يراقبها من طرف عينيه، فلم يبدُ عليها التأثير، واكتفت بالنظر إلى النادل الذي وقف منتظراً. أشار "مروان" له أن يسألها عما ترغبه، فشكرته ورفضت أن تتناول شيئاً، فطلب هو فنجاناً من القهوة.

سألته "أديرا" بكلمات تحمل في طياتها نبرة خفية من نفاد الصبر:

- ماذا تريد أن تعرف عن عمي؟
- هل كان له أعداء يرغبون في إيذائه؟

تحركت قليلاً في جلستها، وبدأ على وجهها الاهتمام، ورددت:

- أعداء!

أكملت بهدوء:

- لم تكن علاقتي به قوية، فبعد أن هاجر والدي إلى فرنسا، كنت قد أنهيت دراستي الثانوية، والتحقت بجامعة "ستراسبورج" وبعد التخرج انشغلت بعمل، وظلت الصلة بيننا عن طريق التليفون وعلى فترات متباعدة..، ولم آت إلى مصر سوى ثلاث مرات، وهو ما يعني أنني لا أستطيع أن أفيدك في مسألة الأعداء..

توقفت برهة، ثم أردفت:

- يمكنك أن تسأل عمي "داود" فقد يستطيع أن يجيبك..
- ألم يذكر لك والدك أن عمك كان له خلافات حتى ولو قديمة؟
- أبداً.. عمي "يوسف" كان معروفاً عنه أنه رجل حالم.. يعيش في عالم من صنع خياله.. يعشق الموسيقى والقراءة.. ولا يختلط بالناس كثيراً.. صمتت لثوانٍ وأكملت، طبعاً لأنه يهودي.. وأنت تعرف أن مصر التي أصر أن يعيش فيها تكره اليهود..

كان صوتها يحمل رنة سخرية وهي تقول جملتها الأخيرة.

صحح لها مروان بهدوء:

- المصريون يكرهون "الصهاينة" لأنهم معتدون على الأرض، ويحترمون اليهود لأنهم أصحاب ديانة سماوية.. المهم هذا ليس موضوعنا.. متى تحدثت معه آخر مرة؟

نظرت إليه مطولاً قبل أن تجيبه:

- هل من الممكن أن أفهم ما هو سبب كل هذه الأسئلة؟
- كما قلت لعمك "داود" من قبل وواضح أنك لم تتحدثي معه.. نحن نريد إغلاق ملف وفاته تماماً بعد التأكد أنها وفاة طبيعية..
- احتفظت "أديرا" بنظرات عينيها الباردة وهي تحببه:
- وهل هناك شك في وفاته؟
- تهرب "مروان" من الإجابة على سؤالها بشكل مباشر:
- لا تنسى أنه سقط من أعلى السلم ولا بد أن نتأكد أن وفاته طبيعية..
- لمح مروان اختلاجة خفيفة في ملامحها، سرعان ما اختفت، لتجيبه ببرود شديد:
- كانت آخر مرة كلمته فيها بمناسبة عيد ميلاده..
- رغم الشعاع البارد الذي ارتسم في عينيها، إلا أنها لم تستطع إخفاء ظل من التحدي غلف نظرتها، وكانت في انتظار سؤال آخر، فاكتمت "مروان" بالابتسام بهدوء، وهو يقف متتوياً الانصراف، فبادرته قائلة:
- أريد أن أذهب إلى غرفة عمي في دار المسنين.. لأحصل على بعض مقتنياته كتذكاري..
- ببراعة شديدة أخفى رنة الارتياح في صوته، وقال لها:
- كما تعلمين لم نقم بعد بتسليم الدار لرئيسة الطائفة اليهودية.. وطبعاً تقسيم مقتنياته أمر عائلي..
- فهمت "أديرا" بإشارته على الفور وردت بسرعة:
- استأذنت من عمي "داود" فسمح لي أن أحصل على ما أريده..

- حدي الموعد المناسب لك.. وسأرسل معك شرطياً ليفتح الدار.. هل يناسبك غداً في الثانية عشرة ظهراً؟
- هزت رأسها موافقة، فحياها وخرج متوجهاً لسيارته.

لم يستغرق وصوله إلى مكتبه أكثر من ربع ساعة..
شعر مروان براحة شديدة بعدما تأكد أن "أديرا" تخفي شيئاً ما. أغمض عينيه مستعرضاً أحداث القضية كلها. أمسك بسماعة الهاتف، واتصل بقسم الدعم الفني. طلب إرسال تقني إلى دار المسنين، لتركيب كاميرات مراقبة دقيقة، يتم إخفاؤها بشكل جيد، وضع السماعة وزاد شعوره بالارتياح، لتمكنه من مشاهدة أديرا داخل غرفة عمها.

رن هاتفه المحمول، فألقى عليه نظرة متكاسلة، سرعان ما تغيرت، بعدما التقطه بلهفة شديدة ليجيب على "مريم" التي بادرت بלהجتها المرححة عن سر اختفائه، وأنها كادت تبحث عنه في أقسام الشرطة.

ضحك معرباً لها عن اشتياقه الشديد لرؤيتها وسماع صوتها، لكنه انشغل في الفترة الأخيرة، فسألته عن القضية التي تشغله وإذا كان قد اقترب من نهايتها. طلب منها أن تدعو له بأن يوفقه الله، حتى ينتهي منها ويتفرغ لقضيته الأهم.

- آه.. قضية جديدة يعني مشاغل لا تنتهي..
- قالتها "مريم" وبدا على صوتها الضيق، الذي شعر به "مروان" على الفور، فداعبها قائلاً:

- هذه القضية ستشغلني العمر كله.. لأنها قضية التحضير لزواجنا..

ضحكت "مريم" وهي تقول له:

- هل تشبهني بقضية؟

- آه.. والقضية الأخطر هي تدبير لقاء التعارف بينك وبين أمي..

أكمل مروان:

- وستتم المقابلة قريباً إن شاء الله..

ساعد "سالم" والدته على النزول من السيارة، وفتح الباب الخلفي لينزل منه "فاطمة" و"علي"، وكلاهما يحتضن عدداً من اللعب التي اشتريها بعد خروجها من السينما، وكانا يتقافزان بسعادة حول جدتهما.

لم يلحظ "سالم" الرجل العجوز الذي مر بجوارهم، وتطلع إليهم مبتسماً، وواصل طريقه حتى صعد بصعوبة درجات السلم المؤدية للمطعم الصيني.

أغلق "سالم" باب العمارة خلفه جيداً، وصعدوا جميعاً، ليجدوا "عمر" يستقبلهم ضاحكاً:

- استمتعت بالهدوء.. وانتهيت من كل أعمالي..

- بادره سالم بالسؤال عن قضية الرجل اليهودي وهل توصل فيها لمعلومات جديدة؟

مد عمر قدميه متثابراً:

- حتى الآن لم أصل إلى عائلته.. لكنني عرفت من مصدر لي بقسم مصر الجديدة أن ضابط الأمن الوطني الذي يتابع القضية لم يسلم الدار التي مات فيها العجوز إلى رئيسة الطائفة اليهودية.. وهو ما يعني أنه مازال يعمل عليها.. رغم عدم الإعلان عن وجود شبهة جريمة قتل.. وإن كانت كل المؤشرات تدل على أنهم مشتبّهون في وفاته..

أطرق "سالم" برأسه، وتشاغل بفرد أصابع يديه وثنيهما. كانت عينا أمه تتابعانه، فلاحظت توتره وفضلت ألا تسأل حتى لا يدرك أنها تراقبه. نظر في ساعته وقال إنه يرغب في النوم. أشار للطفلين أن يستعدا للصعود إلى شقتهم. فتقافزا حوله وهما يتوسلان إليه أن يسمح لهما بالنوم بجوار جدتهما، وأنهما أستاذنا أمهما ووافقت بشرط ألا يضايقاها، حتى أنها كلمت جدتهما واطمأنت إلى موافقتها.

نظر "سالم" إلى أمه مستفهماً، فاجابته وهي تشاغل بتنظيف المائدة:

- بالأمس تحدثت كلارا على تليفوني.. كانت ترغب بالتحدث مع "فاطمة" و"علي".. وكعادتها اطمأنت على صحتي وأن الطفلين لا يزعجانني.. وطلبت مني أن أستجيب لطلبهما.. وأجعلهما يبيتان معي.. صمتت وانتظرت ردة فعله، فنظر إليها طويلاً وهز رأسه موافقاً:
- المهم ألا يتسبب لك بالضيق..

انصرف بعد ما قبل طفليه، وصعد إلى شقته، معتزماً الخروج مبكراً في الصباح للقاء صديقه الأثري.

دامت جولة "سالم" و"ممدوح" لمدة ساعتين في منطقة الخليفة، وبدأها بالتوقف أمام ضريح شجرة الدر الملكة المصرية التي واجهت الغزو الصليبي، وحافظت على تماسك الدولة في تلك الأيام البعيدة، ولم تستطع أن تضمن لنفسها نهاية تليق بها، فقسوة الانتقام لاحقتها في قبرها الذي أحاطت به أكوام القمامة.

تعجب "سالم" وصديقه لما آلت إليه نهايتها، وكأن "أم علي" مازالت تحيطها بلعناتها.

امتدت جولتهما إلى الأضرحة والتكايا وقصور السلاطين وملاعبهم. كان "ممدوح" يلبي رغبات سالم في زيارة بعض الأماكن وكأنه سائح، راقب انبهاره بسقف "ضريح السيدة سكينة"، والعشق الكامن في "قاعة المولوية"، والسكون الذي يقصي الضجيج حول "مقام السيدة نفيسة". انتهت الجولة، وافق "سالم" على أن يحدد "ممدوح" موعداً له مع شركة السياحة، للاتفاق على العمل معهم، وعاد إلى منزله، وهو يشعر براحة شديدة افتقدها في الشهور الأخيرة.



كعادتها في الإعلان عن نفسها، أطلقت "سوسو" ضحكة صاحبة، وهي تقف خلف "عوض" الذي يحاول أن يجد ثقب المفتاح. التفت إليها غاضباً ومتعجباً عما أثار ضحكها، فأشارت له على مشاجرة ما بين قطتين تتنافسان على الفوز بقلب قط، بينما وقف منتشياً يراقب المعركة الحامية بينهما. نهرها "عوض" وأمرها أن تخفض صوتها، ودلفا معاً ليجدا من في انتظارهما..

كانت عينا "شادية" تنطق بالانكسار والحسرة، بعكس "داليا" التي لم تحف نظرات السخرية والاشمئزاز التي تبعتها بالتواءات تراقصت بين ثنايا وجهها..، كانت تتمنى في تلك اللحظة أن تتحول الكراهية بداخلها إلى ألسنة من اللهب تحرق "عوض"، وتحيله إلى كومة من الرماد.

هذا الكريه الرائحة.. رأت نظرات عينيه، وهي تنفذ بداخلها وكأنه يمارس ألعبيه السحرية لإطفاء النار التي بداخلها. اغتصبت ابتسامة بدت كجرح متقيح:

- حمد الله على سلامة العصفير..

قالتها دون أن تنتظر إجابة، سوى زفرة حارة اندفعت من صدر "سوسو" ونظرة لامبالاة من أبيها، جعلتها تتركهم وتذهب إلى غرفتها.

ألقت "داليا" بنفسها على السرير.. في تلك اللحظة، جرفها إحساس عارم بالذعر، ورغبة حادة في البكاء، لم تستطع أن تفرج عن دموعها التي احتبست. لم تملك غير القلب بعنف فوق سريرها. شعرت بحرارة شديدة تتسرب إلى جسدها كادت تذيبها. تحسست جبينها بأصابعها، وفوجئت بأنها تشبه قطعاً من الجليد، حتى جبينها كان جليداً.

انفضت تبحث عن قدميها، فوجدتها قطعة من الرخام البارد. ضمت ساقها على صدرها وأحاطتهما بساعديها. تأرجحت للأمام والخلف، وهي تزوم وتئن، بعد أن عجزت عن رؤية أي شيء، عندما داهمت عينيها سحابة سوداء. فركتهما بعنف شديد حتى عاد إليها بصيص من الضوء. مدت يدها مرتجفة تبحث بها عن تليفونها المحمول..

- إنتي فين؟

قالتها بصوت متكلف أجش قليلاً، وجاءها من الطرف الآخر صوت "مروة" كغناء حمل لم يتجاوز عمره أياماً:

- أنا في البيت يا روعي..

عاودت داليا الحديث محتفظة بنفس نبراتها:

- يعني ماخرجتيش؟

- هاروح فين وأنتي في البيت؟

ردت "مروة" بصوت جياش، حاولت أن تجعله أكثر رقة، طلبت "داليا" منها أن تلقاها غداً قبل ذهابها إلى الجامعة.

أغلقت الهاتف واستلقت محاولة أن تنام.

كانت تداهما هو أجسها التي لا تجرؤ على طردها ولا التملص منها، نظرت إلى باب الغرفة الخشبي الذي يفصلها عن عائلتها الغريبة. تنهى إليها صوت أبيها الأجل الذي كانت تشعر به يقطر حقداً، وهو يطلب من أمها أن تعد له الطعام.

تعجبت لأمره فهو الساحر الشهير. كيف لا يعرف ما تعانيه وهي ابنته الوحيدة، وتحت إمرته كتيبة كاملة من الجن والعفاريت.

كيف لم يكتشف أنها ذكر حائر في جسد أنثى تشتهي بنات جنسها ولا تستطيع لمسهن. تكتفي فقط بإطلاق عنان مشاعر العشق المحرم، فهي لم تكن تصدق نفسها ولا مشاعرها، وتكتفي بفرض نفوذها على فتيات يتقبلن ميولها الغريبة التي لم تكن تشبعها أبداً، وكأنها عطشى تحاول الارتواء بماء مالح.

تأوهت من الألم الذي يعتصر قلبها، فالآلام المبرحة تنتقل في جسدها، حتى تتجمع وتستقر أسفل قلبها مباشرة. دفنت وجهها في وسادتها وانخرطت في بكاء شديد.

فكرت "داليا"، أنه من بين جميع الصدمات والجروح التي عانتها، لم يبق في ذاكرتها سوى شعور بالنقمة الشديدة على أمها، التي تعاني من قصور عقلي، جعلها تتحول لعبدة طائفة تنفذ رغبات زوجها. كان خنوعها يغشي عينيها فلم تر في "داليا" وهي ترتدي ملابس الذكور وأحذيتهم وتصارع الفتيان وتصرعهم

أمرًا شاذًا. سمحت لمشاعرها المتضاربة أن تنمو بداخلها كنبت مجهول الهوية، ولم تتنبه أو ينبهها أحد.

انتفضت "داليا" في فراشها. كادت مشاعر الغضب والاستياء تعصف بعقلها. أمسكت برأسها وهي تعتصرها من فرط الصداق الذي يفترسها. بحث بجوارها عن كوب من الماء. بللت رشفاته جفاف حلقها، واستلقت لتغرق في النوم.



استيقظت "داليا" وهي تشعر بصداق يكاد يفتك برأسها. سحبت نفسها من السرير بصعوبة وتوجهت للحمام. نظرت في المرآة فراعها ورم أحاط بعينيها، وخط أسود سميك يعلو جفنيها. غسلت وجهها بماء بارد عدة مرات، محاولة التخلص من انتفاخ عينيها. خرجت بعدها وارتدت بنطلون جينز وقميصاً أبيض وحذاءً رياضياً، ومشطت شعرها القصير للخلف، وبحثت عن نظارتها الشمسية لتخفي من خلفها انتفاخ عينيها.

قفزت داخل سيارتها الصغيرة، وأدارت محركها متعمدة أن تجعل عجلاتها تصرخ على الأسفلت. أمسكت بهاتفها وكلمت "مروة"، وطلبت منها أن تنتظرها أسفل منزلها.

بعد دقائق وجدتها في انتظارها تستند على سيارة، وتعبث بشعرها الأصفر المصبوغ، وتزين وجهها بماكياج صارخ، وترتدي بنطلوناً أبيض ملتصقاً بجسدها، وبلوزة مخططة بألوان قوس قزح.

فتحت "مروة" باب السيارة، وألقت بنفسها على الكرسي، ومالت لتقبل "داليا" على وجنتيها، لكنها صدمتها بعنف وهي تنظر إليها بقرف:

- إنتي رايحة الجامعة ولا الكباريه..

ضحكت "مروة" وهي تبحث عن يدها لتتعلق بها بغنج:

- لا أنا رايحه معاكي في داهية..

قالتها وأخرجت من حقيبتها سيجارة، وقبل أن تشعلها، صرخت فيها "داليا" أن تلقىها، فهي تكره رائحة الدخان. استجابت لها وتكورت بجانبها صامتة، وتختلس إليها النظر متعجبة من حالها، ويتتابها شعور بالضيق من صديقتها التي تكتفي في علاقتها أن تلعب دور الرجل المتسلط الغيور بدون علاقه جسدية.

حاولت "مروة" أن تغريها باقتحام ذلك العالم السحري، وكانت "داليا" تكتفي باحتضانها أو تمسيد شعرها، وفي المرة التي أحضرت فيها فيديو لمجموعة من الفتيات يارسن الجنس معاً، تلقت صفعه مدوية على وجهها، وتركتها "داليا" لتتقيأ.

كانت تشعر معها بالحيرة، لكنها تتعلق بها، وكأن هناك خيوطاً سحرية تشدها إليها، فتزداد تعلقاً بها. كانت عندما تسألها عن سر نفورها منها. تنظر إليها وتقول "إن أفضل ما في الحب هو عذابه، وكلما كان الحب بلا نتيجة تأكدنا أن مشاعرنا أقوى وأصدق".

وفي كل مرة كانت "مروة" تتلقى كلماتها بالتواءات حادة، تشكلها بفمها وتتبعها بتنهدات تنم عن نفاد الصبر.

وصلتا معاً إلى موقف سيارات الجامعة الخاصة، التفتت "داليا" إلى الخلف، وتناولت حقيبتها الرياضية وحملتها خلف ظهرها. مشتا معاً حتى وصلتا إلى كافيتريا الكلية. جلستا إلى مائدة وأحضرت "داليا" عدداً من السندوتشات التهمت بها بنهم، واكتفت "مروة" باحتساء كوب من النسكافيه.

قبل أن تتحركا للذهاب إلى قاعة الدرس . سمعتا أصواتاً مرحة من خلفهما . كان بعض زملائهما يتوسطهم "أمينة سعد مدبولي" الشهيرة بـ "إيمي" كما تحب أن يدعوها الجميع .

كانت تتمتع بجمال واضح ومظهر بسيط، وتبذل جهداً كبيراً لتبدو أنيقة . اعترفت مرة لإحدى صديقاتها عن سر ارتدائها ملابس غالية الثمن من الماركات العالمية، بأنها تشتريها من تاجر في الوكالة، يجعلها تختار من البالات الكريمة المستعملة أفخر الملابس، وبالطبع ذاع السر في الجامعة كلها، وطاردتها نظرات السخرية والتهكم .

حلت "أمينة" شفرة كلمات السخرية، التي تلقى أمامها بدون موارد، وأدركت أنها لا بد أن تخرج منتصرة، فقد تعلمت أن الحياة تشبه الزورق الذي يحتاج إلى مجدافين، لكي يتمكن من عبور النهر، ومجدافها كانا عقلها وجمالها، فادعت أنها كانت تشفق على صديقتها التي تغار منها لاهتمامها بأناعتها، وقدرتها على شراء الثياب الغالية، فاضطرت أن تقول لها بأنها تشتريها من الوكالة، حتى لا تثير حنقها لعدم قدرتها على تقليدها .

كثيرون اقتنعوا بتبرير "إيمي" الذي نشرته بذكاء وبلا تكلف، وبقيت "داليا" التي لم تصدق حرفاً واحداً مما تقوله، لكنها لم تظهر لها ذلك أبداً .

تركت "إيمي" أصدقاءها وتوجهت ناحية "داليا"، فاتحة ذراعيها لتحتضنها، ولم تنتبه لنظرات "مروة" النارية التي كادت تلتهمها . تبادلتا معاً الأحاديث العادية، وشكت "إيمي" من صعوبة الامتحانات، ورغبتها في أن تنتهي دراستها حتى تجد عملاً محترماً .

ابسمت "داليا" فقد كانت تعرف المغزى الكامن وراء كلامها، فوالدها الموظف الكبير في إحدى الوزارات .. رجل شريف لم تتلوث يده أبداً بهال رشوة

أو إكرامية أو هدية مجهولة المصدر، ويعاني من دفع أقساط الجامعة الخاصة التي ترهقه مادياً. ورغم أنه دائماً ما يطالب ابنته بالنجاح لأنها لا تمتلك رفاهية الرسوب الذي يعني زيادة المصروفات، إلا أنها دائماً ما تتحدث عنه بحب واحترام وتقدير.

كانت كلماتها كل مرة تنغرس في قلب "داليا" كسهم مسموم، وفي البداية ظنت أن "إيمي" تعتمد الحديث عن والدها أمامها، لإذلالها وتذكيرها بوضاعة والدها "عوض" وأعماله القذرة، لكنها اكتشفت بعد ذلك أنها لا تعرف عنها شيئاً، ولا تلاحظ حتى نظرات الحقد التي تتابعها بها.

في ذلك الصباح اختمرت الفكرة في عقل "داليا"، وهي ترى "إيمي" ترتقي عليها لتقبلها. ابتسمت في هدوء، وحدثت نفسها بأنها وجدت لـ "عوض" صفقة تستحق أن يسعى وراءها.

لأول مرة تشعر "داليا" بأنها ترغب في أن تعود لمنزلها بسرعة. لم تكن رغبتها من أجل أنها اشتاقت لأمها أو لرغبتها في تناول طعام من صنع يديها، بل كان من أجل لهفتها لمقابلة والدها قبل أن يتبخر من البيت.

تعللت لصديقاتها أن أمها مريضة، ولا بد أن تعود لرعايتها. تمنى الجميع لأمها الصحة ما عدا "مروة" التي لم تنطق، بعدما أدركت أن "داليا" تكذب، وتخطط لشيء ما، فهي تعلم جيداً نوع العلاقة التي تربطها بوالديها.

قادت سيارتها مسرعة، وعندما اقتربت من منزلها، شاهدت سيارة "عوض"، فالتقطت أنفاسها وتوقفت لدقائق متعجبة من نفسها، فهذه هي المرة الأولى التي تمنى فيها رؤية والدها. أزاحت أفكارها جانباً حتى تستطيع أن تتحدث معه. فتحت الباب فوجدت أمها كعادتها تجلس أمام التلفزيون تتابع المسلسل الهندي الذي فاتها بالأمس لرجوع زوجها وضررتها من السفر.

رفعت بصرها نحو "داليا"، وعادت لتتابع المسلسل بدون أن تعلق على عودتها مبكراً.

لم تهتم "داليا" كثيراً، وسألتها عن والدها، فأشارت لأعلى بدون أن تتكلم، فهمت أنه مازال نائماً، للحظة فكرت أن تصعد إليه وتوقظه، لكنها تراجعته وفضلت أن تنتظره بعيداً عن فضول "سوسو".

لم يطل انتظارها، والتقطت أذناها صوت غلق الباب. اعتدلت في جلستها منتظرة هبوطه، نظرت إليه "شادية"، وبدون أن ينطق انسحبت لتعد له الشاي والإفطار. نظر مطولاً لـ "داليا" وتعجب من وجودها بالمنزل في ذلك الوقت، لكنه لم يعلق خوفاً من تعليقاتها اللاذعة، وبادرت هي بالتحدث إليه:

- أنا جايالك شغل كويس..

حقد فيها باهتمام ولم يعلق، فأكملت:

- عندي بنت رائعة.. جميلة وأنيقة.. ويمكن أن تنفعك في شغلك..

قالتها وهي تنتظر رد فعله الذي لم يزد عن نظرة متفحصة، لم تفلح في جعلها تحفض عينيها، بل جعلتها تحدد فيه بتحدٍ منتظرة إجابته.

جعد "عوض" أنفه، علامة على تعجبه، وكأنه يكشف رائحة نتنة لم يشمها أحد غيره:

- إغزميها في البيت حتى أراها..

استوت "داليا" واقفة، وتهيأت للذهاب إلى غرفتها، وهي راضية عن سير الأحداث.

انحنى "مايا" للأمام، وهي ممسكة بفرشاة دقيقة، وتنفض بها التراب المستقر بين الحشوات الصدفية التي تزين الهيكل في معبد بن عزرا بمصر القديمة. كانت

من ضمن الفريق الذي يوثق القطع المهمة داخل المعبد. وكان للهيكل أهمية خاصة، فهو قطعة فنية مميزة من الفنون الإسلامية التي تزين المعبد.

شعرت بألم من الانحناء. وضعت يديها خلف ظهرها، ووقفت مستندة إلى أحد الأعمدة، وهي لا تحول عينها عن الهيكل. لم يستغرق الأمر أكثر من ثوان معدودة. ارتسمت فيها أمام عينها صورة شاب وسيم ينظر إليها مبتهاً. سرت في جسدها برودة جعلتها ترتجف، حتى أسقطت الفرشاة من يدها.

ألقت برأسها للخلف، وأغمضت عينها لتطرد وجه الشاب الغريب. زاد اضطرابها بعد أن استوعبت ما حدث، فالشاب غريب عنها تماماً، واقتحام صورته لعقلها يعني أمراً واحداً.

لملمت حاجاتها وانصرفت بسرعة وسط دهشة زملائها. خافت أن تنهار أمامهم باكية، بعد أن أدركت أنها على أعتاب قصة جديدة، لا تعرف كيف ستنتهي. هذه المرة ترى شخصاً لا تعرفه، ما ينذر بكارثة جديدة، ففي المرة التي تغيرت فيها مسار رؤاها، وقعت جريمة قتل "يوسف"، عندما شاهدته في حلم اقتحم عليها منامها.

قادت سيارتها، وهي بالكاد ترى الطريق أمامها، طوت الطريق لتصل إلى غرفتها، حيث المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالأمان. تركت سيارتها لسائس الجراج، وصعدت بسرعة فتحت الباب واندفعت ناحية الغرفة.

لم يكن في المنزل سوى "أم أمينة". أسرع خلفها متعجبة من عودتها مبكراً. لم تجبها وطلبت منها أن تتركها بمفردها. لم تستجب لها بعد أن لاحظت آثار البكاء على وجهها. اقتربت منها برقة وضمتها إليها، فهي من تولت رعايتها بعد وفاة والدتها. حاولت إقناعها بتناول مشروب ساخن ذهبت لتعده.

فكرت "مايا" في أن جدها هو الوحيد الذي يمكن أن تحدّثه عن مخاوفها. أمسكت بالهاتف تنوي التحدّث إليه ثم عادت وتركته، ترددت لخوفها أن تسبب له نوعاً من القلق، لاسيما بعد الأحداث التي مرّ بها. هدأت قليلاً وتناولت كوباً من الينسون، استلقت بعدها في الفراش، وغرقت في نوم عميق. زارتها أمها. كانت تبدو جميلة وهادئة، وترسم على وجهها ابتسامة مشرقة. حركت شفتيها عدة مرات، وكأنها ترغب في أن تقول لها شيئاً. لم تتمكن "مايا" من سماعه. جرت ناحيتها لتبين ما تقوله، كانت أمها تبتعد، وكلما حاولت أن تقترب منها تزداد ابتعاداً، حتى تلاشت في فضاء أبيض واسع.

أفاقت "مايا" لتتلف حولها باحثة عن أمها. استغرقت ثواني لتدرك أنها لم تكن غير طيف زائر في أحلامها، وتحمل لها قدراً من الطمأنينة، شعرت بالهدوء والسكينة بعد رؤيتها لأمها، وفكرت أنها بالغت كثيراً في انفعالاتها، فقد لا تعني رؤيتها لهذا الشاب شيئاً.

عاد "داود" إلى المنزل في موعده كالمعتاد، وجد "مايا" أمام التلفزيون تقلب قنواته بملل بدا واضحاً على وجهها. لم تستطع إخفاء فرحتها بعودته، ورغم أنها كانت اتخذت قرارها بعدم إخباره بمخاوفها، إلا أنها عندما شاهدته يقف مبتسماً لها، تعلقّت بيده وحكت له ما شاهدته. نظر إليها بهدوئه المعتاد وقال لها:

- أنت في حاجة إلى الراحة وربما السفر كي تتخلصي من أحداث الأيام الماضية.. شعورك بالتوتر يدفعك لتضخيم الأمور حتى ولو كانت عادية.. فقد يكون هذا الشاب مجرد خاطر عابر ليس له علاقة بموهبتك..

ردت مايا:

- هل مازلت مصراً على أنها موهبة؟

هز جدها رأسه:

- طبعاً موهبة.. وإلا لما كان الله منحها لك..

اقترب منها وأحاطها بذراعه، وقبلها برقة على جبينها:

- ما يمنحه لنا الله لا يمكن أن ندرك أسرارهِ في حدود العقل

البشري.. وهناك أمور تبدو سيئة للغاية لا يدركها الناس الطيبون..

لكن حكمة الله تجعل الخير والعدل يولدان مما يبدو سوءاً أو شراً

مطلقاً..

صمت قليلاً ليراقب رد فعلها، فوجدها منتبهة تنتظر سماع المزيد..

ربت على يدها بحنان قائلاً:

- هل تذكرين الآيات التي جاءت في سورة الكهف عن لقاء

"موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ بـ"الخضر" الذي خصه الله بعلم ومعرفة من

عنده، حتى نبي الله "موسى" نفسه وقف مشدوهاً وغاضباً

ومستنكراً لما فعله الخضر، عندما خرب السفينة وقتل الصبي

الصغير، وبنى الجدار في القرية الجاحدة.. كلها أمور لم يستطع عقل

"موسى" البشري فهمها، ولم يدرك الحكمة الإلهية منها، وعندما

فهم مغزاها تغيرت نظرتة تماماً، وأدرك أن ما يبدو سيئاً ما هو إلا

خير خالص يراد به صالح البشر.. وتصوري لو كان

"موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر ولم يقاطعه كما أمره الخضر منذ البداية، كم

كنا سنعرف؟ فالصبر ثروة الحكماء.

نظرت إليه بامتنان شديد مطلقة زفرة حارة، خرج معها ضيقها وتوترها، ثم

عادت لتبتسم في هدوء:

- أنت محق كالمعتاد..

قالت لها وهي تتجه ناحية المطبخ لتعد لهما طعام العشاء. عندما عادت إلى غرفتها. أغلقت "مايا" الباب خلفها، وتناولت كتابا يحكي قصة الملكة القوية "أليانور" التي عاشت في القرون الوسطي، وتزوجت من ملكين، "لويس السابع" ملك فرنسا و"هنري" الثاني ملك إنجلترا، وكانت أمًّا لأشهر ملوك إنجلترا "ريتشارد الأول" ومن بعده "حنا". غرقت "مايا" في متابعة مغامرات المرأة القوية حتى غلبها النعاس.

تسلل ضوء خفيف من وراء الستائر، كان كافياً لجعلها تستيقظ، بعد أن نامت لأكثر من ثماني ساعات متواصلة، لم تتخللها أحلام ولا لحظة أرق واحدة. تئاءبت وتمطت في الفراش وهي تشعر بحالة من السكينة افتقدتها في الأيام الأخيرة.

أزاحت الغطاء جانباً، وأنزلت قدميها من السرير. وقفت وهي تزيح شعرها إلى الخلف، أخذت نفساً عميقاً لم تستطع أن تكمله. رآته مرة أخرى، في تلك المرة كان أكثر وضوحاً، هو نفسه الشاب الغريب مرة ثانية.

لم تقوَ على الوقوف بعدما شعرت أن قدميها لا تستطيعان حملها، فتهافت على طرف السرير، ظلت مترقبة لدقائق ليظهر أمامها وجهه مرة ثانية. لم يعد إليها وتركها بعد أن احتفظت بملامحه الشديدة الوضوح في عقلها. ارتدت ملابسها وخرجت وهي تتنوي أن تبحث عن وجهه بين كل من ستقابلهم في الطريق.

- 7 -

القاتل

شبكت "أديرا" ذراعيها، وراحت تتأمل مشهد النيل من خلف زجاج حجرتها بالفندق، شحب وجهها وهي تفكر في تتابع الأحداث التي خرجت عن سياقها، فوفاة عمها لم تكن حادثاً، بل كانت تصفية وإغلاقاً لملف قديم، كانت هي أحد أطرافه.

لم تستطع أن تسيطر على دموعها بعد أن فشلت في حبسها. شعرت بلذة غريبة في استغراقها بالبكاء. نظرت إلى وجهها في المرآة، وهالها انتفاخ عينيها، تملكها شعور خافت بالسعادة، تسلل إلى قلبها بعد أن أدركت أنها مازالت قادرة على أن تتألم.

تحسست وجهها بأصابعها، فانتقل إليها إحساس غريب، بأنها مازالت تشعر بالفرح والحزن كالأخرين، بعد أن اعتقدت لفترة طويلة أن مشاعرها جفت. فرحت بالألم الذي أيقظها من سبات عميق.

تنهدت بحرقة وهي تتذكر المرة الأخيرة التي بكت فيها، وهي تحتضن رأس "كارل" حبيبها.

كانت تنوي الزواج منه، ولم يمكنها مرضه من تحقيق حلمها. هو الرجل الوحيد الذي نجح في التسلل لقلبها، ولم يكتشف أنه يمتلك قلباً عليلاً، لم يكن قادراً على احتمال كل مشاعره ناحيتها. مات وتركها تواجه الحياة بقلب حجري، لم يعد قادراً إلا على أداء وظيفة الاحتفاظ لها بالحياة فقط.

كان يمكن أن تظل غارقة في أفكارها، لولا رنين هاتفها الذي نجح في إعادتها لطبيعتها.

أبلغها الضابط "مروان" أنها يمكن أن تذهب لغرفة عمها لتأخذ ما تريده، وهناك ستجد شرطياً ينتظرها أمام الباب، وقبل أن ينهي المكالمة سألها إن كان عمها "داود" يعلم برغبتها في الحصول على بعض من ممتلكات عمها الراحل.

أجابته باقتضاب أنه يعرف، وشكرته بتهكم واضح على اهتمامه بالحفاظ على ممتلكات عمها اليهودي. أنهت المكالمة، وهي تشعر بغضب وضيق من رنة السخريه في جوابه عليها، أن هذا واجبه.

بعد لحظات، رفعت سماعة الهاتف الداخلي، وطلبت سيارة لتذهب بها إلى مصر الجديدة، وذكرتهم بتجهيز حساباتها استعداداً لسفرها في العاشرة مساءً. أبلغت السائق بوجهتها، وانشغلت بمراقبة الطريق حتى توقفت السيارة أمام دار المسنين، وجدت شرطياً في انتظارها. حياها ثم فتح الباب، وأشار لها على غرفة عمها في الطابق العلوي، وأنه سينتظرها حتى تنتهي من مهمتها. شعرت بارتياح لعدم مرافقته لها، وهزت رأسها موافقة.

فتحت باب الغرفة وأشعلت النور. اشتمت بوضوح شديد رائحة عمها. استنشقت الهواء بعمق لتحفظ بما تبقى منه لفتره أطول. جلست فوق الكرسي ونظرت حولها. بدأت تتحسس كل جزء منه. ركعت على ركبتها ومدت يدها أسفله. قامت وتوجهت ناحية الدولاب. فتشته بدقة، ولم تجد ما تبحث عنه. تحولت ناحية التابلوهات المعلقة على الجدار. أنزلتها وفحصتها جيداً من الخلف، ثم أعادتها إلى مكانها، أخذت منها المكتبة وقتاً أطول في التنقيب. استسلمت في النهاية، وعادت لتلقي بنفسها على الكرسي.

بدأت على ملامحها خيبة أمل واضحة، لاحظها "مروان" وهو يتابع صورتها التي تبثها الكاميرات المزروعة في الغرفة. ابتسم بارتياح بعد أن تأكد أن ما تبحث عنه موجود في درج مكتبه. خرجت من الغرفة بعد أن عبأت بعض اللوحات الزيتية في كيس، وخرجت وأشارت للشرطي بأنها ستذهب، وعادت إلى فندقها، وهي تنوي السفر في نفس الليلة.

كعادته في الأيام الأخيرة، قضى "سالم" وقتاً طويلاً في شقته، وانهمك في الكتابة على أوراق بيضاء، ثم سجل سطوراً قليلة في الأجندة التي لا تفارقه. لم ينتبه لموعد العشاء، أخرجه من أفكاره أصوات طفليه، وهما يدقان الباب بأيديهما الصغيرة، فيصل إليه صوت نقراتهما على الباب بعيداً ومبطناً.

قام ليفتح الباب فوجد أمامه والدته بصحبة الطفلين، وهما يتقافزان بجوارها، ولما رأوه التفتا حول ساقيه، سألته أمه عن سر غيابه لفترة طويلة بعد عودته من الخارج. راح ينقل عينيه بينهم، ورغم ارتبائه إلا أنه بدا مرتاحاً، واقترح على الطفلين أن يلعبوا ثلاثتهم "البلاي ستيشن" فوافقا فرحين، وانهمكت والدته في قراءة الصحف، حتى ينتهوا من لعبهم الذي أطلق عاصفة من الصراخ والصخب.

كانت الساعة تقترب من الساعة مساءً، عندما أعلن "سالم" عن هزيمته واستعداده لدفع الثمن، صمت قليلاً. فتعلقت به عينا الطفلين، وأخيراً أعلن عن ذهابهم للملاهي في "جنينة مول" وبعدها سيتناولون جميعاً آيس كريم.

صمت والدته أذنيها من صراخ الطفلين، الذين جراه من يده متجهين به ناحية الباب، حتى لا يتقاعس عن الخروج. استجاب لهما ضاحكاً، وطلب من والدته أن ترتدي ثياب الخروج. حاولت التملص من الدعوة، وفشلت أمام إصرارهم على ذهابها برفقتهم، وخرجوا متوجهين لجنينة مول سيراً على الأقدام، ومروا من أمام المطعم الصيني، وبدا زبائنه وهم جالسون خلف الزجاج كأشباح تتأرجح مع أشعة الضوء الملونة.

لم يلاحظوا الرجل العجوز في المطعم الصيني الذي تابعهم بنظراته حتى اختفوا. أنهى طعامه وخرج من المطعم، وهو يحافظ على مظهر الرجل العجوز الذي كاد يئن، وهو يحمل حقيبة تبدو ثقيلة.

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً. بدا الشارع هادئاً على عكس الشارع الرئيسي الذي يعج بالحركة. أغلقت المحال الصغيرة أبوابها، انزوى حراس العمارات داخل غرفهم الصغيرة. لم يتبق في الشارع غير أشجاره التي تتمايل أوراقها مطلقة صفيراً خافتاً، كلما اندفع بينها الهواء.

تحرك "بيترو" بخفة بعد أن نصب قامته، فتخلص من هيئة الرجل العجوز، وإن كانت ملامحه مازالت محتفظة بشيخوختها. تلفت حوله وتباطأ في خطاه حتى مر بجواره زوجان كانا يثرثران بصوت عالٍ.

توقف بجوار شجرة خلف المنزل رقم 16. تلفت حوله وتيقن من خلو الشارع، اقترب من السور وتسلقه في قفزة واحدة، وألقى بنفسه خلفه. ظل قابلاً لدقائق حتى تأكد أنه لم يثر ضجة تنبه أحداً لوجوده. زحف ببطء حتى التصق بجدار المنزل، فبدا كأنه ظل أسود ينعكس على الجدار.

مد يده بخفة، وتسلق الجدار مرتكزاً بقدميه على التتواء البارزة. مستنداً بإحدى يديه على مواسير المياه. وبقفزات سريعة وصل لأعلى السطح.

جلس القرفصاء ونحى الحقيبة التي حملها على ظهره، أخرج منها حبلاً في نهايته خطاف، وثبته في جدار السور. اختبره عدة مرات، حتى تأكد أنه سيحتمل وزنه. ارتدى قفازين وحزاماً جلدياً عريضاً بداخله معدات مختلفة. نظر جيداً لأسفل، وتأكد أنه في الموقع المحدد.

حسب المسافة التي تفصله عن النافذة التي يقصدها، فوجدها حوالي أربعة أمتار. تعلق بالحبل جيداً، وانزلق لأسفل حتى أصبح موازياً للنافذة. مد يده داخل الحزام أخرج مفكاً وشرع برفق في خلع الإطار الخشبي الذي يحيط بالسلك محاذراً أن يחדشه.

نجح في خلعه، فأمسكه بيد وهو مرتكز بقدميه على قاعدة النافذة، ودفعها بلطف فانزلت للداخل، دفع بالإطار الخشبي داخل النافذة، ومط جسده بحركة هلوانية رشيقة، فلمست قدماه أرض الحمام، رفع النافذة لأعلى فأغلقها، تفحص الأرض تحت قدميه جيداً، ليتأكد أنه لم يترك أثراً.

كان يسير على أطراف أصابعه خوفاً من أن يصدر عنه صوت. حمل الإطار في يده وتفقّد الشقة جيداً، كان الريسبشن مقسماً لثلاث غرف.. غرفة المعيشة بها تليفزيون يحتل الجدار، وأمامه كنبه كبيرة ومقعدان أحدهما "ليزي بوي" وفي الوسط ترابيزة، ويفصل ما بين غرفة المعيشة والصالون عدد من الأشجار الصناعية، وعلى يمين الصالون تقع غرفة سفرة على الطراز الأمريكي.

عاد "بيترو" أدراجة ليتفقّد الحمام والمطبخ وغرفتي النوم، كانت واحدة للطفلين والأخرى لـ"سالم". ووجد أن غرفة السفرة موقعها هو الأفضل، فإذا اختبأ بجوار البوفيه، يمكنه أن يشاهد من يدخل من الباب دون أن يلاحظه أحد، ويستطيع مراقبة حركته في المنزل كله.

جلس على الأرض، ووضع بجواره إطار النافذة، وأخرج من حزامه حبالاً من الصلب القوي، مغلفاً بطبقة من البلاستيك، وانتظر بصبر عودة "سالم".



كانت ملاهي الأطفال مزدحمة كعادتها في مثل هذا الوقت. تنقل الطفلان ما بين الألعاب، في حين جلس "سالم" وأمه يراقبانها.

- لا يوجد شيء يساوي أن يبقى الأطفال بصحة جيدة ..

قالتها أمه وهي تنظر إليه، فأوماً لها برأسه:

- عندك حق.. الاستقرار النفسي أيضاً مهم..

وقبل أن تحببه، ابتسم لها قائلاً:

- عندي موعد بعد غد في شركة السياحة التي ترغب في التعامل معي..

- آه.. الحمد لله.. لا أريدك أن تشعر بالقلق على الطفلين في غيابك..
فهما لن يغيبا عن عيني ثانية واحدة..

هز رأسه موافقاً، وفي تلك المرة لم يبد على وجهه علامات التوتر التي كانت أمه تلاحظها عليه من قبل.

انتهى الطفلان من اللعب، وذهبوا جميعاً إلى أحد محال الآيس كريم الشهيرة داخل المول. ولم تنس "فاطمة" أن تعلق بأن موعد اتصال أمها قد اقترب. نظر "سالم" في ساعة يده، كان أمامها ساعة تقريباً.

عادوا إلى المنزل سيراً على الأقدام، تأكد "سالم" من إغلاق الباب الخارجي للعمارة، وصعدوا جميعاً لشقة أمه. أسرع الطفلان لتغيير ثيابهما، وعادا ليجلسا بجوار والدهما. لم تمر سوى دقائق قليلة على عودتهم حتى رن التليفون. رد "سالم" على "كلارا" بلهجة هادئة شابه الفتور، وتبادل معها كلمات قليلة تحولت فيها نبرة صوته من الفتور إلى التحدي.

أعطى التليفون لـ "فاطمة" التي حكّت لها عن ذهابهم للملاهي، وتناولهم الآيس كريم، وبدا من ردها أن أمها تسألها عن دروس اللغة العربية، وقالت إنها لم تأخذ الحصة اليوم، ونظرت إلى جدتها مستفسرة عما إذا كانت ستدرس معها الليلة، فأومات برأسها موافقة، فنظرت "فاطمة" إلى أبيها الذي وافق بدوره.

انتقل الهاتف من "فاطمة" إلى "علي" الذي أرسل عشرات القبلات لأمه في التليفون، وبعد أن أغلقه ذهب ليتكور في حضن جدته، وهو يغالب دموعاً

توشك أن تنفجر من عينيه لاشتياقه إلى أمه، فنظر إليه "سالم" مطولاً، وشعر أن قلبه يعتصر من الألم، فهو يدرك أنهما صغيران على ابتعادهما عن أمهما. أطرق برأسه، وقام متوياً الصعود لشقته، قبل طفليه واحتضنهما، ومال على أمه وقبلها قائلاً لها:

- غدا موعدي في المدرسة الساعة التاسعة.. سأنام مبكراً لأنني أشعر بإجهاد شديد..

فتح باب شقته وأضاء النور. أغلق مزلاج الباب وأدار المفتاح في القفل، وتركه بداخله كعادته. خلع ثيابه ووضعها في سلة الغسيل، كان يشعر برغبة في الاسترخاء. ملأ حوض الاستحمام بالماء الدافئ. استلقى بداخله فغمره الماء، ولم يتبق غير رأسه الذي أراحه على جدار الحوض. أغمض عينيه فشعر بالخدر يسري في جسده.

ثقلت عيناه، غفا لدقائق انزلق فيها جسده لأسفل. أفاق بعد أن تسربت نقاط من المياه لغمه. نفخ رأسه وخرج من الحوض. ارتدى ثيابه وشعر أنه أفاق قليلاً، دخل المطبخ وصنع لنفسه كوباً من الأعشاب، وعاد ليجلس على كرسيه "الليزي بوي" الذي يغوص فيه، فيشعره بالراحة.

فتح التلفزيون وقلب في قنواته، حتى وجد فيلماً من سلسلة أفلام "الأب الروحي" تذكر أنه لم ينظف حذاءه ولم يضعه في مكانه، قام مسرعاً وأنهى مهمته، وفي طريق عودته لاحظ أن طرف السجادة مقلوب فأصلحه، عاد لمتابعة الفيلم الذي استغرقته أحداثه، فغفت عيناه وغرق في النوم.

كان "بيترو" يراقبه من موقعه، وشاهده وهو يغط في النوم. تسلل بخفة وبين يديه الحبل. أصبح خلفه تماماً. ثبت قدميه على الأرض. شد الحبل جيداً،

وبحركة سريعة لفه حول رقبته، وجذبه للخلف. انتفض جسد سالم متخبطاً بعنف، ملوحاً بيديه في الفراغ، محاولاً أن يصل إلى قاتله الذي ازداد ضغطه على عنقه للخلف. تحبّطت قدماء. حاول أن يدفع بقاتله للخلف، فلم يتمكن منه، قبض الهواء بيديه. شعر أن الظلام تسلل إلى عينيه ببطء. لم يفكر في تلك اللحظة سوى في طفليه. شاهدهما وهما يلوحان له كعادتهما.

كان القاتل مشغولاً عن مراقبته بمحاولة القضاء عليه، فلم يلمح الابتسامة التي ارتسمت على وجهه، وهو يرى أمه تحتضن الطفلين بحنان. ارتحت يداه بعد دقيقة من التفاف الحبل حول رقبته، وغطى صوت التلفزيون على شهادته المتسارعة.

زاد ضغط "بيترو" على الشريان السباتي الموجود على جانبي الرقبة، وبحركة مفاجئة رفع الحبل لأعلى، فسكنت حركة "سالم"، ماعدا بعض الاختلاجات التي كانت تشبه رفة جناح عصفور وليد.

أحكم "بيترو" الحبل حول رقبته صانعاً أنشودة. تركه وذهب للمطبخ أحضر منه سلماً خشبياً صغيراً له ثلاث درجات. قام بوضعه أسفل النجفة، حسب بسرعة مسافة السقوط، وطول الحبل بدقة. حمل جسده فوق كتفيه واعتلى درجات السلم بحذر خوفاً من سقوطه.

كان يشعر بثقل جسد "سالم" الذي ازداد بعد توقف قلبه. أدخل طرف الحبل، وعقده في الخطاف الحديدي الذي يحمل النجفة، ورفع جسده المتدلي في الهواء، حتى لمست قدماء بداية السلم الخشبي.

أنهى مهمته وابتعد قليلاً إلى الخلف مراقباً الجسد المتدلي من السقف. كان السلم مازال تحت قدميه. التفت إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه "سالم"،

ووجد أنه تحرك عن موضعه، فأعادته إلى مكانه ورتب السجادة، ودخل إلى غرفة النوم. فتشها بدقة. لم يترك حتى ثيابه المعلقة في الدولاب بدون أن يفتش جيوبها، لم يترك غرضاً لم يرفعه ويفتش تحته ويعيده إلى مكانه بدقة، حتى حقيبته التي كانت معه عند عودته، لم يجد فيها سوى محفظة بها هويته وبعض كروت الفيزا ومبلغ من المال، وأجندة. تفحص صفحاتها بدقة كانت مليئة بأرقام حسابات ومواعيد بعضها بالإنجليزية والبعض الآخر بالعربية.

شعر بالغضب يتسرب إليه. لم يجد ما يبحث عنه. نظر في ساعته، ووجد أنه مضى عليه أكثر من ثلاث ساعات في شقة القتل. كانت التعليمات التي لديه بأن يحصل على أشياء محددة، وفي كل الأحوال عليه أن يتخلص من سالم النواوي. نظر حوله، فتأكد أنه لم يترك ستيماً لم يفتشه بدقة. أدرك أن الوقت حان لخروجه من المنزل. نظر مرة أخرى للجنة المتدلية من النجفة. كانت آثار الدهشة تملأ وجهه، أمال السلم الخشبي على الأرض، وكأن القتل أزاحه بقدمه لكي ينتحر.

أمسك بالإطار الخشبي للنافذة، وعاد إلى الحمام. خرج من النافذة وأغلقها خلفه، ثم أمسك بالحبل المتدلي المنتهي بخطاف صغير شبكه في الحزام الجلدي حول خصره. تشبث بماسورة المياه بيد وبالأخرى ثبت الإطار الخشبي مكانه، وأخرج من حزامه "دباسة" استخدمها في تثبيت الإطار في عدة مواطن.

تسلق لأعلى حتى وصل إلى السطح. تخلص من وجه الرجل العجوز، ملم أدواته ووضعها داخل الحقيبة. ألقى بنظرة على الشارع من أعلى فوجده هادئاً، وكانت ساعته تشير إلى الثالثة صباحاً. تحرك بسرعة لأسفل.

كان يشبه عنكبوت ضخيم يهرب متقهقراً من ثعبان ينوي التهامه. قفز من السور مستتراً خلف شجرة ضخمة. توقف لثوانٍ ملتقطاً أنفاسه. أرسل بصره حوله بحذر، ثم تحرك ناحية الشارع الرئيسي الذي وصل إليه في الوقت المناسب. كان رواد سينما المول التجاري لحفلة بعد منتصف الليل في طريقهم لركوب سياراتهم، فانتشرت أصواتهم في سكون الليل، أشار لأحد سائقي الأجرة، وطلب منه الذهاب إلى شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين.

تقلبت "نبيلة" في فراشها. كانت كلما اقترب النوم من عينيها، تطرده غصة في قلبها، أجبرتها على ترك الفراش وتفقد الطفلين، فوجدتهما يغطان في النوم. تسللت بهدوء لتنظر من فرجة الباب على "عمر" فرأته نائماً في هدوء. عادت لفراشها محاولة النوم من جديد، التقطت أذناها صوتاً خافتاً مكتوماً، جعلها تقفز من سريرها مرة أخرى، لتتنقل من نافذة إلى أخرى. لم تشاهد في الشارع سوى كلب اعتلى سقف سيارة ونام عليها. رفعت بصرها لأعلى. فكرت أن "سالم" ربما يكون مستيقظاً. همت للحظة أن تصعد إليه. وصلت حتى الباب ثم تراجعته خوفاً من أن تقلقه. عادت لفراشها مرة أخرى، ودقات قلبها تتزايد حتى أنها تصورته سيقفز من مكانه. وضعت يدها على صدرها بحركة لا إرادية.

انتابتها في تلك اللحظة موجة جارفة من الحزن، جعلتها تتأوه من الألم. غفت للحظات شاهدت فيها زوجها يقبل عليها ويحتضنها بقوة، ويمسح دموعاً انسابت من عينيها، ربت على كتفها وغاب عنها بعد أن ابتلعه ضباب كثيف.

ارتفع صوت المؤذن معلناً عن صلاة الفجر، ليخرجها من حيرتها وهي تفتش عن زوجها بين طبقات الضباب. شعرت برعب شديد بعد أن وجدت دموعها تبلل وجهها. تلفت حولها تبحث عنه. كان لديها إحساس قوي أنه مازال في الغرفة، وأن ما شاهدته لم يكن حلمًا.

كانت نظرات عينيه تحمل لها رسالة غامضة، لم تتخلص من حالة الضيق التي كادت تخنقها. قامت وتوضأت لأداء الصلاة. لم تجد لديها رغبة لتعاود النوم. قررت أن تصنع كيك. بعد أن فرغت منها. صنعت مجموعة من الفطائر المحشوة بالجبن الأبيض والنعناع التي كان يفضلها "سالم".

نظرت في ساعتها، فوجدت أن الوقت يمضي ببطء شديد. أمسكت المصحف وفتحت صفحاته بيد مرتعشة. قرأت سورة "يوسف" التي تذهب قراءتها الهم والضيق.

استيقظ "علي" وخرج من الغرفة يبحث عنها. لمحها فجرى ناحيتها، وارتمى في حضنها. أعدت له كوباً من اللبن. طلبت منه أن يشربه حتى تعد طعام الإفطار للجميع.

كانت الساعة تقترب من السادسة والنصف، عندما استيقظت "فاطمة". وجدت كوب الحليب في انتظارها. تناولته في هدوء، وهي تسأل عن أبيها. نظرت جدتها في ساعتها، وطمأنتها أنه لا بد أن يكون قد استيقظ في موعده، ويستعد في تلك اللحظة لأن يهبط، ليتناول معهم طعام الإفطار. صمتت للحظة وهي تنظر إليها بحب:

- اليوم لديه موعد مع مديرة المدرسة التي ستذهبان إليها..
قالتها وانهمكت في تحضير الإفطار.



في الجانب الآخر من المدينة.. كان "بيترو" يمسح بصماته من الشقة، ويمحو آثاره كلها. جمع حاجياته وأغلق الباب. وخرج ليجد سائق صديقه في انتظاره. حياه مبتسماً وقال:

- سيستغرق الطريق منا أقل من خمس ساعات..

شكره "بيترو"، وطلب منه التوقف لدى أقرب سوبر ماركت، لشراء بعض الحاجيات من أجل الطريق.

نهبت السيارة طريق القطامية في طريقها إلى الغردقة. ألقى "بيترو" برأسه للخلف. شعر برغبة في النوم، وقبل أن يغفو رن جرس هاتفه، فرد على صديقه رجل الأعمال، فهو الوحيد الذي يعرف رقمه. شكره على تنظيم هذه الرحلة، ووعدته بإنهاء العقود بمجرد عودته إلى "إيطاليا"، وأنه سيتدبر أمر رجوعه للقاهرة بعد قضاء إجازته والسفر إلى بلاده.

بدأت المدينة المستقلية على شاطئ البحر الأحمر في الظهور تدريجياً، لتكشف عن جمال باهر تأثر به "بيترو"، لاحظ السائق انبهاره، فقرر أن يستعرض أمامه معلوماته عن المدينة، فسأله إن كان يعرف ماذا تعني الغردقة؟
هز بيترو رأسه علامة النفي.

نظر إليه السائق في المرأة متباهياً بنفسه:

- المدينة عمرها أكثر من مائة عام. يشتق اسمها من نبات "الغردق" الذي يطلق عليه العامة "عنب الديب" أو "فيروز الشيطان" وهو نبات ينمو طبيعياً، وكان الصيادون من أبناء القبائل يجتفون الغوص لصيد اللؤلؤ، وعندما يفرغون من صيدهم يلتقون عند شجرة كبيرة لنبات "الغردق" ومكانها الحالي ميناء الغردقة البحري..

أشار السائق بيده في اتجاه موقع الميناء، وأكمل:

- ثم تطور الاسم إلى الغردقة ..

صمت السائق منتظراً أن يبدي ضيفه إعجاباً بثقافته التي نالها بفضل دراسته في كلية الآداب قسم التاريخ، ولم يرغب في تضييع فرصة أن يزداد إعجاب "بيترو" به، فيعرض عليه فرصة عمل في شركته الإيطالية..

- ودرست أيضاً اللغة الإنجليزية في المعهد البريطاني ..

قالها وهو ينتظر رد فعل "بيترو" الذي جاء مخيباً لآماله، بعد أن شكره على معلوماته بكلمات مقتضبة فهم منها السائق أنه لا يرغب في مزيد من الكلام. لم يكن هناك وقت كافٍ لكي يثرثر السائق من جديد، بعد أن توقف بالسيارة أمام أحد الفنادق الفخمة. وترجل عارضاً أن يرافقه لإنهاء إجراءات تسجيله في الفندق. شكره "بيترو" ومنحه مائة دولار، وطلب منه أن يعود لمخدومه.

سحب حقيبته الصغيرة ودخل إلى البهو، تاركاً خلفه السائق يلوح له مغادراً. ارتقى على أحد الفتويحات، وأشار إلى النادل وطلب منه فنجاناً من القهوة، وأخذ يرشفها ببطء شديد، ومن هاتفه بعث رسالة، اكتفى فيها بكلمتين "أنا هنا" ..

بعد أقل من دقيقة جاءه الرد برسالة، أن يركب "ميكروباس" ويطلب من السائق التوجه به ناحية "السقالة" وعندما يصل هناك يتجول في السوق، ثم يعود ليركب "ميكروباس" آخر ويطلب من سائقه أن يذهب به إلى "قبة القمر" وعند وصوله إليها يتجاهل المدخل، ويكمل سيره حتى يصل إلى رصيف الماريناء، ويبحث عن اليخت "القمر" وهناك سيجد شخصاً في انتظاره على سطح المركب.

كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً، ولم يتبق من الشمس سوى سوار أرجواني زينت به الأفق قبل أن تختفي تماماً، وبدأ رواد الشاطئ كرسوم السلويت وهم يتصايحون بأصوات مرحة، ويحاولون انتزاع أقدامهم من الرمال في طريقهم للاغتسال، والاستعداد لتناول العشاء. لم يلتفت أحد منهم للشاب الوسيم الذي يرتدي كاب، ويسير فوق الممر المؤدي للمارينا.

أسرعت خطواته متفحصاً المراكب التي كانت تتأرجح برفق على وجه الماء، حتى وجد ضالته على مقدمة المركب، حيث أشار إليه شاب أسمر نحيل، وتوجه ناحيته، ليساعده على الصعود، وعرف نفسه بأنه شقيق "هادي".

لم يهتم "بيetro" بأن يعرف نفسه. سار خلفه وهبط عدة درجات، ليجد أمامه باباً خشبياً، فتحه ليدلف داخل غرفة جلوس أنيقة، يحتل أحد جدرانها شاشة تلفزيون، وفي ركن آخر مطبخ صغير.

لم يخف "بيetro" ارتياحه من إقامته في الغرفة الأنيقة. فابتسم مضيفه وأشار إليه أن يتبعه، وأزاح أحد الجدران الخشبية بيده، فكتفت عن فجوة بها سرير صغير وفتحة تهوية، وأشار إليه أن يتكور بداخلها حتى يتحرك المركب. لم يعلق "بيetro" وانصرف الشاب، فألقى بنفسه فوق السرير، وغرق في نوم عميق.

فتح "بيetro" عينيه فلم يتغير شيء، فالظلام الحالك الذي يحيط به، يستنفر حواسه التي تنشط عندما يحاصره الخطر. حاول أن يكتشف موضع الجدار الذي يقبع خلفه، متأملاً أن يكتشف خيطاً من ضوء يتسلل من بين الجدار، فخاب ظنه وإن كان انتابه شعور بالراحة، لإدراكه أنه في مكان آمن،

زاد اطمئنانه بعد أن شعر بحركة المركب المتمايلة برفق. شحذ سمعه فتناهد إليه أصوات بعيدة. كانت الرياح تجمعها وتعيد بعثرتها في الفضاء الذي يتلامس

مع البحر. شعر بجوع وعطش جعلاه يتململ في مكانه، مرت دقائق وسمع بعدها صوتاً يقترب من الجدار، وانزاح ليتسلل إلى جحره ضوء باهت منبعث من الأضواء الجانبية لغرفة الجلوس.

تنفس "بيترو" بعمق بعدما اشتم رائحة البحر، فأشعرته بانتعاش، وانحنى الشاب النحيل واضعاً أمامه صينية عليها أنواع من الطعام والشراب، وأشار له على حمام صغير في نهاية الغرفة لم يكن "بيترو" لاحظته، وقبل أن يذهب سأله:

- أين هادي؟

- على سطح المركب يصطاد مع مجموعة من أصدقائه..

بصوت جاف سأله "بيترو":

- هل تعرف شيئاً عن موعد رحيلي؟

- طبعاً أعرف..

قالها الشاب بثقة، لكي يكتسب احترامه، وينبهه أنه يتحدث مع شخص

مهم..

- غدا في الليل سنصل إلى النقطة المحددة..

قالها وأزاح الجدار الخشبي من خلفه، ليترك "بيترو" في ظلام كثيف.

تشاغل بالعبث في الموبايل، ليتغلب على الوقت الطويل الذي قضاه في الغرفة

السرية خلف الجدار.

في التاسعة من مساء اليوم الثاني له على المركب، أزيح الجدار ليجد أمامه

"هادي" وخلفه شقيقه الذي وضع ما كان يحمله على السرير بجواره.

حياه "هادي" باحترام شديد، فقد كان يعلم بمكانته في المنظمة، ونظر إليه

متطلعاً ليخبره عن الخطوة التالية.

قال بوجه خلا من أي تعبير:

- ارتد الآن بدلة الغطس التي بجوارك.. وضع أشياءك المهمة داخل الحقيبة.. وستنزل من مؤخرة المركب بدون أن يلاحظك أحد من الموجودين.. ستعوم تحت سطح الماء حتى تصل إلى اليخت المتوقف بجوارنا.. إتبع إشارة الضوء من مركبنا.. حتى تصل إلى الجهة التي ستصعد منها..

قال "هادي" تعليماته وانصرف تاركاً شقيقه معه، ووقف الأخير ينتظر حتى انتهى "بيetro" من تجهيز نفسه، ثم سار أمامه وأشار إليه أن يهبط إلى الماء من النقطة التي حددها له، ونفذ "بيetro" التعليمات بدقة، وسبح متبعاً خط الضوء الملقى على سطح البحر. ووصل ليصعد على سلم من الجبال، ألقي إليه من أعلى اليخت الفحم الذي يبلغ طوله 227 قدماً. تسلقه بخفة وامتدت أياد قوية انتشلته وغاب بداخله.

استيقظ "عمر" من نوم قاتم خال من الأحلام. شعر أنه يطفو من هاوية سحيقة، وظلت عيناه مغلقتين محاولاً أن يترجم أصوات الضجيج خارج غرفته إلى جمل مفهومة.

كان الطفلان يتحدثان معا وينهالان على جدتها بعشرات الأسئلة عن سر تأخر والدهما عن موعد الإفطار، وعن إذا ما كانا سيذهبان معه إلى المدرسة، ولأول مرة يلمح "عمر" ظلاً من العصبية في صوت أمه، وهي تأمرهما بالصمت.

هدأ الطفلان بعدما شعرا بتوتر جدتهما. اقترب صوت خطوات أمه من غرفته، ولم تنتظر منه أن يجيبها. رفع رأسه ببطء وهو ينوي أن يسألها عن سر

الجلبة التي يثيرونها مبكراً. توقفت الكلمات في حلقه بعد أن شاهد امتقاع وجهها، فهب مذعوراً.

لم تنتظر أن يسألها، وبادرتة:

- "سالم" لم يستيقظ حتى الآن والساعة اقتربت من الثامنة .. اتصلت

به أكثر من عشر مرات على هاتفه ولم يرد ..

جلست بجواره. كان جسدها يرتجف وهي تنظر إليه بعينين مليئتين

بالدموع، وأكملت:

- سعدنا لأعلى لإيقاظه فلم يفتح لنا.. حاولت الدخول مستخدمة

مفتاحي فاكشفت أنه أغلق الباب من الداخل بالمزلاج ..

أنهت كلمتها الأخيرة وانهارت باكية، وهي تقول:

- قلبي يحدني بأن شراً ما أصابه ..

حاول "عمر" أن يهدئها متظاهراً بالامبالاة:

- أرجوك اهدئي قد يكون نائماً وتليفونه نسيه صامتاً..

قالها وهو يرتدي ثيابه مسرعاً. مر من أمام الطفلين. تطلعا إليه بصمت،

فشعر بغصة في حلقه كادت تخنقه. قفز فوق الدرجات، ودق جرس الباب، وهو

يفكر بعشرات الكلمات الغاضبة التي سيلقيها في وجهه عندما يفتح له.. نسي

بعضها عندما لم يستجب، ونسي بقيتها بعدما انهار بقبضتيه على الباب الخشبي،

ونادي صارخاً على أخيه.

كان صوت الطرقات يصل لأذني أمه، فنيكمش قلبها حتى كاد يتوقف عن

النبض. شعرت بالبرودة تحتل جسدها، لم تفكر في تلك اللحظة سوى في الموت

الذي يتسلل إليها من باطن قدميها.

أعادتها صوت الطرقات إلى الحياة مرة أخرى. زحفت بقدميها الثقيلتين ناحية مدخل شقتها. حركت شفتيها فخرج صوتها متقطعاً مرتجفاً، وهي تطلب منه أن يكف عن دق الباب ويحطمه ليدخل.

حاول "عمر" أن يدفع الباب بجسده، ففشل أمام ثقل الباب الذي اختاره "سالم" من النوع المصفح. هبط لأسفل. فتح الباب الخارجي للعمارة، ونادي على حارس العمارة المقابلة، فأسرع الرجل ناحيته، وصعداً معاً بعد أن أحضرا مطرقة، وانها لا بها على الباب ليحطماه.

علا صوت بكاء الطفلين، فنبه جدتهما إليهما، بعد أن نسيت وجودهما. ارتقيا في حضنها، فضمتها إليها بقوة. امتزجت دقات القلبين الصغيرين مع الضجيج الصاخب لقلبيها الذي تنبأ بما وراء الباب.

فجأة توقفت الطرقات الصاخبة، وساد صمت لثوان قطعه صراخ مكتوم ونداء يائس يتردد فيه اسم "سالم"، ويقاطعه قول الحارس "لا حول ولا قوة إلا بالله". اشتدت قبضة "نبيلة" على الطفلين حتى علا صراخهما من الألم.

تركتهما جانباً واندفعت لتصعد لأعلى. قابلها "عمر" ومنعها من الصعود. بكت وصرخت وألقت بنفسها عليه لتزيحه من أمامها. تشبث بها بقوة وهو يدفعها أمامه ليمنعها من رؤية "سالم" بجسده المتدلي متأرجحاً ببطء، بعدما تحسسها باحثاً عن لمحة من حياة.

لم يمكنها من الصعود وهو يهمس في أذنها أن تتناسك وتدعو له بالرحمة. تطلعت إليه بعينين خاويتين. حركت شفتيها فانطلق من جوفها صمت مطلق ملأ نفسها عويلاً. دارت الدنيا بها حتى هوت بين يدي ابنها الذي حملها

ووضعها فوق الكنبه، وطلب من الحارس أن يسرع لاستدعاء خالته وزوجها اللذين يسكنان في نفس الشارع.

حذر "عمر" بشروء في وجه الطفلين، وقد ازداد بكاءهما، بعدما شاهدا جدتهما وهي فاقدة الوعي، ومستلقية فوق الكنبه. تمالك نفسه، وهو يحاول الإجابة عن أسئلتهما عن والدهما، وأنقذه وصول خالته وزوجها، وأسرع نحو "نبيلة" وحاولا إفافتها دون فائدة.

قص عليها بإيجاز ما حدث، وطلب منها أن يعتنيا بالطفلين، ويحضرا لأمه طبيباً، حتى يتفرغ لاستدعاء الشرطة، وحين حضر طبيب من جيرانهم، نصحبهم بنقلها فوراً إلى المستشفى.

بعد دقائق توفقت سيارة الإسعاف أمام العمارة، وحمل المسعفون "نبيلة" فوق النقالة، ورافقتها شقيقتها إلى المستشفى، بينما تولي زوجها مسئولية رعاية الطفلين، واصطحبهما إلى منزله، حتى تأتي ابنته من عملها.

شعر "عمر" بأنه مجرد مشاهد في مسرحية اقتحمها من منتصفها. تلفت حوله باحثاً عن يشرح له حقيقة ما حدث. هل شنق "سالم" نفسه؟ هل تركهم ليموت بتلك الطريقة الغريبة؟..

هوى على أحد المقاعد، وانخرط في بكاء جعل جسده يرتج. شعر بيد تربت على ظهره. التفت ليجد حارس العمارة المقابلة، حاول الرجل أن يخفف عنه، وأخبره بأن الشرطة في طريقها إليهم.

لم يكد الرجل ينهي جملة، حتى تناهى إليهما أصوات أقدام ثقيلة صاعدة، وظهر عدد من رجال الشرطة عند باب الشقة. تماسك "عمر" وقادهم إلى شقة "سالم". لم يقو على الدخول معهم، وارتمى أمام المدخل، بينما رئيس المباحث يجري اتصالاً بوكيل النيابة.

حملوه برفق، ووضعوه على الأرض. تفحصه وكيل النيابة، وأمر بعرضه على الطب الشرعي، وكان "عمر" يسترق النظر، وهم يضعون جثة شقيقه داخل الكيس الجلدي الأسود، ويغلقونه عليه بالسحاب المعدني، وانهار في بكاء لفت إليه أنظار وكيل النيابة الذي اقترب منه وعزاه، ثم طلب منه أن يهدأ ويشرح له بالتفصيل ما حدث.

تجول وكيل النيابة في الشقة، ولاحظ أن النوافذ كلها مغلقة من الداخل، حتى المطبخ والحمام. عاد مرة أخرى ليأخذ أقوال الحارس، فأكد ما رواه "عمر"، والتقط المطرقة التي حطما بها الباب، وأعطاهها له.

سجل مساعد وكيل النيابة بملل واضح، كل الملاحظات التي انتهت بأنه لا توجد في المكان آثار تدل على الاقتحام أو المقاومة، أو وجود شبهة للعراك أو حتى لوجود شخص آخر في الشقة غير صاحبها.

بدا رجل النيابة متعجلاً لمغادرة المكان، فالقضية تبدو شديدة الوضوح بالنسبة له، ومجرد حادث انتحار عادي، وقبل أن يغادر، اقترب منه "عمر" محاولاً أن يتماسك، وقال له:

- لا يمكن أن يفكر سالم في الانتحار ..

نظر إليه وكيل النيابة بتمعن، قبل أن يرد:

- الشواهد كلها تؤكد انتحاره.. ولكن مازالت هناك تحريات الشرطة

وتقرير الطب الشرعي وسؤال أسرته كلها ..

نكس "عمر" رأسه وقال:

- أُمي في المستشفى.. لم تتحمل الصدمة.. وأنا شقيقه الوحيد..

وظفلاه في منزل أقاربنا .. وزوجته في إيطاليا ..

نظر إليه وكيل النيابة مستفهماً، فأخبره أنها إيطالية، وتزوجها "سالم" عندما كان يعمل هناك.. وبعدها جاء للإقامة في مصر مع طفليه منذ ثلاثة شهور ..

بدأ وكيل النيابة يشعر بالاهتمام، فسأله:

- ولماذا تركها هناك وجاء مع طفليه؟

أدرك "عمر" في تلك اللحظة أن كل المبررات التي قدمها لهم "سالم" عن سبب عودته، لم تكن مقنعة، ورغم ذلك أجابه:

- قال لنا إنه لم يعد يرغب في الحياة بالخارج.. وإنه اتفق معها على

تقسيم إقامتهما ما بين مصر وإيطاليا وهي وافقت.. وكانا يتحدثان

في التليفون يومياً وتطمئن على الطفلين في أي وقت تريده ..

هز وكيل النيابة رأسه موافقاً، وقال لـ "عمر":

- نستكمل الحديث بعد تحسن صحة والدتك..

انسحب آخر شرطي من الشقة وأغلقها خلفه، واختفى الضجيج تدريجياً من المنزل، وبقي "عمر" وحده والألم يعتصر كيانه. تفحص نفسه جيداً. عجز أن يعثر على جرح ينزف، أو جزءاً من جسده تم بتره. كان الألم ينتقل من رأسه إلى أطرافه، فأنحنى وتقيأ.

احتل الشعور بالفقد كل شبر في جسده. أدرك أن أنين الألم ينبعث من نفسه، وألقى بنظره على الشقة الخالية، والتي كانت تموج بالدفء والسعادة، قبل ساعات قليلة. تعجب للغمامة القائمة التي تظلل جوانبه، وفكر في هذا الحزن، وقوته الخارقة في أن يسكن النفوس والأماكن بلا استئذان.

عبر مدخل المستشفى مسرعاً، وتوجه إلى غرفة والدته، فوجد عند الباب بعض أفراد العائلة، وعيونهم منتفخة من البكاء. أحاطوه بين أذرعهم. تملص

منهم ودخل الغرفة، وجدها مسجاة على سرير ضيق. ووجهها شاحب ويخرج من بين شفثيها زفير حار محمل بالألم.

اقترب منها وأمسك بيديها. همس في أذنها. فتحت عينيها ببطء شديد، واستغرقت وقتاً لتعرفه. حركت شفثيها فلم يخرج منها سوى همهمات غامضة. تشبثت بيده وغرزت أظافرها بيده. وأدرك أنها لاتستطيع الكلام.

صاح في الطبيب:

- ماذا حدث لها؟

طلب منه الطبيب أن يتركها للممرضة، حتى تعطيها حقنة مهدئة، واصطحبه للخارج، وأخبره أنها تعرضت لصدمة عصبية هائلة أفقدتها النطق، وأنها ستعود إلى طبيعتها بعد أيام قليلة. المهم ألا تتعرض لمؤثرات عصبية تعيق عودتها لحالتها الطبيعية، وطلب منه أن يكون بجانبها معظم الوقت حتى تشعر بالاطمئنان، وتذكر أن يعزيه قبل انصرافه.

اقتربت منه خالته وطمأنته على حال الطفلين. حين تذكرهما شعر بالانقباض، فكيف سيواجههما؟ ارتسم وجه "فاطمة" و"علي" أمام عينيها، وجعله يقدم على خطوة ضرورية. أخرج تليفونه واتصل بـ"كلارا". جاءه صوتها من الطرف الثاني مرحاً ومنطلقاً. صمت لثوان محاولاً اختيار كلماته. انهمرت دموعه وهو يقول لها إن "سالم" مات منتحراً.

للوهلة الأولى لم تستوعب ما قاله، واعتقدت أنها سمعت خطأ. طلبت منه أن يعيد على مسامعها ما قاله مرة أخرى. لم يستطع وغرق في وصلة من البكاء المرير، فلم ترغب بعدها في سماع المزيد، وانطلق صوت صراخها، فأغلق الهاتف.

عاد مسرعاً إلى غرفة أمه، جلس بجوارها وظل ممسكاً بيديها..

كانت غارقة في متاهات مظلمة، وتتنقل بينها محاولة أن تجد ابنها. في كل مرة تلمحه، ثم يختفي عن ناظرها بسرعة، فتخرج من صدرها زفرة حارة. ويتصور طبيبها أنها علامة على تحسنها.

في صباح اليوم الثالث، استيقظت "نبيلة"، وطلبت كوباً من الماء، لم يصدق "عمر" أنها استردت النطق، وحاولت النهوض لتتوضأ متكئة على ساعديه، وقالت:

- أريد أن أصلي ركعتي شكر لله ..

نظر إليها متعجباً، فرغم أنه يتمنى عودتها لطبيعتها. كان يخشى أثر الصدمة عليها.

تركته في ذهوله، وأدت صلاتها بخشوع، ولاحظ ارتجاج جسدها من البكاء وهي ساجدة.

عادت لتستلقي على السرير، وطلبت منه أن يحضر لها الطفلين وأعقبت:

- هما في حاجة إلينا الآن ..

خرج "عمر" لينفذ طلبها، وأغمضت "نبيلة" عينيها. كانت تتوق لأن تستعيد لحظات لقائها مع زوجها وابنها.. تملكها يقين بأن ما شاهدته لم يكن رؤيا أو حلمًا، بل كان رحمة وعطفاً من الله على قلبها الحزين. سمح لابنها الحبيب أن يأتي إليها متأبطاً ذراع والده..

فزعت عندما رأتهما. تصورت أن الحزن تلبس هيتتهما، وأنه أحضرهما ليقضي عليها. اقترب منها زوجها ببسمته المعتادة. قال لها:

- لا تخافي وتذكرني قول الله: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفِي الْآخِرَةِ لَعَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الْبَنَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ

الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ الزمر: ٤٢.

هل نسيت عندما كنت أقول لك إن الأرواح تلتقي بعد الفراق، وإنني كنت
أطلب من الله أن يجعل روحي دائماً قريبة منك بعد موتي..
اقترب منها أكثر وقال لها:

- هل تتذكرين يوم كنت أحكي لك عن رؤيا "عمر بن عبد العزيز"
عندما حكى لزوجته بأنه رأى أنه رفع إلى أرض خضراء واسعة،
وفيها قصر أبيض كأنه من الفضة، وخرج من القصر رجل يهتف:
أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ أين رسول الله ﷺ؟ فأقبل
رسول الله حتى دخل القصر، فخرج رجل آخر يقول أين أبو بكر
الصديق؟ أين أبو قحافة؟ فأقبل أبو بكر فدخل القصر، ونادى
رجل آخر على عمر بن الخطاب، فأقبل ودخل القصر، وتبعه عثمان
بن عفان بعد أن نادى عليه منادياً، واستجاب علي بن أبي طالب
للمنادي ودخل القصر في إثرهم..

وسمع عمر بن عبد العزيز المنادي ينادي عليه، فدخل القصر الفضي في
أعقابهم، ووجد نفسه في حضرة رسول الله ﷺ وحوله صحابته الذين دخلوا
قبله، فتردد أين يجلس بعد أن وجد أبو بكر يجلس عن يمين النبي وعمر بن
الخطاب عن يساره، فلما اقترب وجد رجلاً يجلس ما بين النبي وأبو بكر، فسأل
عنه، فقالوا له إنه عيسى ابن مريم، فسمع هاتفاً يهتف وبينهما ساتر من نور:
يا عمر بن عبد العزيز تمسك بها أنت عليه، واثبت على ما أنت عليه، ثم كأنه أذن
له بالخروج من القصر".

انتهى من قصته، وهي ترتجف من الفرحة، بعد أن تأكدت أنها زوجها وابنها.. رأتهما سعيدين مبتسمين، وطلبا منها أن تصبر على فراقهما، حتى يلتقا جميعا، ووعداها بزيارتها، وقبل أن يختفيا من أمام عينيها طلب منها "سالم" أن تصدق قلبها فقط، وأن تحتضن ولديه، وتصبر لأن الطريق أمامها طويل..

توسلت إليهما ألا يتركاها في الدنيا وحيدة، وأنها ستصبح قادرة على مواجهة العالم كله، إذا عادا لزيارتها..

في اليوم الثاني زارها "سالم". لم يتحدث معها، واكتفى بتقبيل رأسها، وفي اليوم الثالث قبل يديها وغادرها مودعاً.

ارتسمت ابتسامة صابرة على شفتي "نبيلة"، وهي ترى الطفلين يقتحمان الغرفة، ويرتميان على صدرها، كانت عشرات الأسئلة تتدافع منها. لم تقل لهما شيئاً، واكتفت بتقبيلهما. دفعت الأغطية بقدميها، ونهضت واقفة.



ارتمت "كلارا" فوق الأريكة الجلدية الفخمة التي تتوسط غرفة المعيشة. ألقت الهاتف بجوارها، وانتابها حالة من الضيق. للحظة عجزت عن أن تتنفس بشكل طبيعي. حدثت نفسها بأنها تحمل له الكثير من المشاعر. لكنها لم تكن كافية بالقدر الذي يجعلها تسامحه على ما فعله بها، استجمعت شجاعته، وذهبت للقاء والدها. وجدته جالساً في غرفة مكتبه، فحتى زعماء المافيا يمتلكون غرفة فخمة للمكتب، وجدرانها الخشبية مزينة باللوحات الزيتية الأصلية، وتتم عن ذوق راق وثراء فاحش، كان والدها واحداً من كبار رجال الأعمال في إيطاليا، واستثماراته طالت صناعة السفن والشحن والسيارات والنوادي الليلية، المقتصر دخولها على مشاهير العالم وأثريائه، ويمتلك المنازل السرية المزودة بأجمل الفتيات، ويتتقين رجاله من كل بقاع الأرض.

كان واحداً من أبناء الجيل الجديد الذين تخلوا عن حمل الأسلحة في الشوارع، ورشوة القضاة والتهديد بخطرهم وقتلهم، ولكنه كان محافظاً وبشدة على رشوة السياسيين وتجنيدهم منذ وجودهم في الجامعة، والدفع بهم إلى العمل العام. لم يكن يقترب منهم أبداً، ولكنهم كانوا جاهزين دائماً لتقديم الخدمات بمجرد تلقي إشارته.

مال "روبرتو" إلى الوراء في كرسيه، ورفع أنفه لأعلى وأخذ نفساً عميقاً، وهو يراقب وجه "كلارا" المضطرب، وقد بدأت تشعر بالضيق، بعدما شاهدت علامات عدم الاهتمام التي تكسو وجه أبيها.

ألقت بنفسها على الكرسي المقابل لمكتبه:

- ما هي الخطوة المقبلة؟

قالتها وهي تحاول أن تتحاشى نظراته، حتى لا يضبطها متلبسة بمسحة من الحزن على "سالم":

- ستسافرين من أجل حضور الجنازة.. ولا مانع من أن تمكثي بينهم فترة.. حتى تعرفي ما هو موقفهم من الطفلين.. وإذا رفضوا سفرهما معك.. فلا تثيري أي مشكلة.. وطبعاً ستسمح لك إقامتك معهم بأن تبحتي بشكل دقيق عن مستنداتنا التي سرقها ذلك الحقير..

قال جملة الأخيرة وصمت في انتظار تعليق منها. اكتفت بهز رأسها عدة مرات، فهي تعلم جيداً معنى كلماته، فلا بد لها أن تحافظ على العلاقات الودية مع عائلة "سالم" مثل أي أرملة محبة.

في غمرة تلك الأحداث المتلاحقة، سرت في جسد "كلارا" رجفة، فرغم أنها وافقت أباهما على التخلص من "سالم" بتلك الطريقة الفظيعة، وتحملت تأنيب والدها، بأنها هي التي أصرت على دخوله العائلة، بعد أن فقدت عقلها،

وتمسكت بالزواج منه، وأفنعته بأنه شاب طيب ومسلم، ومع الوقت سيصبح واحداً منهم، وأن حبه لها سيجعله دائماً طوعاً أمراً..

رغم كل ذلك إلا أنها لم تستطع أن تسيطر على مشاعرها المضطربة، فهي لم تستطع التخلص من مشاعر الفقد الخجولة ناحية "سالم" .. كان جزء منها يرغب في البكاء على غيابه عنها وعن طفليه المتعلقين به بجنون..

كافحت إحساساً عميقاً من الندم، حاول أن يتسلل إلى نفسها بتذكرها خديعة زوجها لها التي أثارت غضب والدها، حتى أنه نسي في غمرة غضبه أنها ابنته الوحيدة المدللة، وكاد يفتك بها بعد تظاهر "سالم" بالبراءة الشديدة، وهو يستأذنها في اصطحاب الطفلين للعودة إلى مصر، ليكون بجوار والدته التي يشتبه بإصابتها بمرض خطير لا تعرف هي عنه شيئاً، وأن شقيقه أبلغه بضرورة عودته، لأنها قد تخضع لجراحة كبيرة.

توارت مشاعر الندم ناحيته، وهي تتذكر أول مكالمة تليفون بينهما بعد وصوله القاهرة، وكم اللعنات التي صبها فوق رأسها، وهو يخبرها أنه عرف أن والدها مجرم حقير، وحدثها عن صلاته بعالم الجريمة وبالمنظمات اليهودية التي تستعين به لتنفيذ أهداف لها في "مصر".

تذكرت كلماته القاسية، بأن كل حبه لها لم يتحول إلى كراهية، بل إلى كومة من الاحتقار والقرف، جعلته ينسى حتى ملامح وجهها.

شكرت "كلارا" مضيعة الطيران الشقراء التي حاولت أن تقدم لها وجبة الغداء، بأنها تفضل تناول مشروب قوي، تجربته ببطء وهي تنظر لخاتم الزواج الذي يحيط بأصبعها "برمه" عدة مرات وتمت في نفسها "هذا كل ما تبقي لي" وابتسمت وهي تضيف لنفسها "شعور بالمرارة المزمنة".



أحاط "عمر" أمه بذراعيه، وهو يساعدها على دخول الشقة. لاحظ ارتجاف جسدها ومحاولتها أن تسيطر عليه. زمت شفيتها حتى لا تصرخ، فتثير فزع الطفلين. ألقت بنفسها على الأريكة، وطلبت من "فاطمة" و"علي" أن يرتبا غرفتهما، فاستجابا لها بصمت.

جلس "عمر" أمامها، فنظرت إليه طويلاً، وقالت له بهدوء:

- أريد أن أعرف ما حدث ..

حكى لها أن المرحوم "سالم" انتحر شنقاً، وأن التحقيقات أثبتت استحالة دخول أحد للشقة، فالباب والنوافذ كلها مغلقة من الداخل، ومن المؤكد أنه كان بمفرده تماماً..

صمت قليلاً ليختار كلماته بعناية، واقترب منها ولف ذراعه حولها:

- النيابة الآن في انتظار تقرير الطب الشرعي ..

نظر إليها بعد أن فرغ من كلماته.. أطلقت تنهيدة طويلة تشي بمدى حزنها:

- هم يشرحون جسده ..

قالتها وهي لا تنتظر إجابته، وأردفت:

- هل تصدق أن يقدم شقيقك على الانتحار؟

رغم بساطة السؤال، إلا أنه فتح فمه وأغلقه، وكأنه فقد القدرة على الكلام.

تردد قليلاً ثم قال:

- لا أحد يمكن أن يعرف ماذا حدث في تلك الليلة ..

نظرت إليه بتصميم قائلة:

- "سالم" لا يمكن أن يفكر في الانتحار.. وهناك سر كبير وراء موته..

لم يرغب في أن يجادلها وفضل الصمت.

رفت عينا "نبيلة" قبل أن تطلب منه أن يصعد معها لشقة "سالم". تمنى في تلك اللحظة أن ينطلق هارباً بأقصى سرعة. داهمته مخاوف شتى أقلها أن تنهار أمه أو تصيبها أزمة قلبية. حاول أن يقنعها أنها مازالت في حاجة إلى الراحة. نظرت إليه بإشفاق، وتمتعت وهي تنهض من مكانها: أنا لن أعرف الراحة أبداً.. سبقته لأعلى، وقفت أمام الباب تستجمع قواها لتدخل. نظر إليها "عمر" بطرف عينه. كانت غائرة الخدين، شاحبة البشرة، ومهدلة الكتفين كأنها تحمل فوقها أطناناً من الحزن، فتكفلاً بأن يزيدا على عمرها عشرات السنين. لم تكن تشبه صورتها الموضوعة على إحدى الموائد في إطار من الفضة، وتحتضن "سالم". دخلت الشقة، وكأنها مدفوعة بقوي خفية تحركها. تلفتت حولها. كان كل شيء مرتباً ونظيفاً. تصورت للحظة أن "سالم" سيخرج من إحدى الغرف مبتسماً كعادته كلما رآها. لم تقو على التحرك من مكانها. كانت تجول ببصرها في أرجاء المكان. تستنطق الجدران لتحكي لها عما حدث في تلك الليلة المشؤمة.

تحسست الأثاث. اشتمته. تنقلت ما بين الحجرات حتى دخلت غرفة نومه. لم تنهر باكية بل تقلصت ملامحها راسمة على وجهها ابتسامة غريبة. تبعثها بزفرة حاولت أن تستنشق فيها هواء الغرفة، لتحفظ بداخلها برائحة "سالم" التي ميزتها فور دخولها.

فتحت أدراجها. قلبت في حاجياته. بحثت عن شيء ما لا تدرك ماهيته.. شيء لا يمكن للشرطة أو النيابة العثور عليه.. دست رأسها في خزانة ملابسه التي تحتفظ لها برائحته كاملة. نظرت مطولاً داخلها، ثم أطلقت صرخة مكتومة، وأشارت لـ "عمر" الذي كادت أن تنسى وجوده.

هرع إليها موجهاً بصره إلى إشارتها نحو ملابس "سالم" المعلقة. لم يري أن هناك أمر غريب.

لم تهتم بأن تشرح له، بل صاحت:

- كنت أعلم أنني على حق.. هناك شخص غريب دخل المنزل ..

"سالم" لم ينتحر .. "سالم" قتل..

نظر إليها "عمر"، وانتابه شعور هائل بالخوف أن تفقد أمه عقلها من هول الصدمة، فقد كان يدرك مدى حبها لـ "سالم" وتعلقها به.

استطاعت أن تقرأ أفكاره بسرعة. طمأنته بنبرة هادئة:

- لا تخف أنا لم أفقد عقلي .. أنظر إلى ملابس شقيقك ألا تلاحظ شيئاً؟

هز رأسه بالنفي. فأردفت:

- ألا ترى أنها ليست مرتبة كما اعتاد شقيقك أن يفعل .. هل نسيت

أن "سالم" كان يرتب ملابسه حسب درجات الألوان.. وهي العادة

التي اكتسبها من والدك ولم يغيرها أبداً منذ طفولته.. "سالم" لا

يمكن أبداً أن يضع ملابسه بتلك الطريقة ..

نطقت اسمه بفخر وبحب، دون أن يغشى الأسى صوتها، ككل مرة نطقت

فيها اسمه من بعد وفاته.

خرجت من الغرفة، وهي تشعر بالانتصار وبالطمأنينة، بعد أن أدركت أن

"سالم" يوجه خطواتها، وأنه سيظل بجانبها كما وعداها. كانت أكثر هدوءاً. لم يبد

على "عمر" أنه مقتنع تماماً بما لاحظته، ولكنه أثر ألا يغضبها، وأن عليه انتظار ما

ستكشف عنه الأيام المقبلة.

جلست "نبيلة" على "الليزي بوي" كرسي "سالم" المفضل. غاصت فيه، فشعرت برجفة تنتاب جسدها، وانخرطت في بكاء مرير، وانزعج "عمر" من التغير المفاجئ لحالتها، فأسرع إليها واحتضنها. تخلصت منه بلطف، وهي تطلب منه أن يجلس بجوارها حتى تهدأ قليلاً.

استجاب لها وجلس بجوارها صامتاً. تماكنت نفسها واستغرقت في التفكير..

- قلبي يحدثني أن "كلارا" لها يد فيما حدث ..
قالتها بهدوء جعل "عمر" يقفز من مكانه مردداً:
- "كلارا" .. مستحيل، أين هي .. ولماذا ترغب في موت "سالم" ..
هل نسيت؟

قال سؤاله الأخير بنبرة مشفقة ..

- كان يتحدث معها كل يوم تقريباً.. ولم يذكر أبداً عن وجود خلافات بينهما!
- أنا الوحيدة في هذا العالم التي تعرفه أكثر مما كان يعرف نفسه.. لم يكن في حالة طبيعية منذ عودته من إيطاليا.. حتى قراره بأن يستقر في مصر مع طفليه كان مرغماً عليه.. كنت أشعر وكأنه يهرب من شيء ما..

تأكد "عمر" في تلك اللحظة أن وفاة "سالم" لن تترك حزناً هائلاً في قلب أمه فقط، ولكنها ستؤثر على عقلها الذي لن يتحمل صدمة فقدانها. فضل أن يصمت، ويستمع إليها حتى لا يثير ضيقها .

عقدت نبيلة ما بين حاجبيها، وتلفتت حولها. سألتها:

- هل تبحثين عن شيء؟

أومات له بالإيجاب:

- أين أجندة شقيقك التي لم تكن تفارقه؟

لم يستغرق "عمر" وقتاً في العثور عليها، ومد يده وناولها لها، التقتتها وطلبت منه أن يعود للطفلين ويتركها بمفردها.

فتحت الأجندة، لم تستطع أن تتحكم في دموعها التي انهمرت بغزارة. شاهدت خط ابنها المنمق. عادت ذاكرتها لأيام طفولته، وبراعته في الرسم، وإعجاب كل المدرسين بدقته ونظامه، الذي كان يراه البعض مبالغاً فيه، ويصل لدرجة الهوس.. كانت تضحك على أقوالهم، لأنها تعلم أنه ورث دقته من والده الذي كان مهووساً بالنظام والترتيب..

تصفحت الأجندة، وقرأت سطوراً حول مصروفات ومواعيد، ضمنها موعده مع مديرة المدرسة في صباح اليوم الذي عثر عليه فيه منتحراً. نظرت مطولاً لكلماته، وشعرت بدفقة هائلة من القوة والتصميم تسكن جسدها. قلبت بين الصفحات حتى وقعت عيناها على صفحة غريبة. كتب فيها كلمات كأنها مقطوعة من قصيدة أو فقرة من حكاية أسطورية، قرأتها عدة مرات ولم تفقه منها شيئاً، أصابتها الأرقام بالحيرة، تمسكت بالأجندة بعد أن شعرت أن سر مقتل ابنها يرتبط بحل لغز تلك الكلمات.

لامست إطارات الطائرة القادمة من روما أرض مطار القاهرة. أنهت "كلارا" إجراءات وصولها. لم تستغرق وقتاً طويلاً حتى عثرت على "عمر" واقفاً في انتظارها، أسرع وألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تبكي.

بذل "عمر" جهداً كبيراً حتى استطاع تهدئتها، حكى لها ما حدث أثناء توجهم للمنزل، سألته عن "فاطمة" و"علي"، وهل يعرفان أن والدهما توفي، أجابها بأن كثيراً من الأحداث وقعت أمامهما، ولم يكن هناك مفر من إبلاغهما، وأنها في حاجة شديدة إليها، خصوصاً أنها يلتزمان الصمت.

رفعت "كلارا" رأسها فشاهدت "فاطمة" و"علي" يلوحان لها، وهما يحشران رأسيهما ما بين فجوات السور الحديدي حتى يتمكنوا من رؤيتها. لوحا لها واختفيا وهما يتقافزان على الدرج، وارتميا عليها حتى كاد ثلاثتهم يسقطون. تعلقا بها حتى صعدوا جميعاً، ومن خلفهم "عمر" يحمل حقائب "كلارا"، واستنتج من ثقلها أن فترة إقامتها لن تكون قصيرة.

ارتمت "كلارا" في أحضان حماتها، وغرقت الاثنتان في البكاء، بينما وقف "عمر" وهو يراقب المشهد، وتأكد أن أسباب بكاء كل واحدة منهما مختلفة عن الأخرى، خصوصاً بعدما صارحته والدته بشكوكها حول زوجة أخيه، وتمنى في نفسه ألا تثير أمه أي نوع من المشاكل، حرصاً على الطفلين.

التهمت "كلارا" طعامها بشهية، راقبتها "نبيلة" من طرف خفي، وتنهدت بصوت واضح، جعل "عمر" يلتفت إليها، فلمح شعاعاً يلتمع في عيني أمه. تأكد أن هواجسها لازالت تحيط بأرملة أخيه. مضى الوقت سريعاً، وطلبت "كلارا" أن تصعد مع طفليها لشقة "سالم"، وافقت "نبيلة" على مضض، فقبلتها على وجنتيها، وتبعها "فاطمة" و"علي"، وهما يتحدثان معها بالإيطالية.

صعد معهم "عمر" حاملاً حقائبهم. شكرته "كلارا". بعد أن أبلغها بأنها ستجد كل ما تحتاج إليه في البراد وفي خزائن المطبخ. تمنى لها ليلة طيبة وتركها مع الطفلين.

في صباح اليوم التالي، خرج "عمر" من غرفته متوجهاً للحمام، وفوجئ بأمه ترتدي ثوب الخروج، وتحمل حقيبة يدها. رغم ثباتها الواضح، بدا على عينيها علامات أرق ليلة طويلة. طمأنها أنه لن يستغرق أكثر من دقائق قليلة لارتداء ثيابه.

كان يشعر أنها تستعد لخوض معركة لا تملك إلا أن تكون منتصرة فيها. حدث نفسه بأن قلقه عليها لا يتيح له وقتاً للحزن على شقيقه، وكم من مرة قاوم دموعه أمامها، حتى لا يتسبب في انهيارها.

دخلا إلى سراي النيابة. كانت تسبقه في السير، وتدق الأرض بقدميها بتصميم أثار خوفه عليها. وصلا في الموعد المحدد، واستقبلها وكيل النيابة باحترام، وعزاهما، وطلب لـ "نبيلة" فنجاناً من القهوة، واعتذر "عمر" عن تناول أي مشروب.

رنت "نبيلة" إلى وكيل النيابة تنتظر أن يسألها. وعندما فعل، نظرت إليه بثبات، وخرجت كلماتها هادئة:

- ابني لم يتحرب بل تم قتله بدم بارد..

نظر إليها بهدوء، وقبل أن يحاول تبديد شكوكها سألها:

- هل كان المرحوم على خلاف مع أحد؟

بنفس الهدوء والثبات الذي بدأ يلفت نظر وكيل النيابة. أجابته:

- إذا كان يمكن أن يكون للملائكة أشباه على الأرض فسيكون

"سالم" واحداً منهم .. لم يعمل صوته على أحد يوماً.. ولم يكن له يوماً

عدو.. كان يقدم المساعدة للجميع.. لم يعرف الحقد ولا الكراهية..

كان متسامحاً مع الجميع.. وأهم من ذلك كله.. كان يخاف الله ولا يمكن أن ينتحر أبداً..

تطلعت إلى وجه وكيل النيابة، لترى أثر حديثها عليه، لم يعلق الرجل، فدفعها ذلك أن تستمر في حديثها:

- أنا متأكدة أنه مات مقتولاً.. وأن هناك شخصاً عبث في أغراضه..

عند هذا الحد بدا على الرجل الاهتمام، فسألها:

- من هو ذلك الشخص.. وكيف عرفت أنه تمكن من دخول الشقة

المغلقة من الداخل؟

قبل أن ينتظر إجابتها، أضاف:

- عندما قمنا بمعاينة الشقة.. تأكدنا أنه كان بمفرده.. وكان الباب

مغلقاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل.. وقمتم أنتم بتحطيم الباب

حتى تتمكنوا من الدخول.. كما أن النوافذ كلها كانت موصدة

بإحكام.. وقد ذكرتم في التحقيق أنه لا يوجد شيء مفقود.. لم يكن

هناك آثار لعراك أو مقاومة..

رقق صوته، وهو يحاول أن يبدد أوهامها:

- كما أن المرحوم كان شاباً قوي البنية، ولا يمكن أن يتم شنقه بتلك

الطريقة بدون مقاومة..

لم يفلح في زحزحتها عن رأيها، بل ردت عليه بهدوء:

- هناك شخص دخل وقتله بطريقة ما.. وعبث في ملابسه وغير

ترتيبها..

نظر إليها مستفهماً، فشرحت له:

- "سالم" منذ طفولته كان يرتب ملابسه بدقة شديدة.. حسب

درجات الألوان، يبدأ بالأفتح ثم يتدرج للأغمق حتى ينتهي

بالأسود.. ولم يغير عاداته أبداً.. وعندما فتحت دولابه بعد وفاته.. وجدت ملابسه مختلطة الألوان. وهو ما يعني أن هناك شخصاً عبث بها.. ولم يفتن لطبيعته المنظمة.. ففتشها وأعادها بدون نظام..

صمت وكيل النيابة. كان مقدراً لحالتها النفسية وافترض أن حزنها على ابنها أثر على حالتها العقلية، وقال:

- قد يكون هو من قام بعملية التغير والتبديل، بغرض التمرد على عاداته التي سئم منها، وحتى إذا افترضنا أن ما تقولينه صحيح، فما هو الشيء الذي كان يبحث عنه، ومن تعتقدين أنه قاتله؟
ارتسمت ابتسامه ساخرة على شفتي "نبيلة"، وهي تمرر أصابعها فوق شعرها، وتظاهرت أنها مهتمة بتناول فنجان القهوة، أكثر من اهتمامها بمحاولة إقناعه:

- بكل تأكيد أنا لا أعرف الشيء الذي كان يبحث عنه القاتل.. ولكنني أعرف ابني جيداً..

توقفت برهة، وقالت بتصميم جعل كلماتها تبدو مثل سهام حادة:

- إبني لم ينتحر..

تململ رجل النيابة في جلسته، وحول بصره إلى عمر وسأله:

- ماذا عن علاقته بزوجه الإيطالية.. هل يوجد بينهما خلافات؟

لم ينظر الرجل ناحية "نبيلة"، ليلحظ توهج عينيها المفاجئ، والذي لم تستطع إخفاؤه، وهي تنتظر إجابة "عمر"..

- لا نعرف أن بينهما خلافات.. على الأقل لم يتحدث عنها المرحوم..

كل ما نعرفه أن حياتهما معا كانت مستقرة تماماً.. وكانا يمضيان

معنا شهور الصيف من كل عام.. وفجأة قرر أن يعود ومعه طفلاه.. وبرر ذلك بأنه لا يرغب في الحياة خارج مصر.. وانه اتفق مع زوجته على ذلك.. وستقسم إقامتها ما بين مصر وإيطاليا.. كانا يتحدثان يومياً في التلفون..

صمت "عمر" لثوانٍ وأردف:

- "كلارا" وصلت بالأمس لحضور مراسم الدفن.. وأعتقد أنها تنوي الإقامة بيننا لفترة..

التفت الرجل إلى كاتبه وأمره أن يسجل استدعاء "كلارا" أرملة المرحوم "سالم"، لسماع أقوالها. تنهدت "نبيلة" بارتياح بعد أن داخلها أمل أن ينجح رجل النيابة في استخلاص الحقيقة من "كلارا".



كان النهار ساطعاً خارج سراي النيابة، بل يكاد يكون براقاً، حتى أنه يمكن لأي إنسان سعيد أن ينصت لأصوات عصافير تحتبئ ما بين أغصان الأشجار الضخمة، والرابضة فوق أرصفة الشوارع منذ عشرات السنين.

لم تشعر "نبيلة" بنسمة الهواء اللطيفة التي تسري بحذر، لتطرد ما أرسلته الشمس من موجات حارة. كانت مشغولة في ترتيب الخطوة المقبلة. التفتت ناحية "عمر" الذي كان يقود السيارة واجماً، وفاجأته قائلة:

- أنت صحفي معروف.. وتستطيع أن تدبر لي الظهور في عدة برامج تلفزيونية..

أدرك ما ترمي إليه أمه. كانت تخوض معركة، وتستخدم فيها كل أنواع الأسلحة. وأن معارضتها ضرب من المستحيل.

أوما برأسه موافقاً، ففاجأته مرة أخرى:

- لا بد أن تدبر ظهوري هذا المساء..

لم يكن الأمر صعباً عليه، فكل ما يتطلبه هو إجراء عدة مكالمات هاتفية، لزملاء له يعملون في إعداد البرامج المسائية المشهورة. وسترحب بالمقابلة، خصوصاً أنها ستملاً مساحة مقبولة من الإثارة التي تسعى لها معظم برامج "التوك شو".

في يوم الاثنين من شهر مارس. استيقظ سكان القاهرة على شعور بالسعادة، بدا وكأن السماء فتحت أبوابها، ونثرت في الهواء ذرات السعادة، فجعلت الشمس تتوارى قليلاً، وسمحت للهواء المنعش أن يتجول بحرية، تناقل الكثيرون أحوال ذلك اليوم الغريب، الذي رسم بسماوات فرح على كثير من الوجوه الغاضبة.

في هذا اليوم العابر أفتى المتدينون أن الله يرسل مع ذرات السعادة رسائل تحذير للمارقين والملحدين، بأنه سيتم حرمانهم من النعيم، إذا لم يعودوا إلى صوابهم، وشعر الآخرون أن الله قريب منهم يحبهم ويرعاهم.

كانت السادسة مساءً. عندما عادت "مايا" إلى منزلها، بعد يوم طويل قضته في "تكية سعيد السعداء" بالجمالية.

تأقت إلى حمام تزيل به آثار الغبار الذي غطاها في التكية القديمة، التي لا يتفق اسمها مع نهاية صاحبها التعيسة، حيث تدرجت رأسه في ساحة قصر الخليفة الفاطمي، وتدلّ جسده بعدها على باب زويلة، لتنقره الطيور الجارحة، وتملاً منه بطونها الصغيرة.

كان العمل داخل التكية شاقاً، ويحتاج لأشهر من أجل توثيق ما تبقي من واجهتها ومدخلها وإيواناتها، لتشهد على قصة تحول مصر من المذهب الشيعي في زمن الخلفاء الفاطميين إلى المذهب السني على يد صلاح الدين الأيوبي، وقد أصدر أوامره بتحويل هذه الدار إلى وقف للفقراء والمتصوفين.

سكن الدار في يوم من الأيام "الأستاذ قنبر أو عنبر" أحد عتقاء الخليفة المستنصر، وبلغ في عهده شأنًا كبيراً، حتى أن داره سميت "سعيد السعداء" دلالة على ما ينعم به صاحبها، ولما أمر الخليفة بفصل رأسه عن جسده، سكنها من بعده الوزير العادل "رزيك"، الذي حفر سرداباً تحت الأرض ليصل بينه وبين دار الوزارة، ثم سكنها من بعده الوزير الفاطمي الذي اشتهر في التاريخ بأنه استعان بجيوش فرنجة بيت المقدس ضد صلاح الدين الأيوبي، فقطع الأخير رأسه وأرسلها إلى الخليفة العاضد الذي حاول أن ينقذه فتسبب في مقتله.

علق في ذهن "مايا" المفارقة الغربية ما بين دار حملت اسم "سعيد السعداء" والنهاية المأساوية التي انتهت بها حياة سكانها من المشاهير، وتدحرج رؤوسهم على الأرضيات الرخامية الباردة في قصور الحكام.

قررت أن تنحي جانباً كل الأفكار المتعلقة بعملها طوال اليوم. كانت تساورها رغبة جامحة للتمتع بحالة من الكسل اللذيذ تقضيها أمام التلفزيون، لمشاهدة فيلم عربي قديم.

تناولت طعامها الذي أعدته لها "أم أمينة"، وبحثت بين قنوات التلفزيون حتى عثرت على فيلم "الزوجة الثانية" تابعت أحداثه بشغف للمرة المائة.

تمتطت "مايا" وشعرت برغبة في النوم. تسللت إليها حتى غلبتها، فغفت على الأريكة لدقائق، ثم أفاقت بعدها، وأعدت لنفسها كوباً من الشاي وطبق

بسبوسة، وعادت لتجلس أمام التلفزيون، قلبت بين قنواته. غيرت بسرعة برامج التوك شو التي كانت تكرهها. للحظة علق ريموت التلفزيون على إحدى القنوات. انتظرت حتى يعمل من جديد.

ظهرت على الشاشة سيدة أنيقة، وتحدث بثبات عن مقتل ابنها. تمعت "مايا" في ملاحظها الجميلة. تعجبت كيف يمكن أن تجد أمٌ مساحة من الوقت تخصصها للقاءات تلفزيونية بعد كارثة وفاة ابنها.

همت بتغيير القناة، عندما ملأت الشاشة صورة لشاب وسيم يقف ومن خلفه برج إيفل في باريس، انتفضت "مايا" واقفة. صرخت وهي تضع يدها على فمها. اقتربت من شاشة التلفزيون، حتى كادت تحترقها برأسها، صرخت:

- هو .. هو ..

وتهاوت على الأريكة متحبة.

- 8 -

الأضـرحـة المقدسة

مرر الدكتور "شوكت" يده على السطح الناعم لمكتبه المطعم "بالماركتريه"..
كان دائماً ما يشعر بالفخر، كلما تطلع لقطعته الفنية القديمة والنادرة المطعمة
بآلاف القطع الصغيرة من الألوان المختلفة للأخشاب الطبيعية، وشرائح الفضة
والنحاس والأبنوس والعاج. قال له تاجر التحف الذي باعه إياه منذ أكثر من
خمسین عاماً، إنه كان ملكاً للأمير "عمر طوسون" واستغرق من الفنان الذي
صنعه ثلاث سنوات، واستخدم قشور خمسين شجرة، ليصل إلى تماوج من
الألوان الطبيعية ليس له مثيل.

ابتسم في سعادة، ففي كل مرة كان يمرر يده فيها على سطح المكتب، يفشل
في العثور على نتوء ولو بسيط يُمكنه من لوم الفنان الذي صنعه، ومن لوم نفسه
كلما تذكر المبلغ الضخم الذي دفعه ثمناً له.

لم يكن يشعر برغبة في صباح يوم الأحد في الخروج من المنزل، رغم ارتباطه
بموعد زيارة شقيقته ولقاء "مروان" كما وعده. فضل أن يؤجل الزيارة. أمسك
بهاتفه وطلب رقم شقيقته، وكعادته تطرق للموضوع مباشرة واعتذر لها،
ووعدها بزيارتهم في اليوم التالي.

في الثامنة من صباح يوم الاثنين. كان يقف على باب فيلته في انتظار سائقه.
كان يكره خروجه من جنته، كما كان يطلق على مزرعته الصغيرة، ولكن زيارة
شقيقته وابنها كانت تشعره بالسعادة، كما أن مساعدة "مروان" توفر له قدراً من
الإثارة هو في حاجة إليه.

لم يستغرق الطريق وقتاً طويلاً، ف شعر بالراحة من أجل ذلك، وقبل أن يدق
جرس الباب، فتحت شقيقته التي راقبت وصوله من النافذة. دفعته ناحية غرفة
السفرة من أجل تناول الإفطار، وانهكما في تبادل الحديث، وحكت له عن

المكالمات الليلية التي يجريها "مروان" مع حبيبته، وغرقت في الضحك وهي تقول له:

- تصور هو يعتقد أنه يخفي عني قصة حبه..

عقد الدكتور شوكت ما بين حاجبيه، وسألها:

- أين هو؟ لقد كان يحتاج مني بعض الأمور..

- سيأتي على موعد الغداء..

انقضى الوقت سريعاً، وشعر الاثنان بخطوات "مروان" تهرول خلفهما، كان يحمل بحرص مغلفاً أسود ضخماً، حيا خاله بحرارة وجلس بجواره. كان يبدو متلهفاً للحديث معه.

انسحبت "ليلي" متعللة بضرورة إشرافها على إعداد الطعام.

- والآن ماذا تريد؟

قالها الدكتور "شوكت" مبتسماً، فاقترح "مروان" أن يذهبا إلى غرفة المكتب، حتى يتمكنوا من الجلوس بهدوء.

أخرج "مروان" من المغلف رسوم "يوسف" وصوره، ورتبها على المكتب أمامه، وقال لخاله، إن هذه الصور تعود إلى الأربعينيات والخمسينيات، وحكى له عن مقتل "يوسف" الذي حاول القاتل أن يصور موته على أنه حادثة تعرض لها رجل مسن، وأشار له على الرسومات الغامضة، وكيف عثر عليها نجبة خلف اللوحة الزيتية.

نجح "مروان" في أن يستحوذ على اهتمام خاله تماماً، فأكمل حديثه: أشعر أن هناك رابطاً مهماً بين الرسومات والصور التي يظهر فيها "يوسف" في أماكن

مختلفة.. أريد أن أعرف ما هي تلك الأماكن وأين تقع بالتحديد؟.. وإذا عرفناها فهل يمكن أن تكون لها علاقة بتلك الرسومات الغريبة؟
عندما رفع "مروان" رأسه، رأى خاله يحدق إليه بنظرات تنم عن السعادة والحماسة والإعجاب، وكان أول تعليق للدكتور "شوكت":
- هل أجد عندك ملابس ثلاثمئة وجاهز كومبيوتر موصول بشبكة الإنترنت؟

رغم تعجب "مروان" من طلبات خاله، إلا أنه هز رأسه بالإيجاب.
انساب صوت "شوكت" مفعماً بالحماسة:
- دع السائق يعود إلى المزرعة وبأتي صباح الغد.. سأبيت هنا الليلة..
قهقه "مروان" ضاحكاً بصخب، واحتضن خاله بقوة قائلاً:
- كنت أعلم أنك الوحيد الذي يمكن أن يفك شفرة التاريخ..
إلتقط "شوكت" صورة بدا فيها "يوسف نسيم نقاش" شاباً أنيقاً ووسياً، يرتدي فوق رأسه الطاقية اليهودية الصغيرة، ويقف أمام مبني مؤلف من حجرتين كبيرتين، ويشبه المسجد. تعلو واحدة منهما قبة كبيرة، يعلوها زينة معدنية تمثل كفاً مفتوحاً تحيط به أشعة الشمس، وتخلل المكان مجموعة من الأشجار، وفي خلفية الصورة خيط بعيد من الماء، وينبئ بأن المبنى يقع قريباً من النهر.

تفحص باقي الصور واختار واحدة منها.. كان "يوسف" يرتدي نفس الملابس، ويقف داخل غرفة بها نوافذ مرتفعة، وفي زواياها قناديل، وهو ينظر خاشعاً ناحية ضريح يشبه المصطبة مستطيل الشكل ومنحرف السطح، ومغطى بقمش يبدو مزرعشاً، ويحيط به سور خشبي مشغول.

لاحظ "شوكت" أن "يوسف" يقف أمام الضريح خالماً حذاءه، فاستغرق في التفكير قليلاً، ثم تصفح الإنترنت باحثاً عن الأضرحة اليهودية في العراق، حتى وجد صورة قديمة تشبه نفس المبنى الذي يقف أمامه "يوسف"، فأطلق صيحة ارتياح، وشرع يكتب عدة ملاحظات في ورقة أمامه.

لاحظ "مروان" استغراقه الكامل في البحث، حتى أنه لم يلحظ خروجه من الغرفة. وطلب من أمه عدم إزعاج خاله، وأن تكتفي بوضع الماء والمشروبات، دون أن تكلمه، فقد كان يعلم عاداته جيداً عندما ينهمك في البحث.

أدرك "مروان" أن خاله سيستغرق ساعات طويلة في حل لغز الصور القديمة، وقبل أن يقرر إذا كان سينتظره أو يعود إلى عمله، رن هاتفه ليأتي صوت "خالد" متحمساً ويرغب في لقائه بسرعة.

حسنت مكالمته مساعده الموقف، فغادر مسرعاً مكرراً على أمه عدم مقاطعة خاله، حتى يخرج هو من المكتب، وافقته أمه على مضض، وهي تشعر بالضيق لعدم قدرتها على الثثرة مع شقيقها.



كان "خالد" في انتظاره، وعلى الفور وضع أمامه مجموعة من الصور لشاب منقولة من كاميرات المراقبة في الفندق والمطار. كانت بنيتة تبدو واضحة دون أن تظهر ملامحه، وبدا أنه تعمد إخفاءها عن الكاميرات التي يعلم بوجودها، حتى في المصعد كان يدير لها ظهره أو ينكس رأسه المغطاة بكاب.

بدا على "مروان" الضيق من مراوغة "خالد"، فسارع الأخير بالشرح:

- بعد أن فحصنا كل أماكن إقامة الأجانب التي تنطبق عليهم مواصفات القاتل.. وجدنا "بيetro بنيامين شاؤول" مندوب إحدى

شركات الدراجات البخارية الإيطالية.. حضر إلى مصر للقاء رجل الأعمال "عبد الحميد غالب" الذي يرغب في أن يكون وكيلاً للشركة الإيطالية في مصر.. "بيترو" دخل مصر قبل مقتل "يوسف" بخمسة عشر يوماً.. وأقام في فندق على النيل.. وغادره منذ عشرة أيام.. وبعدها اختفى كل أثر له..

أطلق "مروان" صفرة خافتة، فسارع "خالد" بتقديم المزيد من المعلومات:

- "عبد الحميد غالب" في طريقه إلينا الآن..

حذق به "مروان" بنظرة غائمة مردداً:

- هذه القضية تشبه كرة من الصوف.. كلما تصورنا أننا اقتربنا من

نهايتها.. نجد مزيداً من الخيط يجري أمامنا.. قبل أن يأتي "عبد

الحميد".. أريد كل المعلومات عنه..

خرج "خالد" مسرعاً، ليعود بعد ساعة تقريباً، ومعه ملف كامل عن رجل

الأعمال. جلس أمام "مروان" وهو يتمتم متعجباً:

- مش ممكن استقامة هذا الرجل!

نظر إليه "مروان" بفضول، فقلب خالد في الملف..

منذ عشرين عاماً، تزوج "عبد الحميد غالب" من ابنة أحد رجال الأعمال

الكبار. لم يعرف عنه أن له مغامرات نسائية مشروعة أو غير مشروعة داخل

مصر، وله ولدان يدرسان في الولايات المتحدة الأمريكية.. ملتزم في عمله،

ويدفع ضرائبه بانتظام، وله عدة أنشطة تجارية، ويقوم باستيراد الدراجات

البخارية والنارية وقطع غيارهما.. في الفترة الأخيرة كان يستورد المصابيح

الكهربائية من الصين.. ويحلم بأن ينشئ مصنعاً صغيراً لإنتاج الدراجات

البخارية بالتعاون مع إحدى الشركات الكبرى، ويحاول أن يحصل على وكالة منها.

نظر إليه "مروان" متعجباً:

- هل جئت لتحدثني عن ملاك؟!

ضحك خالد..

- لو تركتني ثواني قليلة كنت أخبرتك بالجانب الثاني، فهو ابن لأسرة فقيرة جداً، ويحاول دائماً أن يبتعد عنهم بأوامر من زوجته التي تحقرهم.. قلت في البداية إنه ليس له مغامرات نسائية داخل مصر أما خارجها فالوضع مختلف تماماً.. فهو متزوج من سيدة مغربية يسافر للقاءها مرة كل ثلاثة شهور تقريباً.. ولا أحد يعلم سره سوي سكرتيرته المتعاطفة معه ضد جبروت زوجته المتغطرة..

- أين هو الآن؟

سأل "مروان" بنفاد صبر، فهو كان يرغب في العودة إلى خاله.

- هو في طريقه إلى هنا..

أعلن جهاز اللاسلكي الخاص بـ "خالد" عن وصول الضيف المنتظر، فأصدر لهم تعليماته:

- أحضروه إلى مكتب مروان بيه..

كان شحوب وجه "عبد الحميد غالب" يكشف عن حجم قلقه من استدعائه، بعد أن تلقى مكالمة هاتفية تطلب منه التوجه إلى مبني الأمن الوطني بمدينة نصر.

لم يحاول أن يدعي الهدوء، بل سارع بسؤال "مروان" عن سبب استدعائه الذي أشعره بالخيرة، فهو رجل ملتزم ليس له علاقة بالسياسة وأهلها، وكل أعماله منظمة وسليمة.

رد عليه "مروان":

- نحن متأكدون من ذلك..

صمت قليلاً، قبل أن يقول له:

- ولكن الأمر الوحيد الذي نتعجب له هو علاقتك بـ "بيترو"..

اتسعت عينا "عبد الحميد" من الدهشة وتصلبت ملامحه، وهو يجيبه:

- "بيترو بنيامين"؟

هز "مروان" رأسه بالموافقة، فأسرع "عبد الحميد" يوضح علاقته به:

- هو مندوب إحدى الشركات الإيطالية.. قابلته في أحد معارض الدراجات البخارية في "ميلانو".. عرفني على نفسه بأنه المدير المسئول لشركة كبيرة في "روما".. ولما عرف أنني أرغب في الحصول على وكالة إحدى الشركات الكبرى.. منحني بطاقة تعريف مكتوباً فيها هواتف الشركة وموقعها الإلكتروني.. وأبدى استعداداً للتعاون بعد التشاور مع شركته.. وقال إنه سيرسل لي الكتالوجات الخاصة بمنتجاتهم، ووعدني بالتواصل معه عن طريق الإنترنت..

التقط "عبد الحميد" أنفاسه، وهو ينقل بصره بين "مروان" ومساعدته، ثم

أكمل:

- وبعد عودتي لمصر تبادلتنا الإيميلات.. وفرحت جداً للتعامل معه..

فشركته من أكبر الشركات الإيطالية.. وبعدها بعث لي برسالة بأنه

سيحضر إلى مصر لزيارة موقع شركتي واستيفاء باقي المستندات
ومعرفة مركزي المالي.. وبالفعل جاء إلى مصر واخترت له أحد
الفنادق على النيل لإقامته..

توقف "عبد الحميد"، وطلب كوباً من الماء شربها دفعة واحدة، وتابع:

- والتقيته عدة مرات ناقشنا فيها كل تفاصيل العمل.. وطلب العديد
من المستندات تخص حساباتي في البنوك وقدرتي على فتح اعتمادات
مالية.. وزار مخازني.. ونظمت له عدة جولات سياحية في القاهرة..
وقبل أن يسأله "مروان" عن توقيت مغادرة "بيetro"، لاسيما أنه لم يثبت سفره
حتى هذه اللحظة، سارع "عبد الحميد"، بإجلاء الغموض حول مكانه:

- بعد أسبوعين.. قال لي في معرض حديثه إنه يشعر بالضيق من
إقامته بالفندق.. فعرضت عليه أن أستضيفه في شقة صغيرة أملكها
في المهندسين.. فوافق على الفور..

لم يلحظ الرجل في غمرة انفعاله، النظرة السريعة التي تبادلها "مروان" مع
"خالد"، وطلب الأخير منه عنوان الشقة، فأملأها عليه، وأخرج من جيبه
سلسلة مفاتيح، اختار منها واحداً، ومد يده به إلى "مروان"، فالتقطه منه وأعطاه
لـ "خالد" الذي خرج مسرعاً من المكتب.

تشجع "عبد الحميد" بعد أن قدم يد المساعدة في قضية غامضة، لم يدرك
أبعادها، ولكنه فهم أنه تورط في أمر خطير، وكل ما كان يفكر فيه هو اكتساب
ثقة "مروان"، حتى لا يكون داخل دائرة الاشتباه.

التقط نفساً طويلاً، ونظر في عين "مروان" بثبات وقال:

- عرضت عليه أن أنظم له رحلة للغردقة.. فوافق وحجزت له في
أحد الفنادق الكبرى.. وأوصله سائقي الخاص حتى باب الفندق..

لم يعلق "مروان"، واكتفي بوضع ورقة صغيرة أمامه، فكتب عليها "عبد الحميد" اسم الفندق. شكره بعدها وسمح له بالإنصراف.



تنبّهت حواس "مايا"، وتابعت البرنامج الذي يعرض حكاية مرشد سياحي شقّ نفسه في شقته، وبدأت أمه متماسكة، وتكافح لكي تغالب دموعها من أن تنهمر أمام المشاهدين، وهي تؤكد استحالة أن يفكر ابنها في الانتحار، فقد كان يرتب لمستقبل أطفاله، وانتهى من تأثيث منزله، واختار مدرسة لطفليه، وفي صباح يوم وفاته كان لديه موعد مع مديرة المدرسة.

قبل انتهاء البرنامج، واجهت "نبيلة" الكاميرا بثبات، وطالبت السلطات بالبحث عن قاتل غامض نجح في التسلل إلى منزله والتخلص منه، بدون أن يترك أثراً واضحاً.

في تلك اللحظة، شعرت "مايا" أن نظراتها مثبتة عليها، وأنها تخاطبها شخصياً.

أغلقت التلفزيون، وانهمكت في البحث بين المواقع الصحفية على الإنترنت، لتتبع قصة انتحار "سالم". اكتشفت أن له شقيقاً يعمل صحفياً في موقع "الحدث".

تملكتها حيرة أربكتها. كانت ترغب في معرفة علاقتها بالمنتحر الذي لم تعرفه يوماً في حياتها، ورغم ذلك امتلك الحق ليقترح عليها حياتها التي أصبحت مضطربة في الآونة الأخيرة، وتحولت حيرتها إلى غضب من المجهول، الذي يرغب في توريطها في قصة لا تعرف لها بداية من نهاية.

هدأ غضبها قليلاً بعد أن قررت شيئاً لا بد أن تفعله في صباح اليوم التالي.



توقفت "مايا" أمام البناية الفخمة في المهندسين. شعرت بالارتباك وكأنها وسط محاضرة نسيت موضوعها. استجمعت شجاعته، ودخلت إلى البهو الرخامي. توجهت ناحية المصعد، وضغطت على زر الدور الثالث عشر. وجدت نفسها أمام باب زجاجي مكتوب عليه "الحدث" دفعته بحذر، فالتفتت إليها بعض العيون، ثم تجاهلونها بسرعة، وعادوا للحملقة في شاشات الكمبيوتر، وهم يدقون على لوحة المفاتيح وكأن أصابعهم تتحرك من تلقاء ذاتها.

تلفتت حولها ترغب في سؤال أحد عنه، تصورت أنهم سيطالبونها بتفسير عن سبب حضورها. كادت تدور عائدة على عقبيها، عندما اقتربت منها فتاة شابة. ابتسمت لها وسألتها عن سبب حضورها؟

ردت "مايا" بإرتباك:

- أريد مقابلة الأستاذ "عمر النواوي" ..

أشارت لها الفتاة عليه ببساطة أدهشتها، وتركته وانصرفت.

كان يفصلها عنه عدة مكاتب. رآته يجلس وأمامه جهاز كمبيوتر. ويعبث بمفاتيحه بشروء لم يستطع إخفائه، رفع رأسه ونظر ناحيتها بلا اهتمام، وملامح وجهه الوسيم تكتسي بالآلم. حول بصره عنها، وتخلل بأصابعه شعره الأسود الكثيف، وعاد الانشغال بالنظر إلى الشاشة. اقتربت منه ببطء، وهي تشعر بارتجاف قدميها، وتسارعت دقات قلبها، فلم تكن تعلم كيف ستبدأ الحديث معه، وهل سيصدق ما جاءت من أجله؟ أم سيعتبرها مجنونة؟

- الأستاذ عمر ..

قالتها وهي لا تستطيع أن تسيطر على رجفة شابت صوتها.

رفع رأسه ناحيتها ببطء، تفحصها وهو يفكر أنه ليس في مزاج يسمح له بمقابلة غرباء، والاستماع لمشكلات لا يستطيع أن يتحملها في حالته.

هز رأسه موافقا. قالت هي بسرعة قبل أن تخونها شجاعته وتنطلق هاربة:

- أنا الدكتور "مايا هارون" .. "ابتلعت ريقها بصعوبة" .. أريد أن أتحدث معك بخصوص شقيقك المرحوم "سالم" ..

فجأة، حصلت على اهتمامه بالكامل، قام واقفاً وقدم لها مقعدا بجوار مكتبه. تغيرت ملامحه من الحزن إلى الدهشة كان وجهها مألوفاً ولكنه عجز عن تذكرها، ثم هدأ بعد أن تصور أنها واحدة من زميلاته، جاءت لتعزيه. ظل لثوانٍ منتظراً أن تبدأ حديثها بالمجاملات المعتادة في مثل هذه المواقف.

مرت ثوانٍ أخرى، بدت كأنها دهر، وهي تحاول أن تختار كلماتها بعناية:

- أنا في الحقيقة لا أعرف المرحوم. ولم ألتقه من قبل ..

نظر إليها مندهشاً، فأردفت:

- ولكنني رأيته في يوم وفاته ..

أصابته كلماتها بالضيق، فهو ليس بحاجة إلى مزيد من الغموض، فيكفيه فقدان له لشقيقه بتلك الطريقة التي لا يقبلها عقله، وإن كانت كل الدلائل تشير لانتحاره.

- أرجوك أنا لست في حالة تسمح بأن أضيع وقتاً في مثل هذه الأحاديث الغريبة ..

قالها وهو يكاد أن يطلب منها الانصراف.

جفلت "مايا" وكادت تنصرف، ولكنها تنبعت إلى أنه محق في ضيقه منها، فتداركت الأمر وقصت عليه حكايتها بسرعة شديدة، بدون أن تلتقط أنفاسها،

وبدون أن تذكر له كيف بدأت معها قصة الرؤى الغريبة التي اكتسبتها من الليلة التي قضتها مع والدتها في غرفة الشفاء بمعبد "موسى بن ميمون"، ولم تذكر له أيضاً رؤيتها الأخيرة المتعلقة بوفاة قريبها "يوسف" ..

نظر إليها فاعراً فاه، وسألها:

- أنت تقولين أنك لا تشاهدين إلا من تعرفينهم فقط.. فلماذا رأيتِ "سالم"؟

هزت رأسها بعنف، فتحرك شعرها الذي عقدته إلى الخلف كذيل الحصان:

- لا أعرف.. ولكنني أشعر أن هناك أمراً غريباً مرتبطاً به.. كان ينظر لي وكأنه يريد أن يبلغني رسالة ما.. وهذه هي المرة الثانية التي أري فيها شخصاً يموت بطريقة غريبة..

ضابت عينا عمر، وهو يسألها:

- ماذا تقصدين؟

أدركت أنها تحدثت أكثر من اللازم، وأنها إذا جلست لمدة أطول، ستضطر للتحدث في أمور ترغب في تحاشيها، تلعثمت قليلاً وهي تقول له:

- هو أمر بعيد عنكم تماماً.. ولكن المشكلة أنني عندما رأيت قريبتي الذي توفي.. رأيته أثناء نومي.. وكان أمراً غريباً لم أعرفه من قبل.. ثم جاءت رؤيتي لـ "سالم" الذي لم أعرفه أبداً.. أشعر أن هناك أموراً غريبة أتعرض لها..

تغيرت نظرات عمر من الضيق والتوتر إلى التفهم، بعد أن شعر بالتعاطف معها، فقد كانت تتحدث بصدق لا يمكن افتعاله..

- ماذا حدث لقريبك؟

قالها وهو ينظر مباشرة إلى عينيها..

تناولت جرعة ماء من الزجاجاة التي تحملها معها. تنبه "عمر" أنه لم يطلب لها مشروباً، فطلبت شاياً، وهي تشكره في سرها لأنه منحها فرصة كي تستجمع أفكارها.

رغم اضطرابها الواضح، إلا أنها كانت معتادة على التعامل مع المواقف الصعبة، ولكن في هذه المرة، كانت تشعر أنها تكشف أسرارها أمام رجل غريب عنها، وكأنها تتعري من ثيابها، والأمر الذي تعجبت له، أنها شعرت برغبة شديدة في أن تروي له كل شيء عنها.

كانت نظراته التي أصبحت حانية، تشعرها بالأمان والرغبة في البوح. روت له حكاية عائلتها ووفاة "يوسف" التي لا تبدو أنها وفاة طبيعية، كما يلمح المقدم "مروان".

- "مروان حمدي الكيلاني" ..

قالها "عمر" مبهوراً من تشابك الأحداث، وتسارعها على هذا النحو.

اندهشت "مايا" قائلة:

- نعم.. هل تعرفه؟

أراح "عمر" رأسه على ظهر المقعد، وهو يتأملها بهدوء. لاحظ جمال عينيها البنيتين، زادهما ألقاً ظل من البراءة يظهر كلما أمعنت في النظر إليه. ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، وهو يقول لها:

- أنا أتعجب من سير الأحداث بهذه الطريقة.. هل تعلمين أنني كنت

أبحث عنكم من بعد وفاة "يوسف".. وفشلت في العثور على أحد

من عائلتكم.. كنت أشعر أن هناك أمراً غامضاً يتعلق بوفاته..

ولكن هناك تكتم شديد حول هذه القضية.. ربما السبب أن من يتولاها هو جهاز الأمن الوطني.. وفجأة يموت "سالم" وأجدك أمامي..

غاصت ابتسامته، واكتسي وجهه بحزن شديد، وهو يتذكر حالة أمه الغريبة، وإصرارها على أن "سالم" قُتل ولم ينتحر.

- والآن رؤياك الغريبة التي تعتقدين أن لها علاقة ب وفاة "سالم" ..

قالها وهو ينظر إليها منتظراً إجابتها..

شرحت له كيف أنها شعرت بصدمة هائلة، عندما شاهدت والدته في البرنامج الذي عرض صوراً لـ "سالم"، وكيف أنها تعرفت عليه مباشرة، وتذكرت وجهه الذي لم يفارقها منذ أن زارها، أما ما جعلها تأتي إليه هو نظراته الغريبة لها، وكأنه يحملها رسالة ما، أو يطلب منها أن تساعد في أمر ما.

كانت مهنته قد جعلته يتقبل غرائب الحياة، فهو لم يشك في روايتها ولو لحظة واحدة، وخلال عمله الصحفي التقى كثيرين يمتلكون قدرات ومواهب خارقة، كما قابل أدياء ومحتالين أكثر، وبرع في اكتشاف أكاذيبهم.

كان يصدق كل كلمة قالتها له، ولكنه شعر بالحيرة حول ما يرغب شقيقه في كشفه، ولماذا اختار "مايا" الفتاة الغريبة عنه، والتي لم يقابلها في حياته، وهي لم تعرفه أبداً.

تململت "مايا" في مقعدها، بعد أن لاحظت استغراق "عمر" في أفكاره، وكأنها لم تعد موجودة. لاحظ هو حركتها، ففهم أنها ترغب في الانصراف. تبادل أرقام التليفونات، واتفقا على لقاء قريب حدده "عمر" بعد جنازة "سالم" في الغد. لم يستطع أن يسيطر على ارتجاف صوته، وهو يقول لها إنهم سمحوا لهم

بتسلم جثمانه، بعد انتهاء التشريح، وصدور تقرير الطب الشرعي الذي أكد انتحاره.

بنبرة تعاطف حقيقية، قدمت له تعازيها من جديد، وانصرفت بسرعة. كانت تشعر بنظراته التي تتابعها، وتعجبت لحالها، كيف روت لشخص غريب عنها أموراً كثيرة عن حياتها كانت تتردد في أن تتحدث بها مع نفسها. أغلقت عينيها، لتكتشف أنها تحتفظ بملامح وجه "عمر" بوضوح شديد. راقبها "عمر"، حتى اختفت من أمام عينيها. جلس صامتاً لفترة تذكر فيها اللحظة التي رأى فيها "مايا" يوم جنازة "يوسف" وكانت تضع نظارة شمسية سوداء وتغطي رأسها بوشاح حجب معظم ملامح وجهها، حتى أنه لم ينتبه لـ"علا" زميلته، وهي تحدثه إلا بعد أن مرت بيديها من أمام عينيها. تنبه لها فظفر اليها مستفهماً، فسألته عن الزائرة التي قضى معها أكثر من ساعتين، وهما يتحدثان همساً، فتعجب من مضي الوقت بمثل هذه السرعة، وقال لها إنها إحدى قريباته، وجاءت لتعزيه، ولتتحدث معه عن ترتيبات الجنازة والدفن، بعيداً عن والدته التي لا تتحمل الحديث في هذا الموضوع أمامها. وافقته زميلته مبدية تعاطفها، وراقبته وهو يستعد للانصراف، بدون أن يلاحظ نظراتها التي تكشف عن مشاعرها ناحيته.

قاد "عمر" سيارته وهو مستغرق في التفكير، متعجباً من تداخل الأحداث على هذا النحو الغريب. برق في خاطره للحظة، توتر "سالم" عندما سمع بمقتل "يوسف". حدث نفسه أنه في وقت آخر كان سيطير فرحاً بعثوره على أحد أفراد عائلة اليهودي، ولكن أحزانه لم تترك له مكاناً، ليفكر في عمله.

كان الهاجس الذي يشغله أكثر من غيره، هو مواجهة أمه بقصة "مايا" التي ستؤكد ظنونها حول وفاة "سالم".

كانت شكوك أمه تسيطر على عقله، وإن كان يتعامل معها بحذر حتى لا ينساق وراءها، وإن كان هو نفسه لديه قناعة كاملة باستحالة إقدام شقيقه على الانتحار.

شعر بصداق يحتاج رأسه ويعصف بها، حتى كاد يرتكب عدة حوادث في الطريق، وحمد الله أنه وصل إلى منزله بسلام.

عندما فتح الباب، وجد "كلارا" تجلس مع طفلها، وهم منهمكون في حديث طويل، ولاحظ أمه وهي تحدق بنظرات غريبة ناحيتها.

حالة التحفز الواضحة التي بدت على أمه، جعلته يتراجع عن أن يروي لها قصة "مايا"، وفضل بدلا من ذلك أن يدخل إلى غرفته، بعد أن رفض تناول طعام العشاء، فقد كان ينتظرهم في الغد يوم طويل، ويخشي على أمه وهي تري جثمان ابنها يواريه التراب.



خرج "عمر" مبكراً، ليرتب لإجراءات الدفن وفتح مقبرة العائلة. سادت حالة من الهدوء المهيب، جعلته ينظر إلى والدته متعجباً طوال مدة الدفن، والألم يكاد يفتت وجهها، والدموع تلمع في عينيها، ولم تنسب إلا في لحظة غلق المدفن على أخيه.

كانت تتمم طوال الوقت آيات سورة "الملك" وهدوء قامت بتوزيع أجزاء المصحف على الموجودين، وطالبتهم بختم القرآن لروح "سالم".

عندما انتهوا جميعاً من القراءة، أصابت "عمر" حالة من الارتباك، بعد أن شاهد شبح إبتسامة يرسم على وجه أمه. أطلقت من بعدها زفرة حارة، واستدارت متوجهة ناحية السيارة، وهي مستمرة في قراءة القرآن.

لم تلتفت ناحية "كلارا" التي انهارت في لحظة موارد الجثمان داخل المقبرة، وانزوت بعدها في أحد أركان المقبرة باكية حتى يفرغوا من قراءة القرآن. اضطر "عمر" أن يحيطها بذراعيه حتى لا تسقط على الأرض منهاراً، ثم عاونها على ركوب السيارة في المقعد الخلفي، ولاحظ أن أمه لم تكلف نفسها عناء النظر إلى الخلف، لرؤية ما حاق بها، و"كلارا" تكاد تفقد الوعي.

قاد "عمر" السيارة متوجهاً للمنزل، وهو يفكر في الوقت المناسب ليحكي لأمه عن "مايا".



لم يستغرق النقيب "خالد" وقتاً طويلاً، ليكتشف تبخر "بيترو"، وكأنه غاز سام قاتل سريع الانتشار والتبخر، فلم يكن له أثر في الغردقة كلها، ولم يتم تسجيل دخوله في الفندق الذي حجز له فيه "عبد الحميد"، هذا غير شقة المهندسين التي لم ينجح المعمل الجنائي في العثور على أي أثر تركه خلفه.

عاد إلى "مروان"، وهو لا يستطيع إخفاء شعور بالخيبة، ظهر في صوته، وهو يروي له نتيجة تحرياته.

كان يشعر بغضب شديد لشعوره أنه يطارد رجلاً يتقدم عليهم طوال الوقت، وأنه نجح في الهروب منهم. لكنه فوجئ برد فعل "مروان" الهادئ الذي قال له:

- المهم الآن أن نعرف السبب الذي دفع "بيترو" للبقاء في مصر بعد أن قتل "يوسف".. خصوصاً أنه لم يقترب بعدها من دار المسنين ولا من عائلته كلها.. فلا بد أنه كان يقوم بمهمة أخرى..

صمت قليلاً، بعد أن لاحظ تجهيم "خالد"، ثم قال له:

- لا تقلق سنعرف كل شيء قريباً..

تأهب للانصراف تاركاً "خالد" لهُمومهُ، ورغب في أن يخفف عنه قليلاً:

- سأذهب للقاء الدكتور "شوكت" الذي سيكشف لنا عن سر مقتل "يوسف"..
ربت على كتفه وانصرف.

أدار "مروان" المفتاح في قفل الباب. تعجب من حالة الهدوء التي تسود المنزل.. ونظر مباشرة ناحية غرفة المكتب، فلاحظ تسرب الضوء من أسفل الباب، ففهم أن خاله مازال بالداخل.

اتجه إلى غرفة المعيشة، فوجد أمه مستغرقة في قراءة كتاب، فابتسم لعلمه أنها تتجاهله متعمدة. حياها وجلس بجوارها، فنظرت إليه بلوم شديد، فلم يتمالك نفسه من الضحك، فقالت له بغضب:

- نحن لم نتناول غداءنا حتى الآن.. وخالك لم يخرج من المكتب إلا للذهاب إلى الحمام.. ورفض حتى أن أجلس بجانبه حتى لا أشتت انتباهه.. لينتهي من العمل الذي كلفته به..

صمت "مروان" حتى لا يزيد من غضبها، فقد كان يعلم مدى تعلقها بشقيقها الوحيد الذي تنتظر زيارته المتباعدة لها، وقبل أن يفكر في مبرر يسوقه لها، سمع خطوات خاله الخفيفة، الذي نظر إليهما بمرح شديد، وقال لـ "مروان" بنبرة إنتصار:

- لقد انتهيت..

كاد "مروان" أن يطير من الفرح، ولكنه تماسك أمام نظرات أمه الغاضبة، وانتظر أن يأخذ خاله الخطوة الأولى، وصدق توقعه فسرعان ما دعاه للدخول معه إلى المكتب، فقام خلفه متجنباً النظر إلى أمه التي عادت إلى كتابها غاضبة. قبل أن يستمع "مروان" لما توصل له، تعجب للحالة التي كان عليها خاله، وقد بدا أن عمره ارتد إلى الخلف عشر سنوات على الأقل. كانت عيناه تلمعان من الإثارة، وصوته الذي لم يفقد شبابه كان مفعماً بالبهجة، وهو يقول مشيراً إلى "يوسف" في الصور:

- هذا الرجل كان يهودياً متديناً على حق..

نظر إليه "مروان" بفضول، جعل خاله يشعر بالفخر الشديد.

كان الدكتور "شوكت" قد رتب الصور في مجموعتين، وبدأ يشرح نتائجها:

- المجموعة الأولى تضم كل الأماكن التي تواجد "يوسف" فيها، وترتبط بأضرحة يهودية أو باليهود في العراق ودمشق وفلسطين والمغرب، والثانية كانت جميعها في مصر، وتحديدًا في سيناء..

مط كلمته الأخيرة، ليحصل على مزيد من انتباه "مروان" الذي كاد يقفز من

مكانه، وهو يستمع إلى خاله الذي قال:

- هو كان يسير على خط خروج بني إسرائيل من مصر، فتوقف عند

معبد حتحور أو سراييط الخادم في سيناء، ومر على دير سانت

كاترين وتحديدًا في الجبل المقدس، وتوقف بجوار عيون موسى..

صمت الدكتور "شوكت" منتظراً رد فعل "مروان" الذي اتسعت عيناه من

الدهشة، ولم يعلق بعد أن عرف أنه مازال هناك المزيد في جعبة خاله الذي أكمل:

- أما الرسومات التي تبدو كأنها خرائط، فهي خرائط حقيقية لا يعرف سرها غيره، وكل ما استطعت أن أتوصل إليه هو ربط كل رسم بالصورة..

لأول مرة يشعر "مروان" بالحيرة الشديدة، فقد كان يثق دائماً بقدرته على تخطي كل الصعوبات، وأن ذكائه الذي مكّنه من الترقّي بسرعة في عمله، كان حاضراً في أصعب المواقف، ولكنه يشعر في هذه اللحظة كأنه تلميذ صغير يقف أمام معلمه.

عاد خاله إلى الشرح من جديد:

- ببساطة شديدة كل رسم من تلك الرسوم يمثل كروكي للمدينة التي يقع فيها الضريح الذي زاره.. أما العلامات الموجودة فهي بكل تأكيد تعني شيئاً ما لا يمكن لأحد أن يحل شفرته سوى "يوسف" نفسه..

قام "شوكت" متثاقلاً، وقال لـ "مروان" بنبرة مرحة:

- أما الآن فحان وقت الست والدتك التي تكاد أن تنفجر في وجهينا.. سأذهب لأجلس معها قليلاً لتتحدث عن حبيبك وزوجتك المستقبلية..

كاد "مروان" أن يقفز من مكانه، وهو يصيح:

- ماذا؟

ضحك "شوكت"، وقال له:

- أنت تعتقد نفسك أنك الضابط الوحيد في المنزل.. أمك تفوقت عليك.. أشار له على مجموعة من الأوراق المكتوبة بخط دقيق

وأنيق" .. أنا كتبت لك نبذة بسيطة عن كل مكان ذهب إليه
"يوسف" قد تفيدك في تحقيقاتك..
أغلق الباب خلفه، وترك "مروان" مشدوهاً.

حدث "مروان" نفسه أنه من الأفضل له أن يظل في غرفة المكتب، متعللاً
بمراجعة ما كتبه خاله على أن يواجه أمه. وضع أمامه الأوراق، وقسمها إلى
قسمين الأول وضع له عنوان "المزارات والأضرحة اليهودية في البلدان العربية"
والثاني "طريق الخروج".

كان خاله قد وضع كل صورة لـ "يوسف" مع ما كتبه عن موقع الزيارة..
أول ضريح كان "قبر النبي عزرا" أو العزيز الذي جاء ذكره في القرآن
الكريم، ويقع مرقده بالقرب من نهر دجلة بالعراق، قال عنه اليهود إنه كاتب
الشريعة ورائد بني إسرائيل في دعوة رجوعهم إلى مسقط رأسهم وبيت عهدهم
وقدس أقداسهم، والمقصود العودة إلى فلسطين بعد سبيهم في بابل.

واشتهر الضريح لديهم بأن من يقصده تلبية له حاجاته، وكانوا يزورونه
ويتقبلون أمام ضريحه حتى تلتصق بأجسادهم تربة ذلك الرجل الصالح،
ويدخل اليهود غرفة دفنه في عيد الأسابيع وهم حفاة ويوقدون له الشموع،
وكان بجانب الضريح غرفه مخصصة لإقامة الزوار الذين يقضون الوقت في
قراءة التوراة.

ورغم تأكيد اليهود على أن القبر لصاحبه "النبي عزرا" إلا أن المؤرخين
اختلفوا على حقيقة موضع دفنه، فذكر المؤرخ ياقوت الحموي في كتابه "معجم
البلدان" عن "عزرا" أنه مدفون في "نابلس"، وذكر أيضاً أن له موضعاً للدفن في

"ميسان" ووصفها في كتابه: "إنها اسم كوره واسعة القرى والنخيل بين البصرة وأواسط قصبتها، وفي هذه الكوره قرية فيها قبر "عزرا" النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، مشهور، معمر، ويقوم بخدمته اليهود، ولهم عليه وقوف وتأتيه النذور وأنا رأيته".

ويقصد "الحموي" الموقع الذي يظهر فيه "يوسف" في الصورة.. كانت تلك ملاحظة لحاله حددها بالقلم الأحمر، وتابع "مروان" القراءة..

"ويبدو أن موضع القبر قد تعرض للهدم، واختفت معالمه في فترة زمنية، حتى ظهر أحد الرعاة اليهود في القرن الثامن عشر تقريباً، وكان ضريباً، فادعى أن صاحب القبر قد زاره في المنام، وطلب منه إحياء القبر وإعادة بنائه من جديد، ولم يصدق الناس في البداية روايته، حتى أشاع أن النبي "عزرا" شفى عينيه بفضل كراماته وزيارته له في المنام.

ودعا الراعي أهل القرية، وروى لهم قصته، وأشار لهم على موقع القبر، فحفروا الأرض ووجدوا صندوقاً من حديد محفوظاً داخل تابوت مختم، وعليه كتابات لم يتمكن من قراءتها أحد، حتى أرسلوا في طلب أحد حاخامات اليهود، فقرأ ما عليها، وكان اسم "عزرا" ونسبه وأسماء أجداده التي تعود إلى "هارون" عَلَيْهِ السَّلَامُ،

وجدد المقام "أحمد باشا" والي بغداد في عام 1904 وكسا القبة بالقيشاني الأزرق، وكان يقصده المسلمون واليهود للزيارة، وقاموا بوضع "نجمة داود" فوقه، وكتبوا على جدرانه العديد من آيات التوراة، حتى أن السفن المحملة بالركاب، كانت ترسو بجانبه للتبرك به وزيارته".

بعد انتهاء تلك الفقرة عاد القلم الأحمر للظهور، وكانت الكلمات التي كتبها، كأنها تنير الصفحة "دائماً ما يحرص اليهود على محاولة إيجاد آثار لهم، وفي ذلك القبر تحديداً كان اختياريهم للنبي "عزرا" لإقامة ذلك المقام له مع نشر الأساطير المحيطة به، لاستجلاب عطف ورعاية المسلمين، فهم يدركون جيداً مدى ورع المسلمين وتعلقهم بالأنبياء، وخصوصاً أن "عزرا" أو "العزير" ذكر في القرآن الكريم قصته التي مات فيها مائة عام ثم أحياه الله من جديد..

وبالطبع هم كانوا بارعين في مسألة ابتكار الأضرحة، وادعاء أنها تضم أجساد الأنبياء والصالحين، وكانوا دائماً ما يحتاطون بذلك، فيدعون أن النبي أو الولي، قد زار أحدهم في المنام، وطلب منه إقامة ضريح له، وهو ما يعرف "بمشاهد الرؤية" التي أخذها عنهم المسيحيون والمسلمون، وإن كان المسلمون توسعوا في إقامة تلك الأضرحة، خصوصاً مع سيطرة الدولة الفاطمية على مصر، والتي سعت لتأكيد أحقيتهم بالخلافة، بعد أن ادعوا أن نسبهم يعود إلى السيدة فاطمة الزهراء، وهي رواية مشكوك فيها بقوة وأجمع الكثير من المؤرخين على أنهم كانوا مدعين.

وظل التشكيك في نسبهم طوال فترة حكمهم، ولكنهم كانوا أبرع من أقام المئات من أضرحة الرؤية الوهمية لإثبات ورعهم وتقواهم أمام المصريين، الذين كانوا لا يكفون عن السخرية منهم، وأجد أن اليهود تأثروا بقوة بالحضارة المصرية القديمة التي عاشوا في ظلها مئات السنين، وعرفوا منهم إقامة الأضرحة والتبرك بالآلهة القديمة، وإن كانوا هم من طوّر الكثير من الأفكار المتعلقة ببناء الأضرحة، واستخدموها من أجل إيجاد حالة من الترابط بين شعبهم الذي تناثر في بقاع الأرض في عدة فترات تاريخية مختلفة.

كما أنهم وجدوا فيها وسيلة لتأكيد تواجدهم في البلدان المختلفة، وذريعة للتلاعب بالتاريخ على أنهم من مؤسسي تلك الدول، وبالتالي هم أصحاب حق في تلك الأراضي البعيدة يعودون إليها مهما طال الوقت، ولتذكر المقولة الشهيرة أن أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات وإن كان البعض يتجاوز تلك المقولة بأخرى تؤكد أن إسرائيل دولة بلا حدود".

حملق "مروان" في الأوراق التي أمامه متعجباً، فلم يكن يتصور أن تلك الصور لشاب يهودي، يمكن أن تحمل كل تلك التأويلات.. عاد إلى القراءة من جديد، فوجد صورة لـ"يوسف" يقف فيها مع مجموعة من الحاخامات، وخلفهم قبر يشبه المصطبة مغطى بقماش أخضر، ومعها واحدة من الرسوم التي تحدد مدينة "الموصل".

نحى الصورة جانباً ليقراً ما كتبه خاله عنها "القبر أو الضريح هو للنبي "ناحوم الألقوشي"، وهو أحد الأنبياء الأثني عشر الصغار، ولد وتوفي في مدينة ألقوش بالموصل شمال العراق، وقال بعض المؤرخين إنه ولد في فلسطين، وكان من ضمن السبايا الذين أسرههم "نبوخذ نصر". ويحتل ذلك النبي مكانة مهمة لدى اليهود في كل مكان على وجه الأرض، فهو الذي تنبأ بدمار "نينوى" عاصمة آشور، وترجع أهمية الرجل والقبر إلى أن زيارته كانت بمثابة الحج لديهم، وكان يقام لديه طقس ديني هام في كل سنة وتحديدًا في وقت من عيد الأسابيع.

ويبدأ الزوار بالتوافد على القبر، ويكتبون على جدرانها آيات من التوراة وتواريخ زيارة الأسر اليهودية المختلفة، ثم يقيمون حول القبر ويتلون الصلوات والتراتيل في جماعات باللغة العبرية، وهم يقومون بأداء حركات

رياضية إيقاعية بالوقوف على رؤوس أصابع القدمين مع الميل للأمام والخلف، ثم يخرجون بعد صلاة الصباح في موكب وهم يحملون معهم صندوقاً يرمزون به إلى تابوت العهد، ويغطونه بقماش ملون.

ويتقدم الموكب المتجه إلى الشمال مجموعة من الرجال يؤدون رقصات إيقاعية وبعضهم يحمل التوراة وآخرون يحملون الأسلحة، حتى يصلوا إلى منطقة تسمى "شويثا دكناوي" التي كان يقع فيها هيكل لإله قديم كان أهل ألقوش يعبدونه في الماضي يسمى "آيل نوس"، ثم يصعدون إلى جبل صغير، وهم يمثلون مشهد تلقي "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح الشريعة من الله على الجبل المقدس في سيناء.

ويتنشر بعضهم في سفح الجبل، وهم حاملون الأسلحة والتوراة دلالة على تهيئتهم للقتال والصراع ضد من سيمنعهم من العودة إلى الأراضي المقدسة، ويصعدون جميعاً على الجبل لتمثيل مشهد تلقي الألواح، ليتغير المشهد القديم فبدلاً من صعود "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده للجبل نيابة عن الشعب اليهودي، يصعد الحجاج كلهم.

عاد "مروان" ليتفحص صورة "يوسف" وهو يقف أمام الضريح، ويحمل في يده باحترام شديد لفافة، ويبدو أنه كان واحداً من المشاركين في طقوس الحج. تنهد "مروان"، وهو يشعر أن الزمن عاد به عشرات السنين إلى الخلف، وهو يتنقل مع "يوسف" في رحلاته الغامضة.

استأنف القراءة، وفي تلك المرة انتقل "يوسف" لدمشق، ووقف بجوار بئر قديم، وفي صورة أخرى يظهر من خلفه معبد يهودي فخم مبني من الحجر، ثم صورة أخرى، وهو يقف في وسط معبد شديد الفخامة، تتدلى من سقفه ثريات

ضخمة، وتتناثر في أرجائه الخزائن يعلوها الشمعدان اليهودي، وتزين الكتابات العبرية الجدران، ثم واحدة من مخطوطات "يوسف" أرفق بها خاله ورقة كتب عليها "معبد وبئر جوبر بدمشق".

كتب الدكتور "شوكت" بعدها عن المعبد، أنه يعد من أهم وأقدس المعابد لدى اليهود، ويعود تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد، حتى أن التقاليد التوراتية تقول عنه إنه أقدم معبد يهودي في العالم، وتتحدث التوراة عن أن النبي "إلياهو" أو "إلياس" اختبأ في مغارة كان بها جب صغير أو بئر ماء هرباً من الملكة "إيزابيل" التي كانت تطارده..

وكانت المغارة تقع في غابة، فسمي المكان "جب بر" ثم تطورت التسمية إلى "جوبر" وكان المعبد القديم كما وصفه الرحالة مُقاماً على ثلاثة عشر عموداً، ستة على اليمين وسبعة على اليسار، وفي أقصاه مغارة النبي "إلياهو"، وله باب واحد للدخول.

ويضم المعبد نسخاً نادرة للتوراة محفوظة داخل صناديق من الفضة، ونسخاً نادرة من الإنجيل، ويهبط إليه بحوالي عشرين درجة، وحسب ما يعتقد فيه اليهود كانت العائلات اليهودية تأتي إليه من كل مكان مساء كل سبت ويبيتون فيه، لأنهم كانوا يصدقون أن به بركة تطيل العمر.

وذكر ابن كثير في تاريخه، أن "إلياس" عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل إلى أهل بعلبك غربي دمشق، حيث كان أهلها يعبدون صنماً يدعي "بعلا" كما هو مذكور في القرآن الكريم، فبعد وفاة "سليمان" عَلَيْهِ السَّلَامُ، وانقسام مملكته بسبب الخلاف على السلطة، سمح أحد ملوكهم وهو "أخاب" لزوجته أن تنشر عبادة قومها في بني

إسرائيل، وكانوا يعبدون الأوثان وعلى رأسهم "بعل" فأرسل الله إليهم "إلياس" عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أزاح "مروان" الأوراق جانباً بعد أن شعر بالإرهاق الشديد من كثرة المعلومات التي كتبها خاله، وشعر برغبة شديدة في سماع صوت "مريم"، وأمسك بهاتفه وطلبها. ردت عليه بمرح كعادتها، فقال لها:

- كل ما أتمناه في هذا العالم أن أراك الآن..

ضحكت وقالت له:

- ألا تمتلك ساعة تقول لك إن الوقت تجاوز منتصف الليل..

تنفس "مروان" بعمق وقال بجدية شديدة:

- لا أريد أن أمضي يوماً واحداً بعيداً عنك في الأيام المقبلة.

كان رد "مريم" عليه ضحكة طويلة، قالت له بعدها:

- وهل أنا السبب؟

لمح "مروان" في صوتها لمحة عتاب فهم معناها على الفور، فقال:

- لا طبعاً أنا أعرف جيداً أنني المسئول عن تأخر زواجنا.. ولكن

المشكلة أن القضية التي أعمل عليها لا تترك لي دقيقة فراغ واحدة..

لم يتركها تعقب على ما قاله وأضاف بسرعة:

- لقد قاربت على الانتهاء منها لتتزوج في أقرب وقت ممكن..

صمت للحظات وقال لها:

- ولكن هناك موضوع مهم أرغب أن أتحدث معك فيه..

سألته بلهفة بعد أن داخلها القلق:

- ماهو؟

- أُمِّي.. أنت تعرفين أنني ابنها الوحيد.. وهي لا تحتمل أن أبتعد عنها.. فهل تمانعين في إقامتها معنا؟

وأكمل بسرعة:

- وأتعهد لك أنها لن تتدخل في حياتنا أبداً.. وسيكون لها مكان خاص بها في المنزل.. ولن تشعري بوجودها على الإطلاق..

شعر بدقات قلبه تزداد، وهو ينتظر ردها..

- صراحة كلامك غريب جداً. ألا تعرف أنني فقدت أُمِّي وعمري عشر سنوات.. وأنا من كنت سأطلب منك أن تقيم معنا..

لم يتمالك نفسه من الفرحه، وهو يقول لها إنها الوحيدة التي سيظل يحبها ما تبقى من عمره. ردت عليه:

- أتمنى أن تتذكر تلك الكلمات ما تبقى من عمرك..

ضحك وهو يقول لها:

- وعد لن أخلفه أبداً..

تمنى لها ليلة طيبة، وأنهى مكالمته معها، وهو لا يكاد يسيطر على وجهه الذي احتلته ابتسامة عريضة، جعلته لا يتنبه إلى أمه التي فتحت الباب، ونظرت إليه متعجبة، وهي تقول:

- ياه هل ما كتبه خالك يجعلك تبسم بهذه الشكل؟

تنبه بسرعة، وقام إليها ليحتضنها ويقبل رأسها، وقال لها:

- لا.. أنا ابتسمت فقط عندما رأيتك..

ضحكت أمه من قلبها، وقالت له:

- المهـم أنك تبـتسم، هـذا هو كل ما أتمناه من الدنيا.. والآن أترك ما في يدك وتعال لتتناول معنا العشاء.
وافقها وخرج خلفها وهو يكاد يقفز من السعادة.

لاحظ "مروان" أن هناك مؤامرة تدار بالعيون ما بين خاله وأمه. قرر أن يتجاهلها حتى لا يورطاه في الحديث عن "مريم"، ولجأ إلى جذب انتباه خاله بالحديث عن الصور الفوتوغرافية، وعلى الفور استفاض الدكتور "شوكت" في تحليل شخصية "يوسف"، ومعرفته للكثير عنها من خلال تتبع رحلاته الدينية لزيارة الأضرحة اليهودية.

صمت الدكتور "شوكت" للحظات، ثم قال:

- أكثر ما يثير حيرتي ليست رحلاته وحدها، فقد تكون منطقية لرجل يهودي متدين، ولكن اكتشافني للربط ما بين تواجده في تلك الأماكن المقدسة لديه، ورسمه لخرائط كروكية للمدن التي زارها، ووضعها علامات عليها.. وهذا يشير بكل تأكيد إلى سر خلف تلك العلامات الغامضة.. كأنه يشير إلى وجود شيء ما في تلك النقاط الغربية التي وضعها، ليسترشدها على وجوده، ثم إنني عندما قارنت ما بين تلك النقاط وأماكن الأضرحة على خريطة المدن، وجدت أنها تقع قريباً من أماكن تلك المراقدة أو على الأقل في محيطها..

توقف "مروان" عن تناول الطعام، وهو يستمع إلى الجزء الأخير من حديث خاله، وفكر أن ما يوجد أسفل تلك العلامات على الخرائط.. هو ما كان يبحث عنه القاتل ومن أرسله و"أديرا" قرييته.

أنهى طعامه بسرعة واستأذن منهما، متعللاً برغبته في الانتهاء من قراءة الأوراق.

نظر مجدداً إلى العلامات الغامضة، وتمني أن تنطق لتفك شفرتها الكامنة فيها، وتأمل صورة "يوسف" وهو يجلس على درجات سلم حجرية، ومن خلفه يبدو مسجد مستطيل الشكل، ويحيط بالمبنى جدران ضخمة بنيت من حجارة مصقولة كبيرة، ويرتفع فوق المبنى مآذنتان.

كانت ترسم على وجه "يوسف" ابتسامة هادئة، وعلى قسماط وجهه لمحة من السعادة، حفظتها الصورة بوضوح شديد، أزاح "مروان" الصورة جانباً، ل يبدو الرسم القديم بعلاماته المتناثرة، وإن كانت أكثر من غيرها في باقي الرسوم الأخرى.

قبل أن تزداد حيرته. ظهر خط خاله الدقيق على ورقة خلف الخريطة، كتب أعلاها "مدينة الخليل"، والعلامات تنتشر بالقرب مما نعرفه "بالمسجد الإبراهيمي"، وما يطلق عليه اليهود "الحرم الإبراهيمي" وفي محيطه، وتنتشر العلامات حتى أطراف المدينة.

قلب الأوراق ليقراً بالتفصيل..

"تعد مدينة الخليل عند اليهود، مدينة مقدسة بكل المعايير، حتى أن كثيراً من الحاخامات يعتبرونها أكثر قدسية وأهمية من مدينة القدس نفسها، فتاريخ بني

إسرائيل بدأ فيها، ويعتبر المسجد الإبراهيمي أقدم موقع يهودي مقدس في العالم".

ويقصده اليهود للحج إليه من كل أنحاء العالم منذ القدم، وذلك لاعتقادهم بأن كلاً من نبي الله "إبراهيم" وهو الأب الأكبر للسلالة العبرانية، والأب الروحي للشعب اليهودي وزوجته "سارة" وولدها "إسحق"، ونبي الله "يعقوب" وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه الأسباط الاثنا عشر، ورفقة وليثة، قد دفنوا في مغارة أسفل المسجد الإبراهيمي، وهم آباء الشعب اليهودي.

وتوجد أيضاً بعض الروايات التي تؤكد أن أنبياء الله "آدم وسام ونوح ويوسف" مدفونون فيها أيضاً، وقد ذكرت المغارة التي قيل إنهم مدفونين فيها في سفر التكوين في عدة مواضع، فقد ورد ذكر دفنهم في سفر الإصحاح.

وتذكر بعض المصادر أن المكان الذي يحوي المغارة، كان موجوداً من عهد النبي "إبراهيم" الذي ولد في زمن "الملك النمرود"، وحدده التلمود البابلي بعام 1813 ق- م، وبحسب ما جاء في التوراة أن هذا المكان كان حقلاً صغيراً مزروعاً بالأشجار، وفي طرفه مغارة تسمى "المكفيلة"، وكانت مملوكة لرجل يسمى "عفرون بن صوحر الحثي".

ولما توفيت السيدة "سارة" زوجة "إبراهيم" عن عمر بلغ 127 عاماً، اشترى النبي الحقل والمغارة من "عفرون" ليدفنها فيها، ودفع له 400 شئقل من الفضة، وبعدما توفي النبي "إبراهيم" عن عمر بلغ 175 عاماً، دفن بالمغارة بجوار زوجته، وتولى ولده "إسماعيل" و"إسحق" دفنه، ثم توفيت بعد ذلك "رفقة" زوجة النبي "إسحاق" ووالدة النبي "يعقوب"، فقام "إسحق" بدفنها في المغارة بجوار قبر "سارة".

وبعد وفاة النبي "إسحق"، قام ابنه "يعقوب وعيسو" بدفنه في المغارة بحذاء قبر "إبراهيم"، ثم ماتت "ليئة" زوجة النبي "يعقوب" فدفنت في المغارة، وعندما توفي نبي الله "يعقوب" في مصر التي ذهب إليها ليلتقي ابنه يوسف. كان عمره 147 عاماً، وحنط أطباء مصر جثمانه ليُدفن في الخليل، كما أوصي قبل وفاته، وحمله "يوسف" وإخوته في موكب عظيم، ثم قاموا بدفنه في المغارة.

عاد "مروان" ليتفحص قسماً وجه "يوسف" الهادئة والمبتسمة، ليبدو واضحاً أمامه سر سعادته البادية عليه، فهو يجلس على أعتاب المغارة المقدسة التي تضم جسد نبي الله "إبراهيم" وأنبياء بني إسرائيل.

اكتشف "مروان" أنه في زمن التقاط الصورة، لم يكن المكان سوى مسجد ضخم يسيطر عليه المسلمون منذ الفتح الإسلامي لفلسطين، وتحول لكنيسة في زمن الصليبيين، ليعود مسجداً بعد أن حرر صلاح الدين الأيوبي فلسطين من بين أيديهم.

أما الحدث الضخم الذي أكد على مكانة المسجد والمغارة من أسفله، فقد وقع يوم 7 يوليو عام 1119، عندما تم بالصدفة اكتشاف المغارة التي تضم رفات الأنبياء أسفل المسجد، عن طريق فتحة قرب مقام "إسحق" فقاموا بفتح المغارة واكتشفوا رفات "يعقوب" وفي مغارة أخرى فرعية عثروا على رفات "إبراهيم" و"إسحق".

وذكر راهب مدينة الخليل في ذلك الوقت نقلاً عن اثنين من رجال الدين المسيحي اللذين شاركا في عملية الاكتشاف، أنه بعد فتح المغارة تم حمل الرفات والطواف بها في شوارع الخليل، ثم العودة بها للمغارة، ووضعها على طاولة من خشب ليتم إغلاق المغارة بعد ذلك.

تنهد "مروان" وهو يشعر بالدوار من التنقل ما بين فترات التاريخ، ولم يتبق أمامه في المجموعة التي صنفها خاله على أنها رحلات "يوسف" للحج، وزيارة مراقد الصالحين، إلا صورة له بجوار جدار به ثقبان غائران، يضع قبضة يده في ثقب منهما، ويبدو على وجهه الخشوع والهدوء، وفي صورة أخرى، يقف مبتسماً في وسط مجموعة من رجال الدين اليهودي، وعلى طرف الصورة يقف رجل دين إسلامي، ومن خلفهما يبدو مبنى أبيض اللون به ثلاث فتحات، ومن خلفه جبال، وتظهر الصحراء بوضوح من حوله.

وجد ملاحظة للدكتور شوكت تفيد بأن الخريطة لمدينة "تاكموت في إقليم طاطا" بالمغرب، أما المقام فهو "للنبي دانيال" وبالتحديد لواحد من أضرحته العديدة التي توجد له بالمغرب، حيث يوجد بها ضريحان، ولصاحب المقام مكانة عظيمة لدى اليهود والمسلمين الذين يعتبرونه واحداً من الأنبياء غير المرسلين.

أما لدى اليهود فهو قد عاش في زمن "نبوخذ نصر" الملك البابلي، ولصاحب المقام بركات وكرامات خارقة، فهو لديهم، قاهر الجفاف وجالب المطر، وتقول الأسطورة، أن سكان "طاطا" حل بهم الجفاف الذي كاد يهلكهم ويقضي على كل مظاهر الحياة، فأرسلوا وفداً إلى العراق بحثاً عن النبي "دانيال" الذي ذاعت أحوال كراماته، وجلبوه معهم ودعا ربه بأن يغيثهم من الجفاف، واستجاب الله لدعوته لدرجة أن المطر زاد على حاجة السكان، وشكل تهديداً لحياتهم وصمود منازلهم البسيطة، فطلبوا منه أن يدعو الله ليخفف عنهم المطر، فدعا واستجاب له، فعاش بينهم، وعندما توفي أقاموا له ضريحاً له طاقة في سقفه يبلغ قطرها خمسة عشر سنتيمتراً، وعندما يتأخر المطر، يفتحون الطاقة فتنفذ

الشمس لتلقي بضوئها على القبر المغطى بقماش أخضر، ويبلغ طوله ستة أمتار، فتظهر السحب في السماء وبعدها بأيام قليلة يهطل المطر غزيراً، وعندما يكتفي السكان يسارعون بإغلاق الطاقة في سقف الضريح.

ولا تقتصر كرامات صاحب المقام على جلب الأمطار فقط، بل هو يقدم خدماته لأهل النية الصافية وحدهم، فبالقرب من القبر المغطى بثوب أخضر ثقبان غائران على الجدار، يلجأ إليهما من يعاني من مرض خطير أو مستعصٍ، فيقوم بإدخال قبضة يده في ذلك الثقب لوقت معين، فيمنّ عليه صاحب المقام بالشفاء، الشرط الوحيد لذلك أن يكون المريض مؤمناً إيماناً خالصاً ببركات صاحب المقام، أما الساخرون والمجربون من أجل اللهو فلا ينالون الشفاء وتحجب عنهم بركات صاحب المقام.

هز "مروان" رأسه محمداً في صورة "يوسف"، وهو يدس يده في الثقب، وأدرك مغزى تصرفه الغريب، الذي شرّحه له الدكتور "شوكت" باستفاضة. أغلق "مروان" ملف صور الزيارات للأضرحة والمقامات، وفتح الملف الثاني الذي وضع فيه خاله رحلة "يوسف" في سيناء التي تتبع فيها مسار خروج بني إسرائيل من مصر مع نبي الله "موسي".

قبل أن يبدأ في القراءة، شعر بالإرهاق الشديد وبرغبة ملحّة في النوم. عاد وأغلق الملف متتوياً أن يعود إليه في الصباح.

لم يغير عوض عاداته أبداً، ومنها تناول كوب من القهوة المرة في الصباح، وفي مكانه المعتاد بغرفة المعيشة، لم يكن يسمح لأحد بإزعاجه، وفي ذلك الصباح اقتحمت عليه "داليا" خلوته، وجلست بجانبه كعادتها عندما ترغب في أمر ما،

نظر ناحيتها وتجاهلها وعاد للاستمتاع بقهوته، فهمت هي أنه لا يرغب في الحديث معها، ولكنها لم تراجع عن هدفها، وقالت له:

- ماذا قررت بالنسبة لـ"إيمي"؟

نظر إليها مدهوشاً:

- إيمي!

تنهدت بملل، وعادت لتذكره بها، فهي صيد سهل، وترغب بشدة في الثراء وارتداء الملابس الأنيقة، والخروج من العيش على حافة الفقر، وضحكت بسخرية:

- والأهم لديها هو مساعدة والدها في تعليم شقيقها الصغير..

خصوصاً أن أمامه شهوراً قليلة ويصبح من أرباب المعاشات..

- هل تحدثت معها عن نوعية العمل التي ستقوم به؟

- لا طبعاً.. هي غاوية فن وتمثيل ولا مانع من الغناء أيضاً.. ولديها

قناعة كاملة بأن جمالها سيكون الجسر الذي ستسير عليه لتصل إلى

المال والشهرة.. طبعاً مع الاحتفاظ بشرفها وعفتها..

أعقبت كلمتها الأخيرة بضحكة مجلجلة، جعلت "عوض" يتفحصها

بهدوء.

أنهى قهوته، وهو يفكر في أن ابنته ترغب في القضاء على صديقتها، لسبب ما

لا يعرفه، ونظر إليها مطولاً، وقال وهو يستعد للانصراف:

- سأرتب الأمر وسأبلغك اليوم..

تمتط "داليا" في جلستها فوق المقعد البالي ذي المسندين، وابتسمت ابتسامة

ذات مغزى، فهي تعرف جيداً أن "عوض" لا يمكن أن يقاوم فكرة اصطلياد فتاة

بمواصفات "إيمي" لتصبح جزءاً من شبكته المتناثرة في أنحاء العالم.

قرر "عوض" أن ينهي مسألة "إيمي" على الفور، ولكن بعيداً عن عيون "داليا" الفضولية، فهي الوحيدة التي تثير خوفه وقلقه، ويدرك أن بداخلها تكمن طاقة هائلة من الكراهية، كان بإمكانه أن يشعر بها بسهولة، وفي نفس الوقت يبدو عاجزاً أمامها، فرغم كل ما كان بمقدوره أن يقوم به ناحية البشر بقلب جامد، إلا أنه لا يقوى على إيذاء ابنته التي يتوقع أنها ستكون سبباً لنهايته على نحو مأساوي.

قاد سيارته في شوارع القاهرة المزدهمة، نظر في ساعته ليعرف الوقت، فوجده مازال مبكراً على موعد استيقاظ "جمال"، ولم يكن ذلك عائقاً أمامه، فهو يرغب بالتحدث معه في عدة أمور مهمة، أقلها موضوع "إيمي".

طلب نمرته، فجاء صوت شريكه غارقاً في النوم، ووعدته بلقائه في المحل بعد ساعة، وبلهجة أمرة أنهى "عوض" المكالمة:
- في انتظارك..

ألقي "جمال" الموبايل بجانبه غاضباً، فهو يكره تلك اللهجة الأمرة في صوت "عوض". أزاح الغطاء جانباً وقام ليرتدي ملابسه، وتملكه شعور بالضيق أن يبدأ يومه على مكالمة من شريكه.

فتح باب الجاليري ليجد "عوض" جالساً في مكانه المعتاد، طلب فنجاناً من القهوة لتساعده على الاستيقاظ. انتظره شريكه حتى أنهى قهوته، وسأله عن شركة "هديل"، فنظر إليه "جمال" متعجباً وهو يقول:

- مش ممكن يكون هذا هو السبب الذي جعلك تنتزعني من الفراش في هذا الوقت..

- لا..

جاء رد "عوض" قاطعاً، وحكى له عن "إيمي" صديقة ابنته التي يفضل أن تكون واحدة من الممثلات الناشئات اللاتي سيعملن في أفلام ومسلسلات "هديل" وسترسلها بكل تأكيد إلى "شاهينار" لتتولى إعدادها..

صمت قليلاً، ثم عاد ليكمل:

- "داليا" تقول عنها إنها جميلة ومن عائلة محترمة.. يعني لن تحتاج لجهود كبير.. المهم أنك تتسلمها لتبدأ في العمل على الفور..

تثائب "جمال":

.. والموضوع الثاني.. طبعاً هو الأهم..

أشعل "عوض" سيجارة ونفث دخانها بهدوء قائلاً:

- كلمني بالأمس "قاسم بيه الدندراوي"..

نطق اسمه وهو ينظر في عين جمال مباشرة، فقال:

- أه عضو مجلس الشعب، بتاع الصعيد..

وافقه عوض:

- ولا تنس أنه من أكبر عائلات الصعيد.. ويمكن أن نقول إنه ملك

تجارة السلاح في الوجه القبلي كله..

- وماذا يريد، ليس لنا علاقة بتجارة السلاح..

قالها "جمال" بملل واضح.

- المسألة ليس لها علاقة بالسلاح، ولكن هذه المرة بمقبرة قديمة

لملك مصري.. لم يقترب منها أحد منذ ثلاثة آلاف عام..

نجح "عوض" في أن يستحوذ على اهتمام "جمال" بالكامل، فأردف:

- المهم أنه عندما حدثني أشار إلى أن "هادي" يرسل لي بتحياته.. وعندما التقيته فهمت منه أن موقع المقبرة تم تحديده بالتقريب عن طريق بعثة أثرية.. كانت تعمل بالمنطقة وباعت المعلومات لأحد مجموعات "روبرتو اسبرجان" ..

نطق اسمه همسا، مما جعل "جمال" يتلفت حوله.. عاد عوض ليكمل:

- وكلف "روبرتو" "هادي" بإيجاد الرجل المناسب في الصعيد.. ليوفر الحماية أثناء فتح المقبرة.. ويتولى إيصال "اللقية" إلى "هادي" .. وبدوره سيتولى إخراجها من مصر بالطريقة المعتادة عن طريق البحر..

- وما هو دورك؟

- سأقوم بإيجاد مدخل المقبرة وتحديد وقت دخولها.. وهذا سيتطلب مني أن أدخل في خلوة لمدة خمسة عشر يوماً.. فالمسألة تحتاج إلى ملكات وخدام وعبيد..

نظر إليه "جمال" مبهوراً، وسأل متلعثماً:

- أين هي المشكلة.. هذا هو ملعبك الحقيقي؟

بدأ الضيق على وجه "عوض":

- فعلاً.. ولكن المشكلة أنني لم أقم بعملية كبيرة منذ سنوات.. وهناك استعدادات كثيرة لابد أن أقوم بها.. وأولها أن أعود للخلوة في "بيت ودنان" في الصعيد.. والمغلق منذ سنوات على مكانه.. فهو قد باعه لي، بعد أن أشاع في القرية أنني من أقاربه.. وبعد وفاته أغلقتة بناء على العهد.. ولا يمكن لأحد أن يدخله سواي..

نظر إليه "جمال" مطولاً وقال وكأنه يحدث نفسه:

- الأمر الغريب الذي لا أفهمه لماذا يورط أبناء الذوات أنفسهم في مثل هذه الأعمال؟.. ف"قاسم بيه" عائلته من أغنى عائلات الصعيد.. وهو شخصياً يمتلك ثروة هائلة ورثها عن والده من ضمنها مئات الأفدنة وملايين الجنيهات.. وأصل وفصل وحسب ونسب.. لماذا لا يتركون مثل هذه الأعمال لأمثالنا من الذين تربوا في الفقر والعوز.. وأهم واحد في عائلتنا يعمل فراشاً في مصلحة حكومية..

ابتسم "عوض" واكتسى وجهه بملامح الرجل الحكيم، الذي يمتلك من المعرفة ما يؤهله لحكم العالم:

- هل تعرف شيئاً عن النهر؟

هز "جمال" رأسه بالنفي، وقال:

- يا عوض بلاش أَلغاز.. اتكلم على طول..

- الناس دي تشبه النهر.. المية فيه لازم تجري.. وحتى النهر لو مش محتاج المية.. ممكن يرميها في البحر.. بس المية لازم تجري لأنها جاية من المنبع.. هما مش يقولوا البحر يبحب الزيادة.. يعني رغم كل المية اللي فيه.. بس ما فيش مانع أنه ياخذ ميه من أي حته.. حتى لو كان النهر..

يابني.. الناس دي مش بتشتغل علشان الفلوس.. لأنهم عندهم منها كثير قوي.. هما بيشغلوا علشان الشغل خد وهات.. ولازم الدائرة تكون مقفولة عليهم.. والناس دي مش بتظمن إلا لبعض.. وبعدين ياعبيط مين إالي يقدر

ينقل الحاجات دي من أول مصر لآخرها إلا البهوات إلی زي "قاسم" بيه..
المهم أنا هسافر بعد يومين ومش فاضي خالص رتب مقابلة "إيمي" مع
"هايدي"، وما تنساش مش هعرف أكلمك طول ما أنا في الخلوه..

- 9 -

النصــــــــــــــــوص

شعر "عمر" بصداع حاد يحتل مؤخرة رأسه، وبتقلصات في معدته أصابته بغثيان، جعله يتنفس بصعوبة شديدة. غادر غرفته التي يفضل أن يقضى فيها فترات طويلة، هرباً من تحفز والدته التي تبدو طوال الوقت، وكأنها تنتشب مخالبها في رقبة "كلارا"، والأخيرة كانت تقضي معظم وقتها مع طفلها، وربما استشعرت نظرات الإدانة التي تلاحقها من حماها.

كان يخشى لحظة المواجهة بينهما، عندما تستعد "كلارا" للسفر بصحبة ولديها. كان يعلم جيداً أن أمه لن تسمح لها بذلك. ولم يعرف إلى أيهما سينحاز، فقد بقى يومان على ذهاب "فاطمة" و"علي" إلى المدرسة.

في ذلك الصباح خرج من غرفته وألقى عليهم التحية. ولح ومضة انتصار في عيني أمه المتحفزة، وهي تتعمد أن تلقي إليه الخبر في هدوء:

- أرجو أن تتفرغ غدا للذهاب مع "كلارا" إلى المدرسة.. وتنتهي معها إجراءات دخول "فاطمة" و"علي" ..

لم يتمالك "عمر" نفسه من المفاجأة، ونظر إلى "كلارا" مستفهماً، وقد بدا على وجهها هدوء غريب، وتشاغل بتجفيف يديها قالت له:

- سأسافر الأسبوع المقبل وسأترك الطفلين معكم.. حتى يستقروا نفسياً.. وسأعود إليهما مرة كل شهر.. وأقضي معكم أسبوعاً..

رأى نظرة الانتصار تطل من عيني أمه، وهى ترمق "كلارا" بتحدٍ ظاهر، فلم يجد ما يعلق به، وتشاغل بصنع كوب من النعناع، متعجباً مما يجري من حوله، وتناهى إليه صوت "كلارا"، وهى تستأذن والدته في الخروج مع الطفلين للتسوق.

خرج من المطبخ ليجد أمه تجلس في نفس مكانها، ووجهها يكتسى بألم لم تستطع إخفاءه. جلس بجانبها، فنظرت إليه مطولاً وهمست قائلة:

- كل يوم يزداد يقيني أن "كلارا" وراء موت شقيقك..

تنهد عمر وربت على ذراعها:

- من أين جاءك هذا الإحساس وماهى مصلحتها في قتله؟ وكيف

ستقتله وهى في بلدها؟

لم يفارق الوجوم محياها وهى تقول له:

- كل أسئلتك منطقية، ولكن "سالم" يزورني بانتظام.. وعندما

أحدثه عن شكوكي يستمر في النظر إليّ.. كأنه يوافقني..

شعر "عمر" في تلك اللحظة بخوف شديد على أمه، فهى بكل تأكيد لم تحتمل

صدمة وفاة "سالم"، وقد تكون سببت لها خللاً في عقلها. تذكر في تلك اللحظة

زيارة "مايا" الغريبة، ووجد نفسه مندفعاً ليحكي لأمه عنها.

أخذت أمه نفساً عميقاً، وكأنها تنهل من هذه اللحظة. أمسكت بذراعه

متوسلة له أن يأتى بها لتقابلها. حاول أن يرفض متعللاً بأنها غريبة عنهم، وقد

ترفض الحضور لمقابلتها. هبت واقفة، وقالت له بحزم:

- إن لم تحضرها سأبحث عنها فى الجامعة وأقابلها..

رمشت عينا "عمر"، ووقف معتدلاً للحظة، ثم انحنى على رأسها وقبلها،

وهو يعدها بأنه سينفذ طلبها.

صمتت أمه لثوان، ثم قالت له:

- اتفق معها أن تأتى لزيارتي في نفس يوم سفر "كلارا".. فأنا لا أريدها

أن تقابلها..

هز رأسه موافقاً وتركها ليذهب إلى عمله.

ارتدت "كلارا" ملابسها بعصبية شديدة، وخرجت من المنزل بصحبة طفلها. كانت تشعر أنها ستنفجر من الغيظ ومن حالة اللامبالاة التي كانت تدعيها أمام حماتها. راودتها الرغبة عدة مرات أن تنشب أظافرها في عنقها وتتركها جثة هامدة، وبدلاً من هذا، كانت في كل مرة تثير حنقها بنظراتها المليئة بالاتهام، تواجهها بابتسامة بلهاء علامة على عدم الفهم، وتنفذ حرفياً تعليمات والدها.

أمسكت بهاتفها. واتصلت بوالدها. حكّت له بعصبية شديدة عن كل ما حدث، وعن فشلها في إيجاد المستندات التي سرقها "سالم" من مكتبه، فقد قامت بتفتيش كل سنتيمتر في المنزل ولم تجد شيئاً، وأنها نفذت تعليماته من عدم إثارة خلافات مع حماتها، التي رفضت بوضوح كامل سفر الطفلين معها، وما أثار غيظها أكثر أنها طالبتها برود أن تظل بجوارهما ولا تعود إلى إيطاليا.

جاءها صوت والدها هادئاً، وهو يطلب منها أن تعود بمفردها، وأنه في الوقت المناسب سيأتي لها بالطفلين، وأن من الأفضل لها أن تظل على علاقة طيبة بعائلة زوجها في الفترة الحالية، حتى يتأكدوا من عدم وقوع المستندات في يد أحد.

أغلقت الهاتف، وألقت به في حقيبتها، وهي تفكر في المكان الذي أخفى فيه "سالم" المستندات.

لم يعد أمامها سوى أن تنتهز فرصة خروج حماتها من المنزل، لتقوم بتفتيشه، فقد يكون قد خبأها لديها، ولكنها كانت متأكدة تماماً أن أحداً لم يعثر عليها حتى الآن.



استيقظ "مروان" في موعده المعتاد. ارتدى ملابسه واستعد للذهاب إلى مكتبه. واكتشف أن خاله عاد لمزرعته. قبل استيقاظ والدته، وخرج من الشقة مسرعاً.

فور وصوله إلى مكتبه، طلب فنجان القهوة المعتاد، وكلم اللواء "عادل" طالباً لقاءه، ليطلع على آخر تطورات القضية.

جمع كل الأوراق المتعلقة بقضية "يوسف"، وذهب للقاء رئيسه الذي استقبله بترحاب، ولم يرغب "مروان" في إضاعة الوقت، وعرض عليه كل ما توصل إليه، بمعاونة الدكتور "شوكت"، ونجاح الأخير في إزاحة اللثام عن سر الخرائط الغامضة لـ "يوسف"، ورحلاته للمدن العربية، ولا يبقى أمامه سوى رحلاته لسيناء..

أصغى اللواء "عادل" باهتمام، وأوماً إليه أن يكمل:

- كانت تمر عبر رحلة خروج بنى إسرائيل، كما اتفق عليه معظم المؤرخين الذين حددوها بعلامات يمكن أن تكون صحيحة، وهي نفس المواقع التي حرص "يوسف" على زيارتها، والتقاط الصور بها، وهي "عيون موسى وسراييط الخادم والثالثة طور سيناء أو الجبل المقدس ..

شرح "مروان" له مواقع المزارات اليهودية في المدن العربية التي زارها "يوسف"، وتوقف أمام رحلاته في سيناء التي لم يتمكن من قراءتها بعد.

سأله اللواء "عادل":

- ما علاقة جريمة القتل على يد قاتل محترف أتى من الخارج خصيصاً للخلاص من "يوسف" بتلك الخرائط والصور؟

- هـى بالتأكيد ما كان يبحـث القاتل عنها، فهى تحتوى على سر حرص "يوسف" على إخفائه طوال السنين الماضية وقتل بسببها، وهى ما كانت تبحث عنه "أديرا" ابنة شقيقه..

شرد "مروان"، وهو يتفحص الصور، ثم قال:

- أكثر ما يقلقنى الآن هو لماذا ظل القاتل مقيماً في مصر عشرة أيام تقريباً حتى اختفى في الغردقة؟.. وماذا فعل في تلك الأيام؟.. أعتقد أننا عندما ننجح في الإجابة على هذا السؤال ستمكن من حل القضية كلها..

انتصب "مروان" في جلسته، وأضاف:

- نحن الآن نبحث في كيفية خروج القاتل.. بعد أن تأكدنا أنه لم يغادر عن طريق مطار الغردقة.. ولم يعد هناك سوى احتمال واحد أنه تم التقاطه من عرض البحر.. وهذا معناه أنه تلقى مساعدة في الغردقة.. والآن نحن نفحص كل المراكب واليخوت التي خرجت للبحر منذ وصوله إلى هناك.. بعد أن تأكدنا من عدم وجوده في المدينة كلها.. أشعر أن تلك القضية ستكشف لنا عن شبكة ضخمة تعمل في مصر..

هنا قال اللواء "عادل":

- لابد من التحري جيداً عن عائلة "يوسف" ومدى معرفتهم بسر أوراقه وخرائطه.. ربما يقودنا هذا إلى اكتشافات جديدة..

انتفض "مروان" واقفاً، وقال:

- بالضبط يافندم.. أعتقد أن "داود" شقيقه.. هو الوحيد الذي يمكن أن يمتلك تفسيراً عن ماضي "يوسف" وقصة زيارته التي وثقها

بخرائطه الغامضة.. وسأزوره قريباً.. والآن سأذهب إلى مكتبي
لأستكمل قراءة رحلاته في سيناء والأماكن التي توقف عندها..



لم يتمالك "مروان" نفسه من الابتسام، وهو يقلب في الأوراق التي رتبها
خاله بدقة شديدة، ونظر ملياً للصورة التي يقف فيها "يوسف"، ومن حوله
أشجار من النخيل وحشائش كثيفة، وعين من الماء أسفل قدميه.

كانت الصورة خلاصة تكاد تنطق بالحياة، حتى الاصفرار الذي شابهها بفعل
الزمن، أضفى عليها لمحة واقعية من مناخ الصحراء الذي يحيط بالمكان، وتعد
عين الماء التي يقف بجوارها واحدة من الاثنتي عشرة عيناً الشهيرة..

كانت العين واحدة من معجزات النبي "موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ"، وهو يصطحب
بنى إسرائيل في رحلة الخروج، فمروا بمنطقة قاحلة وجافة في سيناء، فاشتد بهم
العطش حتى كاد يهلكهم، فضرب موسى بعصاه الصخر، فتفجرت الاثنتا
عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل، ويمكن أن يكون موقع العيون، هو بداية
رحلة خروج بني إسرائيل التي امتدت داخل سيناء.

التقط "مروان" الصورة الثانية لـ "يوسف"، وهو يقف بجوار مجموعة من
التماثيل غريبة الشكل، وقد كتب خاله في أعلى الصفحة "سرايط الخادم" منطقة
تستحق أن تحظى بلقب أرض الأساطير والحكمة والفخر أيضاً، فالمنطقة تضم
عدداً من التماثيل المتناثرة، وبجوارها يقع أغرب معبد فرعوني على الإطلاق،
معبد "حتحور" سيدة الفيروز..

تقع المنطقة جنوب شرق مدينة "أبو زنيمة"، في منطقة تسمى "الرملة" على
بعد حوالي 80 كيلو تقريباً عن "رأس سدر".. المنطقة صخرية وشديدة الوعورة،
وتقع فوق هضبة؛ الصعود إليها عملية صعبة من جميع الجهات..

وسبب التسمية الغربية للمنطقة "سراييط الخادم" ترجع إلى أن كلمة سراييط هى جمع "سربوط"؛ التي تعني جزءاً صخرياً من الجبل مرتفعاً عن الأرض، وارتباطها بالخادم لوجود عدد من التماثيل بالقرب من الهيكل، منحوتة من الحجر الرملي، وتبدو في وقتها كالخدم المنتصبين وقوفاً من أجل تنفيذ أوامر مخدوميهم..

قصة ذلك المكان شديدة الغرابة، ارتبطت بكثير من فصول الحضارة الإنسانية، فقد كان المصريون القدماء أهل علم ومعرفة بأصول التنقيب عن المعادن واستخراجها من باطن الأرض، وكانوا ينقبون عن الذهب والنحاس والفيروز والأحجار الكريمة، ونجحوا في استخراجها من سيناء بكميات كبيرة..

ودعت الحاجة إلى إقامة معبد "حتحور" في تلك المنطقة، لتحمي ربة المعبد الأرض والمنقبين عن الثروات في باطنها، حتى أن الفرعون "رمسيس الثالث"، ذكر في إحدى البرديات التي تتحدث عن المعبد: "لقد أرسلت الضباط والرؤساء إلى بلاد أمى العزيزة "حتحور" سيده الفيروز، وأحضروا لي أعاجيب من ذلك الحجر الأزرق في حقائب عديدة، لن يحظى بمثلها ملك من بعدى" ..

وكان الفرعون الملك لا يتوج ولا يمسك الصولجان، إلا بعد أن يحج إلى ذلك المعبد، ويقدم الهدايا، وينحر القرابين تحت أقدام "حتحور" وصوبدو إله الصحراء الذى كان يقده البدو في سيناء.

رغم طرافة المعلومات، إلا أن "مروان" لم يجد بعد السبب الذى حدا بـ"يوسف"، أن يذهب إلى المعبد القديم الكائن في قلب الصحراء.. قرر أن يستمر

في القراءة لثقته أن التفصيلات التي جمعها خاله عن ذلك المعبد، لابد أن يكون لها علاقة برحلة "يوسف" الغربية.

" في عام 1905، عثر العالم الإنجليزي "بترى" أثناء عمله في معبد سربيط الخادم ومناجم مغارات الفيروز على 12 نقشاً، تضمنت علامات لم تكن معروفة من قبل، وتشبه العلامات الهيروغليفية، وتم نسبها لعهدى "تحتمس الثالث" و"حتشبسوت"، وتم بعدها العثور على نقوش أخرى ليصل عددها إلى 25 نقشاً، أطلق الباحثون عليها "الأبجدية السيناوية" التي تعد أصل الأبجدية الفينيقية واليونانية واللاتينية..

وجود تلك العلامات المكتوبة، خلقت أساطير ارتبطت بها، وبدأت تحديداً مع الإمبراطورة "هيلانة" التي كانت قد انفصلت بالطلاق عن زوجها الإمبراطور "قسطنطينوس" الذي تزوج بدلاً منها "تيودورا" الجميلة، وعندما مات زوجها، أصبح "قسطنطين الأكبر" بن "هيلانة" إمبراطوراً في عام 306م..

اعتنقت "هيلانة" المسيحية، وعانت من مقتل حفيدها، وانتابتها بعدها حالة من الحزن العميق، أصابتها بحالة نفسية، فنصحها المقربون منها بزيارة الأراضي المقدسة بفلسطين، وعندما وطأت قدمها موطن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أصابتها حالة من الهوس بالبحث في آثار الإنجيل والتوراة، والتقت بكهنة وأخبار قصوا عليها رحلة خروج "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ من مصر مع بني إسرائيل..

وذكر لها أحدهم أن المؤرخ "تيودور الصقلي" 10 ق-م أشار إلى أن هناك كتابات وعلامات على معبد فرعوني قديم في صحراء سيناء غير معروفة الأصل،

فظنت الإمبراطورة أن تلك الكتابات والنقوش رسمها أصحاب موسى أثناء رحلة الخروج..

لم يتوقف هوس الإمبراطورة الأم عند هذا الحد، بل تناقل الكثيرون من بعدها تلك المزاعم من رحالة ومكتشفين وحجاج، كان منهم الحاجة "أثريا" الأسبانية عام 400م، فزارت تلك الأماكن تقليداً لـ "هيلانة" التي حملت فيما بعد لقب القديسة..

ويعتقد بعض المؤرخين أن "سراييط الخادم" كانت واحدة من النقاط الثابتة في رحلة خروج "موسى" بقومه، ويذهب البعض إلى الربط بينها وبين ما جاء في القرآن الكريم من طلب بعض بني إسرائيل من "موسى"، أن يجعل لهم آلهة يتعبدون إليها مثل ما شاهدوا قوماً عاكفين على أصنام لهم، وأن ذلك الموقع كان "سراييط الخادم"، وأن بني إسرائيل توقفوا في تلك المنطقة أو بالقرب منها.

ويعد ذلك الموقع شديد الأهمية لدى اليهود، وهو ما دفع بقوات الاحتلال الإسرائيلي للتنقيب في المعبد، ونقل عدد من قطعه إليها أثناء فترة الاحتلال الإسرائيلي لسيناء، واستردت منها مصر عدة قطع فيما بعد".

وضع الدكتور "شوكت" خطأً طويلاً كتب بعدها كلمة "ملحوظة" مازال كثير من الأجانب قد يكون بينهم يهود من عدة جنسيات، يأتون إلى المعبد لزيارته والإقامة بجواره، ويقومون بتأجير منازل البدو لفترات طويلة، ولا يسمحون لهم بالاقتراب منهم، إلا في فترات متباعدة، بدون الإفصاح عن هويتهم تحت ستار عشقهم لرحلات سفاري الصحراء.

شعر "مروان" بأن الصورة تكاد تكون مكتملة، بعد اكتشافه لعلاقة "يوسف" بكل تلك الأماكن، فهو يتحرك شرقاً وغرباً ليس بدافع الورع الديني وحده، وإنما هناك سبب آخر كشفه زيارته لـ "سراييط الخادم".

طوى "مروان" هذه الصورة، بعد أن ألقى عليها نظرة أخيرة، وأمسك بصورة كان "يوسف" يضع فيها شال الطاليت على كتفيه، ويقف مبتهلاً، حافي القدمين في وادي تتناثر فيه الشجيرات، وبعض من أشجار النخيل الباسقة، وتلمع بين أحجاره خيوط من الماء المتدفق، ويبدو فيها الجبل قابلاً من بعيد، ناشراً ظله القوي على الوادي.

تأمل "مروان" الصورة الأخيرة. كان "يوسف" يجلس ضاماً ركبتيه بذراعيه داخل تجويف صخري، كجنين يتكور مرتاحاً في رحم أمه، وبجواره ما يبدو أنه كهف صخري، يقبع حجر ضخمة في منتصفه كعلامة متقاطعة تميزه عن غيره. عقد "مروان" ما بين حاجبيه. رن هاتفه فلم يعره انتباهاً. كان مشغولاً بتأمل الصور محاولاً قراءة ملامح "يوسف" التي كان يبدو عليها السكون والهدوء. أمسك بأوراق الدكتور "شوكت"؛ الذي استهل كتابته بعنوان "هام جداً" واضعاً تحتها عدداً من الخطوط "ما تراه أمامك في الصور يفصح عن قضية شديدة الخطورة، متعلقة بالموقع الحقيقي للوادي المقدس الذي تجلّى الله سبحانه وتعالى فيه على نبيه "موسى"، فمن المعروف لدينا أنه وادي طوى أو وادي الراحة، ولكن هناك رأي آخر يؤكد أن الوادي المقدس، هو وادي "أسلا" الذي كلم الله فيه نبيه..

وهو نفس الوادي الذي يقف فيه "يوسف" مبتهلاً ومصلياً، وهو عبارة عن شق بطول 47 كيلو متراً، يبدأ من مدينة "الطور" حتى "سانت كاترين" مخترقاً "جبل الطور".. الوادي من الداخل مثمر بالنباتات الطيبة والأشجار، ويتوافق مع القصة القرآنية التي تتحدث عن توقف موسى وأهله للتخييم في ذلك الوادي، والمرجح بأنه هو وادي "طوى" والمعروف لدى البدو بالمطلب..

وبالمناسبة موقع "أسلا" في اتجاه القبلة تماماً، لأنه يتماشى مع سلسلة جبال "الطور" التي تتجه للقبلة..

أريدك أن تنظر جيداً لصورة "يوسف" داخل ما يبدو أنه كهف صخري، يذهب البعض أن "الشجرة المقدسة" التي رآها موسى مشتعلة، فذهب يتفقد موقعها "عسى" أن يأتى منها بنار تدفئهم، كانت في نفس موقع الكهف الصخري الذى تقوقع بداخله "يوسف"..

ويطلق بدو سيناء عليالكهف "المطلب" الذى تجاب فيه المطالب، وهناك طقس مشهور يمارسونه في تلك المنطقة منذ مئات السنين ولا يعرفون أصله، فهم يبيتون فيه طلباً للحاجة والدعاء إلى الله..

الغريب في الأمر أن كثيراً من اليهود يأتون للاعتكاف، وزيارة وادى "أسلا"، رغم أن الوادي لم يوضع على خريطة المزارات السياحية، والأغرب من هذا أن هناك صخرتين على مدخل الوادي تحددان كهف "المطلب"، وعليهما علامات باللون الأصفر، وكتابات قد تكون باللغة النبطية أو الأبجدية السيناوية القديمة..

زيارة "يوسف" لتلك المواقع وتوقفه عندها، قد تكشف عن تأكد اليهود من المواقع الحقيقية التى تحرك فيها نبي الله "موسى"، وتلقى فيها رسالة الدين اليهودي من الله، وهو الأمر الذي يجتهد الكثير من علماء اليهود لإخفائه ومحاولة تزييفه، وادعائهم أن الجبل المقدس لم يكن في مصر، فتارة يدعون أنه في شمال المملكة السعودية مقابل سيناء قرب "جبل اللوز"..

ويعتمدون في ذلك على ما جاء في سفر الخروج، بأن جبل سيناء يقع في الأرض القديمة لمدين التي تقع الآن ضمن المملكة السعودية، ويشيرون إلى أن

الوادي المقدس "طوى" الذي تلقى فيه "موسى" الرسالة، موقعه في قرية "طوا" السعودية، التي تقع بالقرب من سفح جبل "هادي"، وتارة أخرى يدعون أنه في الأردن، ووصل بهم الأمر إلى القول أن بني إسرائيل، وقصة بعث "موسى" لم تكن في مصر، وإنما في اليمن.

لم يكن "مروان" قادراً على إخفاء دهشته مما كشفت عنه الصور القديمة، وإعجابه بالتحليل العميق لخاله الدكتور "شوكت" الذي أوضح:

- أما المقصود من محاولات علمائهم المضللين، هو نفى قدسية ومكانة مصر التي اختارها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليعطى على أرضها رسالته، وهو ما ينسف من الأصل قضية أحقيتهم في الأرض الموعودة "فلسطين" كما أن تشكيكهم في موقع تلقي "موسى" لرسالته، يشكك بما جاء جازماً في القرآن الكريم، الذى كشف حقيقة أكثرهم من المجادلين والمشككين والمرتدين والعاصين والمتمردين على أوامر الله دائماً وأبداً..

كما شرح "شوكت" بالتفصيل حركة بني إسرائيل منذ مغادرتهم مصر، وحتى وقوفهم على أبواب فلسطين، ورفضهم الدخول إليها، وحكم الله فيهم بفرض التيه عليهم لمدة أربعين عاماً، وهو الأمر الذى تنكره كتبهم، كما أن هناك بعض الطوائف اليهودية التي تعتبر أن إقامة دولة إسرائيل منافية لتعاليم تورا "موسى"، وتعنى النهاية القريبة المحققة لهم.

بعد أن طوى الصور والأوراق، فكر "مروان" فيما كتبه الدكتور "شوكت"، وقراءته للصور بعقل عالم بارع، يجمع منمنمات متناثرة، لتفاجأ العين بلوحة متكاملة..

تساؤلات كثيرة جالت في عقل "مروان"، كان يعلم أنه سيجد إجابات عليها عند "داود" الذي اعتزم زيارته.



تنهدت "كلارا" بارتياح، وهى تدلف إلى صالة السفر بمطار القاهرة. لوحت بيدها لـ"فاطمة" و"علي" اللذين كانا برفقة عمر. نظرت إليهما مطولاً، وكادت تبكي وهى تودعهما، وتذكرت ما طلبه منها والدها الذي تثق به تمام الثقة، فهى تعلم بأنه قادر على أن ينفذ وعوده بإحضارهما إلى إيطاليا.

لم تفارقها نظرات حماتها الباردة وهى تودعهما. كانت تجهل ما يدور في عقلها، ولكنها تأكدت من كراهيتها الشديدة لها، ودخولها معها في صراع خفي على الطفلين، ورغم أنها نفذت كل ما طلبته منها، وذهبت إلى المدرسة، إلا أنها استمرت في رمقها بنظرات مليئة بالكراهية، كادت تفقدها أعصابها، واعتبرت أن سفرها هدنة من أجل أن تلتقط أنفاسها، لتعود إليها مرة أخرى، أملاً في العثور على المستندات التي سرقها "سالم".

اكتسى وجه "علي" بحزن لم يستطع التغلب عليه، وهو يرتمي في أحضان جدته، دافئاً رأسه في صدرها، محاولاً إخفاء ضيقه على فراق أمه، بالحديث عن قرب عودتها، وسعادته بمدرسته الجديدة، بينما غرقت "فاطمة" في الصمت، والتقت نظراتها بجدتها التي سارعت بإحضارها، وهدأتها ووعدتها بالذهاب للملاهى.

ظل "عمر" يراقب المشهد، وتباينت مشاعره بين التألم لحال الطفلين، والتعجب من موقف أمه وإصرارها على الاحتفاظ بهما، والدهشة من استسلام

"كلارا" لرغبتها، وقبل أن يفيق من أفكاره، فاجأته أمه بالسؤال عن "مايا"، فردد اسمها عدة مرات، وكأنه يبحث في ذاكرته عن صاحبه..

- هي .. هي .. اتصل بها الآن ..

قالت أمه التي بدا عليها التحفز، حتى أن قسّمت وجهها تغيرت في لحظة، وغارت عيناها فبرز شحوب وجهها. قلق "عمر" من التغير الذي طرأ على أمه، فسارع بالبحث عن رقم "مايا" واتصل بها.

كانت "مايا" تبحث عن مفتاح الشقة داخل حقيبة يدها المليئة بعشرات الأغراض، حين رن هاتفها. لم تستطع أن تجد مبرراً لبهجة المفاجأة التي غشت قلبها، عندما وجدت رقم "عمر". أبلغها وهو يختار كلماته بعناية أن أمه ترغب في مقابلتها إذا لم يكن لديها مانع. وافقت على الفور وحددت ميعاداً للقائهما في صباح اليوم التالي.

أغلقت "مايا" هاتفها، وانتابها مشاعر متضاربة. لامت نفسها على تورطها في قصة لا تعنيها، ثم اقتنعت بأنها لم يكن من الممكن أن تتغاضى عن ظهور "سالم" لها، والذي يعنى أمراً ما. كان لديها شعور قوي أن الأيام القادمة ستزيج الستار عن كثير من الأسرار.

قبل موعدها مع "عمر". توقفت "مايا" أكثر مما اعتادت أمام خزانة ملابسها. كادت تختار بلوزة بألوان زاهية، ثم تراجع بعد أن تذكرت بأنها ستلتقي بوالدة "سالم". زينت وجهها بمكياج خفيف أبرز جمال وجهها. ألقت بنظرة أخيرة على نفسها في المرآة المقابلة للباب، وابتسمت بعد أن شاهدت نتيجة اختياراتها.

وجدت "عمر" بانتظارها في سيارته، أمام المنصة على الأوتوستراد. أشارت له بيدها. كان الجو مشرقاً وساطعاً يكاد يكون براقاً، حتى ضجيج السيارات والزحام، اختفى في تلك اللحظة التي نظر إليها بحنان ميزته حواسها التي تخلت عن حذرهما أمامه.

اقترحت عليه أن تسير خلفه بسيارتها، وطوال الطريق ظلت تجتهد في تفسير معنى نظرتة لها، وهل كان يعنيها بتلك النظرة الخاصة أم هي طبيعته التي غلفها الحزن. شعرت بشيء من المبالغة في تفكيرها.

توقفت السيارتان، ونزل "عمر" مسرعاً، ليفتح باب سيارتها، ومد يده ليساعدها على الخروج. لمعت عيناها وشعرت أن وجهها يكاد يشتعل من الحرارة، تشاغلت بالنظر حولها لتغطي على ارتباكها، فبدأ المكان من حولها وكأنه المنطقة الوحيدة في العالم المفعمة بالسعادة. ولكنها لم تلاحظ نظرات الإعجاب التي رمقها بها "عمر".

فتحت "نبيلة" الباب بسرعة، كأنها تنتظر خلفه. ارتبك "عمر" لتصرفها، ووقف جانباً ليسمح لـ "مايا" بالمرور، فوجئ بأمه تفتح ذراعيها لها وتحتضنها بقوة، بينما الضيفة الغربية تستكين لها، وزاده الأمر ذهولاً، وشعر بالخدر يسري في أوصاله، وعجز عن التفكير فيما ستسفر عنه هذه المقابلة.

لم تلاحظ أمه ارتباكها، فكل انتباهها كان منصّباً على "مايا"، وأجلستها بجوارها وطلبت من "عمر" أن يعد لها الشاي. تركها متوجهاً إلى المطبخ، وقد بدأ وجود "مايا" في الشقة طبيعياً تماماً، ولم يتبين صوتها، وهو يضع البراد فوق شعلة البوتاجاز.

لم تشعرا به عندما وضع صينية الشاي أمامهما. كانت "مايا" قد فرغت من رواية حكايتها مع الرؤى التي لازمتها منذ طفولتها، حتى شاهدت "سالم" مرتين، وهى لم تعرفه أبداً، ولم تره في حياتها كلها، وهو الأمر الذي أثار تعجبها، وهمست بصوت منخفض:

- هل تعتقدون أنه التقى بأحد يعرفني في العالم الآخر فحدثه عني؟
لم يملك عمر وأمه إجابة لسؤالها، وسادت بينهما لحظات من الصمت، قطعتة "نبيلة" قائلة:

- أشعر أن "سالم" يرغب في أن يرسل لنا إشارة ما..
قالتها دون أن تنظر إليهما، ولمعت عينها، كأنها ترى "سالم" أمامها، ثم أكملت بصوت هادئ:

- في كل مرة يأتي فيها لزيارتي، ينظر إليّ وكأنه يرغب في التحدث معي.. وعندما أقول له إننى أعلم أنه لم ينتحر وأن هناك من قتله..
كان ينظر إلى بارتياح شديد..

أراحت "نبيلة" ظهرها للخلف، وقالت وكأنها تحدث نفسها:
- أشعر بيده أحياناً وهى تربت عليّ أثناء نومي.. وأستيقظ بعدها وأنا أشعر براحة غريبة.. أغمضت عينيها، وكأنها تنتظر زيارته لها، ثم اعتدلت وواجهت "مايا":

- لابد أن هناك سراً ما وراء رؤيتك له..
هزت "مايا" رأسها موافقة، وقد اتسعت عيناها بالإحباط وسألت:
- ولكن من الذى يرغب في قتله؟
- "كلارا" ..

قالتها "نبيلة" دون أن ترمش عيناها، وهي تنظر لـ"مايا" بثبات، وبدورها نظرت إلى "عمر" متسائلة، فقال:

- أُمي تعتقد أن لـ"كلارا" دوراً في وفاة "سالم" ..

وروى لها عن عودته إلى مصر المفاجئة، وعن المكالمات التي دارت بينهما، وكانت في البداية حادة ثم تحولت لفاترة، وعن قدوم "كلارا" ثم عودتها إلى إيطاليا.

علقت "مايا" بهدوء:

- ولكنها كلها أحداث لا تعنى اشتراكها في مقتله.. "صمتت لحظة كأنها تذكرت شيئاً" .. هل فتشتم جيداً في أوراقه وفي جهاز الكمبيوتر الخاص به؟ .. قد يكون هناك أمر يكشف لنا ما حدث له..

رددت بصرها بينهما، فبادر "عمر":

- "سالم" كان مهووساً بالنظام.. ولم نجد شيئاً يمكن أن يكون له علاقة بوفاته.. حتى بعد ما ذكرته أُمي عن شكها بوفاته.. تم التحقق من المكالمات التي أجراها.. ولم تكن سوى لزوجته في إيطاليا ولنا ولصديق له التقاه مؤخراً.. وبعد وفاته لم نجد شيئاً على جهاز الكمبيوتر.. ولم يترك خلفه سوى أجندة كان يسجل فيها مواعيده ومصر وفاته..

تنهت والدته لما يقوله، فأسرعت لتحضر الأجندة من غرفتها، وهي تقول:

- قضيت ليالي طويلة وأنا أتفحصها.. لم أجد فيها شيئاً غريباً سوى سطور بخط "سالم" .. كأنها متعلقة بعمل سيبدأ فيه ولم أفهم منها شيئاً..

التقت عيونهم جميعاً داخل الصفحات، قلبوها بسرعة، لم يكن بها شيء مهم، حتى توقفوا أمام عدد من السطور الغريبة. كانت تحمل عنواناً "العقاب" وكتب فيها:

"من فوق الببغاء، انظر أمامك، لتكتشف صخرة المعجزة التي تشهد على وجود ابن الماء راکعاً، وتنير بحروف الذهب دعوته من أجل نجاة المستضعفين، طالباً العون من الله، وستجد البشرى في 29-9-40".

ردد ثلاثتهم كلمات النص الغريبة. امتلأ المكان بحالة من الدهشة حلقت فوق رؤوسهم، وساد بينهم صمت ثقيل. رفعت "مايا" رأسها ورمقت "عمر":

- يبدو وكأنه نص غنوصي..

قالتها همساً، وكأنها تحدث نفسها، فرددت "نبيلة":

- غنوصية.. ماذا تعنين؟

بدت "مايا" ممعنة في التفكير قبل أن تجاوبها:

- هذه الكلمات تبدو للوهلة الأولى.. وكأنها نص مقدس لإحدى الديانات القديمة التي انعزل أتباعها عن العالم المادي.. وغرقوا في عالم من الروحانيات.. وابتكروا فيه مصطلحات خاصة بهم.. وكانت تصل بهم إلى المعرفة والتنوير والتوحد مع الله.. وهذا النص يبدو مليئاً بالإشارات والرموز التي تبدو كلغز في حاجة إلى كشف غموضه..

عادت إلى الصمت من جديد، وهي تركز بصرها على الكلمات المكتوبة بخط أنيق وواضح. كانت الحروف تتداخل أمام عينيها، لتنتقل إلى عقلها بلا معنى.

شعرت بصداع مفاجئ يضرب رأسها، وكأنه يرغب في إثنائها عن الفهم. أمسكت برأسها وأراحت ظهرها على المقعد، وأغمضت عينيها، وظلت تردد الكلمات الغامضة، وانتابها إحساس قوي أنها تعرف المعنى، ولكنها عاجزة على أن تعبر عنه بشكل واضح.

تنبّهت على صوت "نبيلة"، وهى تربت على كتفها برفق. فتحت عينيها ورأت ملامحها القلقة، فابتسمت لها وطمأنتها بأنها عادت عندما تستغرق في التفكير، ووافقت على اقتراحها لشرب كوب من الشاي.

ساد بينهم الصمت وهم يرشفون الشاي، قطعه "عمر" سائلاً "مايا":

- ما الذى كان يقصده "سالم" بكتابة هذه السطور الغريبة؟

وضعت "مايا" كوب الشاي على المائدة، وقالت:

- عندما نستطيع فهم كلماته.. أعتقد أننا سنكون أمام رسالة من "سالم" ستكشف عن حقيقة وفاته الغريبة..

تعلقت "نبيلة" بذراعها وقالت:

- كنت أعلم أنني على حق.. وأن وراء موته سرًا.. هل ستستطيعين فهم معنى هذه الكلمات؟

أومأت "مايا" برأسها:

- سأنقل النص حرفياً.. كل ما أحتاج إليه بعض الوقت حتى

أتخلص من وقع المفاجأة.. هل يعنى الرقم المكتوب شيئاً لكما؟

هل هو تاريخ ميلاد أحد في العائلة؟

هز الاثنان رأسيهما بالنفي، فوقفت مستعدة للانصراف، ورافقها "عمر"

حتى ركبت سيارتها، وهو لا يكاد يخفي قسماً من السعادة تسلل بداخله، فهو لن

يكون بحاجة إلى اختلاق أعذار، حتى يلتقيها ثانية، فالنص الغامض سيسمح له بالاتصال بها.

وصلت "مايا" إلى منزلها، وأسرعت إلى غرفتها. فتحت جهاز الكمبيوتر، وكتبت كلمات النص بخط كبير وركزت بصرها عليه. رددت كلمة "البيا" عدة مرات. كادت تستخدم جوجل لمعرفة معنى الكلمة، وقبل أن تكتبها، صاحت منفعة:

- البيا هو المنبر اليهودي في المعبد..

قامت من مكانها وهي تكاد تقفز في الهواء، أمسكت بورقة وكتبت "المنبر اليهودي، يشبه بلكونة صغيرة تدار من فوقه الصلاة" عادت من جديد إلى النص، لتقرأ "انظر أمامك" بدا واضحاً أن من سيقف فوق المنبر سيرى ما أمامه "لتكتشف صخرة المعجزة التي تشهد على وجود ابن الماء راکعاً" قرأته عدة مرات، لم تستطع فهم الجزء الأول من الجملة.

دارت حول نفسها في الغرفة، وهي تردد "ابن الماء" من كان سيرها في تلك اللحظة كان سيعتقد بأنها فقدت عقلها، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وتمت:

- هل يقصد النبی "موسى"؟.. هو الوحيد الذى يعنى اسمه "ابن الماء" ف "هو" تعنى الماء و"سى" تعنى ولد في اللغة المصرية القديمة..

عادت لتكتب من جديد "من فوق المنبر اليهودي انظر أمامك لتكتشف صخرة المعجزة التي تشهد على وجود موسى راکعاً".

كان رأس "مايا" قد بدأ يدور، وشعرت برغبة في النوم لم تستطع أن تتغلب عليها، ألقت بنفسها على السرير وغرقت في نوم عميق، لم تشعر إلا وجدها يقف بجوارها يناديها بلطف، لتتناول معه طعام العشاء. قامت متثاقلة، فلم تكن لديها شهية للطعام، ولكنها لم ترغب في مضايقته. جلست ساهمة وعقلها مشغول بحل اللغز.

أغلقت عينيها، وهي تتصور شخصاً يعتلي المنبر وينظر أمامه. هبت واقفة وهي تصرخ:

- معبد بن عزرا ..

نظر إليها جدها متعجباً، فعادت لتجلس وهي مرتبكة، ولم تجد مفراً من أن تحكي لجدها كل ما حدث، حتى تمكنت من حل نصف اللغز. نظر إليها العجوز مدهوشاً، وترك طعامه وهو يتمتم بصوت حزين:

- هل كنا في حاجة إلى مزيد من المشكلات؟

- لا يوجد ما يثير القلق ..

قالتها وتركته في ذهوله، وعادت إلى غرفتها. أمسكت بهاتفها وطلبت "عمر"، وهي تكاد تحتنق من فرط الانفعال. قصت عليه ما حدث واكتشافها أن المكان الذي يشير إليه النص هو "معبد بن عزرا"، واتفقت معه على أن يلتقيا في الصباح للذهاب للمعبد، لمحاولة اكتشاف الجزء الثاني من اللغز.

مرت ساعات الليل أطول من المعتاد على "مايا". كانت تتلهف من أجل بزوغ النور. اختلطت مشاعرها فلم تكن تدري هل كانت حماسها من أجل كشف اللغز أم من أجل لقاء "عمر".

فضلت أن تغفو وهي تحتفظ بوجه "عمر" الحزين في عقلها.

في الموعد المحدد كانت بانتظاره أمام المعبد..

تشاغلت "مايا" بالنظر إلى الساحة التي تتعاقب فيها الأديان الثلاثة، لتشكل حالة من القداسة، تهيمن على المكان، فالسيدة "مريم" ووليدها "المسيح" اختبأ في المغارة أسفل الكنيسة القديمة، ونبي الله "موسى" يقال إن الصندوق رسا به في هذا المكان، حيث كانت تصله مياه النيل.

عندما تذكرت تلك المعلومات، هبت واقفة وهي تنظر باتجاه المعبد،

وغمغمت قائلة:

- كيف نسيت أن اليهود يعتقدون أن "موسى" عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان يصلى ويتعبد لرفع البلاء عن بنى إسرائيل في نفس موقع المعبد، وبالتحديد في موقع التركيبة الرخامية التي تتوسطه.. كادت تنطلق ناحية المعبد، حين رأت "عمر" يتوجه ناحيتها مبتسماً بارتباك. وأشارت إليه أن يتبعها، وحكت له بأنفاس مبهورة ما عرفته، واستطاعا الدخول بعد أن عرفها الحارس والمسئول عن الآثار، فهي كانت ضمن الفريق الذى كان يعمل في المعبد، لحصر وتدوين القطع الأثرية به.

عبرت المدخل بسرعة ومن خلفها "عمر". وصلت إلى المنبر. اعتلته وهي تنظر للأمام، ليقع بصرها على التركيبة الرخامية التي كتبت عليها آيات من التوراة بخط مذهب.

هبطت من على المنبر بخطوات بطيئة، وتوجهت ناحية التركيبة الرخامية، كانت الأرقام المكتوبة، مازالت تمثل لغزا عميقا بالنسبة لها، وإن كان لديها يقين أن الحل سيكون أمامها. دارت حولها، وهي تلمسها بأيديها، تفحصتها

جيداً. كانت تعلم ما هو مكتوب عليها جيداً. ركعت على الأرض، وأخرجت الورقة التي بها اللغز. قرأت الأرقام 29-9-40.

أطلقت زفرة ارتياح. مدت يدها لتعثر في جزء من التركيبة الرخامية. أخرجت يدها، وهي تحمل مفكرة صغيرة لا يتجاوز حجمها نصف اليد، وتهاوت على الأرض، وهي تنفس بصعوبة، و"عمر" يحرق بها مندهشاً. أفاقت بسرعة، بعد أن التقطت أذناها صوتاً قادماً من الخارج. وقفت ليقع بصرها على المنبر من جديد. تأوهت بصوت مكتوم، بعد أن تجسدت أمامها اللحظة الخاطفة التي التقت عيناها بـ"سالم"، وهو منحني أمام التركيبة الرخامية. قبل أن تتمكن من الشرح لـ"عمر"، وجدت المسئول عن المعبد يتقدم نحوها، ويلقي إليها بنظرات تحذيرية لم تفهمها، ولكنها وجدت من خلفه ظلاً لرجل يملأ مدخل المعبد، فقبضت بيدها بقوة على المفكرة الصغيرة.



فتح "عوض" خزانته الصغيرة، وأخرج منها بحذر مجموعة من الأوراق الصفراء على هيئة لفائف. وضعها داخل حقيبته بجانب ما يحتاج إليه من ملابس ضرورية.

لم يهتم بالرد على ثرثرة "سوسو" التي مازالت تتحدث عن أيام الغردقة، وتشكو له من "شادية" ومحاولتها أن تفرق بينهما، بادعائها بأن له زوجة جديدة، وأنه سيأتي اليوم الذي سيحولها فيه إلى مسخ مشوه مثلها.

شعر "عوض" بنذير سوء لتلميحات "شادية"، ولكنه لم يكن متفرغاً للتحقق مما تقوله، فموعد القطار اقترب ولا بد أن يلحق به. ودع "سوسو" مبتسماً، وطالبها بالآلا تستمع لما تقوله المجنونة مربية الوطاويط.

لحق بالقطار في الدقائق الأخيرة، ارتقى على مقعده لاهثاً، وسرعان ما غرق في نوم عميق، حتى نبهه جاره لدخول القطار إلى "سوهاج".

خرج من المحطة، تلفت حوله. وجد أن يد التغيير امتدت لتشمل المباني والطرق، وحتى أنشطة المتاجر الصغيرة تغيرت، والزحام أصبح خانقاً. لم يهتم كثيراً بما حدث، وكان تفكيره منصباً على الوصول إلى المنزل القديم.

كان الظلام قد كسا المدينة، وزحف على الطرق الزراعية ليحول أعمدة النور والأشجار إلى أشباح مترقصة تتسابق مع حركة السيارة القديمة فتتجاوزها، وبعد حوالي ثلاث ساعات تناهي المشهد الأسطوري لقرية "نجع الكرامات" الغارقة في ليل حالك السواد، يتخلله ومضات خافتة تنبعث من نوافذ بيوتها الواطئة، وقد عزل النوم سكانها عن العالم.

اخرقت السيارة الجسر القديم، وكشفت مصابيحها لـ "عوض" أنه مرصوف، ولم يعد تريباً كما كان في الماضي.

صرت العجلات وهي تتوقف أمام منزل قديم. بدا السائق متعجلاً لمغادرة "عوض" للسيارة، فعواء الذئب أسفل الجرف الذي يقع أعلاه المنزل، أصابه بحالة من الهلع لم تجعله يشكر الراكب الغريب على الإكرامية التي منحها له.

كان السائق يعرف قصة البيت المسكون بالأشباح، وحكاية شبح القتيلة الذي يظهر بين أغصان شجرة السنط العجوز، وعلى الفور غادر المكان مسرعاً بسيارته.

عندما سمع "عوض" الصراخ القادم من بين أغصان الشجرة. ابتسم بهدوء، وهو يدير المفتاح في الباب الذي عاقه الصدا، ولا يستجيب له بسهولة، وبمجرد

فتحه استقبلته رائحة عفن مختلطة بتراب ومخلفات القطط والكلاب التي كانت تتسلل إلى المنزل المهجور.

عثر على مفتاح الإضاءة، فخرج من المصباح شعاع أصفر، ألقى بظل باهت على الغرفة، وبدأت شديدة القبح بجدرانها المغطاة بدماء الخفافيش. لم يهتم بالنظر حوله ودلف إلى غرفة صغيرة بالداخل. فتح بابها فصدر عنه صرير حاد. كان الفراش الحديدي الصغير على حاله، كما تركه منذ سنوات طويلة. جلس على طرفه بعد أن أزاح جانباً كومة من القماش المهلهل. كان في الماضي ملاءة، انتابته نوبة من السعال جعلته يفكر في تهوية المكان ولو قليلاً، فتح النافذة الصغيرة، فسمع صوت ارتطام الماء بالجرف. خاف "عوض" أن يرصد أحد وجود حركة بالمنزل، فأغلق النافذة بعد دقائق قليلة. لم يكن يشعر برغبة في النوم، فقرر أن يبدأ العمل فوراً. ألقى نظرة على دورة المياه واطمأن إلى طبقة القاذورات التي تنتشر فيها، ثم عاد إلى غرفته، وأخرج من حقيته عدداً من الأرغفة اليابسة، وعلبة صغيرة مملوءة بالملح، وعدداً من قوارير المياه. وضعها على مائدة صغيرة.

وأخرج عدداً من التماثيل الشمعية وزعها في الغرفة، وفي النهاية تناول إناءً نحاسياً، عبأه بخلطة من أنواع البخور الخاصة والمكونة من "قصب الديره والشوتين وعلك الروم".

أصبح كل شيء من حوله جاهزاً. لم يبق سوى الدخول في الخلوة طوال الليل، ليجدد العهد القديم، ويتلو تعويذة الكلمات الفعالة التي تعلمها من "ابن ودنان" لمدة سبع ليال، ومن شروط نجاحها ألا يغمض له جفن طوال الليل، وأن يصوم لمدة سبعة أيام عن كل أنواع الطعام ما عدا الخبز اليابس والملح.

بحرص شديد فتح ورقة صفراء، وبدأ يقرأ منها..

"أسيلو أيتهاوس وأبو سال، يكيليوش نقفو سال، تكشف لذاتي بكشف لذاتي، وجود نفسانيتي، وحقيقة ذاتي، وبأن الستر المانع عن إدراكه بحواس الأنسانيتي، لأشهد بالكشف نجل كوني في القيام بالمادة البشرية، كما شاهدت تجرد كوني في النشأة البسيطة، إنسيني أيتها الذات المجردة المستترة بلا حجاب يحجبني، عن كشف وجودي، ولا جلباب يستر هويتي عن مكاشفتي، شهود ذاتي اطلعا لذلك، يكون الكشف عن ذاتي في عالم التركيب البشري، ومن لهم كثافة لأرى لهم هويتي، بأنوار القوة العقلية.

جوداً عليّ ومنأً، رافة تفيض القوى، وواهب القوى إجابة لسألتي في الكشف الكلي، وجودي بمبدع العقول المؤيدة، والنفوس المجردة، والأرواح المقدسة، وبعهد الربوبية في النشأة والذرية والجملة الفطرية، المفطورة على صدق الوقائية، بحق لوازم موجباته، وبالكلمات التي أقيت على ما أنفق من رتق وجودي، وتطورت بكل طور وظهرت لكل مظهر، حتى انتهى الظهور إلى احتجابي عن الساتر لي، في بشريتي شفاعاة ورافة الراحم لي الحجاب، ود الستر تظاهري بكشف ما حجب عني، وسترنى منى باسم المهيمن، وأكشف ستر المبرقع".

ابتلع "عوض" ريقه الجاف، كان يردد النص بطريقة جافة، لم يشعر بالكلمات من أول مرة، كان لا بد وأن يردده حتى يرى العلامة.. الأفاعى والثعابين تملأ المكان من حوله، فلا يخاف ولا يجزع. عاد ليقراً من جديد.

لم يعرف كم مر عليه من الوقت، عندما شاهد آلاف الحيات والثعابين تتلوى من حوله، تقترب منه وهي تطلق فحيحاً خفيفاً وتستعد للانقضاض عليه، ثم تتراجع أمام ثباته وهدوئه. ظلت الأفاعى تحوم من حوله حتى تسلل نداء الله

أكبر إيدانا بصلاة الفجر، فاختفت الأفاعى من حوله، وأدرك أن نور الصباح أزاح الظلام، فعرف أن موعد نومه قد حان.

غرق في نوم عميق. استيقظ بعدها، فوجد النور ما زال يتسلل من خلف النافذة الخشبية.

شعر بالجوع فغمس عدة لقيات في الملح، وتناول بعدها شربة ماء، وجلس صامتاً مثل التماثيل الشمعية التى تحيط به. غابت الشمس لتسمح لسكان الظلام في الظهور.

وكانت الليلة الثانية، مثل الأولى، ردد فيها التعويذة، حتى ظهرت له الوحوش المخيفة، وهى تدور من حوله، وكأنها ستلتهمه، فظل في ثباته، حتى علا نداء الله أكبر، فانصرفت الوحوش وهى منكسرة.

وفى الليلة الثالثة، شاهد الغرفة تمتلئ بأشخاص فلم يلتفت إليهم، وفى الليلة الرابعة، ظهر له المردة محاولين إفزاعه فلم يرف له جفن، وفى الخامسة جاءته أنواع من الجن، فتجاهلهم، وفى السادسة أتاه خدام من الجان حاولوا أن يتحدثوا معه، سألوه عما يريده فتجاهلهم، فهو كان يحفظ وصية معلمه، إذا تحدث مع خدام الجان زوار الليلة السادسة فسيهلك فى ثوان معدودة.

ومرت الليلة السابعة وهو يردد التعويذة من ذاكرته، وقبل أن يرحل الليل مصطحباً معه الظلام، تدفق من بين شقوق الجدران عشرات من الجان، يرتدون زي الخدم، وهم يحملون مقاعد ينصبونها يميناً وشمالاً، وفى الوسط وضعوا مقعداً ضخماً، ارتقاه جان عظيم يرتدي ملابس الملوك. دار الخدم من حوله، وهم يطرقون الطبول ويتحركون فى صخب وضجيج.

لم يلتفت "عوض" إليهم، وانهمك في ترديد التعويذة، وعندها تحدث الملك،
وسأله عما يريده، فلم يجبه وقام فأخرج خليطاً من البخور كان قد صنعه بيده،
مكوناً من "ماء وسندوس ولبان ذكر وبسباسة وحرمل وكزبرة ولسان عصفور
معجونين بماء الورد ومجففين في الشمس". أشعل النار في قطع الفحم وهو
مستمر في ترديد التعويذة، وملك الجان يسأله عن طلبه، وهو لا يلتفت إليه،
حتى ألقى بالبخور فارتفعت حلقات من الدخان الكثيف. نظر بعدها "عوض"
إلى الملك بثبات وقال:

- أعطني تعويذة الست ملكات..

وقف ملك الجان، فطالت رأسه سقف الحجرة، وتمتم:

- لقد استحققتها اكتب حتى لا تنسى، فأنتم يا بنى الإنسان تنسون
الله الذى خلقكم، "مريدان، طهلمين بريدال، شريدان، سريد،
وبمواقع النجوم".. أكتب تلك الكلمات على كفك الشمال، ثم أدخل
إلى دورة المياه ورددها 1000 مرة وأنت تشعل بخوراً مكوناً من
"قصب الديرة والشوتين وعلك الروم" بعدها سترى نتيجة
أفعالك، وعندما يتحقق مرادك سيسألك خدام الملكات عما تريده
فاطلب ما تريد ثم قل:

"أنا العبد الذليل الراجى الكرم منكم، فجدودوا عليّ بفضلكم".

أحنى "عوض" رأسه لثوان، وعندما رفعها، وجد المكان خالياً، لم يتبق فيه
سوى بقايا من جذوة نار يتوارى لهبها تحت الرماد. ونداء الأذان يدعو المؤمنين
للصلاة.

ألقى "عوض" بنفسه على السرير. كان يشعر بأن النار تلتهم كل جزء في جسده، والألم يكاد يفتت عظامه، وماء ساخن يغرق جسده كله، حتى أنه يقطر من أطرافه. كتم صراخه حتى لا يفتضح أمره. بدأ جسده يبرد تدريجياً، فغرق بعدها في نوم عميق، قام بعده ليستعد لتنفيذ أوامر ملك الجان من أجل إحضار الست ملكات.

نفذ ما طلبه منه وكتب التعويذة على كف يده الشمال، وأشعل البخور، وجلس على أرضية دورة المياه الصغيرة. ردد الطلاسم السحرية ألف مرة وهو مغمض العينين، وفي المرة الأخيرة فتح عينيه ليجد من حوله عشرات الخيام بألوان زاهية، وجنوداً يقبضون على رماح من الذهب، وقادة يتقلدون سيوفاً مطعمة بالأحجار الكريمة، وخيولاً مسرجة بكساء من الحرير المشغول بخيوط من الذهب والفضة، ووسط كل هذا ستة من المقاعد الضخمة تجلس عليهن ست ملكات يرتدين الملابس الحريرية، ومزينات بعقود من اللؤلؤ والياقوت والزمرد.

نهض "عوض" محاولاً الاقتراب منهن. لم يستطع أن يحرك قدميه من مكانهما، واقترب منه صف من الجنود حالوا بينه وبين الملكات، سألوه عما يريد وأن طلبه مجاب، بعد أن يردد عهد الوفاء.

بسرعة شديدة قال:

- "أنا العبد الذليل، الراجي الكرم منكم، فجدوا عليّ بفضلكم" ..

أريد أن تنفذ الملكات ما أريده، أن يكشفوا لي ما في قاع الأرض والبحر، وما تحويه بطون الجبال، أن يبطلوا الأعمال ويتحكموا في الأبصار والعقول تحت إمرتي ويأتوني بالغائب ويخفون الحاضر ..

تقدم أحد الجنود، وقال:

- لا تنسى أنك تتحدث عن ملكات مكرمات في عالم الجان، ولك لديهن ما تريد، إذا هن وافقن، ولا يمكن أن يكن تحت إمرتك، هن يرغبن في السماع..

- هناك مقبرة للملك مصري عظيم، مدفونة على أعماق سحيقة تقع ما بين معبد "أييدوس" وصحراء "العرابة المدفونة"، أريد أن أصل إلى مدخل المقبرة ومعى عدد من الأعوان، ونخرج ما فيها بسلام..

- هذا أمر سهل ومقابله، أن تظل العبد الذليل، المطيع أبدا لأوامر الملكات، موعدك يوم تمام القمر، كن موجوداً خلف المعبد، ومعك من ترغب من أعوانك من البشر، سنكون معك حتى نقوم بإيصالك إلى منزل مهجور به بئر قديمة، ستهبط داخل البئر، وقبل أن تصل إلى نهايتها ستجد ممراً، ستسير فيه وأنت محني الظهر لمسافة كيلو متر، ثم لن تتمكن من الوقوف وستكمل باقى الطريق وأنت تزحف جالساً، وسيتهي بك الممر إلى جدار أصمتتلو أمامه قسماً ستسناه بعد أن ينهار الجدار أمام عينيك..

"كفى أميال، أصرعه يا أبيض بالذى تجلى، فجعله دكا وخر موسى صعباً، وتكلم عليه، بهذه الأسماء لهش، لتيش، جشيد، دهش، فنقوش، قرقش، أصرعه يا أبيض بالذى تجلى للجبيل، فجعله دكا وخر موسى صعباً، ألوحا، العجل، الساعة" ..

فتح "عوض" عينيه على اتساعها متلفتاً حوله. كان محشوراً في دورة المياه، اختفى من حوله معسكر الملكات، غاب ضجيج الجنود وصهيل الخيول، وعروش الست ملكات، فرك عينيه حتى يتأكد من كونه لم يكن يحلم، قفز إلى

عقله كلمات القسم الأخير الذى لقنه له قائد جند الملكات، تأكد أن ما رآه حقيقة وأنه كان في ضيافتهن.

تمالك نفسه واستند على الجدار ليقوى على الوقوف. جر قدميه بصعوبة حتى وصل إلى السرير. شعر أن حلقة يكاد يتشقق من فرط إحساسه بالعطش. شرب قنينة الماء كلها. استعاد بعضاً من قوته مكنته من جمع حاجياته. نظر خارج النافذة، كان السكون يعم القرية تماماً، فقد كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، استعد للخروج من المنزل، وسار طويلاً حتى وصل إلى موقف للسيارات الأجرة، ألقي بنفسه داخل سيارة متهالكة، وطلب من السائق أن يوصله إلى محطة القطار.

توارت "مايا" خلف "عمر" لثوان قليلة. تمكنت خلالها من دس المفكرة الصغيرة في جيب البنطلون الخلفي. كانا كلما اقتربا من باب المعبد بدت ملامح المقدم "مروان" أكثر وضوحاً. فتح "عمر" فمه لكن الكلمات لم تتمكن من الخروج من بين شفتيه، واتسعت عينا "مايا"، وحملت فيه للحظات، قبل أن تتمكن من أن تقول:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تلقي "مروان" دهشتها، بابتسامة واثقة، واقترب منها، وهو يقول:

- أعتقد أننا يجب أن نبحث عن مكان مناسب لكي نتحدث ..

تبادل الاثنان النظرات، ثم سارا خلفه حتى عثرا على أريكة خشبية جلس عليها ثلاثتهم. كادت المفاجأة تعصف بهما، بينما انشغل "مروان" بإشعال سيجارة نفث دخانها في هدوء، وببساطة شديدة قال:

- أريد أن أعرف سبب وجودكما داخل المعبد..

ثم نظر إلى "مايا":

- ولماذا ذهبتِ إلى عمر في مكان عمله ومنزله؟ وما الذي جمعكما معاً؟

حملت كلماته لهجة أمرة لم تخف عليهما، وتضاربت مشاعر "مايا" بين الارتياح والخيبة.

أدرك "مروان" ما يجول برأسها، فنظر إليها وفي عينيه نظرة مطمئنة:

- نحن نتابعك ليس لمراقبتك أو التجسس عليك ولكن لحمايتك..
وفي البداية افترضنا أنك كنت تعرفين "سالم" من خلال عمله
كمرشد سياحي.. وأنه من الطبيعي أن تذهبي لتقديم واجب العزاء
بعد موته.. ولكن وجودكما معاً هنا أمر يحتاج إلى الشرح.. وبمجرد
أن التقيتما معاً تم إبلاغي وفضلت أن آتي بنفسى..

قال كلماته الأخيرة وبدأ على صوته علامات نفاذ الصبر. نظرت "مايا" إلى
"عمر"، فهز الأخير رأسه موافقاً. فحكّت لـ "مروان" القصة من بدايتها، وعندما
وصلت إلى الجزء الأخير ترددت قليلاً، ثم روت له قصة اللغز، وكيف تمكنت
من حله، وكانت الأرقام الغريبة هي العقبة الوحيدة أمامها، وعندما وقفت أمام
التركيبة الرخامية، أدركت أن الأرقام 29 - 9 - 40 تشير إلى سفر الخروج
المكون من أربعين إصحاحاً، ورقم 9 يعنى الإصحاح التاسع، ورقم 29 يعنى
الآية رقم 29، وهى المكتوبة على التركيبة الرخامية بحروف مذهبة

"فقال له موسى، عند خروجي من المدينة أبسط يدي إلى الرب، فتنقطع الرعود ولا
يكون البرد أيضاً، لكي تعرف أن للرب الأرض" ..

نظر إليها "مروان" بإعجاب، ثم انتصب واقفاً وهو يقول لهما:
- اتبعاني الآن نحن في حاجة إليكم الآن تتوافر فيه الخصوصية..
ومد يده بهدوء مطالباً "مايا" بالمفكرة التي عثرت عليها. أخرجتها من جيبها
الخلفي، وناولتها له، فوضعها في جيبه، وأشار لهما أن يتبعاه.

- 10 -

النور

شعرت "مايا" أن عضلاتها بدأت تسترخي، عندما جلست على الأريكة بجوار "عمر" في مكتب المقدم "مروان".

كان مجرد مرورها بجوار مبنى الأمن الوطني في مدينة نصر أمراً يشعرها بالتوتر، فكل الحكايات التي سمعتها عن المبنى، كقيلة بإثارة الرعب بداخلها. جذب "مروان" مقعداً، وجلس في مواجهتهما. أدرك أن "مايا" تحديداً تشعر بتوتر هائل. حاول أن يشعرها بالطمأنينة، وأصر على تناول الشاي، قبل أن يبدؤا في الحديث، قدم لهما بعضاً من البسكويت داخل علبة أنيقة، وهو يقول مبتسماً:

- أحياناً أضطر للمبيت في مكثبي..

نظر إلى "عمر"، وقال له:

- أريد أن أعرف كل شيء عن "سالم"..

روى له "عمر" كل شيء عن أخيه، وعودته المفاجئة من "إيطاليا"، وإصرار أمه على أنه قتل، رغم أن تقرير الطب الشرعي أكد انتحاره، ولم تجد الشرطة ولا النيابة ما يؤكد دخول أحد للمنزل.

غرق "مروان" في صمت طويل، ثم نظر إليه قائلاً:

- واضح أن والدتك كانت على حق.. ووجود اللغز الذي تركه

خلفه.. يؤكد أن هناك من يطارده.. وأن الطريقة التي خبأ بها

المفكرة الصغيرة.. دليل على أنه كان يشعر بالخوف الشديد..

وبالطبع هناك أمر شديد الخطورة وراء تلك القصة..

لم يفصح "مروان" لهما عن ما جال في عقله، عن ربطه بين توقيت وفاة

"سالم"، واختفاء قاتل "يوسف" في اليوم الثاني.

رجع في مقعده للخلف، وتجاهل وجود "مايا" و"عمر" اللذين تبادلا نظرات قلقة، فكر "مروان" أنه أصبح واضحاً وجود علاقة ما بين مقتل "يوسف" وانتحار "سالم" المزيف، وأن العلاقة تزداد قرباً، فالقاتل دخل مصر بجواز سفر إيطالي، و"سالم" كان مقيماً ومتزوجاً في إيطاليا.

عند هذا الحد قام واقفاً، وخرج من مكتبه مسرعاً، وتوجه ناحية مكتب "خالد"، وطلب منه أن يجمع كل المعلومات عن زوجة "سالم" في إيطاليا عن طريق المصادر الخاصة بالجهاز، وبعيداً عن أجهزة الأمن الإيطالية، وأن يتم ذلك بحذر وبدون جلبه.

عاد "مروان" إلى مكتبه ليجد ضيفيه يبدو عليهما القلق. بادره "عمر" بالسؤال عن المفكرة التي وجداها، فأخرجها من جيبه في هدوء وهو يقول:

- لا يوجد بها سوى مجموعة من الأرقام والحروف.. حتى الآن هي لا تعني شيئاً.. قد تكون أرقام تليفونات أو أعياد ميلاد أو أى شيء آخر.. المهم أنها مكتوبة بالإيطالية.. وستوصل قريباً لمعنى تلك الأرقام.. أما ما أريدكما أن ترياه الآن هو هذا..

نظر الإثنين نحو الغلاف الداخلي للمفكرة وقرأ فيها:

النور

"ولما حلقت الملائكة فوق الأرض المسحورة، نشرت أجنحتها النورانية، لتحتضن بين طياتها سيدة النور، ليشع ضوءها ويبدد الظلام من فوق قمة الجبل، ليتسلل نورها الشاهق إلى "الضفير"، في آخره يسطع الضوء لينير 7 من الجواهر المقدسة"

فغر الإثنين فيهما، شعرا أنها عاجزان عن النطق. كان الخط الأنيق المنمق لـ"سالم". كما قال "عمر" بعد أن استعاد قدرته على النطق. لم ترفع "مايا" عينها

سراييط الخادم

عن النص الغريب. بدت وكأنها تحاول أن تفك شفرة الكلمات الغريبة. رفعت رأسها ونظرت ناحية "مروان"، وهى تقول:

- الكلمات مرتبطة بالمسيحية، ف"سيدة النور" هى السيدة "مريم

العذراء"، وبكل تأكيد سيقودنا فهم النص إلى مكان آخر..

- أعتقد أن مهمتكم انتهت عند هذا الحد.. والباقي هو عملنا..

قالها مروان وانتصب واقفا معلناً نهاية اللقاء.

لم يتحرك "عمر" من مكانه وقال:

- لا لم تنته مهمتى على الأقل.. فأنا متورط في تلك القضية.. لا تنسى

أن "سالم" شقيقي.. والكشف عن سر وفاته أصبح مهمتي أيضاً..

حذق في "مروان" ملياً قبل أن يكمل: "ثم إن هذا عملي.. ولي الحق

أن أكون أول من يكشف عن تفاصيل هذه القضية الغريبة..

تراجع "مروان" إلى الوراء قليلاً، ونظر إليه مطولاً، وقال:

- أعددك عند السماح بالنشر ستكون أول من سينال ذلك الحق..

- هذا ليس كافياً..

قالها بتصميم، جعل وجه "مروان" يتصلب من الضيق.. أردف "عمر":

- لا تنس أن "مايا" هى من فكت شفرة اللغز الأول.. وأعتقد أنها

ترغب في الاستمرار..

نظر "مروان" إليها مستفسراً، فأومأت برأسها عدة مرات دليلاً على الموافقة.

تنهد "مروان" وهو يقول:

- نحن لسنا في خضم تحقيق صحفي أو فيلم بوليسي.. ولكننا أمام

قضية شديدة التعقيد والخطورة أيضاً.. هناك شخصان قتلا حتى

الآن.. وإيجاد الصلة بينهما سيكشف الكثير..

عاد للنظر ناحية "مايا" وهو يسألها:

- هل ستعملين على التوصل لمعنى لغز النور..

هزت رأسها بالموافقة، وقامت لكي تنصرف، فسألها مروان:

- هل أنت بحاجة لأن أكتبه لك؟

خرجت بسرعة وهى تقول:

- لقد حفظت النص..

نظر "مروان" للباب وهو يغلق من خلفها. وبدأ على الفور في محاولة معرفة ما تحويه الأرقام الغامضة، وفك طلاسم اللغز الجديد. وفكر في ضرورة زيارة "داود" لإنهاء قصة "يوسف"، ومعرفة سر زيارته الغريبة.

فتحت "هديل" النافذة العريضة التي تطل على النيل. أشعلت سيجارة ونفث دخانها بهدوء. كان النظر إلى المدينة من أعلى يمنحها شعوراً بالقوة والنفوذ، ويبدد إحساسها بالخوف من المجهول.

"أنا الآن أنظر من نافذتي المرتفعة التي تفصلنى عن الشوارع والدروب التي تسكنت فيها طويلاً، لا يوجد أحد في العالم يعرف الطرقات مثل قدمي التي تمتلك تلك القدرة، عندما كانت تلامسها من نعل حذائي المفتوق كجرح متقيح..

كل ما وصلت إليه الآن ممكن أن يختفى ببساطة، فإذا ظهرت فتاة أخرى يمكن أن تسحب البساط من تحت قدمي، أو إذا قدمت دوراً لم يعجب الجمهور، فسيجعلنى ذلك أتوارى لشهور قد تمتد لسنوات في منزلى، وكل ما أكسبه من الفن يضيع على الملابس والحفلات والسفر ومراكز التجميل..

ما أفعله هو حقى في أن أحافظ على حياتي التي تعني ثروة تحميني من أيام الفقر السوداء، حتى هذه الفتاة الجديدة التي ستأتى الآن، ستشكرنى في يوم من الأيام، عندما تمتلك هى الأخرى ثروة تحميها، ليس مهماً أنها ستبيع جسدها للأثرياء البلهاء، فهى حتى إذا تزوجت فهى أيضاً ستبيع جسدها لزوجها مقابل أن يشتري لها ثوباً أو حتى من أجل رحلة مصيف سخيفة، فقد تبذل له جسدها وهى مرغمة، لكى يرضى فتتال خاتماً تافهاً لا يتعدى وزنه جرائم معدودة".

دق جرس التليفون بجانبها، وأخرجها من دوامات أفكارها. نظرت ناحيته بامتعاض، "لا بد أن الفتاة قد حضرت، لا بد أن أرتدى وجه النجمة الآن، وأجعل نبرات صوتي لطيفة، وضحكتي تبدو طبيعية، أتمنى ألا أرهق نفسي مع فتاة تتمسك بتفاهات الشرف والعفة".

- أدخلها فوراً..

بدأت "إيمي" في كامل أناقتها، وكشفت ابتسامتها الواسعة عن أسنان متساوية نظيفة. تفحصتها "هديل" بنظرة سريعة مدربة، وابتسمت بسعادة، فالفتاة تمتلك جسداً مثيراً ووجهاً جميلاً، وعندما احتضنتها مرحة، التقطت أنفها رائحة الملابس المعقمة التي تباع مستعملة في وكالة البلح.

"أنا أعرف جيداً هذه الرائحة، ليست رائحة ملابسها التي تختارها بعناية من وكالة البلح فقط، ولكنى أستطيع أن أميز جيداً رائحة الخوف.. حادة ولاذعة وبلا عفونة، أستطيع أن أشمها من بين آلاف الروائح، كثيراً ما كست جسدي وبللته حتى كادت تعصف بي.. كنت أداريها خلف نفس الابتسامة التي تكسو وجهها أمامى الآن. الفرق الوحيد أن من كانوا يخيفونني لم يتمكنوا من اكتشاف رائحتي وقتها، ظنوا أننى متماسكة تحت بذاة الألفاظ القذرة التي كانوا

يمطرونني بها، لم يلحظوا أبداً خلجات وجهي، ولا برودة أطرافي التي كادت تتسلل إلى قلبي فتحوله إلى قطعة من الصلب البارد..

كل الأصابع التي تسللت إلى جسدي لتكتشفه، جعلتني أنجح في ستر برودته، وأحوّلها إلى حرارة ملتهبة، كانت تشعل أجساد السخفاء من العجائز، وأعيد الحياة إلى أجسادهم الواهية المتهالكة، لم تكن "الفياجرا" وحدها هي التي تمنحهم القدرات الجنسية الموقوتة، ولكنه الخوف الذي كان يمنح جسدي برودة ملتهبة.

هزرت كتفي كعادتي، عندما أبدو معجبة بشيء ما، حدثتها وكنت صادقة تماماً، بأن لها مستقبلاً باهراً ينتظرها، ففى عملنا الصدق هو الأساس الذي يمكن أن أبني عليه نجاحاتي، ولا يمكن أن أخدع نفسي ببضاعة مغشوشة سترد لي، بجانب تعويض محترم قد أضطر لدفعه، كل ما تحتاج إليه هذه الفتاة رتوش بسيطة لن تكلفني شيئاً".

بدا على "إيمي" الرغبة في الحديث، تكلمت فخرج صوتها لطيفاً، رغت كثيراً عن حبها للفن واشترакها منذ صغرها في فريق التمثيل بالمدرسة، وعن صداقتها بـ"داليا عوض"، وعن والدها الموظف الكبير، وأمها السيدة اللطيفة التي تحاول أن توفر لها كل ما تحتاجه، دون أن ترهق والدها، وفي النهاية عن سعادتها بلقائهما والعمل معها.

- كل ما ذكرته جميل ورائع، ولكنك في حاجة إلى عدد من دروس في الإلقاء والتدريب على مواجهة الكاميرا، سيقوم الفنان الكبير "محمد عدلي" بتدريبك عليها مع مجموعة من الوجوه الجديدة.. "ميرنا" سكرتيرتي التي قابلتها، ستقوم بإبلاغك ببدء موعد التدريبات،

وطبعا سيكون هناك الكثير من الحفلات، للتعرف على فناني
ومنتجين ومجموعة كبيرة من العاملين في الوسط الفني، وطبعاً
صحفيين ورجال أعمال..

"لم أكد أفرغ من حديثي، حتى وجدت "إيمي" تقفز من مكانها وتحضنني
بقوة، وللمرة الثانية التقطت أنفي رائحة الخوف.

هي الآن وضعت قدمها الصغيرة على بداية الطريق، لم يتبق سوى أن تقطعه
بخطوات ثابتة ستبدأ من عند (شاهينار)".

تأوهت "هديل" قبل أن تقول لـ "إيمي":

- سجلي رقم تليفون "شاهينار" صاحبة مراكز التجميل الشهيرة..

وستبدأ في إعدادك من الآن.. سيناريو المسلسل جاهز.. ستوقعين

العقد بعد انتهاء التدريبات..

مر اليوم سريعاً، استقبلت فيه "هديل" أكثر من عشر فتيات، اختارت من

بينهن ثلاثاً، شعرت بالإرهاق، طلبت من "منى" أن تنهي مقابلاتها كلها فلم

تعدّ تحتّم. توقفت مساعدتها قليلاً، فنظرت إليها "هديل" مستفسرة، فأجابتها:

- جمال ينتظر في الخارج..

صرخت فيها "هديل" مؤنبة:

- أدخله في الحال..

سبقتة رائحة عطرة، أسرع ناحيتها واحتضنها، أطلق ضحكة صاخبة، قبل أن

يقول لها:

- استمتعت بالانتظار.. كان معي عدد من الفتيات الجميلات..

نظرت إليه بدلال:

- لا تغتر بما تشاهده.. لم أختَر منهم سوى ثلاث فتيات.. بالإضافة لـ"إيمي" زميلة "بنت عوض".. المهم أن إعدادهن لن يستغرق أكثر من شهر.. وسنرتب بعدها للحصول على التأشيرات وسنبدأ في تصوير المسلسل.. هل رتبت موعد ومكان الحفلة؟

اكتسى وجه "جمال" بجدية رجل الأعمال:

- كل شيء جاهز ولكنها لن تكون حفلة واحدة.. سنلتقي جميعاً على نخت "الأمير" في "مونت كارلو" ثم سنبحر حتى "برشلونة".. والمحطة الأخيرة ستكون في جزيرة "جران كناريا" التي يمتلك فيها الأمير قصرًا ضخمًا.. سنقيم به ثلاثة أيام..

صمت "جمال" للحظات، وهو ينظر إلى "هديل" بحدة:

- أريد أن أنبهك أن كل شيء لابد أن يكون على أعلى مستوى.. ملابس الفتيات والمايوهات والفساتين.. نريد أن يستمر "الأمير" في الاعتماد علينا في ترتيب حفلاته السنوية المهمة.. خصوصاً أنه يشعر هو وضيوفه بالملل من الفتيات الأوربيات.. نحن نحتاج على الأقل لثلاثين فتاة.. لابد أن يكون معظمهن عذراوات..

غمز بعينه وتلاعب بلسانه، فلم تتمالك "هديل" من أن تشعر بالاشمئزاز منه، أخفت شعورها وتشاغلته بتحريك كوب أمامها:

- لا توجد مشكلة.. حتى إذا لم يكن عذراوات فسنجرب لهن العملية.. المسألة سهلة.. ولكن أماننا عمل كثير.. لابد أن نجتمع الفتيات الجدييدات ببعض فتياتنا اللاتي ظهرن في عدد من الأدوار لكي يثرثن أمامهن عن الحفلات الخاصة.. وما كسبه من أموال

من مشاركتهن فيها.. وأن الحظ قد يتدخل ويعجب "أمير" أو أحد الأثرياء بواحدة منهن.. ويرغب في الزواج منها إذا تعلق بها.. وغيرها من الحكايات التي تؤهلن نفسياً.. حتى لا تفضحننا واحدة منهن..

وافقها "جمال" بإيلاء من رأسه، تمطى في مقعده، قبل أن يقف لينصرف، ودعها ووصل إلى الباب، ثم التفت إليها:

- نسيت أن أخبرك.. تم وضع عشرة آلاف جنيه استرليني في حسابك في لندن..

نظرت إليه باهتمام ، فأردف قائلاً:

- حصيلة بيع ثلاثة أطفال.. وتم إيداع نفس المبلغ في حسابي وحساب "عوض".. كان ذلك شرطي أن تحول المبالغ على لندن مباشرة..

أشارت له بيدها راضية، وأرسلت له قبلة في الهواء، استقبلها بواحدة من ضحكاته الصاخبة، وانصرف.

لفح الهواء الساخن وجه "عوض" بمجرد خروجه من السيارة المكيفة ذات الدفع الرباعي.

كاد أن يعود بداخلها من جديد، لولا أن قال "عصام الدندراوي" شقيق النائب:

- لا تقلق.. أعددنا لك غرفة مكيفة..

تلفت "عوض" حوله. كان معبد أبيدوس يقبع بشموخ على مدى بصره، واستقرت عيناه ناحية المنزل المنشود، كانت السيارات التي تحمل المؤن واقفة أمامه، وترتفع على عمودين يافطة كبيرة تعلن عن المقر الانتخابي للنائب الموقر "قاسم الدندراوى" ويبشر أهالي المنطقة بإنشاء مضيضة ومركز صحي ومسجد ملحق به دار للمناسبات وحضانة للأطفال.

سار "عوض" بجانب "عصام" الذى ترجل من السيارة قائلاً:

- إذا أردت أن تقوم بعمل ضد الحكومة فمن الأفضل أن تقوم به أمام عينيها، وتحت حراسة النقطة..

أشار بيده على مقر للشرطة قريب منهم:

- كانت المهمة الأصعب هي شراء المنزل الذى كان ملكاً لعائلة هاجرت من البلدة منذ سنوات طويلة، ويعيش من تبقى منهم في القاهرة، أبدوا استعدادهم لبيعه عندما اتصل بهم "الباشا" وأفهمهم أن المشروع سيخدم أهل القرية كلهم مجاناً، وطبعاً هم سيحصلون على مبلغ خيالي مقابله، وشرعنا في البناء مباشرة وسط سعادة أهل القرية كلها.. أما المنطقة التي بها البئر، فستحول لحديقة بها حضانة لأطفال القرية، على الأقل سيستفيدون من الخدمات التي سنقدمها لهم، أليس هذا أفضل لهم من العثور على آثار ستلقى داخل المخازن؟

لم يستطع "عوض" أن يمنع نفسه من أن يعلق:

- وأنا كنت أعتقد أن لديّ جيشاً من الجان والمردة!

التوت شفتا "عصام" بابتسامة باهتة:

- لا تنس.. أنت مقاول تعمل في إحدى شركاتنا.. ستقوم بعملية التشطيب الداخلي.. الآن ارتاح في غرفتك.. وستجد من يقوم على خدمتك.. كل ما تحتاجه موجود بالداخل..

شق "عوض" طريقه في وسط أكوام مخلفات البناء، ومن خلفه صرخ "عصام" بصوت جهوري:

- يا "خلف"..
أسرع إليه الخفير مهزولاً، وهو يعلق على كتفه بندقية آلية، فقال "عصام":

- أنت في خدمة "عوض" بيه.. تلبى له كل احتياجاته.. فاهم..

هز الخفير رأسه عدة مرات حتى كاد يخلعها. صافح "عصام" "عوض"، وقال له:

- سأعود في المساء..

ألقي "عوض" بجسده المنهك على أحد المقاعد الخشبية، وأخذ يفكر في الترتيب للدخول إلى المقبرة. ذهب "خلف" مسرعاً، وعاد حاملاً صينية من النحاس عليها كوبان من الشاي. ناول "عوض" أحدهما، وتربع هو على الأرض راشقاً جرعات كبيرة من الشاي الساخن، وانهمك في ثرثرة عن ضرورة تناول الشاي ساخناً، ساخراً من المصراوية الذين ينفخون في الكوب ليبردوها. نظر إليه "عوض" بابتسامة باهتة، فصمت الخفير وقد شعر أنه ربما أغضب ضيف "قاسم" بيه، فسأله "عوض":

- إنت منين يا خلف؟

وكأنه كان ينتظر السؤال:

- أنا من العرابة المدفونة من بني منصور أنفسهم..

قال الخفير جملته الأخيرة بفخر ملحوظ، وتقمص روح عالم في الأنساب،
ليكمل:

أصل العرابة من قبيلة "محمد بني مطاوع" التي جاءت هنا من "حمير" في
"اليمن"، من أكثر من ألف سنة.. وبعد ما استقروا تعاركوا مع ولاد عمهم،
فحكم شيخ القبيلة عليهم أن يتوزعوا بعيداً عن بعض.. فرحل عرب "أبو
عزيز" يمين وعرب "أبو دنقل" شمال.. وبقي عرب "أبو منصور" في "العرابة
"المدفونة" وبلهجة حاول أن يشوبها كثير من التسامح" .. يعنى كلنا ولاد عم..
تركه "عوض" ووقف أمام نافذة عريضة، كشفت له عن الصحراء الممتدة،
وعلى مرمى البصر بدت أسوار معبد أبيدوس العظيم. تعلق نظره بأسوار المعبد
الذي كان كعبة يحج إليها قدماء المصريين، للتقرب إلى "أوزوريس"، والحصول
على الغفران.

سرح عقله وهو يتصور الكهنة برؤوسهم المحلوقة وزيمهم الأبيض، وهم
يتجولون داخل أروقة المعبد حاملين بين أيديهم الرقاع المقدسة، ومواد
التحنيط، وينعمون بالعزلة خلف أسوارهم، بعدما اطمأنوا إلى انصياح الشعب
لإرادتهم المقدسة.

ابتسم وهو يذكر نفسه بأن يطلب من أحد ملوك الجان، بأن ينقل له مشهداً
للسحرة من الكهنة داخل معبد "أبيدوس".

أعاده إلى الواقع صوت "خلف"، وهو يهمس بجوار أذنه:

- حضرتك عارف أن كل الأماكن هنا مليانة أثارا.. وأهل البلد
كلهم متأكدين أن راس "أوزوريس" مدفونة في مكان ما تحت

بيوتهم..

شعر "عوض" بجفاف حلقة من الحر الشديد، وتغاضى عن معلومات "خلف" الأثرية، وقرر أن يصرفه عنه بإبداء رغبته فى النوم قليلاً..



عاد "مروان" للجلوس إلى مكتبه، بعد انصراف "مايا" و "عمر". وضع أمامه المفكرة الصغيرة والنص الجديد، تفحصهما وحواسه التحليلية تيقظ. حاول كثيراً مع الأرقام المتراسة بجوار بعضها. تأكد بعد عدد من المحاولات بأنها ليست تواريخ ميلاد ولا أرقام تليفونات.

قرر فى النهاية أن يذهب إلى قسم تحليل البيانات بالجهاز، وطلب من أحد المتخصصين أن يتفرغ تماماً، لمعرفة ماذا تعنى تلك الأرقام والرموز أسفلها، وأن يعمل آخر من قسمه على معرفة المكان الذى يشير إليه نص "النور" وقبل أن يستدير منصرفاً، أمهله عدة ساعات حتى يأتى بالنتيجة.

لم يمر أكثر من ساعتين. سمع دقات خافتة على باب مكتبه، ودخل الشاب الذى كان مكلفاً بتحليل الأرقام. أشار إليه "مروان" بالجلوس. لمعت عينا الشاب، وهو يضع المفكرة أمامه، وشرع فى الحديث بهدوء عن كل مقام به، حتى توصل إلى حقيقة الأرقام بشكل مؤكد، وأنها أرقام حسابات فى أحد البنوك البريطانية، ويرجح أنها لبنك "باركليز".

لمع فى عقل "مروان" على الفور صورة "أديرا" التى تعمل فى نفس البنك. تنفس بعمق وارتياح لاحظه محلل البيانات الذى شعر بالفخر، لنجاحه فى مهمته التى لا يعرف عنها الكثير.

مال "مروان" إلى الأمام، وسأل الشاب:

- هل هناك إمكانية لاختراق تلك الحسابات، ومعرفة أسماء أصحابها

وحجم الأموال بها؟

توهجت عينا الشاب الذي شعر أنه في خضم عملية مهمة، وبدأ عليه الأسف

وهو يقول:

- هذا ممكن طبعاً ويحتاج إلى اختراق أنظمة البنك.. ولكن المشكلة أن

هذا الاختراق يمكن أن يترك أثراً يدل علينا.. لأننى بكل تأكيد

سأستخدم الأجهزة العالية التقنية التابعة للأمن الوطنى.. ويمكن

أن يتم اكتشاف تسللنا لنظامهم..

تراجع "مروان" برأسه على ظهر مقعده، وأغمض عينيه قليلاً، كعادته كلما

استغرق في التفكير. مضت دقائق، وتامل الشاب في مقعده.

فتح "مروان" عينيه، ونظر له بهدوء وشكره مشيراً إليه بالانصراف.

راقب الباب حتى أغلقه الشاب من خلفه. وأمسك بهاتفه المحمول، بعد أن

كست وجهه ابتسامة عريضة. ردت "مريم" بصوت هامس، ففي أوقات العمل

لا تستخدم الموبايل، ولكنها عندما شاهدت رقمه أجابت على الفور وهى قلقة.

أدرك "مروان" أنه سبب لها حرجاً، فاتفق معها بسرعة على اللقاء في نفس المطعم

بعد انتهاء عملها. وافقت وأغلقت الهاتف بسرعة.

نظر في ساعته، وأدرك أن أمامه عدة ساعات على لقائه بـ "مريم". جمع صور

"يوسف" وخرائطه في مطروف كبير. لم يستقل المصعد، وفضل أن يهبط الدرج

متأنياً. ركب سيارته وطلب من السائق أن يتوجه ناحية "شارع المعز". توقفت

السيارة أمام الشارع. هبط منها واخترق الزحام في تلك الساعة من النهار.

وصل إلى حارة الصالحية. نظر إلى داخل المحل عبر الزجاج. كان "داود" جالساً في مكانه المعتاد خلف المكتب القديم، ويعبث بعدد من الأحجار الكريمة أمامه، تأمله قليلاً قبل أن يفتح الباب، وحين دخل، رفع "داود" عينيه فشاهده، ولم يستطع أن يخفى ومضة من الامتعاض، ظهرت على وجهه، لحظها "مروان" على الفور وتجاهلها تماماً.

تبادلا التحية والمجاملات، وشعر "مروان" بتيار خفي من التوتر في المكان، وهو يعلم جيداً أنه تسبب فيه بزيارته المفاجئة لـ "داود". والأخير ينظر إليه ملياً بملامح التوقع لحدث مهم، ووقف مشيراً له بأن يتبعه إلى الغرفة الداخلية. جلس "داود" خلف مكتبه، بينما تفحص "مروان" المكان الذي امتلأت جدرانها بعقود من الأحجار مختلفة الألوان. فسأله العجوز:

- خير يا مروان بيه؟

- أبداً.. جئت لأعيد الصور..

رشف "مروان" القهوة التي قدمها له، وسأله:

- أريد أن أعرف سر أسفار "يوسف" لكل الأضرحة اليهودية في

البلاد العربية ومناطق بعينها في سيناء؟

تغضن جين "داود"، وفتح فمه ليتحدث ثم عاد وأغلقه وجال ببصره في المكان، كان عقله يعمل سريعاً في تلك اللحظة، فقد خطر له في البداية أن يراوغ، وتخلّى عن هذا الخاطر، عندما وضع "مروان" أمامه الخرائط الصفراء الحائلة اللون.

تنهد "داود" وأشاح بوجهه عنها وتمتم قائلاً:

- كيف عثرت عليها؟.. كنت أظن أنها ضاعت..

هم "داود" بالوقوف، ثم غير رأيه، فرك يديه بقوة، وابتسم بسخرية وهو يقول:

- بوذا له مقولة رائعة كنت كثيراً ما أذكرها وأعتبر أنها نصيحة جيدة من حكيم له خبرة في الحياة وما بعدها؛ قال "لا تسرح في الماضي ولا تحلم في المستقبل بل ركز ذهنك على الحاضر" ولكن يبدو أن الحكيم فاته الكثير، فالماضي لا ينتهي أبداً، فهو شبح يسكن جزءاً مهجوراً من نفوسنا، يكفي أن يتسلل إليه نقطة صغيرة من الضوء ليصبحو معربداً من جديد..

اكتفى "مروان" بهز رأسه موافقاً، تاركاً له الوقت ليستجمع شجاعته، ويقص عليه أخبار الشبح المخفي في الظلام.

مد "داود" يده إلى نظارته وخلعها، تطلع إلى ضيفه بثبات، وبشيء من التحدي حكى له عن أحلام "يوسف" في نصرته التاريخ الدامي لليهود، بصناعة تاريخ موثق لهم، كان واثقاً من أنه حقيقي..

حدثه عن حيرة شقيقه في اختفاء كل أثر لليهود في كل الأماكن التي مروا بها، حتى في أيام صحبة المؤمنين منهم لـ"نبي الله موسى"، ومعاناتهم في كبح جماح المارقين المتمردين على الله. كان كل ما يرغب فيه أن يشير التاريخ إلى خطوات الطيبين منهم الذين عاشوا بين الناس كالبشر.

ابتلع "داود" ريقه، ومد يداً مرتعشة إلى كوب الماء، وقال:

- كل أفكاره تغيرت بعد العام الذي قضاه في السجن، والتقى فيه كثيرين ممن ساعدوه على اكتشاف الحقيقة. خرج بعدها لينقلب على كل ما آمن به. فهم أن ما وهب له حياته من دفن آثار مزيفة بين

القبور والحقول ورمال الصحاري ما هو إلا تخاريف رجل حالم لم يعرف الكثير عن الدنيا الحقيقية. تخلى عن مهمته التي كان يصفها بالمقدسة..

أتذكر جيداً الليلة التي خرج فيها من السجن. كان يبدو في هيئة ناسك مسكين. قال لي وقتها " كنت أظن أن السجن عقاب غير مستحق، ولكنه كان بمثابة طوق الإنقاذ لي من أوهام عشت فيها كثيراً، فلا أحد قادر على أن يقف أمام مشيئة الله التي قضت بضياغ خطوات قومنا إلى الأبد"..

نظر "داود" إلى "مروان" باحثاً في وجهه عن رد فعل، فلم يلمح سوى تركيز شديد يدعوه لإكمال روايته:

- أبلغني وقتها بقراره بعدم تسليم الخرائط التي رسمها بشكل كروكي للمنظمة اليهودية التي كانت تعمل في مصر، والتحق بها من أجل ندوات شرح التوراة. حاولوا كثيراً الاتصال به عبر العديد من القنوات، كان دائماً رده عليهم واحداً، أن تلك الأوراق ضاعت واختفت من يوم دخوله السجن، كرروا طلبهم منه بأن يعود لرسمها من الذاكرة، ليدهم على المواضيع التي دفن فيها الآثار المزيفة، فرفض وتحجج بأن كل شيء تبخر من عقله..

لم يصدقوه أبداً فهو تراجع عن فكرة تسليمهم تلك الأوراق منذ البداية، ولم يكن السجن إلا النقطة الفارقة التي اقتحمت حياته، فغيرتها كلها ومن بعدها تمتع بالعزلة كخيار أخير..

غمغم "داود" متسائلاً:

- هل تعتقد أنه تعرض للقتل بسبب تلك الأوراق؟

لم يجبه "مروان"، بل سأله بهدوء:

- من هم الذين حاولوا الاتصال به للحصول على الخرائط؟
- آه.. هذه أمور قديمة.. لم يحدثنى عنها أبداً بالتفصيل.. حتى أنه قرر أن ينسى الأمر برمته، ولم أفاتحه فيه من وقتها.. ولكن هل هم من قتلوه؟

عاود السؤال ولم يتمكن من حبس دموعه، فقال "مروان":

- حقيقة لا أستطيع ان أجيبك الآن عمن قتله، ولكن من المؤكد أن تلك الأوراق أحد الأسباب التي أدت إلى مقتله..
- طأطأ "داود" رأسه قائلاً:

- الآن فقط أشعر بأن شقيقى مات.. لم أكن أتصور أنه يحتفظ بتلك الأوراق كل هذه السنوات وفي النهاية تسببت بمقتله..
- تهبأ "مروان" للانصراف:

- كانوا سيقتلونهم في كل الأحوال.. ليس من أجل الحصول على الأوراق فقط.. بل لأنه يعرف..
- لى عندك رجاء

قالها "داود" بصوت مرتعش، وأردف:

- لا أريد أن تعرف "مايا" شيئاً عن ماضى شقيقى.. أو علاقته بتلك المنظمة اليهودية.. والمهمة التى كان ينفذها من أجلهم..
- تعلقت عينا "داود" بـ"مروان"، لم يظهر الأخير أى رد فعل، واكتفى بهز رأسه موافقاً.

غادر "مروان" الحارة الصاخبة التي تنيرها ألوان الأحجار البراقة. حدث نفسه بأن ما سيجلي غموض هذه القضية هو معرفة سبب توقيت قتل "يوسف نسيم نقاش".

أخرجه من أفكاره رنين هاتفه، وعلى الفور قالت "مايا" له:

- لقد نجحت في فك شفرة النص.. وحددت المكان أيضاً..

صمت للحظات، وسألها عما توصلت إليه، فرفضت أن تفصح عنه حتى تلقاه، فاعتذر لها عن مقابلتها في الحال، واتفقا على اللقاء في مكتبه صباح الغد، وحذرهما من الإفصاح لأى شخص عما توصلت إليه. أغلق الهاتف، وهو لا يخفي سعادته بقرب نهاية القضية، وطلب من سائقه أن ينطلق بأقصى سرعة، ليلحق بموعده مع "مريم".

تململ "عوض" في سريره الضيق بعد أن أفاق من نومه. استغرق ثواني ليعرف أين هو. سحب جسده لأعلى مرسلًا بصره ناحية النافذة. أطلق زفرة حارة بعد أن اكتشف أنه نام ثلاث ساعات متواصلة، وشعر بحاجته إلى شرب ماء بارد.

فتح باب الغرفة ليجد "خلف" مستلقياً على دكة خشبية. انتفض الخفير بسرعة عندما شاهده، وسأله "عوض":

- أين "قاسم بيه"؟

فهم "خلف" أنه يسأل عنه بسبب الطعام، فأشار له على مائدة تحوى عدة أطباق وطواجن، وقال: . البيه أرسل الطعام من المنزل.. وهو لن يأتي لأنه في "مصر".. وسيأتى "عصام" بيه بعد أن تأكل بالهنا والشفاء..

قال كلماته الأخيرة، وهو يجز المائدة، مخلفاً دوائر ترابية تعلقت في الجو قليلاً، قبل أن يستقر بعضها على وجه "عوض". لم يهتم ومسح فمه بيده، وانهمك في تناول الطعام بشراهة، ودعا "خلف" ليشاركه الطعام.

أسرع "خلف"، بإعداد الشاي، وتناولاه في صمت، قطعه صوت توقف سيارة خارج المنزل، هب الخفير واقفاً ليستقبل "عصام" الذي دخل وأشار له بأن يخرج، ليذهب للنوم في غرفته خارج المنزل.

جلس "عصام" بجوار "عوض"، وربت على كتفه قائلاً:

- أتمنى أن تكون مرتاحاً في إقامتك..
- كل شيء تمام.. نريد أن نبدأ.. فالرحلة القادمة شديدة الصعوبة.. وسأقوم بها وحدي..

أكمل "عوض" هامساً:

- بعد فتح المقبرة سنحتاج ثلاثة أيام لتهويتها حتى تخرج منها الأبخرة والغازات السامة المختزنة بداخلها.. ثم ستصبح جاهزة لنقل ما بداخلها.. وعليك أن تقوم بتجهيز روافع وحبال وكشافات إضاءة مشحونة.. وأقنعة للحماية من الغازات كالتى تستخدمها الشرطة..

لم يعلق "عصام" الذي كان يستمع بانتباه شديد، فقال "عوض":

- كل ما أخاف منه الآن هو اضطرارنا إلى توسيع النفق المؤدي إلى المقبرة.. حتى نتمكن من إخراج ما بها..

خيم صمت مطبق على المنزل الذى يقع على أطراف الصحراء. انطلق عواء

سرب من الضباع التى زحفت من الجبل القريب عليهم. ملأت أصواتها المخيفة

المكان. انتفض "عوض" وأغمض عينيه، للحظة تصور أن القطيع سيهجم عليه وسينهش لحمه. هز رأسه طارداً المخاوف التي داهمته.
رفع "عصام" حاجبيه، محدقاً في "عوض" التي بدت ملامحه شاحبة، فابتسم وهو يربت على كتفه:

- لا تخش شيئاً.. ليست هي المرة الأولى التي نفتح فيها مقبرة.. ولن نعبث بالنفق حتى لا ينهار.. بالتأكيد سيكون للمقبرة مدخل آخر سنعرفه بعد دخولنا.. المهم أننا سنبدأ من الليلة فالوقت ضيق.. ونريد أن ننتهي من تلك المهمة بسرعة..
وقف "عصام" مشيراً لـ "عوض" أن يتبعه. اخترقا بهو المنزل، وخرجا للساحة الخلفية، توقفا أمام البئر المغطى بلوح خشبي أزاحه "عصام" بحركة واحدة من يده.
ركع "عوض" على ركبتيه، ودلى رأسه بداخل البئر. صرخ صرخة أفزعت "عصام"، تمت بعدها بكلمات، وتراجع للخلف مذعوراً، ورفع وجهه المحتقن وقال:

- البئر مسكون، ولا يمكن أن أهبط بداخله إلا إذا ما قضيت على من فيه أولاً.. لم أر شيئاً له إلا في منطقة "حائل بالسعودية".. هناك آبار تعرف بآبار لينه مسكونة بالجان.. سأعمل من الليلة.. كل ما أريده منك أن تغلق الباب وترحل وتمنع أى شخص من الاقتراب من المنزل حتى بزوغ الفجر.. سنؤجل فتح المقبرة ليلية الغد..
تراجع "عصام" بظهره. لم يستطع أن يسيطر على الرعدة التي أصابته، فقد اعتاد أن يبيت في كهوف الجبل الشرقي، أو يلاقي مجموعات من الرجال مدججة بالسلاح، لكنه لم يكن معتاداً على مواجهة الجان والمردة.

خرج مسرعاً، وتوجه ناحية سيارته، متوياً أن يظل بها حتى بزوغ الفجر.
قام "عوض" مثاقلاً. ركز نظره على فتحة البئر، شاهد جيوشاً من العناكب
السوداء تتسلل من داخل البئر وتستلقى على حافته. اقترب منها ببطء، وهو
يتمتم بصوت خفيض خرج منه، كأنه فحيح أفعى تمكنت من فريستها:

**"صعى يا غينائيل، يالليفوما املوخوا ملخوا ملخون، يا أرعد أرعايرصون يا سما درر،
يامنتح شمخيثا سلامون".**

انتفخت أوداج "عوض"، وتقلب لون وجهه ما بين الأحمر والأزرق، حتى
بدا وكأنه سيختق، نظر إلى العناكب وهى تتساقط وتبعثها أفاع سوداء
وعقارب، كانت تقفز من البئر وتسقط على الأرض الترابية مصعوقة تفوح منها
رائحة الحريق.

صرخ "عوض":

- يا "مبيطرون" أصعقهم وأقضى عليهم جميعاً.. لا تترك منهم أحداً..
إحرقهم.. إحرقهم.. إحرقهم..

ظل يصرخ مردداً "إحرقهم" كانت قدماه تحوران ولا تقويان على حمله. دار
في حلقات حول البئر، وهو بالكاد يجر قدميه جراً، ثم تهاوى على الأرض لاهثاً،
وتبلل جسده كله بباء ساخن، كأنه سقط في بركة من الماء.

فتح عينيه ببطء. لم يكن قادراً على الرؤية بسبب الدخان الأسود الكثيف.
استلقى بظهره على الأرض الترابية، غاب عن الوعي قرابة الساعة. فتح عينيه
بعدها ليطلعه مشهد السماء الداكنة الزرقة. راقب لمعان النجوم التي كانت تظهر
وتختفي. شعر بخوف ورعب شل حركته. زحف على ظهره محاولاً الهروب من
السماء التي كانت تتهاوى لتطبق عليه وتسحقه.

أغمض عينيه، وشعر أن الأرض تحاول أن تبتلعه. غاب عن الوعي مجدداً، ليستيقظ على يد تهزه بعنف. فتح عينيه بثقل. كان هناك من يحاول أن يجعله يفيق، وعندما فشل جره حتى ألقاه فوق السرير، وكان آخر ما سمعه صوت الباب، وهو يغلق بعنف.



دفع "مروان" الباب الزجاجي للمطعم، بحث بعينه عن مائدة مناسبة. كانت طبيعته الأمنية تتحكم به دائماً. وقع اختياره على مائدة يستطيع من خلالها مراقبة المدخل بدون جهد. قبل أن يأتي إليه النادل، رأى "مريم" تتهاذى كفراشة برية ممتلئة بالرحيق حتى آخرها. استقبلها مبتسماً، ومن فرط سعادته بلقائها، كاد أن ينسى سبب لقائهما. حدق بها لدقائق حتى أشاحت بوجهها بعيداً وهي تقول:

- هل تراني لأول مرة؟

- في كل مرة أراك فيها أشعر بدهشة تجعلني لا أكف عن النظر

إليك..

أمسك بيدها محاولاً أن يضعها على قلبه، فسحبها بسرعة وهي تضحك

بخجل قائلة:

- هل جنت؟

هز رأسه قائلاً:

- نعم جنت.. ولن أتحمل البعد عنك أكثر من هذا.. القضية

المزعجة التي أعمل عليها.. كادت تنتهي.. وأنت من ستساعديني

على إنهاؤها بسرعة..

- أنا..

قالتها بتعجب وهي تنظر إليه مبتسمة.

- نعم أنت..

أخرج من جيب سترته المفكرة الصغيرة وأشار لها:

- انظري لهذه الأرقام.. لقد توصلنا إلى أنها أرقام حسابات في بنك

"باركليز بلندن".. نريد أن نتعقبها لنعرف أصحابها.. ولا يوجد

أفضل منك لكي تقوم بهذه المهمة..

ضحكت حتى طفرت الدموع من عينيها، وهمست وهي تقرب رأسها منه:

- الأمن الوطني يعجز عن تعقبها وأنجح أنا!

عادت ملامح الجدية لتكسو وجه "مروان"، وقال بصوت خافت:

- المشكلة أننا إذا قمنا باختراق حسابات البنك.. فقد يصلوا إلينا..

وهو ما قد يتسبب في أزمة دولية.. ويمكن أن يوجه لنا اتهاماً

بمحاولة اختراق نظام بنك في دولة أجنبية.. أما انتِ فأنا أعلم أنك

من العباقرة القلائل القادرين على القيام بمثل هذا العمل بدون أن

تتركي أثراً خلفك.. وهو ما جعل "بيل جيتس" يلهث خلفك

لتوظيفك عنده.. ولكن حبيبتى وزوجتي المستقبلية رفضت هذا

العرض الذي يتمناه الكثيرون في العالم كله..

- أريد أن أتمشى قليلاً..

قالتها ووقفت، فأسرع "مروان" بطلب الحساب ولحق بها. تمشياً معاً وهما

متشابكا الأيدي. نظرت إليه بوله، وقالت:

- أمهلني عدة أيام وسأتي لك بالمطلوب..

تمنى "مروان" أن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، وهو يسير بجانبها، عندها رن هاتفه المحمول.

ركل حجارة الرصيف بقدمه وصرخ متأوها من الألم، فغرقت "مريم" في الضحك، فنظر لها بعتاب وهو يرد على "خالد" بعصية لم يلحظها الأخير، وقال إنه يحمل أخباراً جديدة، حول تعقب القوارب واليخوت التي خرجت إلى عرض البحر في الغردقة، وفي نفس توقيت اختفاء القاتل.

- سآتي إلى المكتب بعد قليل..

قالها ولم يسأله عن التفاصيل كعادته، بل كاد يغلق الهاتف في وجه "خالد"، بينما الأخير تعجب من إنهائه المكالمة بهذه السرعة.

"كيف يمكنها أن تجعلني أسيراً لها. لماذا استسلمت بكل هذا الهدوء. لم أكن أتصور يوماً أن أجعل عمري رهينة لابتسامة مفاجئة ترتسم على شفثتها. لماذا تغرقني هي بسعادة تجعلني أنسى أن هناك في الحياة أشياء أخرى تتسبب بالسعادة، لماذا كلما أحول وجهي لا أرى سواها، حتى في الظلام أراها مضيئة كالنجوم..

هل حبي لها سيتركني ضعيفاً وعاجزاً، حتى أنها يمكن أن تجعلني ألعبوبة مضحكة، إذا أرادت هي ذلك، لا.. لا يمكن أن يسعى ملاك لهذا. هي تحبني بصدق يجعلني أشعر بالحرية، أنا متأكد من أنني اخترت قيودي الناعمة بعقل رشيد..

الآن.. أريد أن أنتهي من تلك القضية التي تشابكت أطرافها بشكل مثير، ومسألة "مايا" تسبب لي ضيقاً شديداً، فلا بد أن أخرجها من تلك الدائرة بسرعة".



توقفت السيارة أمام المبنى. قفز منها "مروان" مسرعاً، بعد أن نحى مشاعره جانبا. كان ثمة رجلا أمن يدخانان على الباب، عندما شاهدها ألقيا بالسجارتين، وهما يتحسran على عدة أنفاس باقية تقترب من الفلتر. لم يعرهما انتباهاً وطوى درجات السلم دون أن ينتظر المصعد، فلم يكن يحتمل الانتظار.

قال خالد:

- فتشنا كل شبر في الغردقة.. لا وجود لـ "بيترو" فيها.. ولم يخرج من أي منفذ في مصر. لم يبق لنا إلا البحر..
بدا نفاذ الصبر على وجه "مروان"، مما جعل "خالد" يتغاضى عن التفاصيل التي يعلم أنه يعرفها، وأخبره:

- جمعنا كل المعلومات عن المراكب واليخوت التي خرجت إلى البحر في نفس توقيت وصول القاتل إليها.. كان يخت "هادى عبد الرحيم صقر" صاحب "قرية القمر".. هو الوحيد الذي توغل في البحر.. حتى كاد يقترب من المياه الإقليمية.. المشكلة أن هذا الرجل يمتلك حجم علاقات متشعبة مع مسئولين كبار وعدد من أعضاء البرلمان.. وعلى صلة قوية بكل محافظ يأتي للمدينة.. كما أنه يبدو نظيفاً تماماً.. ومعروف في الغردقة بأنه رجل عصامي.. وإن كانت ثروته تتضخم بشكل مريب.. وهو لا يكاد يخرج من قريته.. والغريب أن أسرته ما زالت تقيم في الصعيد.. فهو يرفض تماماً أن يعيشوا معه.. ولا يوجد بجانبه سوى شقيقه الصغير..

لم ينتظر "خالد" تعقياً من "مروان"، وأكمل:

- رحلته الأخيرة في البحر كانت من أجل الصيد.. واصطحب معه على المركب عدداً من أعضاء البرلمان ووزيراً سابقاً وثلاثة من أصحاب القرى السياحية منهم "سعيد أبوليلة" رئيس نادى السباق المشهور وعدد من رجال الأعمال.. لدينا قائمة بأسمائهم.. كلهم من هواة الصيد.. والرحلة استغرقت ثلاثة أيام.. عادوا بعدها بصناديق مملوءة بالأسماك..

استغرق "مروان" لحظة حتى يرتب أفكاره. ثم رفع بصره لـ "خالد" قائلاً:

- أريد أن أعرف ما لا يعرفه "هادى" عن نفسه.. تتبع كل مكالمات التليفون التي يجريها.. أريد مراقبة كاملة للتليفونات الأرضية في القرية السياحية.. كل من يتردد عليه.. كل معارفه وأصدقائه.. أريد أن أعرف حجم أرباحه من القرية وحجم ثروته كلها.. أعتقد أننا أمام شخص مهم جداً..

كان "مروان" يفكر في سيناريو وحيد من شأنه تفسير التطورات التي وقعت مؤخراً، وهو وجود علاقة تجمع ما بين "يوسف" و "سالم" وهذه العلاقة هي التي أدت إلى مقتل الإثنين، رغم أنها لم يلتقيا أبداً، ولكن هناك رابطة واحدة تجمع بينهما، وهي خرائط "يوسف" التي كشفت عن سره الدفين في دفن الآثار المزيقة في المناطق التي عاش فيها اليهود، وعمل "سالم" كمرشد سياحي..

لمع في عقله سؤال مفاجئ، هل كان "سالم" على اتصال بأي من المنظمات اليهودية التي كانت تبحث عن خرائط "يوسف"؟

قبل أن يغرق في مزيد من التحليلات، دق جرس الهاتف، فتناول السماعة

مسرعاً.

كان المتحدث من قسم تحليل البيانات الذى فجر له مفاجأة غير متوقعة، فرغم أن نص "النور" يبدو من كلماته أنه يشير إلى مكان مسيحي، إلا أن الكلمة الرئيسية فيه وهى "الضيف" اسم لقبيلة عربية حجازية الأصل فرضت سيطرتها على "نجد" خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الهجرى، وكانوا يسكنون قبالة المدينة المنورة، وينتشرون الآن في كل دول الخليج وفي سوريا وجنوب تركيا.

أنهى الرجل حديثه وهو يعد بمزيد من البحث.

تجدت جبهة "مروان"، وهو ينصت إليه:

- نعم.. نعم.. حسناً..

أغلق الهاتف بانزعاج، وحدث نفسه: "سنرى ما توصلت إليه "مايا" غدا".

- 11 -

البيئر

- كيف يمكنه أن يظل نائماً حتى الآن؟

سألت "مايا" "أم أمينة"، مشيرة برأسها نحو غرفة نوم جدها. أمسكت بمقبض الباب، ووقفت جامدة لوهلة عند عتبة الباب. نادى عليه فرفع رأسه المنحني على الجريدة. خلع نظارته ووضعها جانباً والتفت ناحيتها. هزعت إليه وعانقته بقوة.

- حبيتي مايا..

همس بوجه مشرق بالحنان:

- لا تخافي أنا في حالة جيدة.. كل ما في الأمر أنني لم أشعر برغبة في الخروج من المنزل وفضلت أن أظل في السرير..

- الحمد لله.. أنا سعيدة أنك بحالة جيدة.. لا تتصور كم الرعب الذي انتابني عندما عرفت أنك ما تزال في سريرك حتى الآن.. سأذهب الآن فأمامي يوم عمل طويل..

تورد خذاها، عندما نطقت بجملتها الأخيرة، وكأنها أفضت له بسر غرامي.. "مالي أصبحت أبدو كالبلهاء، بمجرد أن فكرت في لقائي بـ"عمر"، واحمر وجهي على هذا النحو. أتمنى ألا يلاحظ جدي شيئاً، حتى أتأكد من مشاعره ناحيتي. لا أريد أن أجعله قلقاً أو مشغولاً بسببي، فيكفى ما تعرض له في الأيام الأخيرة..

خطر ببالي في تلك اللحظة، أنني أعيش في أحلام وأوهام ومشاعر صنعتها بنفسي، وأن "عمر" يتعامل معي بطريقة عادية، وأنني من اخترعت مشاعر الحب التي أحسها ناحيته.. آه.. ستكون كارثة حقيقية، ففي المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً بدون أن أحيط نفسي بكل دروع الحذر والحيلة، أقع في حبه

بدون أن أتأكد من مشاعره ناحيتي، وقد يكون لاحظ مشاعري وقرر أن يتعامل معي بشفقة أو بسخرية".

أخرجها رنين هاتفها من أفكارها التي كانت تجذبها ناحية البكاء. أنساها صوت "عمر" كل الخطط التي كانت تنوي وضعها لمقاومته. شرح لها أين سيلتقيها ليذهبا معا للقاء "مروان". صمت وهي تحدثه عن عبقرية "سالم" الذي صنع من نص "النور" خريطة مشفرة تقود إلى مكان غير متوقع.

أنهت المكالمات ووضعت الهاتف في حقيبتها، وقادت سيارتها حتى مكان اللقاء، لمحته متكئاً على سيارته، وينشغل بالعبث في تليفونه. رفع بصره فشاهدها وهي تراقبه. لمعت عيناه وابتسم لها. لوح له بيدها وعبرت الطريق ناحيته.

حدثت نفسها "نظرة عينيه، هي نظرة رجل غارق في الحب، لقد شعر بها قلبي.. قلبي لا يكذب".

استقبلها "مروان" مرحباً. وبدأ مرحاً وهو يشير لهما بالجلوس:
- لقد أصبحتما تكونان معا فريقاً ناجحاً..

تشاغلت "مايا" بالعبث في حقيبتها، لتخفي احمرار وجهها، وهي تلوم نفسها على عدم قدرتها في التحكم بمشاعرها التي وشت بها لـ "مروان".
قررت أن تتمالك زمام نفسها، وتسترد شخصية عالمة الآثار. نظرت إليه مبتسمة وهي تقول:

- أخيم.. الجبل الشرقي.. دير "السيدة العذراء"..

بذل " مروان " جهداً هائلاً ليخفي دهشته وإعجابه بذكائها الحاد. لم ينجح تماماً في محاولته، فقد نجحت في التقاط ردة فعله التي فهمت منها، أنه لم يتوصل إلى حل اللغز.

لم تنتظر "مايا" أن يسألها ضابط الأمن الوطني عن سر النص. فتحت حقيبتها، وأخرجت منها عدة أوراق، وعادت بظهرها إلى الخلف. تحدثت بصوت هادئ رخيم، كان كثيراً ما يؤثر في طلابها، ويضيف إلى عمرها أعواماً عديدة..

"ولما حلقت الملائكة فوق الأرض المسحورة، نشرت أجنحتها النورانية، لتحتضن بين طياتها سيدة النور، ليشع ضوءها ويبدد الظلام من فوق قمة الجبل، ليتسلل نورها الشاهق إلى "الضفير" وفي آخره يسطع الضوء لينير 7 من الجواهر المقدسة" ..

"ولما حلقت الملائكة فوق "أخيم" نشرت أجنحتها النورانية، لتحتضن بين طياتها "السيدة مريم العذراء" ليشع ضوءها ويبدد الظلام من فوق قمة "الجبل الشرقي" بحى الكوثر بسوهاج والمعروف بدير السيدة العذراء مريم ببرية أخيم، ليتسلل نورها الشاهق إلى "الممر الذى يقع خلف الهيكل ويسمى ممر "الضفير أو السرداب"، طوله 14 متراً وعرضه 175 سم وارتفاعه 225 سم..

كان في الماضي يستخدم كمخبأ يحمي به الرهبان من هجمات المعتدين عليهم، ويوجد به رف بطول السرداب عليه صور وأيقونات ورفات القديسين والشهداء وخصلة من شعر "مريم المجدلية"، وهم ما يطلق عليهم الجواهر المقدسة التي يبلغ عددها 27 جوهرة"

على مسافة أربعة كيلو تقريبا شرق قرية "الحوايش" التى تبعد 12 كيلو شرق "أخيم"، يقع دير "السيدة العذراء"، وتعتبر كنيسة الدير هي المبنى

الرئيسي، ويعود تاريخ بناء الكنيسة إلى القرن السادس عشر، ولكن الأسطورة المرتبطة بموقع الدير عمرها أقدم من ذلك بكثير، وتعود إلى بداية ظهور المسيحية كديانة..

ويقال إن "السيدة مريم" تجلت تحملها الملائكة فوق قمة الجبل، وأن القديس "توما" الذي كان واحداً من تلاميذ المسيح، وحمل رسالته إلى الأرض البعيدة في الهند، أنه شاهد "العذراء" محمولة بين أيادي الملائكة في نفس موقع الدير، أما "أخيم" نفسها فهي قصة أخرى..

توقفت "مايا" لتلتقط أنفاسها، ولم تنتبه في غمرة انفعالها إلى الصمت المشوب بالتوتر.

جلس "مروان" دون أن يأتي بحركة، قطب جبينه قلقاً، مضت بعدها خمس دقائق مرت ببطء شديد قبل أن يلتقط سماعة الهاتف، ويطلب معرفة مواعيد طائرة سوهاج، لم يكذب يضع سماعة الهاتف حتى رن، اكتفى بهز رأسه ووضع السماعة من جديد.

عاد إلى مقعده في مواجهة "عمر" و"مايا"، وبدأت الأخيرة تشعر بموجة من القلق، جعلتها تضع يدها على بطنها، نظر إليهما "مروان" ملياً. لاحظ نظرات الترقب والتحدي التي ارتسمت على وجهيهما. لم يجرب أن يقول ما كان يرغب في تنفيذه. تنهد مرغماً وهو يقول:

- سنلتقي في المطار الساعة السابعة من صباح الغد للسفر إلى سوهاج..

وقف بعدها فاستعد الاثنان للمغادرة.

- هل تناولت الإفطار؟

قالها "عمر" بارتباك، جعل "مايا" تشعر بسعادة بالغة، فهزت رأسها بالنفي،

قائلة:

- لم يكن هناك وقت..

تعمد "عمر" ألا ينظر إليها، وهو يطلب منها أن يتناولاه في مكان لطيف في الهواء الطلق.

ركبت بجانبه في سيارته، كانت تراقبه بطرف عينيها، وتسجل في عقلها كل لفتاته، حتى تعيد تحليلها على مقياس الحب والإعجاب. قررت أن تجمع العلامات على إعجابه بها، وكان ارتبائه الواضح كلما نظر إليها دليلاً.

سارا معا بخطى ثابتة بين طرقات "الداون تاون" بالتجمع، حتى اختارا مائدة في مقهى "بول" الأنيق، انقضت الدقائق الأولى في تفحص قائمة الطعام واختياره. حل بعدها صمت مربك، قطعه "عمر" وهو لا يخفي توتره مما قد يجدونه في دير "السيدة العذراء"!

هبت من جهة مطبخ المقهى رائحة خبز طازج ممتزجة برائحة القهوة، وخففت من حدة التوتر بينهما. خرج صوت "مايا" دافئاً قائلة:

- يبدو أن المرحوم "سالم" قد وقع في ورطة شديدة.. جعلته يبذل كل هذا الجهد.. ويحيط الأمر بقدر كبير من الغموض والسرية والألغاز.. وواضح أنه كان على قدر كبير من الثقافة..

شحب وجه "عمر"، عندما برق في رأسه وجه "سالم"، وتمتم بصوت

منخفض:

- الآن أدرك انه كان خائفاً ومرعوباً علينا.. كل ما فعله كان لحماية..

ولكنه لم يفلح في حماية نفسه..

للحظة، كادت أن تمد يدها لترت على يده، ولكنها تراجع في اللحظة الأخيرة. لاحظ هو وجهها الذي تورد حتى كادت تجهش بالبكاء، فاعتذر لها عن إقحامها في مأساته، وغير دفعة الحديث ناحيتها، فأخبرته عن عملها وعلاقتها بجدها، وضحكت كثيراً، عندما جاءت على ذكر عمها "إسحق" وإيانه الشديد بعودة طوفان الشيوعية كحل وحيد لإصلاح العالم.

عندما قالت جملتها الأخيرة كانت تضحك من قلبها، ثم توقفت عن الضحك مرتبكة، عندما شاهدت نظرتها الحانية التي أضافتها إلى قائمتها.

تردد قليلاً قبل أن يحول دفعة الحديث عن حياتها الشخصية. فهمت ما يرمي إليه. أطرقت برأسها في الأرض قليلاً، ونظرت إليه بثبات قائلة:

- إحساسي الدائم بأنني مختلفة كان بمثابة سور عالٍ يقف بيني وبين

الآخرين، كنت أشعر أن الحب يشبه قيوداً حديدية ستترك آثاراً دامية عليّ، أو أنني قد أغرق في حفرة عميقة ستبتلعني، ولن تقبل بي أن أظل في جوفها، بل ستلفظني مع ألسنة من اللهب الحارق. كنت كثيراً ما أشعر أنني غير مناسبة للحب، فهو أمر يحتاج لأن أحيأ بثلاثة قلوب على الأقل، حتى أهب واحداً لجدي والثاني لعملي والثالث لمن أحبه، ففضلت في النهاية أن أبتعد، وأكتفي باقتسام قلبي ما بين جدي وعملي.

ذهل "عمر" لصدقها الشديد، لم يكن يمتلك إجابة يحاول أن يجعلها تؤمن أنه يتمنى أن تكون غارقة في الحب.. تمنى في تلك اللحظة أن يدس رأسه بين

خصلات شعرها الناعم، ليستنشق رائحته التي كانت تهف ناحيته، كلما تحرك الهواء من حولها، لم يجروا ولكنه لم يكن له سلطان على يده التي امتدت بعفوية لتلمس أصابعها. بدأ قلبها يدق بجنون، وابتسمت بسعادة بعد أن تأكدت من اكتمال العلامات.



تمدد "عوض" على السرير. فتح عينيه بصعوبة، وكأن بها ثقلًا هائلًا يمنعه من أن يفتحهما. لمح ظلاً بطيئاً يتحرك بالقرب من السقف. لم يقدر على تمييزه، ففضل أن يغلقهما من جديد، وتركز انتباهه ناحية الألم الحاد الذي احتل جسده، وجعله يعجز على أن يتقلب، ولبث في موضعه دون أن يأتي بحركة. وقطب جبينه القلق.

كانت تمتد خارج النافذة أرض الصحراء التي تعلم أنه يقدرها ويحترمها، وسكونها العميق هدأ من مخاوفه. تذكر اللحظة التي كاد يموت فيها، عندما حاول سكان البئر أن يجذبوه بداخله ويسكن الآلاف منهم جسده النحيف.

هز رأسه بعنف وتحامل على نفسه، حتى دلى قدميه على الأرض، وخرج باحثاً عن "خلف". صدمته أصوات العمال التي كانت محتبسة وراء الباب. نادى عليه مجدداً، فجاء مهرولاً، طلب منه تحضير بعض الطعام والشاي، وسأله عن "عصام"، فأجابه أنه إطمأن عليه في التليفون، وسيأتي لزيارته في المساء.

لم يخرج "عوض" من باب غرفته مرة أخرى، هرباً من ضجيج العمال. وانتبه على طرقات خفيفة. توقف "عصام" للحظات، وقد اعتراه شعور بالفضول ناحية ضيفهم الساحر، وظن أنه سيجد قروناً خشبية نبتت في وسط رأسه، أو ظهر له ذيل أسود طويل عند مؤخرة ظهره.

كان "عصام" يصلي الفروض بانتظام، ويواظب على أداء العمرة والحج. لم ينس كثيراً من أجزاء القرآن التي حفظها في صغره، حتى أن والده كان يعده لأن يكون واحداً من علماء الأزهر، وبقدر احترام أمه للعمامة والكاكولة الأزهرية، كانت رغبتها التي تسيطر على عقلها تماماً، هي أن تراه محامياً، كخالها الشهير الذي يعيش في القاهرة.

لم ينس عصام الخوف والرعب، ليلة الاقتراب من عالم الجن المحجوب، ولم يستطع أن يمنع نفسه من احتقار "عوض" الساحر الكافر بحكم القرآن.

- كيف حالك اليوم؟

كان ذلك كل ما استطاع قوله، قبل أن يجلس على طرف السرير بحذر، وهو يتحاشى أن يلمسه بيده.

- أنا تمام..

قالها "عوض" وهو يمعن النظر في وجهه، وكأنه يقرأ ما يجول في عقله:

- الليلة سأفتح المقبرة.. أريد كشافاً قوياً معي.. وأريدك أن تنيري البئر من أعلى حتى أصل إلى بداية السرداب.. وتنتظري حتى أعود..

بدا عليه الاضطراب وهو يومئ له برأسه. نظر في ساعته معلقاً:

- اقترب موعد انصراف العمال.. سأخرج الآن لأدفع لهم مستحقاتهم.. وأرسل "خلف" إلى منزل "البية" ليقوم ببعض المهام التي ستتطلب منه أن يبيت هناك.. ثم نبدأ..

لوى "عوض" رقبته لينظر من النافذة. كان الليل يهبط بصمت ثقيل، ناشراً سواداً حالكاً. جفل بقوة جعلت كوب الشاي يرتعش في يده.

تباعده ضجيج العمال، وهم في طريق عودتهم إلى منازلهم القريبة من القرية، وظلت أصدااء ثرثرتهم المتناثره معلقة في الهواء. أعقب ذلك صمت مشوب بالتوتر. قطعه "عوض" بترديد تعاويذه حتى عاد "عصام" حاملاً الكشافات الكهربائية.

توجها ناحية البئر، جربا الكشافات عدة مرات، واطمأنا على أنها تعمل جيداً..

أضاء "عوض" فوهة البئر، باحثاً عن الدرجات الحديدية، وحين وجدها، دلى قدميه بحذر، مؤكداً على "عصام" أن يبقى قريباً منه. استمر في الهبوط، وكلما غاص بداخله داهمته رائحة الحجر المشبع بالماء المتعفن من بقايا الحيوانات النافقة، وعند نهاية درجات السلم أصبح قريباً من سطح الماء، حتى أن أذنه التقطت وشوشة الماء بوضوح.

وجد فتحة السرداب، وحولها التفت نباتات خشنة. انزلق بداخلها ماداً قدميه بهدوء القط الذي يلاحق فريسة غالية. شعر "عوض" بتمزق حاد في أحشائه، بعد أن امتلأ جوفه بروائح كريهة جعلته يرتدى القناع.

هتف به هاتف من أعماقه، أن هذا السرداب لم تطأه قدم منذ أربعة آلاف عام. كان يتوغل داخل السرداب، وهو محني القامة، والهواء يتناقص، والرطوبة المختلطة بالعفن تتزايد. التوى النطق فجأة، وهبط السقف حتى أجبره على أن يزحف على بطنه.

لم يعرف الوقت الذي استغرقه في الزحف، كأفعى عمياء فقدت حاسة الشم، شعر أن صدره سينفجر من قلة الهواء. واصل الزحف خوفاً من أن يشعر أعوانه

من الجان بضعفه، فيقضون عليه داخل السرداب، ويتركونه ليصبح جزءاً من عفن المكان.

حثة خاطر الموت متعفنًا على مواصلة الزحف حتى عاد السرداب للاتساع مرة أخرى. سحب جسده وأسند ظهره على الجدار. خلع القناع باحثاً عن بعض الهواء الذي التقط ذراته بصعوبة شديدة. تمالك نفسه محاولاً الوقوف على قدميه. نجح بعد أن تأرجح مسنداً ذراعيه من الخلف على الجدار الصخري. ومشى بخطوات متعثرة مرسلًا ضوء الكشف أمامه.

فجأة توقف بعد أن تكسر الضوء، وانتشر على جدار توسطه "جعران عملاق". لمعت عيناه الخضراوان عندما سقط الضوء عليه. شهق "عوض" متراجعاً إلى الخلف، حتى كاد يسقط على ظهره. تمالك نفسه، وحرك الضوء ليرى أكواماً من قطع الفخار عليها كتابات فرعونية. ركع على ركبتيه لينظر إليها بدون أن يلمسها، عرف على الفور أنها تعاويذ سحرية لحماية المقبرة، وأنها قد تكون مغموسة بسموم فتاكة.

أغمض عينيه وردد التعويذة التي زوده بها قائد جند الست ملكات، قالها بصوت عال ارتد له عدة مرات، فامتلاً الفراغ المخبأ تحت الأرض من آلاف السنين، بكلمات تعويذته التي بدأت تعطى ثمارها، بعد أن اهتز الجدار، وخرج من بين أحجاره ذرات من التراب الناعم، أعقبها انهيار الجدار بأكمله، وتساعد غبار أبيض ملاً الفراغ كله، وجعل "عوض" يتعد مولياً ظهره للمقبرة.

تمنى في تلك اللحظة، أن يعود أدراجه، ولكنه كان يخاف من ألاعيب الجان التي يعرفها جيداً، فإذا شعروا بخوفه، سيتخلصون منه على الفور.

صاح مناديا على "الملك الأبيض" الذى أصبح خادماً له، أمره بأن ينظف المكان حتى يرى ما بداخله، ويبطل عمل الطلاسّم والأسحار المعلقة على باب المقبرة. وفي لحظات اختفى الغبار الأبيض، واخترق نور الكشف ظلام المقبرة التي تكدست فيها الأواني والحلى وتماثيل الآلهة الذهبية.

فكر أن يدخل المقبرة ليشاهد ما فيها، ولكنه تراجع خوفاً من السموم التي بداخلها، والمادة الغريبة التي كان الفراعنة يطلون بها أرضية المقابر، ومن يلمسها يصاب بالحمى والهذيان حتى يموت متأثراً بتلك الأعراض الغريبة، واكتفى بالتقاط عدة صور بالموبايل.

عاد أدراجه مسرعاً منتشياً بنجاحه الكبير، فما بداخل المقبرة يتعدى ثمنه عشرات الملايين من الدولارات، ما إن وضع قدمه على بداية السلم حتى لمح الضوء المتراقص لكشاف "عصام". واصل صعوده حتى حافة البئر. وألقى بجسده المنهك على الأرض.

مد "عصام" يده ليساعده، فهاله الكدمات السوداء التي تملأ وجهه، كأنه تعرض للضرب المبرح. همس "عوض":

- لا تقلق فهم دائماً ما يحاولون إيذاي ويمنعهم قوة العهد والقسم..

ابتلع ريقه بصعوبة، وطلب ماءً بارداً ليشرب ثم قال:

- المقبرة الآن مفتوحة.. أحتاج إلى الراحة ثم نتكلم بعد ذلك..

شعر "مروان" بأن عضلاته بدأت تسترخي، عندما اقتحم "خالد" الغرفة حاملاً أخباراً جديدة، بدت أهميتها من انفعالات وجهه، وقال:

- لن تصدق ما عرفناه..

قطب "مروان" ما بين حاجبيه، مشيراً إليه أن يتحدث بسرعة..

- "كلارا" زوجة "سالم".. والدها هو "روبرتو اسبرجان جيانو" أحد أهم رجال المافيا الإيطالية.. ثروته تتخطى حاجز العشرة مليارات دولار.. لديه غطاء من الأعمال المشروعة في مجال العقارات والنوادي الليلية وصناعة الدراجات البخارية.. وله عدة مصانع في الهند وماليزيا وهونج كونج.. وبعض النشاطات الأخرى من استيراد وتجارة التوابل..

وكلها أنشطة تمثل غطاءً لعمله الحقيقي في تجارة السلاح والمخدرات والدعارة والآثار التي له فيها باع طويل.. فهو يسيطر على العديد من البعثات الأثرية التي تعمل في عدة دول.. ومنها "مصر" بالطبع.. كما أن له صلات بعدد من المنظمات الإرهابية في العالم كله.. وكثيراً ما يقدم خدماته لدول ومؤسسات عالمية لأداء المهام القذرة.. كما أن له علاقات قوية بعدد من أجهزة الاستخبارات في العالم..

صمت "خالد" ليرى أثر كل هذه المعلومات على "مروان" الذي أشار إليه أن يتابع..

- "كلارا" ابنته الوحيدة.. بل كل ما تبقى له من أفراد عائلته.. بعد أن توفيت زوجته وابنه الشاب الوحيد في حادث سيارة منذ خمسة أعوام.. دبره أحد منافسيه للانتقام منه.. "كلارا" الوحيدة في العالم التي لا يمكن أن يرفض لها أمراً.. ويوفر لها حماية من رجاله طوال الوقت.. وعندما تعرفت على "سالم" وأحبته.. وافق على زواجها

منه لإرضائها.. ومع الوقت بارك زواجهما بعد أن تأكد بأن "سالم" ليس من صائدي الثروات..

الغريب أن رغم كل الشكوك التي تثار من حوله.. لم يتم القبض عليه ولا مرة.. فلديه فريق ضخمة من أشهر المحامين في العالم كله.. ومندوبون يديرون أعماله في كل البلدان.. بدون أن تكون هناك صلة مباشرة تجمعهم به.. فهو نجح في إقامة منظمة دولية تدار عن طريق اللامركزية..

تتم "مروان":

- هذه هي المشكلة الحقيقية.. ف"كلارا" ووالدها لن يتخليا أبداً عن الطفلين.. وسيحاولان الحصول عليهما بكل الطرق.. وهو التفسير الوحيد لعدم إصرارها على اصطحابها معها.. ومعنى هذا أن حياة جدتها وعمها "عمر" في خطر شديد.. ولا بد أن نجد وسيلة تؤمن حياتهما بشكل كامل..

للأسف ليس لدينا برنامج لحماية الشهود الذي يمكننا من إخفاء هوية عائلة "سالم"، ومنحهم هوية جديدة.. هذه المعلومات تؤكد خطورة المستندات التي حصل عليها "سالم"، وتفنن في إخفائها.. وسيكشف لنا ما سنجده في دير "العدراء مريم" جزءاً كبيراً من القضية التي تورط فيها وأدت إلى إرسال قاتل محترف للتخلص منه..

علق "خالد":

- ومن يوسف أيضاً..

هز "مروان" رأسه موافقاً:

- كل ما ينقصنا أن نعرف الصلة ما بين "سالم" و"يوسف"..

تهياً "خالد" للانصراف، فذكره "مروان" باستكمال جمع المعلومات عن "هادى".

لبث "مروان" على مقعده دون أن يأتي بحركة. قطب جبينه قلقاً، مما ستكشف عنه القضية في الأيام التالية، فوجود المافيا أمر لم يكن يتوقعه، وتأمين عائلة "سالم" يحتاج إلى حل غير عادى. فكر في "مريم" وما تقوم به، شعر بقلق عليها خوفاً من تتبعها والوصول إليها، إذا نجحت في التسلل لبيانات البنك. بحركة عصبية أمسك بهاتفه ليكلمها، قبل أن يطلب الرقم، ظهر وجهها الضاحك على شاشة التليفون، رد بسرعة وهو يقسم لها بأنه كان ينوى مكالمتها في نفس اللحظة.

ضحكت وهى تقول له:

- طبعاً بعد أن أصبحت مهمة بالنسبة لك..

اكتسى صوته بالجدية الشديدة وهو يقول لها:

- أريد أن أطمئن عليك.. هل يمكن أن يتم تتبعك بأى طريقة؟

- كيف يمكن أن يتبعوا واحدة من أمهر مصممي البرامج في العالم..

قالتها وهى تضحك.

لم يفلح هدوؤها في طمأنته:

- أريد ان أراكِ الليلة..

ردت:

- وأنا أيضاً.. فلقد انتهيت من مهمتي..

- الآن.. سأتحرك من المكتب وسألقاكِ في نفس المكان..

لم يدخل المطعم كما اعتاد في كل مرة يلتقي فيها "مريم" .. انتظرها في الخارج، وهو لا يستطيع السيطرة على قلقه. جال النظر حوله باحثاً عن أى علامة تنذر بالخطر، حتى وقعت عيناه عليها وهي تعبر الطريق ناحيته. هرع إليها واحتضنها بقوة أصابتها بالدهشة. وهو ينظر إليها. احمر وجهها من المفاجأة، وابتعدت عنه وهي لا تخفي تعجبها من تصرفه.

اعتذر لها بشدة عن انفعاله. أمسك بيدها ليدخلا معاً المطعم. جلسا وهي تحقق في وجهه متسائلة:

- ماذا حدث؟.. لماذا أنت متوتر إلى هذا الحد؟.. كنت أعتقد أنك ستكون مسروراً لأنني أنجزت ما كلفتني به!
- قبل أي شيء.. هل يمكن اكتشاف هويتك أو الوصول إليك بأى طريقة؟.. أنا آسف لأنني ورطتك في تلك القضية..

حدثت في عينيه:

- اطمئن تماماً.. لقد استخدمت عدة مواقع في بلدان مختلفة.. ومن المستحيل أن يتبعونى.. كما أن البرنامج الذي استخدمته لاختراق البنك من تصميمي.. أزلت جدار الحماية التي وضعها البنك وكل ما عرفوه أنه حدثت محاولة لاختراق البيانات.. ولا يمكن أن يصلوا لشيء خاصة أنه لم يتم محو بيانات أو الاستيلاء على أى أموال من أرصدة البنك..

وبعد أن حصلت على ما أريده قمت بمحوه تماماً.. الخسارة الحقيقية هي في "البرنامج" نفسه الذى ابتكرته وقمت بتصميمه.. وكان من الممكن أن يباع بأرقام فلكية..

ابتسمت في هدوء وهي تطمئنه:

- سأصمم أفضل منه.. والآن ألا تريد أن تعرف من هم أصحاب

الحسابات في البنك؟

جعلته كلماتها الهادئة يعود إلى طبيعته، فابتسم:

- لا يوجد في العالم أهم من سلامتك عندي..

قالها وهو يحتضن يدها بين يديه..

- الآن سنتناول العشاء.. فأنا لا أتذكر آخر مرة تناولت فيها الطعام..

أعتقد أنني سأكون زوجاً رائعاً.. لن يرهقك بالدخول إلى المطبخ..

ضحكت من قلبها، وأخرجت ورقة مدوناً فيها أرقام الحسابات وأسماء

أصحابها أمامها.

تناولها "مروان" بهدوء، ونظر إليها قبل أن يطويها بحرص، ويضعها في

جيبه، وانهمكا في تناول الطعام.

تحامل "عوض" على عصام، حتى ألقاه على الفراش، وهو يتنفس بصعوبة

شديدة، وساعده على تغيير ملابسه التي زاد وزنها من اختلاط التراب بالعرق

والماء.

شرب جرعات متتالية من الماء البارد وألقى بعضاً منه فوق رأسه. راقبه

"عصام" بارتباك، وسأله:

- هل تحتاج إلى طبيب؟

هز "عوض" رأسه بالنفي. أراح ظهره على السرير، وأغلق عينيه، وهو يتمتم

بكلمات غير مفهومة، جعلت "عصام" يتراجع للخلف قليلاً.

فتح عينيه ببطء، وهو يشير لـ "عصام" بأن يجلس بجواره:

- لا تقلق.. هذا أمر طبيعي.. المقبرة كانت محمية بطلاسم وتعاويز..
لا بد أن تترك لمدة ثلاثة أيام مفتوحة حتى تخرج منها الغازات
السامة.. ولا بد من الحذر عند دخولها.. فسحرة الفراغة كانوا
يستعينون بمواد كيمياوية سامة مخلوطة بالزيت والعسل وفضلات
القطط والحمير والخنازير.. يطلون بها الأرض والجدران لحمايتها
من اقتحام الدخلاء..

وكذلك كانوا ينشرون ضوءا يعرف بالإشعاع الأخضر.. وهى تشبه
الإشعاعات النووية.. كانوا يستخدمونها من ضمن مواد التحنيط.. وينشرون في
أركان المقابر المهمة مساحيق كيمياوية تصيب من يستنشقها بالهلوسة.. وإذا
أصابت ذراتها العين يمكن أن تسبب العمى..

إبتلع "عوض" ريقه بصعوبة، بينما "عصام" ينظر إليه مذهولاً:

- هل أنت ساحر أم عالم آثار؟

ابتسم "عوض" لأول مرة في هذه الليلة الطويلة، فبدت أسنانه الصفراء التي
زادت من قبحه:

- لا تنس أن علماء الآثار لم يتمكنوا من الوصول إلى مدخل المقبرة..
المهم.. لا بد من أن توفر لمن سيدخل المقبرة أقنعة مقاومة للغاز، وأنابيب
أوكسجين صغيرة يمكن حملها بسهولة، ففي جزء من السرداب، لن يتمكنوا من
التنفس، وسيظل عالقاً في الجو بقايا الغازات والأبخرة التي خرجت من المقبرة،
حتى لا يصابوا بالكحة القبطية..

لم ينتظر "عوض" حتى يسأله عما يعنيه، وأكمل:

- العاملون في الآثار يطلقون عليها هذا الاسم، بسبب إصابتهم بسعال حاد، بعد استنشاقهم للغازات داخل المقابر، ولابد أن يرتدوا قفازات أثناء نقلهم ما بداخلها، والمشكلة التي ستقابلك هي كيفية النقل، فمن سيدخل، سيضطر للزحف في جزء من السرداب، ويمكنك أن تصنع عربات خشبية صغيرة تضع بها كنوز المقبرة، ولن يمكن أن تخرج التوابيت الحجرية أبداً، إلا إذا ثقتب السقف ووقتها ستنهال المقبرة على رؤوس من بداخلها، أو إذا وجدنا مدخلها الحقيقي، وهو أمر سيستدعي أن تحفر فوق سطح الأرض، مما يعني الإعلان عن وجود المقبرة.

ساد صمت كئيب، ومن مكان بعيد تناهت بقايا أصوات القرية القريبة، حملتها الرياح في طريقها، لتلقيها بعيداً عن أسوار المعبد القريب. تملل "عصام" في جلسته، وخرج صوته رفيعاً أشبه بصوت الأطفال، وكأنه فقد كثيراً من خشونته وهو يحاول أن يتهاك:

- كل هذا من السهل تدبيره.. فلدينا شباب من العائلة يتمتعون بصحة جيدة تمكنهم من احتمال المشاق.. لكن هل يمكن أن ينهار السرداب عليهم أو يتعرضون لمكيدة من أصدقائك؟

فهم "عوض" ما يقصده بتلميحه إلى الجان، فأجابه بوقار العلماء:

- المكان آمن منهم تماماً.. ولكن لابد وأن تنتهي منها بعد ثلاثة أيام.. حتى لا يسكنها أحد من جديد..

اضطرب "عصام" من حجم المخاطرة، وصب لعناته على "هادي" ومن يعملون معه. تحول وجهه إلى الشحوب، فبادره "عوض" برغبته في الرحيل، بعد انتهاء مهمته، وطلب منه أن يحجز له في القطار المتجه للقاهرة.

- هل سيكون من السهل أن تسافر بالقطار.. وأنت تحمل معك نصف مليون جنيه؟
- لا تخف.. معي من يحميني في قطار الصباح..
- قالها وهو يوليه ظهره لينام.



وصل "عوض" في وقت مناسب قبل تحرك القطار. طارده صبي صغير، يحمل تحت إبطه عدداً من الصحف والمجلات. جرى خلفه محاولاً أن يبيعه بعضاً منها، بعد أن شاهده يتوجه ناحية الدرجة الأولى.

رضخ لإلحاح الصبي، واختار مجلة "آخر ساعة" وعدداً من الصحف اليومية. جلس في الكرسي المخصص له. قضى الوقت في قراءة الأخبار، وجد أن مباراة الأهلي والزمالك المرتقبة، تفرد لها الصحف مساحات واسعة، بعناوين مثيرة عن إتهام رئيس نادي الزمالك للأهلي، باستخدام السحر للفوز بالمباريات. غمغم بصوت منخفض "غريبة لم يأتني أحد منهم".

ابتسم للخطر الذي راوده بأن يتدخل لحسم نتيجة الدوري المعلقة بانحيازه لفريق الزمالك الذي كان يفضل. نحى الصحف جانباً بعد أن طالع أخبار صعود الدولار، وحادث تحطم أتوبيس على طريق العين السخنة، راح ضحيته عشرة أشخاص. لم يكن يهتم كثيراً بأخبار العالم من حوله.

لعن الصبي الصغير الذي باعه تلك الصحف، قلب صفحات المجلة سريعاً، وتوقف أمام قسم الفن، طالعه صورة "هديل" وهي ترتدى فستاناً أزرق يبرز مفاتها، ويسمح لصدرها العارم بأن يتكور بإثارة، كانت تضحك ومن خلفها عدد من الفتيات، تقدمهن على أنهن من الممثلات الناشئات اللاتي

اختارتهن ليشاركنها المسلسل الجديد، الذى تجرى معظم أحداثه خارج مصر، وسيكون باكورة إنتاج شركتها.

حلق "عوض" في الفتيات حتى ميز من بينهن "إيمى" صديقة إبتته. طوى المجلة، وألقى برأسه على مسند المقعد، وفكر أن "هديل" و "جمال" و "شاهينار" لا يضيعون وقتهم.



قبل أن يفتح الباب. نفذت إلى أنف "عوض" رائحة الكلور النفاذة، أدرك أن "شادية" تحاول كعادتها أن تجلي بلاط الأرض القديم ليلمع من جديد. تنهد وهو يتصور نظراتها المجنونة التي ستقابله بها عند دخوله.

كانت قد انتهت من مهمة التنظيف، وتدور حول الأثاث تشمشم بأنفها المفلطح باحثة عن رائحة العفن، وتطاردها ضحكات "سوسو" الصاخبة، وهى تجلس على حافة السلم:

- أنت فعلا مجنونة.. أنفك لا تعرف سوى رائحة العفن لأنها رائحتك.. لن ينفع معها التنظيف بالكلور ولا حتى بهاء النار..

لم تهتم برد فعلها. جرت ناحية الباب بعد أن شاهدت "عوض" يتوجه ناحية غرفة مكتبه، تبعته بغنج وتعلقت برقبته، ثم شهقت صارخة بعد أن رأت الكدمات الزرقاء تملأ وجهه. مرت "شادية" بجوارهما قائلة:

- ما تخافيش ده شغل العفارىت..

شيعها بنظرة احتقار وسباب طال عائلتها كلها، لم تلتفت ناحيته، بعد أن تأكدت أنها أفلحت في إثارة غيظه.

تخلص من عناق "سوسو"، وطلب منها أن تعد له طعام الغداء. ثم دخل غرفته وأغلق الباب بالمفتاح.

أزاح الدولاب القديم، فظهر من خلفه باب. أخرج من جيبه مفتاحه ودسه في القفل، فكشف عن مجموعة من الأرفف والأدراج إمتلات بأوراق صفراء ومخطوطات قديمة ورزم مالية. وضع النصف مليون بجانبهم، وأغلق الباب، وأعاد الدولاب مكانه.

جلس على كرسيه منهكاً. تعلق نظره بالدولاب وفكر..

"ماذا سأفعل بكل هذه النقود التي أمتلكها هنا وفي لندن، لا أجد شيئاً أرغب في فعله، فمعدتى لا تتحمل الطعام ولا الشراب، ولا أجد متعة في السفر، ولا في اقتناء سيارة فاخرة، من الممكن أن أشتري لـ"داليا" شقة وسيارة حتى تجد لها زوجاً يقبل بها، ويتغاضى عن مظهرها الذكوري، ولا يمكن أن أتوقف عن العمل، لكى أتفرغ لإنفاق كل هذه النقود، فلقد تحولت إلى ترس يدور في آلة عملاقة لا يمكن أن ينفصل عنها".

جذبه من أفكاره صراخ "داليا" التي صفعت باب المنزل خلفها، وجرت إلى غرفته وهى تطرق الباب بعنف. كاد يصطدم بها، وصرخ فيها:

- ماذا تريدن، ألن تتخلى عن عاداتك التى ورثتها عن أمك المجنونة؟

ألقت أمامه المجلة قائلة:

- هل طلبت منك أن تحولها لنجمة؟

توقف لبرهة، وهو ينظر إليها متعجباً، وتردد أمام ثورتها العنيفة التى جعلت الدموع تطفر من عينيها، أن يصارحها بأن "إيمي" لن تكون سوى بائعة هوى

لأصحاب الثروات والنفوذ، وقد يقتصر دورها على أن تلعب دور كومبارس في ذلك العالم..

ولكنه بدلاً من أن يتشاجر معها أو يطردها من الغرفة، كما كان يفعل من قبل، توقف برهة، وكأنه يراها لأول مرة:

- لماذا تكرهين هذه الفتاة، ماذا فعلت لك؟

لم تتوقع "داليا" هذا السؤال. نظرت إليه مذهولة، بعد أن رأت نظراته الكاشفة. فأشاحت بوجهها عنه وقالت بصوت خافت:

- "عوض" يلعب دور الأب فجأة.. مع أنه ليس إلا مجرد ساحر حقير يبيع نفسه للشياطين.. لفظت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع.

لم يستطع أن يتجاهل إهانتها له. قطب ما بين حاجبيه فازداد وجهه قبحاً، رفع يده في الهواء وصفعها على وجهها، سقطت بعدها على الأرض، ركلها بقدمه في بطنها، وعلا صراخها، لم يشعر بنفسه إلا وهو يحيط رقبتها بين يديه ويضغط عليها.

هبطت "سوسو" السلم بسرعة، وهى تناديه بأن يتركها، حسمت "شادية" المواجهة، بعد أن اندفعت من المطبخ، وهى تحمل سكيناً طويلاً شرعته في الهواء، كادت أن تهوى به على رأسه، تفادى السكين، لكنها كانت قد نجحت في إثارة حنقه، فأسرع إلى داخل الغرفة ليجذب سوطاً كان يحتفظ به، وفى نفس الوقت نجحت "سوسو" فى دفعهما، لتختبأ فى غرفة "داليا"، وأغلقتا عليهما الباب من الداخل.

ألقت "داليا" بنفسها فوق الفراش، وهى تصرخ، واعتراها شعور مضطرب بين المهانة والكراهية التى زادت بداخلها، حتى شعرت بمرارتها فى حلقها،

حاولت أمها ان تقترب منها لترت عليها. أوقفتهما نظرات ابتها النارية والخالية من الدموع.

تمتت "داليا" من بين أسنائها:

- سأجعله يدفع ثمن ما فعله بنا غالباً..

التقطت حقيبتها واندفعت بسرعة ناحية الباب. ركبت سيارتها. ألقى برأسها على المقود، أصبح تنفسها أثقل، اختفت الأصوات من حولها. لم يبق سوى طنين غير بشري في رأسها قادها للصراخ، نظرت بفزع في المرأة، بعد أن فشلت في سماع صوتها، وانطلقت بسيارتها بأقصى سرعة.

توقفت أمام منزل "مروة". لم تقو على مكالمتها. صعدت السلالم مهرولة، طرقت الباب، فتحت لها صديقتها تسبقها رائحة ممزوجة من العرق وماء الورد. أزاحتها جانباً ودخلت. ارتمت على الأريكة وهي تنتفض. أغمضت عينيها، وهي لا تكف عن لعن أبيها الذي لا يهتم في العالم سوى مصلحته، وفي سبيلها يمكن أن يضحي بها، وبأمرها التي ارتضت أن تلعب دور المجنونة. هزت "داليا" كثيراً. سبت ولعنت الجميع.

أحاطتها "مروة" بذراعتها. ضغطت لتجذبها ناحيتها. قربت شفيتها ناحية رقبته، في هذه اللحظة اختلف كل شيء، تخلت عن لعب دور الأنثى المطيعة، ونشبت أظافرها في كتفها، وهي تحاول أن تجذبها ناحيتها بقوة، وتسليت يدها الأخرى بين فتحات قميصها، كانت تلهث ككلب تائه في صحراء مقفرة.

اعتري "داليا" شعور بالخزي، خارت قواها حتى كادت تستسلم، عرفت في تلك اللحظة الجانب الذي تنتمي إليه، دفعته بقوة ألقت بها على الأرض،

تأوهت "مروة" وتلوت، وهى تدعوها لأن تريها العالم السحري الذى تقف على أبوابه. تعلقت بقدميها لتجذبها بجانبها، فركلتها بعنف فى وجهها، وحملت فى خيط الدماء الرفيع الذى اندفع من فمها، وكادت تهوى عليها بحذائها. توسلت إليها "مروة"، وهى تزحف مبتعدة عنها، حدقت بها "داليا"، وكأنها تراها للمرة الأولى، انحنت عليها وساعدتها على النهوض، احتضنتها بقوة جعلت الأخرى تتكور فى صدرها، وهى تبكى بحرقة، انهالت عليها "داليا" بقبلات محمومة، وشعرت بطعم العفونة الممتزجة بملوحة فى فمها. دفعتها بعنف ناحية الأريكة، وإنطلقت هاربة.



لم يقو "مروان" على الانتظار، حتى يصل إلى مكتبه لينظر فى الأسماء التى حوتها الورقة.

أطلق صغيراً من فمه جعل سائقه يلتفت إليه، أشار له "مروان" أن ينتبه إلى الطريق، فتح باب السيارة قبل أن تتوقف تماماً، طوى درجات السلم، واتصل بـ "خالد" على هاتفه طالباً منه أن يلقاه فى مكتب اللواء "عادل".

توالت طرقات سريعة على الباب، وفى تلك اللحظة، كان اللواء "عادل" يستعد للانصراف. ووجد أمامه "مروان" ومن خلفه "خالد" مهرولين. ابتسم لهما، وعاد للجلوس على كرسيه، مشبكاً أصابعه.

- هل تتذكر سعادتك عندما قلت لك أن هذه القضية ستكشف عن

شبكة ضخمة فى "مصر" ..

الآن أنا متأكد.. فـ "سالم" ألقى بنفسه وسط أعنى منظمة إجرامية فى العالم..

وتصور أنه قادر على مواجهتهم بعد نجاحه فى سرقة المستندات التى تثبت أنشطة

زعيمهم "روبرتو إسبرجان جيانو" وعلاقته بأفراد منظمته في عدة دول منها مصر.. خوفه الشديد على عائلته.. جعله يلجأ لإخفاء المستندات التي حصل عليها بطريقة غريبة.. واعتقد أن وجودها بحوزته ستكفل له الحماية..

أول هذه المستندات كانت المفكرة الصغيرة التي حصلنا عليها في معبد "بن عزرا".. وحتوت أرقام حسابات في بنك "باركليز" في لندن.. وهو نفس البنك الذي تعمل به "أديرا" ابنة شقيق "يوسف" الذي تم التخلص منه في دار المسنين..

وضع "مروان" الورقة أمام رئيسه:

- ستجد أمام كل اسم رقم حسابه المسجل في مفكرة "روبرتو"..

أمسك اللواء "عادل" الورقة، وقرأ:

- هادي عبد الرحيم صقر

- عوض عثمان الدسوقي

- قاسم أحمد أمين الدندراوي

- هدية السيد عبد الصمد

- جمال ناصف الحناوي

- سمير أيوب الساقى

توقف اللواء "عادل" عن القراءة، ونظر ناحية "مروان":

- "سمير الساقى" هل هو نفسه وزير الاتصالات السابق؟

هز "مروان" رأسه بالموافقة، وعاد اللواء للقراءة من جديد:

- شيماء جمال يونس

- أديرا إبراهيم نقاش

— حيدر عبد النبي

— فراس السعيد زين العابدين

— مالك عبدالرحمن الساتي

ظهرت تقطية غاضبة على وجه اللواء "عادل":

- من الواضح أن المافيا نجحت في اصطيد بعض المسؤولين..

قال جملته وهو منتظر تفسيراً من "مروان":

- هذا صحيح.. فبعض الأسماء معروفة والأخرى سنكشف عن

أصحابها.. وبعض الأسماء لشخصيات عربية.. المهم أننا نحتاج

الآن إلى مراقبة تليفوناتهم ومنازلهم ومقار عملهم.. وسنقوم بزرع

أجهزة تنصت وكاميرات في كل مكان يترددون عليه.. لإثبات

تورطهم..

قال جملته الأخيرة، وانتصب واقفاً مستأذناً في العودة لمنزله من أجل سفره

في الصباح الباكر.

قبل أن يغادر سأله رئيسه:

- هل ستحتاج إلى دعم من القوات؟

قال "مروان" بسرعة:

- لا نحتاج إلى لفت الأنظار.. بل سنذهب إلى الدير كزوار عاديين

يبحثون عن البركة.. وإن شاء الله سنجد ما نبحث عنه..

- 12 -

أخميم

هبطت الطائرة الصغيرة في مطار "سوهاج"..
"مروا" بسرعة من المبنى الصغير للمطار. لفحت الشمس الحارقة وجه
"مايا"، فسارعت بارتداء نظارتها الشمسية. هب هواء من ناحية الشرق حمل معه
رائحة البنزين، والمنبعثة من صف طويل من سيارات الأجرة، وحاول سائقوها
الفوز بالمسافرين الثلاثة.

تجاهلهم "مروان"، وعبر الطريق ومن خلفه "عمر" و"مايا". كانت في
انتظارهم سيارة ييجو سوداء. ألقوا بأنفسهم داخلها هرباً من الحر. تنفس
ثلاثتهم بسعادة في جو السيارة المكيف. انطلق السائق بسهولة مخترقاً الشوارع
والأحياء التي لم تزدحم بعد.

اقتربت الساعة من العاشرة صباحاً، حين عبرت السيارة الميدان الذي
يتوسطه تمثال الملكة المصرية الجميلة التي تقف بشموخ، وترتدي ثوبها المشغول
الأنيق. همست "مايا"، وهي تشير ناحيتها:

- "ميريت أمون" أجمل ملكة مصرية، وابنة "رمسيس الثاني"
وزوجته.. ثوبها الأنيق الضيق.. يكشف عن تطور صناعة
المنسوجات التي برع فيها المصريون القدماء.. فهم بكل تأكيد
عرفوا الأقمشة المطاطية التي نسميها الآن "الليكرا" والتي تعنى أن
المصريين القدماء برعوا في علوم البتروكيميائيات..

طلب "مروان" من السائق التوقف بجوار الميدان. شكرته "مايا"، وخرجت
من السيارة مندفعة بشكل طفولي، وتبعها الآخرون. لم يكن لديها مانع أن تقف
أمام الملكة لساعات طويلة، تتأمل فيها حرفة الفنان المصري في إبراز أدق
التفاصيل لقوام الفرعونية الجميلة. قالت:

- انظروا إلى أحمر الشفاه الذي وضعه المثال.. مازال ثابتاً رغم مرور ثلاثة آلاف عام.. هل تلاحظان القرط الذي تزين به أذنيها أنه ملتصق على الأذن.. هل تعرفان أنها أجمل من "نفرتي" .. ولكن الأخيرة فاقتها شهرة لأنها كانت أكثر منها غموضاً..

تتمل "مروان" في وقفته. أدركت "مايا" أنها تركت العنان لنفسها، بعيداً عن المهمة التي جاءوا من أجلها، لكنها كانت تشعر بسعادة بالغة، لوجودها في مدينة من أقدم مدن العالم، واستحقت بالفعل لقب المدينة المسحورة التي تسكنها آلاف الحكايات والأساطير.

مروا بجوار الجبانة القديمة التي يبرز في أحد جوانبها تمثال ضخمة لـ "رمسيس" جالساً على كرسيه الملكي، وقد اختفى نصفه تحت الأرض. لم تتمالك "مايا" نفسها من التعليق قائلة:

- اكتشفوا التمثال بالصدفة، وزنه حوالي ألف طن، وتحت الجبانة يقع أكبر معبد في التاريخ، يقال إن حجمه أكبر من معبد "الكرنك" مرتين، وهذه المعابد العظيمة في "أخميم"، جعلت المقريزي يصنفها ضمن عجائب الدنيا الثلاثين في زمانه، ومنها خرج سحرة فرعون الذين التقوا نبي الله "موسى" في يوم الزينة وذكرهم المقريزي أيضاً، بأنه كان بها اثنا عشر ألف عريف من السحرة..

توقفت "مايا" للحظات، ثم قالت في أسف:

- تصوروا أنه بسبب قلة الاعتمادات.. لم يتم نقل الجبانة والكشف عن أكبر معبد في العالم!

توسطت الشمس كبد السماء، والسيارة تقترب من قرية الحواويش التي تبعد حوالى أربعة كيلو مترات عن دير "العذراء مريم". وطأت عجلاتها دروباً ترابية، ولم يثر غبارها فضول سكانها الذين اعتادوا على مرور الغرباء، ويكتفون بالإبتسام والتلويح لهم.

سارت السيارة بصعوبة في طرق متربة، حتى بدت أسوار الدير، ومن خلفها كنيسة العذراء القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر. استقبلهم على باب الدير أحد الرهبان. حياهم بوجه بشوش هادئ، وأشار لهم بالتوقف في المكان المخصص للسيارات.

خلف أسوار الدير، ساد هدوء وصمت عميق، جعل الحياة بصخبها تتوارى أمام حركة الرهبان، وأقدامهم تلامس الأرض بخفة، بصوت هادئ رحب بهم راهب آخر، عرفهم بنفسه بأنه الراهب "توما"، وتقدمهم ليقوم بمهمة المرشد في زيارتهم. وهو يخطو بداخل الكنيسة التي انتشرت في جنباتها رائحة البخور.

لم يقطع الصمت داخل المكان، سوى ثرثرة خمسة من الأجانب يرافقهم مرشد سياحي، علا صوته وهو يحدثهم عن أعمدة الكنيسة وقبابها المزخرفة باللونين الأحمر والأسود، للتذكرة بشهداء "أخميم" الذين ملأت دماؤهم جدران الكنيسة عند احتفالهم بعيد الميلاد في عهد الإمبراطور "دقلديانوس".

ابتعد عنهم السائحون ومرشدهم. شرح لهم الراهب "توما" أن الدير في نهاية الستينيات، كان قد تحول لما يشبه الخرابة، حتى أنقذه في عام 1979 البابا الراحل "شنودة"، حين أرسل إليه القس "ديسقورس الذي أصبح "الأنبا بيشوي" فيما بعد، وبمعونة بعض الشباب، نجحوا في رفع الأحجار والأتربة التي كانت تملأ المكان، وقاموا بتنظيف مذبح الكنيسة من الخفافيش والحشرات.

كانت قباب الدير وأبواب الهياكل والكنيسة متصدعة، ولم يكن بداخله من أدوات سوى بعض الحصر والأواني النحاسية وقليل وأزيار من الفخار للشرب، وبمعونة الرب والشباب تم ترميم الدير والكنيسة وطلاؤها وعمل حوامل للأيقونات مطعمة بالعاج، حتى أصبح كما تشاهدونه الآن، مكاناً جميلاً يليق بـ"العدراء مريم" تحرسه الذخائر والجواهر المقدسة، وتنعم أرواحهم جميعاً ببركة القديس "سمعان الدباغ"، والشهيد "شورة الصبي"، وجزء من شعر "مريم المجدلية".

كان "مروان" يستمع، وهو يبدي اهتمامه الشديد بتاريخ المكان، وفي نقطة بعيدة بعقله، كان مشغولاً بالوصول إلى ممر "الضفير".

عندما تحدث الراهب عن رفات القديسين، طلب "مروان" زيارة المكان، فعرض عليهم الراهب تناول الطعام أولاً في مضيعة الدير. اعتذروا جميعاً بلطف وشكروه على كرمه. تقدمهم الرجل بسكون لم يقطعه سوى حفيف ثيابه الكهنوتية. وتركوا الهيكل خلفهم، ومروا بجوار حجرتين حتى وصلوا إلى الممر المقدس. تحركوا جميعاً في هدوء. ساروا صفاف خلف بعضهم، وأخذوا يشاهدون رفات القديسين وصورهم، وكان السائحون يقفون في نهاية الممر. ويستمعون لشرح مرشدهم.

توقف "مروان" أمام القديس السابع، فسمح لمرافقيه بتجاوزه، وتشاغل بمشاهدة الرفات والقديسين، وقراءة ما كتب عنهم. فهم "عمر" الإشارة، وسار بجوار الراهب وهو يسأله عن حكايات القديسين. فانهمك الرجل في الحديث، ولم يتنبه لـ"مروان" وهو يمد يده خلف الصندوق الذى يحوى رفات القديس.

بحث جيداً فلم يجد شيئاً. تظاهر بأن سلسلة مفاتيحه سقطت على الأرض وانفرطت. اعتذر لهم عن الجلبة التي سببها. ركع على الأرض لجمعها، ومد يده وهو ينظر ناحية مرافقيه، تحسس أسفل الرف المقدس لتصطدم يده بجسم صلب صغير مثبت أسفل الرف بشريط لاصق. خلعه بسرعة، ووضع في جيبه، وانتصب واقفاً بعد أن جمع مفاتيحه المتناثرة على الأرضية الحجرية.

ابتسم بسعادة في وجه "عمر" و"مايا"، اللذين نظرا إليه بقلق. طمأنتهما نظرتة الباسمة، فعادا للاستماع للراهب باهتمام حتى انتهوا من زيارة الممر.

دعاهم الراهب إلى زيارة المناحل التي تنتج أجود أنواع العسل الذي اشتهر به الدير. حرص "عمر" قبل انصرافهم على شراء بعض عبوات العسل، في الوقت الذي دلفت فيه "مايا" للمكتبة لشراء الكتب التي تتحدث عن تاريخ الدير والقديسين وبعض الأيقونات والتماثيل، وبعدها شيعهم الراهب مودعاً.

انطلقت السيارة، بعد أن حصلوا على الدليل الثاني الذي تركه "سالم"، شعر "عمر" بالارتياح، وأشاح بوجهه ناحية النافذة، حتى لا ترى "مايا" الدموع في عينيه، فقد كان طوال تواجده في "ممر الضفير"، يشتم رائحة شقيقة. لم يقدر على البوح بما أحسه خوفاً من اتهامه بالمبالغة، ترك لأفكاره العنان محتتماً بمراقبة الطريق، وداهمته رغبة جارفة في البكاء.

ربتت "مايا" على يده بلطف. حول نظره عن الطريق، وقد التمعت عيناه بدموعه الحبيسة، وارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة، وهمس لها:

- مصر بلد غريبة جداً، كل آثارها بناها المصريون من أجل الله

وحده.. نحن نتحرك وسط تاريخ شهد تحالفاً مقدساً ما بين

السياسة والدين.. سلطة يرفضها المتحذلقون من العلمانيين.. ولا

يتورعون هم أنفسهم عن الاحتماء بالدين في وقت الصعود
للحصول على السلطة.. كيف يمكن أن يخاطب السياسيون شعباً
كالمصريين صدر الدين للعالم كله.. ويطالبونه بالألأ يقحم الدين في
أموره السياسية.. فحتى الأساطير التي ارتبطت بميلاد الدول
والمدن وحالت بينها وبين الانقراض.. تحول أبطالها إلى آلهة تعبد..
مصر عاشت لأنها عرفت تعدد الأديان.. "أخميم" المدينة العجيبة
المسحورة.. ليست مسحورة لأنها موطن السحرة الطيين فقط.. بل لأنها كادت
تختفي من على الخريطة.. لولا نساؤها اللواتي أعدنها للحياة.. وحولن رجلهن
الوحيد إلى إله..

التفت "مروان" للخلف منتظراً أن يكمل "عمر" قصة المدينة..

" في يوم من الأيام البعيدة، خرج الرجال والشباب إلى الحرب، وتركوا
خلفهم نساء كثرات، وأطفالاً قليلين، ومنازل شاحبة خمدت فيها نيران المواقد،
لم يكن للنساء ملاذ سوى الجلوس تحت أشجار النخيل العملاقة. يتبادلون
ذكريات ليالي الحب وساعات طويلة من الدفء، حتى من كان زوجها يؤذيها،
اشتاقت إليه.

مرت الشهور بطيئة، ولم تنتفخ بطن امرأة، ولم يصرخ طفل وليد في البلدة
كلها، حتى جاءت البشرية على يد واحدة منهن، عثرت على رجل مقطوع
الذراعين والقدمين مازال يحتفظ بين ساقيه برجولته، ويعيش وحيداً في كهف
بعيد. حملت هن البشرية، اجتمعن، وفكرن كيف يعدن الحياة لمدينتهن المهجورة
برجل واحد ونساء كثرات.

بنين له منزلاً كبيراً، فأصبح زوجاً لهن جميعاً. أنجبن منه جيوشاً من الأطفال عمروا المدينة، واستردوا أمجادهما، وعندما لم تفلح واحدة منهن في الاستئثار بالرجل الوحيد كزوج لها، قررن جميعاً أن يحولنه إلى إله قدسه المصريون، واعتبروا أن "مين" هو رمز للخصوبة والنماء، التي أعادت الحياة إلى البلدة التي كان محكوماً عليها بالموت والفناء".

لاحظت "مايا" أثر ابتسامة جانبية ترسم على وجه "مروان"، وهو يطلق نفساً طويلاً، ويقول بصوت خفيض:

- موعد الطائرة اقرب.. ستتوجه للمطار على الفور..

قالها وأصابه تعب بالفلاشا التي حصل عليها من "الضفير" وتملكته رغبة أن يسبق الطائرة ليعود إلى مكتبه بسرعة، ويعرف ما تحويه من أسرار.

لاحقته نظرات متحفزة من "مايا" و"عمر"، بعد أن أدركا أنها سيخوضان معه جولة مفاوضات جديدة، ليتمكننا من مشاهدة ما تحمله الفلاشا.

بعد خروجهم من مطار القاهرة، كانت في انتظارهم سيارة. وركب "مروان" بجوار السائق، والتفت إليهما:

- هل تريدان الذهاب إلى مكان محدد؟

رد الاثنان في وقت واحد:

- سنذهب معك..

نظر اليهما مليا، وشبح ابتسامة يرسم على شفتيه، وعاد للنظر أمامه.

ارتمت "مايا" على الأريكة الجلدية في مكتب المقدم "مروان". أغلقت عينيها محاولة التخلص من موجات الصداع التي داهمتها. وانتهت لصوت "عمر":

- مايا..

تناولت من يده كوب الشاي، ورشفته بنهم، ونظرت إلى "مروان"، وهو يطلب من الجندي خارج الباب عدم مقاطعته لأي سبب، توجه بعدها ناحية الكمبيوتر، وتحلق الثلاثة محقين في الشاشة التي استقرت أخيراً على فحوى الفلاشا.

تتابع عدد كبير من الصور لـ "روبرتو" مع رجال مختلفين، بعضها كان في حفلات، وأخرى في غرفة مكتبه. صرخ "عمر"، عندما شاهد صورة تبدو فيها "كلارا"، بجانب والدها، ومحاطين بعدد من الرجال، تبدو ملامحهم شرق أوسطية.

قال بانفعال:

- هذه "كلارا" زوجة "سالم" ..

تكرر ظهورها في الصور مع مجموعات مختلفة بجوار والدها، وظهرت بعد ذلك عشرات الأوراق التي تضم حسابات تحمل أسماء شركات في أعلاها.

قال "مروان":

- يبدو أن "سالم" قد حصل على الحسابات الحقيقية لشركات "روبرتو" .. أعتقد ان المسؤولين في إيطاليا يتمنون الحصول عليها لإدانته بتهم التلاعب بالحسابات والتهرب من الضرائب .. وهى تهمة كفيلة بأن تجعله يتعفن في السجن لأعوام طويلة ..

تنهد بارتياح، وأردف:

- لم يتبق في الفلاشا سوى ملف واحد ..

عندما فتحه، ظهرت رسالة "سالم" الجديدة بعنوان "الطهر" ..

"احترق الخداوندكار بنار الحب، دار حتى سكنه الذهول والحزن، ليستقط من فوق
كتفيه المعطف الأسود، ليرتديه السلطان الذي خلع ثوبه الذهبي، وتسلس كالشعبان
يرفع دعائم قاعته مستعيناً بالسجاد، والتقي، والنقي، على حطام الأرامل
والفقراء، ويريههم أبواب الجنة الذي يبدأ طريقها ب3 تحت ظل ال12 نتدخل
من8".

ساد الغرفة صمت طويل. تمتت "مايا":

- لغز جديد..

حدق "مروان" بالكلمات على الشاشة، في حين بدا "عمر" متعجباً من قدرة
شقيقه على معرفة وتحمل كل هذه الأسرار.

لمعت عينا "مايا" ببريق التحدي، وهي تضع حقيبتها على كتفها:

- سأبدأ من الليلة في العمل على اللغز.. ولكنني أحتاج إلى الراحة
قليلاً..

وافقها "عمر" وغادر الاثنان.

غفا "مروان" على كرسيه لدقائق قليلة، كانت كافية بالنسبة له ليستعيد
نشاطه. خرج من مكتبه قاصداً مكتب اللواء "عادل"، حاملاً معه أوراقاً
مطبوعة لما كانت تحويه الفلاشا.

أطلع رئيسه على كل ما توصلوا إليه، طالباً منه التنسيق مع الجانب الإيطالي،
للتعرف على الشخصيات التي ظهرت مع "روبرتو" وهو ما سيقوم به في نفس
الوقت قسم تحليل البيانات لديهم، وتبقى المستندات التي تحمل الحسابات
الحقيقية لـ "روبرتو" وتسليمها لهم، سيخضع لما يمكن أن يحتاجوه في المقابل.

أشار "مروان" إلى كلمات اللغز:

- أعتقد أننا سنجد دليلاً جديداً.. عندما سنصل إلى المكان الذي تشير إليه كلمات "سالم" ..

طرق اللواء "عادل" المكتب بقبضته:

- غريب أمر "سالم" .. لماذا لم يلجأ إلينا من البداية ؟ لماذا اختار هذا الطريق الغريب ؟
- الخوف .. هو ما دفعه لذلك وخسر حياته .. وهو يعتقد أنه يحمي عائلته .. بأدلة اجتهد في إخفائها .. ولولا زيارته الغريبة لـ "مايا" .. لضاعت تلك الأدلة .. وتراكم عليها الغبار إلى الأبد ..

بدا "جمال" متوتراً، وهو يغالب النوم الذي يطبق على جفنيه، ويكاد يرتقي على الأرض، وينطلق صوت شخير، فالتحضير لحفلات الأمير يقتطع من ساعات نومه، ويجعله يقطأ لكل الترتيبات، ورغم اطمئنانه على استخراج تأشيرات الفتيات لأوروبا، إلا أنه ظل يمشي ذهاباً وإياباً في الغرفة ويدها في جيبيه، محاولاً حساب نفقات شراء الثياب وملابس السهرة والمايوهات والماكياج والإكسسوارات.

بحث عن هاتفه حتى وجده، طلب "شاهينار":

- سأمر عليك بعد نصف ساعة لكي نذهب إلى "هديل" ..
- لم ينتظر إجابتها وخرج مسرعاً.

وقفت "شاهينار" أمام مركز التجميل، تنتظره بكامل أناقتها، لمحها جمال، وسيارته تقترب منها، هداً توتره قليلاً بعد أن شاهدها، ركبت بجواره برقي ملكة في المنفى. وارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة، وهي تسأله:

- ممكن أفهم سبب قلقك؟
- المصروفات.. سنحتاج لحوالى مائة ألف دولار كما تقول "هديل"
- .. لكى نوفر الاحتياجات اللازمة للفتيات.. المبلغ كبير..
- نظرت إليه بهدوء قائلة:
- والعائد أكبر.. لا تقلق..

استقبلتهما "هديل" غاضبة، وشكت من أعطال الكهرباء، وأنها استنجدت بالشركة، واكتشفوا أن العطل من الصندوق الرئيسي بالشارع، والعمال قضوا وقتاً طويلاً بالأمس في المنزل، مما اضطرها لأن تقيم بفندق حتى انتهوا من إصلاح الأعطال.

عاد إليها مرحها بعد أن تخلصت من شحنة غضبها، نظرت ناحية "جمال"، وقطبت ما بين حاجبيها، فبدا وجهها الجميل طفولياً:

- لماذا تثير كل هذه الضجة مع كل عملية كبيرة؟ ألن تتخلص من بخلك؟ ألا تعرف أن النقود دائماً ما تأتى بنقود؟
- هل تمزحين؟ مائة ألف دولار مبلغ هائل.. هل تعرفين سعر الدولار اليوم؟ كل هذا من أجل بعض الملابس؟

تجاهلت "هديل" أسئلته، وأشعلت سيجارة وضعتها بين شفتيها المطليتين بلون وردى. أخذت نفساً عميقاً بلا مبالاة، وتجاهلت غضبه:

- أريدك أن تنسى تماماً فتياتك الريفيات اللاتي تملأ بهن نواديك.. الأمر مختلف في حفلات الأمراء.. لابد أن تشبه الفتيات نجمات السينما العالمية.. ليس في مظهرهن وحده ولكن في سلوكهن أيضاً..

لابد أن تعرف أن تجارة الجمل تحقق ربحاً أكثر من تجارة السلاح..
فهى فى النهاية صناعة..

وافقتها "شاهينار" بهزة من رأسها، تابعت "هديل":

- المائة ألف دولار التى تتحدث عنها، يمكن أن ينفقها الأمير فى
دقيقة واحدة..

ربت على كتفه وقامت وهى تتمطى، وقلبت بين الوسائد باحثه عن تليفونها

المحمول:

- لا تقلق ستعود الأموال التى سننفقها أضعافاً مضاعفة.. المهم بعد
ثلاثة أيام سأسافر ومعى "شاهينار" ومنى ومجموعة من الفتيات إلى
إيطاليا وفرنسا.. لشراء ما نحتاج إليه.. آه.. هناك أمر مهم أريدك
أن تنهيه.. سأرسل إليك بممثلة ناشئة وقعت فى مشكلة ولجأت
لي.. هى حامل فى شهرها السادس من صديق لها وعدها بالزواج
وتهرب منها.. واحتفظت بالجنين لترغمه على الارتباط بها.. وفى
النهاية سافر من مصر..

قاطعها "جمال" بلهفة، وكأنه عثر على صفقة جديدة:

- بس كده دي عملية سهلة..

تابعت "هديل":

. حتى الآن لم بيد عليها الحمل بشكل ظاهر.. وفر لها مكاناً حتى تنجب..
وبعد أن تحصل على الطفل دبر عملية بيعه.. ولا تنسى أن تبلغها أن الطفل مات
أثناء الولادة..

قالت جملتها الأخيرة بحزم سيدات الأعمال، ثم صاحت على "منى" لتجهز الطعام.



علقت في أنفها رائحة الورد، اندفعت إلى الحمام، فتحت الماء ثم خلعت ثيابها، واثابتها رعدة حين تمددت في البانيو. فركت جسدها بعنف حتى سالت منها الدماء، ألقت برأسها على حافته، وبدأ الهدوء يتسلل إلى نفسها، هزت رأسها لتطرد الفكرة التي داهمتها، همهمت بصوت عال، لترتد لها كلماتها بصدى ملأ فراغ المكان المغلق.

"أريد أن أشعر بالراحة، لماذا أقاوم نفسي؟ أنا أكره جسدي، أنا لم أكن أبداً أنثى، كانت أُمى تحتبئ خلفي لأحميها من ركلات زوجها الفاجر. رائحة ملابسها لا تفارقني، وهى تنام بجواري، وتلتصق بى خوفاً من أن يهاجمها، وينهال عليها بالضرب..

لماذا أعاند نفسي؟ أنا أشعر بتوتر هائل في وجود الرجال، حتى إذا لمسنى مرة شاب بطريق الخطأ، يلتهب جسدي بنيران الكراهية التي تحاصرني حتى تختفي آثار لمسته العفوية، لم أعرف الحنان يوماً إلا في اللحظات الخاطفة التي احتضنت فيها "مروة" ..

سأتابع حياتى كما أحب.. سأتوقف عن عنادي.. أتحرق شوقاً للقاء "مروة"، أتصورها وهى ترتدي تنورتها البيضاء الواسعة، وتتمايل وهى تحشخش بأساورها الملونة، ترقص وتتمايل، فتميد الأرض من تحت قدمي، تحلح ملابسها فأتحرر معها من قيود الحرمان".

أخرجتها الطرقات المتسارعة على الباب من خلوتها. سكنت حركتها داخل البانيو، كفت عن الحديث، لم تجد في نفسها القوة لتجيب، لفت جسدها برداء الحمام، فتحت الباب لتجد أمها تنن، وهى تنظر إليها برهبة، ابتسمت لها بهدوء وطوقتها بذراع واحدة، سارت بها حتى جلست بجوارها على الأريكة.

كانت لأناتها دوي مرعب في صدرها، كأنها طبول حرب تطرقها قبائل من غابر الزمان، لم تكن أمها تعلم أنها تركل جرحاً عميقاً غائراً، وهى تبكى طالبة اللجوء والحماية في أحضانها، لم تستطع أن تصرخ قائلة "أنت تؤلمينى يا أمي أنا من تحتاج إلى رعايتك".

صمتت وهى تفكر في "مروة"، أمسكت بذراع أمها، وقادتها لتستلقي على السرير، نامت بجوارها في تلك الليلة، وهى تراقب سحب الليل تطوي بعضها حتى يأتى الصباح، لتطرق باب "مروة" مبكراً.

"لم يتسلل هذا الشعور إلى من قبل، رعشة حارة اجتاحت جسدي، و"مروة" تقترب نحوي، كلما اقتربت خطوة تفجر بركان لهفة في داخلي. عيناها اللتان تستدرجانني تزلزل في كل موضع قابل للانقياس. أحتضنها فأذوب كأني أنصهر على جسدها، عطرها الذي يفوح من رقبتها الناعمة، يستفز رغبتى في اجتياحها الآن. طوقتها بذراعي بقوة، حتى شعرت بضلوعها تنن، تسلفت تنهيدة حارة من صدرها وأنفاسها الملهبة تحرق رقبتى. ألقيتها على السرير الذي بدا لي مشوقاً لإحتضاننا، لأنزع عنها ملابسها دون وعي، بينما تجذبني إليها. كانت تشتعل رغبة وأنا ألتمح بنعومة جسدها لنتهاى في جسد واحد. أقبل شفيتها بقوة كأني أعصر نبيذاً حاراً ولذيذاً، أتمرر يدي وشفتي على جسدها كأني

أُلامس زهرةً تفتّحت لتوها. كانت أنوثتها تتأوه وجسدها ينتفض تحتني مثل موج بحرٍ نائر.

احتضنتها وأنا ألّهت مُتعبةً بينما وضعت يديها على قلبي لأشعر بأمان غريب. أسأل نفسي كيف تحوّلت "مروة" فجأةً إلى كل شيء، وددتُ لو أنني عرفتُها منذ بداية وعيي بالحياة، بالتأكيد كان سيحمني حبها من الألم الذي لازمني طيلة العمر. "أحبك" همستُ بها في أذنها قبل أن ننام متعبين".



"جدي لا يتغير أبداً، أجده في كل مرة يجلس على كرسيه البرجير، ينتظرني بلهفة، كلما حاول إخفاءها فضحته رجفة صوته القلقة عليّ دائماً، فضلت أن أتجاهل تنهيدة الارتياح التي اخترقت صدره عندما رآني، ملت عليه لأقبله، وأنا أنوي الذهاب إلى غرفتي، فقد كنت أتوق إلى حمام ساخن".

ناداها "داود" إلى جواره وقال:

- حبيبتي، أنا فخور بك، أنت جميلة وناجحة ولكنني قلق عليك.. هناك شيء غير معتاد بك.. كل ما أريده فيما تبقى لي في الحياة أن أطمئن عليك فقط..

لم يلحظ "داود" الاحمرار الذي صبغ وجهها، فقلقه وانفعاله جعلاه لا ينتبه إلى أثر كلماته عليها.

هزت رأسها قليلاً معربة عن موافقتها، وأنهت الموقف بأن قبلته في رأسه، وهي تتمنى له عمراً طويلاً، ولأنها حفيده يجب أن يشعر بالاطمئنان، قالت جملتها الأخيرة وهي تستأذنه في الذهاب لغرفتها.

"الخدائونديكار" ظلت تردد الكلمة، كان معناها يتسارع حتى تكاد تنطقه، ثم يعود ليتوارى..

- أنا أعرف معنى الكلمة جيداً..

غلبها تعبها، فأخذت حماماً دافئاً، وغرقت في نوم عميق، والكلمة تتجول في عقلها رافضة أن تغادره.

تسلل أذان الفجر إلى غرفتها فأيقظها. صنعت لنفسها كوباً من النسكافيه. عادت إلى غرفتها لتجلس أمام شاشة الكمبيوتر.

مرت دقائق، ووجهها يلتصق بالشاشة. شربت آخر قطرة في الكوب، كتبت "الخدائونديكار" قفزت لها النتائج بسرعة، أدركت في تلك اللحظة ما كانت تعرفه، وكأن سرداباً سرياً قد فتح في أعماق عقلها..

- إنه "مولانا"..

بدا أن عقلها أصبح مهياً لاستيعاب الأفكار المتدفقة إليه:

- نحن نبحث عن مكان متعلق بـ"جلال الدين الرومي" الذي يلقب بـ"الخدائونديكار"..

ابتسمت "مايا" أمام الشاشة:

- بجلال الدين الرومي يتم جلاء اللغز، فاللغز يزيح اللغز، ترى هل كان "سالم" يقصد أن يوزع أسرارهِ ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام؟ هل سنحتاج للسفر إلى تركيا للبحث حول قبر مولانا؟ سأعرف إلى أين سنذهب؟..

لم تدرك كم مر من الوقت، وهي مستغرقة في التنقل ما بين حكايات التاريخ، شعرت بأن المزيغ الرمزي الغامض لـ"سالم"، أصبح فجأة واضحاً كالشمس.

أسطورة السلطان هبطت عليها بنتائج سنوات طويلة من دراسة التاريخ، كل ما فعله "سالم" أصبح فجأة منطقياً تماماً، تمتعت في سعادة:

- لم يتبق سوى زيارة المكان..

نظرت إلى ساعتها، كانت تقترب من التاسعة، لابد أن "عمر" استيقظ الآن، كان هو أول من اتصلت به، جاء صوته سعيداً بمكالمتها، اتفقا على اللقاء بعد ساعة أمام مسجد "السلطان حسن"، وأخذ على عاتقه إبلاغ "مروان" بمكان اللقاء.

بدت "مايا" مشرقة، وهى تشير لهما بالجلوس على أحد المقاعد التى تفصل ما بين مسجدي "السلطان حسن" و"الرفاعي". كانت الساحة ملكاً لهم في ذلك الصباح.

تعلقت أنظار الرجلين بها، ابتسمت في سعادة، لرغبة ماكرة تسربت إليها في إثارة حيرتهما، والحصول على إعجاب "عمر" بذكائها ومهارتها، وبدأ على "مروان" نفاد الصبر، لم تهتم كثيراً. وقالت متمهلة:

- "جلال الدين الرومى" هو "الخدائونديكار"، أو "مولانا" كما تعني الكلمة، هو القائل "كنت نبياً ثم أنصبت والآن أنا محترق" .. كان عالماً وفقهياً حتى التقى بـ "شمس الدين التبريزى" الذى قُتل لعلاقته بالشيخ "جلال الدين" .. "شمس" الذى ألقى بظلاله على الشيخ، فجعله ينطق بالشعر ويغني ويرقص، ابتكر حركة الرقص الدائري فكان يدور حول نفسه حتى يصل لحالة من الذهول، تجعله يبكي حزناً وألماً على مقتل "شمس الدين التبريزى" ..

وتخليداً لذكراه أسس فرقة "المولوية الصوفية"، التي يخضع المنتسب لها إلى تعليمات المرشد الروحي، الذي يلزمه بأعمال روحية وتوجيهات أخلاقية يجتازها في ثلاث سنوات.. في سنته الأولى يقوم بخدمة الناس، وفي الثانية يخدم الله، وفي الثالثة يراقب قلبه، وإذا اجتاز السنوات الثلاث بنجاح، يصبح واحداً من أبناء المولوية، ويمكنه أن يرقص في "السمع خانة" حول الدائرة التي يقف فيها المرشد.

اكتست ملامح "مروان" بالقلق. كان متشككاً أن توصله محاضرة "مايا" إلى المكان المنشود بسرعة، وفي نفس الوقت يملكه قدر هائل من الفضول لمعرفة سر النص.

تابعت "مايا" حديثها:

- لم يكتف "جلال الدين الرومي"، بوضع قواعد صارمة للانتساب إلى طريقته، بل وضع لهم زياً لا بد أن يلتزموا به، فهم يرتدون ثياباً بيضاء ترمز إلى الأكفان، ومعاطف سوداء تشير إلى القبر، وقلنسوة للرأس كأنها شاهد قبر، ويقفون على بساط أحمر يشير إلى الشمس الغاربة، ويدورون ثلاث مرات من أجل التقرب إلى الله، وعندما تسقط المعاطف السوداء أثناء رقصهم تعني الخلاص والتطهر من الدنيا..

توقفت "مايا" لتلتقط أنفاسها ثم قالت بثقة:

- وهذا ما كان "سالم" يعنيه بالجزء الأول من النص الذي وضعه، يشير إلى السمع خانة أو تكية المولوية التي تقع بالقرب منا الآن..

لم تنتظر أن يسألاً عن معنى بقية النص:

- أما السلطان الذى يقصده فهو السلطان العثماني "سليم الأول"، الذى أمر ببناء قاعة المولوية، وترتبط به رواية لا يمكن أن نتحقق من صحتها، فقبل أن يغزو مصر يقال إنه جاء إليها متنكراً في زي درويش مولوي، وسار في المنطقة التي نجلس بها الآن، وزار ضريح ولي يسمى "سيدى حسن صدقة" ملحقاً به ملجأ للسيدات الأرامل والمطلقات اليتامى، وبعد نجاحه في غزو مصر، أمر ببناء تكية للمولوية في نفس موضع ضريح "سيدى حسن صدقة".

لم يكن بإمكان "مروان" أن يحول عينيه عن النص المطبوع على الورقة، التي كان ينظر إليها أثناء حديث "مايا"، أشار لها عن معنى الأرقام. تحركت "مايا" متجهة ناحية شارع "السيوفيه" قائلة:

- سنعرف معنى الأرقام عندما نصل إلى القاعة..

اجتازوا بسرعة مجمع التكية الذي يضم ثلاث قاعات، الأولى يطلق عليها قاعة "السمع خانة" أو "مسرح الدراويش"، والثانية "مدرسة سنقر السعدى"، أما الثالثة فعبرة عن أثر يطلق عليه "أثر يشبك".

انصب اهتمامهم على قاعة "السمع خانة" المخصصة لأذكار المولوية. وقف الثلاثة على منصة خشبية مستديرة تتوسطها دائرة بلون مختلف عن لون المنصة، ويحيط بها "سور خشبي" له بابان لدخول الدراويش وخروجهم قبل وبعد تأديتهم للذكر، أما الطابق الثاني منه جرى تخصيصه للمشاهدين، ومنها مكان مخصص للنساء يغلق عليه باب خشبي.

عقب المكان برائحة الخشب القديمة التي اختزنت حكايات التاريخ، قطع الصمت رفرقة أجنحة طائر وجد لنفسه مكاناً خفياً في القبة المرفوعة على اثني عشر عموداً خشبياً.

دارت "مايا" في القاعة قائلة:

- نحن هنا نقف تحت ظل الاثنى عشر إماماً، كل عامود يحمل اسماً من أسماء الأئمة الاثنى عشر عند الشيعة، التي تبدأ بـ "علي بن أبي طالب" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو "علي المرتضى"، وتنتهى عند "محمد بن الحسن المهدي" القائم بالحجة أو المهدي المنتظر..

وهو ما قصده "سالم" تحت ظل الـ 12، أما رقم 8، فيشير إلى الشبابيك المقامة في القاعة، والتي ترمز إلى أبواب الجنة الثمانية، ويبقى رقم 3 الذي يرمز إلى عدد الدورات الثلاث لدررايش المولوية، وللثلاثة أئمة الذين ذكرهم في النص، وهم "السَّجَّاد والنقي والتقي"، ويقصد بهم على "زين العابدين"، و"السَّجَّاد" لقبه، و"محمد بن علي" ولقبه "الجواد التقي"، وابنه "علي بن محمد" صاحب لقب "الهادئ النقي".

عند عمود من الثلاثة سنجد ما تركه "سالم".

قالت جملتها الأخيرة، وهي تجلس على إحدى الدرجات الخشبية تاركة لهما عملية البحث.

انهمك الاثنان في البحث، نقبا بدقة حول العمود الذي يحمل اسم "النقي" فلم يجدا شيئاً، كررا نفس المحاولة عند عمود "التقي" فلم يجدا شيئاً، لم يتبق سوى عمود السَّجَّاد، دارا حوله لم يجدا أثراً لثقب من الممكن أن يخفى شيئاً.

بدت علامات الإحباط على وجهي "عمر" و"مروان"، شعرت "مايا" أنها قُذفت في الفضاء دون أن تعرف أين سينتهى بها المطاف، نظرت مجدداً إلى النص، كانت متأكدة تماماً من صحة معلوماتها، وأن ما يبحثون عنه تم إخفاؤه بدهاء.. لكنه موجود. قالت:

- لماذا نبحث أسفل الأعمدة؟

صعدت السلم الخشبي بسرعة للدور الثاني، مدت يدها لتفتش عند نقطة التقاء العمود الذي يحمل اسم السجّاد بـ"السور الخشبي". أخذت تتلمس أطراف اللوح الخشبي. شعرت بجسم صلب ناعم الملمس انزلق من تحت يدها، حاولت مرة أخرى حتى نجحت في الإمساك به. رفعت يدها لأعلى وهى ممسكة بقلم أسود. حذرهما "مروان" بنظراته، خوفاً من أن يلاحظهم أحد، تنبّهت بسرعة وأخفته في جيبها.

شعرت "مايا" أن عضلاتها، قد بدأت تسترخي، عندما ركبت سيارة "عمر"، وانطلقت نحو مكتب "مروان". تسارع نبضها وهى تحتلّس النظر ناحية "عمر" الذي بدا ساهماً. قالت له:

- هل تعتقد أن هناك لغزاً جديداً في إنتظارنا؟

أخذ "عمر" نفساً قصيراً، كما لو أن سؤالها أصابه بالألم، وقال كأنه يحدث نفسه:

- لا أعرف، كل ما أفكر فيه الآن هو حجم الخوف الذى كان يشعر به "سالم"، أشعر أنه يموت أمامي كل يوم، أكثر ما يؤلمنى أن قاتله أصبح في أمان لن نشعر به ما تبقى من حياتنا، سأظل أتحرك داخل المنزل بخطوات حذرة، وقلبي يدق خوفاً على أمي وأبناء "سالم"، أنا متعب وجسدى منهك فوق العادة، قلبي مستنزف وروحي ترتعد من الحزن..

حدقت فيه بعينين مفتوحتين على وسعيهما، وهممت بثقة:

- أنا أثق في الله الذى جمعنا معا.. وجعلنا نكتشف ما تركه "سالم".. ليقتضى به على من قتلوا أرواحاً بريئة.. أشعر أن نهايتهم أصبحت قريبة..

كان "مروان" في انتظارهما أمام المبنى، وصعدا معه إلى مكتبه، تركهما وذهب بالقلم إلى قسم تحليل البيانات، لم يتبادلا كلمة واحدة في انتظار عودته. مر الوقت ثقيلًا، حتى فتح "مروان" الباب، بدا عليه الانشغال، تعلقت عيونهما به..

لاحظت "مايا" بريق من السرور المفاجئ يشع من عينيه، نظر ناحية "عمر" قائلاً:

- لقد كان "سالم" عبقرياً.. القلم يحوي جهاز تسجيل عليه عشرات المحادثات بالإيطالية والإنجليزية.. ستكشف الكثير عن القضية.. ولكنها ستحتاج إلى وقت لترجمتها.. ولا توجد رسائل أخرى من "سالم"..

اكتسى وجه "مروان" بالجدية وهو يوجه حديثه لـ "عمر":

- أريدك أن تعود لممارسة حياتك بشكل طبيعي تماماً.. فنحن لن نستبعد أن تكونوا تحت مراقبتهم.. ولا نخش شيئاً فأنتم موضوعون تحت حماية على مدار ساعات اليوم.. وسنقوم بكل الترتيبات التي تضمن سلامتكم.. وبعدها ننتهي من القضية ستكون أول من يكتب عنها كما وعدتك..

- ليس هذا ما أفكر فيه الآن.. كل ما يهمني هو سلامة "فاطمة" و"علي" وأمي "تردد قليلاً" و"مايا"..

ابتسم "مروان" وعيناه تسبران أغوار "عمر":

- لا تخف على "مايا"، فهي وجدها تحت رعايتنا منذ البداية..

أنهى جملة وهو يودعها.

- 13 -

الحفلة

كانت الشمس توشك على الاختفاء بين طيات السحب التي بدت قريبة من الأرض.

خرجت "إيمي" من المبنى بعد أن أدت آخر امتحان لها بالجامعة. لم تفلح في السيطرة على ابتسامتها التي ملأت وجهها. كانت مفعمة بالإثارة والعصبية، فقد اقترب موعد سفرها مع "هديل".

كانت حائرة ومذهولة من تسارع الأحداث، حاولت أن تستوعب خطواتها السريعة، لتحقيق أحلام النجومية والثراء، وظل عقلها يفكر وقلبها يتألم دون أن تعي سبباً لذلك، قد يكون فينظرة والدها التي شابه العجز والقنوط، عندما علم بموعد سفرها. لم يكن لديها يقين بالعودة إلى حياتها البسيطة الهادئة. طردت هواجسها، وطمأنت نفسها أنها ستكون في حال أفضل.

شعرت برغبة في تناول القهوة، قبل أن تصل إلى الكافيتريا رأت "داليا" مع صديقتها "مروة"، اكتسى وجهها بسعادة مفاجئة، وهرعت إليها لتحتضنها، أوقفتهما نظرة باردة تشبه نصل سكين حاد، شاهدها بوضوح في عيني "داليا". تجمدت مكانها للحظات، واقتربت منها بحذر، وهى ترسم على وجهها ابتسامة متكلفة، قابلتها الأخرى بوجه متقلص بدت فيه خطوط الكراهية واضحة.

ألقت عليها التحية بفتور، جعلها تشعر بوخز في عمودها الفقري، تعجبت أكثر من نظرات "مروة" الماجنة وتعليقها:

- أهلاً بالنجمة..

لم يمنحها وقتاً لترد، فالاثنان واصلتا سيرهما، وكأنها شبح عجوز فقد كل قدراته.

لوهلة ترددت هل تذهب خلفها؟ ثم عادت وتراجعت، بعد أن أدركت أن موعدها مع مدرب الإلقاء قد حان.

انطلقت بسرعة لكي تسيطر على مشاعرها، التي بدأت تتحول إلى نوبة من الرعب. غرقت لساعات طويلة في تدريبات على الأداء والتعبير بوجهها عن مشاعر متضاربة، وقبل أن تغادر أرسلت "هديل" في طلبها.

طرقت باب الغرفة، وجدها في وقفها المعتادة مولية ظهرها للباب، وتنظر من النافذة إلى النيل.

التفت "هديل" ناحيتها مبتسمة، كعادتها كانت في كامل أناقتها وزادها جمالاً في تلك اللحظة تسلّل ضوء الشمس المبهج من الخارج على وجهها، فأحاطها بهالة مضيئة أضافت إلى جمالها الكثير:

- هل انتهيت من تدريب اليوم؟

هزت "إيمي" رأسها:

- الأستاذ راضٍ عني.. ويقول إنني أتقدم بسرعة..

حدقت فيها "هديل" قليلاً، ثم قالت برقة وهدوء:

- تمام.. هل استعددتِ للسفر؟

أومأت برأسها وأجابت بحماس:

- طبعاً.. متى سنبدأ التصوير؟

اكتسى وجه هديل بلمسة من العبوس المصطنع:

- بعد عودتنا من السفر وقبل سفرنا إلى "مونت كارلو"..

بدا على "إيمي" عدم الفهم مرددة:

- مونت كارلو!

علق السؤال بثقال شديد فوق رأسيهما، نفثت "هديل" دخان سيجارتها، ونظرت إليها بعينين فيهما الكثير من الامتعاض. كانت تكره في قرارة نفسها نوعية "إيمي" التي تريد أن تحصل على كل شيء بدون أن تدفع الثمن المناسب.. - أنت كثيرة الأسئلة..بعدعودتنا سنبدأ في تصوير المسلسل.. وسنتنزه فرصة دعوتي لحضور بعض الحفلات في "مونت كارلو" و"أسبانيا" في تصوير بعض المشاهد هناك.. ولذلك سأصحبكم معي..

علقت في رأسها تلك الكلمات، وهى تجلس في مقعد الطائرة، وسط صخب ضحكات "هديل" التى تلقت معاملة ملكة في المطار. شعرت "إيمي" بإثارة شديدة جعل الخدر يسرى في جسدها، حتى أنها كانت تحرك أصابع قدميها بين الحين والآخر، لتتأكد أنها مستيقظة.

مرت الأيام بسرعة شديدة. عاشت أوقاتاً مثيرة في التسوق، وتنقلت فيها ما بين الفنادق الفخمة ومحلات الماركات العالمية. كانت "هديل" ترفض الشراء من أماكن غير معروفة، حتى أن مدير محل "شانيل" في فرنسا، سمح بتغيير قواعده في استقبال الزبائن الخمسة المسموح لهم بدخول المحل في وقت واحد، ليسمح للنجمة بأن تدخله مع تسع من مرافقاتها، كانت "إيمي" واحدة منهن.

يومها اشترين من "شانيل" بثلاثين ألف يورو، احتفل بهن صاحب المحل بأن قدم لهن زجاجة شمبانيا في الصالون، أطلقت الفتيات صيحات الفرح، وهن يتناولن أقذاح السائل الذهبي، لم تنس "إيمي" نظرة الغضب المكتوم التي لاحت في عيني "هديل"، عندما شكرت الرجل رافضة قذح الشمبانيا الذي قدمه لها.

انتهت بسرعة أيام التسوق في "إيطاليا" و"فرنسا". في الليلة الأخيرة قبل سفرهن، اجتمعت الفتيات في غرفة واحدة، وقضين الليل في الثرثرة وتبادل الحكايات.

لاحظت "إيمي" غياب "حُسنه"، عندما سألت عنها قالت واحدة منهن وهي تغمز بعينها:

- يبدو أنها تحضر لنا مفاجأة..

لم تهتم "إيمي" كثيرا، وبعد قليل ظهرت "حُسنه". تهللن جميعا لرؤيتها، رفعت لهن يديها بعلامة النصر، فهمن أنها نجحت في مهمتها، لم ينتظرن أن يعرفن منها تفاصيل نجاحها، التففن حولها، أخرجت من حقيبتها كيس شفاف به بودرة بيضاء، قسمته بحرص بينهن.

وقفت "إيمي" تراقبهن بذهول. لم تكن ساذجة إلى درجة أنها لا تعرف أن ما جاءت به "حُسنه"، لم يكن سوى جرعات من "الكوكايين"، استنشقه بسرعة بالتساوى فيما بينهن.

ارتمت على المقعد وهي تشعر بدوار، شعرت برغبة في البكاء تراجعت عنها، وفضلت أن تراقبهن وهن مستلقيات لدقائق بعد استنشاقهن المخدر. كاد الخوف أن يغرقها معهن في خدرهن، حتى وجدتهن يتأهبن للخروج للسهر في ملهى قريب من الفندق، طلبن منها أن تذهب معهن، رفضت متعللة بإرهاقها الشديد وبرغبتها في النوم مبكراً.

خفق قلبها بقوة، أحست بالانزعاج مما اكتشفته. كان أول ما فكرت فيه الذهاب إلى "هديل" وإبلاغها بما شاهدته. طرقت باب غرفتها، فتحت لها "منى" الباب. بدا عليها الضيق لرؤيتها، خفضت صوتها إلى درجة الهمس، وهي

تبلغها أن "هديل" تستقبل ضيوفاً مهمين، ولا يمكن أن تقابلها، ولتنتظر حتى تلقاها صباحاً في المطار.

عادت "إيمي" إلى غرفتها. شعرت في تلك اللحظة بحاجتها الشديدة لوالديها، كادت تتصل بهما وتحكى لهما عما شاهدته. عادت وأغلقت التلفون، بعد أن أدركت أن هذا سيعني نهاية أحلامها، فقد كانت رغبته في الاستمرار قوية جداً.

استلقت على الفراش محدقة في الظلام. شعرت أنها ممزقة بين جانين متناقضين لا تستطيع أن تنتمي إلى أي منهما. في النهاية غفت، وهي تحدث نفسها بصوت مسموع بأنها قادرة على اختيار الجانب الجيد.

في الصباح، كانت أقلهن نشاطاً بعد قضائها ليلة طويلة محتشدة بكل أنواع الكوابيس، رغم شعورها بأنها لم تستغرق في نوم عميق، إلا أنها لم تنتبه لوقت رجوع رفيقتها إلى الغرفة. تحاملت على نفسها وارتدت ملابسها بثقل، لم تعرف مصدر الألم الذي كان يعصف بجسدها، ولكنها رسمت على شفيتها ابتسامة باهتة.

التقين جميعاً في بهو الفندق، كانت "هديل" تجلس مرتدية تريننج أسود "جوسى كتيور" أبرز جمال جسدها، وأضاف عليها لمسة من براءة، أشارت لـ "إيمي" أن تجلس بجوارها، تسلل لصوتها جفاء لم تحتهد بأن تخفيه وهي تسألها عما كانت تريده في الليلة السابقة؟

ترددت قليلاً، حكّت لها ما حدث بصوت مرتعش، نظرت إليها "هديل" مطولاً:

- يجب ألا يعرفن أنك أخبرتنى.. من أجلك حتى لا ينقلبن عليك.. مسكينات.. المخدرات تساعدن على البقاء يقظات من أجل التصوير الذى يمتد أحياناً ليومين متواصلين..

تنهدت بعدها قائلة:

- متاعب المهنة يا حبيبتى..

كادت "هديل" أن تستشيط غضباً، أخفت مشاعرها ببراعة، وهى تتوعد بأن تصب جام غضبها على "عوض" و"جمال".
أخذت "هديل" تراقب "شاهينار" و"منى" وهما تجمعان الباسبورات من الفتيات، وتراقبان وزن الحقائق، وترتبان معاً لما بعد وصولهما لتنسيق الملابس وتوزيعها على الفتيات، لارتدائها فى الحفلة.

قبل أن يصعدن جميعاً إلى الطائرة، أجرت "شاهينار" اتصالاً أخيراً مع "عزة"، التى كانت بانتظارهن فى مطار القاهرة، لترتيب مرورهن من الجمارك مقابل خمسة آلاف جنيه، اعتادت أن تتقاضاها من "شاهينار" فى كل رحلة.
لم تفلح ساعات الرحلة فى أن تهدئ من غضب "هديل" الذى يعتمل بداخلها، بمجرد دخولها للمنزل، اتصلت بـ"جمال"، رد عليها مرحباً، لم تمنحه فرصة، وانهارت عليه بسيل من الشتائم، متسائلة بانفعال:

- هل تتصور أننا مدرسة.. حتى ترسل لي فتاة خام لم يتم تطويعها.. هل تريد أن تورطني؟

حاول "جمال" أن يهدئ من روعها حتى يفهم القصة من أولها، بعدها طلب منها أن تعتبر الأمر منتهياً، ففى خلال أيام قليلة، سيجعل الفتاة تطلب بنفسها جرعات المخدر.

سكن غضبها قليلاً، أنهت المكالمه، وتوجهت على الفور لتأخذ حماماً دافئاً.



لم تثر "إيمي" ضيق "هديل" مرة أخرى، بل أثارت إعجاب الجميع بأدائها التمثيلي، حتى أن المخرج أشاد بها عدة مرات، وهنا "هديل" بطله العمل ومنتجته على اختيارها. الشيء الوحيد الذي كان ينغص على النجمة الصاعدة سعادتها، هي نوبات الصداع التي انتابتها في الفترة الأخيرة، ولم تكن تتوقف إلا بعد أن تقدم لها "منى" فنجان القهوة المضبوط.

ضحكت "هديل" وهي تراقب "منى" أثناء إعدادها لقهوة "إيمي":

- يبدو أنك متأثرة بالأفلام.. اخترت طريقة "عايده عبد العزيز" في فيلم "النمر والأنثى"..

بهت وجهها وتحول من التصميم إلى الاستسلام.. هزت رأسها بحركة آلية
قائلة:

- تعليمات "جمال".. هو من اقترح الطريقة.. بعد عشرة أيام سأتوقف عن وضع المخدر في القهوة.. لنجعل جسدها يصرخ مطالباً به.. ثم سأمنحه لها بشكل واضح..

عادت "هديل" بكرسيها إلى الخلف:

- المهم أنها في الحفلة لا تسبب لنا أى مشكلات.. أريدك أن تذكرى المحامى ليعد من أجلها عقد احتكار بشرط جزائي محترم.. البنت ستكون نجمة كبيرة..

قامت من مكانها متثاقلة:

- لديّ مشهد الآن.. سأستعد له.. هل رأيت "نجيب" اليوم؟

- لم يأت بعد.. لقد سمعته بالأمس يتحدث عن انتهاء استخراج كل الأوراق اللازمة للتصوير في مونت كارلو.. وانتهى من وضع قائمة الطاقم الذى سيسافر معنا من أجل التصوير هناك..
- المهم أن يتنبه إلى المصروفات..
- قالتها "هديل" بتذمر، وخرجت لتستعد لأداء مشهد زوجة كادحة تعمل من أجل إعالة أطفالها.

- هل أدخل وأعرف منها سبب توترها؟
- سألت عليّة زوجها، مثبتة نظراتها على مقبض الباب.
- قال والد "إيمى"، وهو يرتمي فوق الأريكة:
- اتركها وشأنها.. هى متعبة من التصوير.. ابتنتنا تغيرت كثيراً فى الأيام القليلة الماضية.. هناك شيء بها لا أعرف ما هو.. كنت أتمنى أن أراها موظفة فى شركة أجنبية..
- قالها بصوت بدا فيه الانكسار. تنهد بحرقة وأكمل:
- لكنها اختارت طريقها..
- حبست عليّة دموعها. شعرت بحزن عميق فى قلبها:
- لم يعد الوسط الفنى خيفاً.. هناك فتيات من خريجات الجامعة الأمريكية.. يعملن فى التمثيل الآن..
- لاذا بالصمت بعدما شاهد "إيمى" تخرج من غرفتها. كان وجهها شاحباً، هرعت إلى الحمام الوحيد فى البيت. سمعها وهى تتقيأ، انتظرتها أمها على الباب، أمسكت بها حتى لا تسقط على الأرض، طمأنتها بصوت واهن..

- أنا أفضل الآن.. يبدو أنني أكلت طعاماً فاسداً..

ارتقت على الكرسي منهكة:

- سأنام الآن.. غدا سأسافر إلى "مونت كارلو" من أجل التصوير..

صرخت أمها:

- كيف ستسافرين وأنت بتلك الحالة؟

عندما رأت مشاعر أمها تطفو على السطح، تمايلت نفسها وهي تغتصب

نصف ابتسامة قائلة:

- لا تقلقي أنت وبابا.. سأكون بخير..

لم يكن أحد يتخيل حجم الألم الذي يفتت عظامها، وهي تلقي بجسدها في المقعد الخلفي للسيارة التي اصطحبته من المنزل، للتجمع في مكتب "هديل" قبل السفر، نظراتها الزائغة لم تجعلها تميز الفتيات اللاتي يتبادلن الثروة والضحكات بصوت عال، سمعت واحدة منهن تسألها:

- خيرا "إيمي" مالك؟

غمغمت:

- لا أبدا.. مانمتش كويس..

استجابت بهدوء لـ "منى"، وهي تمسك بها من ذراعها، وتدعوها للذهاب معها، زاد ضحك الفتيات لمشهدها، لم تلتفت لتعليقاتهن، سارت بجوار "منى" حتى دخلا إلى مكتب "هديل"، أغلقت الباب خلفها، شاهدها وهي تخرج من حقيبتها ورقة صغيرة، فضت ما بها على زجاج المكتب. وقسمته بعناية على هيئة خطين صغيرين متجاورين.

عاد إلى ذاكرتها مشهد الفتيات في الفندق، ندت عنها صيحة ألم لم تخرج من صدرها، خلعت نظارتها الشمسية السوداء محملقة في "منى"، والأخيرة تدعوها لأن تتبعها، انحنت على الزجاج ممسكة بالأنبوب العاجي الرفيع الذى أعطته لها. كانت تسمع صوتها أتياً من بعيد يرشدها إلى خطوات الشم. استنشقت المخدر الأبيض الذى انطلق مسرعاً من أنفها إلى داخل جسدها. حارقاً رئتيها وروحها. زفرت بعدها ببطء، قبل أن تسقط على الأرض، ساعدتها "منى" لتستلقي على الأريكة، سمعتها تقول:

- الأنبوب في حقيبتك حافظى عليه..



ارتطمت عجلات الطائرة برفق بممر الهبوط، صرخت بعدها الفتيات من الفرح، اجتذب مرجهن أنظار المسافرين، خرج طاقم التصوير ليجدوا أتوبيساً في انتظارهم. انطلق بهم نحو قرية "إيز" التى تقع ما بين "نيس" و"موناكو"، واحتلوا فندقاً صغيراً مرتفعاً فوق تلة تشرف على البحر، وتطل نوافذه على القرية الحجرية الصغيرة.

انطلقوا من فورهم إلى موقع التصوير، اخترقوا طرقات القرية الصغيرة، لم يلتفت إليهم سكانها الذين اعتادوا على مشاهدة الغرباء، قصدوا معمل العطور القديم الباقي من العصور الوسطى، نصبوا معداتهم في مكان تم تخصيصه لهم. استغرقت مهمة الإعداد للتصوير عدة ساعات. ودارت الكاميرات داخل معمل العطور، ولم تصادفهم متاعب في تصوير مشاهد المطاردات في الدروب الحجرية للقرية، التى تتناثر فيها منازل قديمة تسكنها ثلاثون عائلة.

لم تتركهم "هديل" سوى مرة واحدة ، دعاها "الأمير" لمرافقته في الكازينو الملحق بفندق الأرميتاج. كان يقضى فيه معظم وقته أثناء إقامته في مونت كارلو، استطاعت أن تثير حقد الكثيرات من مرافقاته بجهاها، ورضى عنها "الأمير" لأنها تجلب له الحظ الجيد.



سحبت "داليا" جسدها من الفراش، شعرت بوخز في قلبها، وضعت يدها على موضع الألم. ضغطت بقوة وكأنها تمنعه من أن ينفجر قافزاً من صدرها، تابعت ببصرها "مروة" التى ترتدى قميص نوم حريري، يكشف عن فخذيها المكتنزين اللذين شابها بعض الترهل.

صرخت داليا:

- بطلي غنا صدعتيني..

التفتت "مروة" ناحيتها، لم تستطع أن تخفى نظرة تذمر بدت واضحة في عينيها:

- كل الناس يقولوا إن صوتي حلو..

- ناس مين..

قالتها "داليا" وهى تقترب منها، وأكملت ساخرة:

- قصدك العيال الزبالة اللى بتروحي ترقصى معاهم.. تانجو وصلصة وتشاتشا..

- بس ما تقوليش عليهم زبالة دول أصحابي وبحبهم..

- بتحبيهم.. أنت ممكن تحبى حد غيرى؟!

أعقب ذلك فترة صمت، قطعتها "مروة"، بقولها:

تجاهلت تعليقه، وجرت قدميها ناحية غرفتها. ارتمت على فراشها، تملكتها
رغبة هائلة في البكاء، رفضت عيناها أن تستجيب لها، تشنج جسدها كله مهتزا
بعنف، لعقت بلسانها شفثيها فشعرت بطعم ملوحة علقّت مع مرارة في فمها.
استلقت على جنبها محدة بصر صار صغير يزحف متمهلاً، ويتسلق حروف
السجادة، خايلها وجه "مروة" وهي تكيل لها الضربات، لم تكن تشعر ناحيتها
سوى بالضيق والغضب. كيف لها أن تتمرد عليها؟ تسلفت إلى أنفها رائحة ورد،
شعرت برغبة في التقيؤ، نظرت إلى هاتفها، كانت واثقة أن "مروة" ستتصل بها
لتصالها.

مر المساء بطوله ولم تحدثها، تحررت بداخلها براكين غضب مشتعلة، عندما
تصورت أن لـ "مروة" عالماً خاصاً بها، وقد تكون في تلك اللحظة بين أحضان
فتاة أخرى، وتتمتع بجسدها الثائر. ومضت لحظات النشوة في ذاكرتها، ملأها
بمرارة ومشاعر كره عارمة تجاهها.

غفت قليلاً، استيقظت فرعة على يد أمها، وهي تهزها برفق، وتطلب منها أن
تتناول بعض الطعام، رفضت "داليا" مشمئزة من رائحة الدم الحار التي تعلق
بثيابها دائماً، تكورت في وضع جنيني، وهي ممسكة الهاتف بإحكام.

تعلقت عيناها بنافذة غرفتها، كان البناء المواجه لها بدون ألوان أو حياة، مجرد
جدار من الطوب الأحمر تتخلله نوافذ وشرفات قبيحة، لا توحى أن بداخله
بشراً.

في تلك الساعة من الصباح، اختفت الأصوات من الشارع على غير العادة..
ثلاثة أيام قضتها "داليا" في غرفتها، شعرت بأنها أدنى من أن يسحقها
شخص بقدميه، لم تتصل بها "مروة"، أدركت أنها ستخرجها من حياتها،

راجعت نفسها، شعرت بندم هائل يفترسها، بعد أن أَلقت نفسها في أتون علاقة
جائحة معها، لم تكن راغبة فيها بالبداية، لفظتها صديقتها ولم تتحمل سوء
طباعها.

ترددت في عقلها كلماتها القاسية "أنت مجنونة زي أبوكي"..
تأوهت من الألم الذي اخترق قلبها.. "لن أسمح لها بأن تلفظني، هي لا
تمتلك هذا الحق، أنا من صنعت لها نشوتها، لا بد وأن تقبلني كما أنا، سأعود إليها
لأؤدها".

هبت واقفة على قدميها، شعرت بدوار كاد يجعلها تسقط على وجهها، فهمت
أنه الجوع، خرجت من غرفتها، وجدت أمها تنظر إلى عينيها مباشرة، لم تكن
تفعل شيئاً سوى أن تتلصص عليها خلف باب الغرفة، حتى أنها أهملت
وطاويطها طوال الثلاثة أيام الماضية.

للحظة داهمتها شفقة على أمها، أصابتها بوخزة مباغته في قلبها ، نحت
مشاعرها جانباً، أشارت لها بأنها ستخرج، هرعت "شادية" خلفها، كانت ترتعد
كورقة صفراء وحيدة تتدلى من غصن شجرة، وتقاوم عاصفة عاتية، أزاحتها
"داليا" دون أن تنظر إليها.

تغلبت على رعشة يدها، فتحت الباب، ظلت طوال الطريق المؤدي لمنزل
"مروة"، تستحضر كلمات قوية تعيدها بها إلى هيممتها، اشترت لها زجاجة عطر،
اختارتها بعناية، لم يكن الورد من مكوناتها، أحببت فيها رائحة الليمون اللاذعة،
ستهرع إليها "مروة"، تتمسح فيها كقط ضال وجد مأوى دافئاً، ابتسمت لأول
مرة، عندما تصورتها وهي تجذبها ناحيتها.

اجتازت الصالة بخطوات بطيئة، حاولت عدم إصدار أي صوت، خوفاً من أن تفسد المفاجأة. فتحت باب غرفة النوم، وكأنها كانت في حلم، شاهدتها يتقلبان على السرير، وكأنهما في حلبة مصارعة، ميزت جسد "مروة" الأبيض المترهل، ملتحماً بجسد ذكوري يمتلك لحية كثيفة، ورأساً بهالة ضخمة من الشعر المشعث.

شهقت وتراجعت للخلف، لطمتها بقوة مشاعر المهانة والحزي، والغريب أنها استفاقت من أوهام رضوخ صديقتها لسطوتها، وانزاح من داخلها الغضب والضيق والدهشة، وخارت قواها على الفور. ولأول مرة يتتابها خجل شديد، بعد أن شاهدت بوضوح جسديهما العاريين.

قبضت يدها بقوة على الكيس الملون الذي ترقد بداخله زجاجة العطر، تراجعت للخلف بعد أن نجحت في لفت انتباهها بشهقتها القوية، تابعتها نظرات "مروة"، عادت لتحتضن صديقها من جديد بعد أن تناهى إلى سمعها صوت ارتطام الباب بعنف.

في تلك اللحظة تحسست وجهها، عادت إليها يدها مبللة، أدركت أنها تبكى، نظرت بدهشه إلى آثار دموعها. جرفها إحساس قوي بالذعر، ضغطت بيدها على عينيها محاولة إيقاف سيولها المنهمرة. فشلت، أدركت أنها لم تعد لديها ولاية على جسدها المتعب، عادت بسرعة لتحتمي بعزلتها خلف جدران حجرتها.

لا تعرف لماذا انطلقت بصقة من فمها، عندما شاهدت والدها يستعد للخروج من باب المنزل، من زاوية عينيها رأت يده، وهي ترتفع في الهواء، لتسقط على وجهها بصفعة مدوية. حدثت فيه ساهمة، تنحت جانباً في اللحظة الأخيرة، لتتفادى صفعته الثانية.

اشتعل حنق "عوض"، وانهار عليها بالضرب، وهي تحاول جاهدة ألا تفلت الكيس الملون من يدها. انتبعت "سوسو" من خدرها على صوت الضجة، فهرعت هابطة الدرجات، وخرجت "شادية" من المطبخ، وأسرعت الاثنتان إليهما، ونجحتا في جذب "داليا" خلفهما، وقد تعالت صرخاتها بصوت حاد غير بشرى، كأنها خوار ثور يجر جروونه نحو المذبح.

دفعتا بها إلى غرفتها، كان صوت والدها يتناهى إليها من بعيد، وهو يسبها ويلعن اليوم الذي ولدت فيه من رحم عفن، جلست على حافة السرير، سمعت صوت أنين يأتي من داخلها يشبه نباح كلب جريح، وشعرت أن جسدها يتشظى في كل اتجاه، وفشلت في تحريك يدها القابضة على الكيس الملون.

كان بإمكانها أن تسمع نبض قلبها، ولكنها لم تستطع أن تسمع صوتها، انفصلت عن العالم الخارجي، لم تدرك حركتها وهي تبحث عن "الكاتر" الذي تضعه بدرج في مكتبها، أخرجته بهدوء. جزت شرايين يدها اليسرى، ندت عنها زفرة حادة، لم تشعر بألم، كان جسدها مشبعاً بخدر هائل، وحركت الشفرة يميناً ويساراً حتى إصطدمت بالعظام.

أغمضت عينيها، وكأنها تمارس لعبة من ألعاب الطفولة، أظلمت الدنيا تدريجياً، سمعت بوضوح دقات متسارعة، كان آخر ما التقطته أذناها صوت أمها الرفيع، وهي تدعوها لفتح الباب، شعرت بدفع يتسرب إليها مبللاً جسدها، سكنت حركتها تماماً، بعد أن فاحت منها رائحة ممزوجة بالعرق ورائحة الليمون، وغابت عن الوعي وهي تبسم.

- 14 -

الجريمة

أغلق "عمر" باب غرفته، نظر إلى وجهه في المرآة الصغيرة. بدا كأنه صادف شبحاً في زقاق مظلم. على مدى الساعة التي تلت ذلك، لم يكن يفكر سوى في شقيقه وماعاناه في لحظاته الأخيرة. تعجب من رهافة حس أمه التي رفضت ما أكده الجميع عن انتحاره.

تقطعت أنفاسه، عندما فكر في اللحظة التي سيحكى لها حقيقة ما حدث. تخيل كيف أنها ستبكي بحرقة، ارتاح لفكرة بكائها، فقد يخفف من وطأة شعورها المؤلم بفقد "سالم".

أخرجه من أفكاره صوت الطفلين، وهما يتحدثان معا في لحظة واحدة. ويتسابقان لأجل أن يقصا على جدتهما ما حدث لهما في المدرسة. تنبه لضرورة أن ينتظرهما أمام العمارة، ليطمئن على نزولهما من أتوبيس المدرسة، وتذكر قول "مروان" أنهما تحت الحماية.

لم يطمئن كثيراً لوعده، بعد معرفته بحقيقة "كلارا" ووالدها زعيم المافيا، الذي قتل شقيقه ببساطة وهدوء. اعترته رغبة، عندما فكر بوجود قاتل يتربص به وبأمه، ويستعد لاختطاف الطفلين.

خرج من غرفته مسرعاً. كاد يصطدم بأمه التي كانت في طريقها إلى غرفته. هالها إحمراء عينيه. أمسكت به بكلتا يديها ودفعته ناحية غرفته. أجلسته برفق، نظرت إليه مطولاً..

- أريد أن أعرف كل شيء الآن..

قالتها بحزم جعله ينظر إليها، محاولاً أن يستمد منها بعض القوة.

روى لها كل ما حدث، هزت رأسها مرددة:

- كنت متأكدة.. لم أربِ "سالم" لينتحر.. عندما كان يأتي لزيارتي..
حدثتني عيناه بحقيقة لم يكن قادراً على روايتها..
راقبها "عمر" وهى تتحدث بهدوء، لم تبك كما كان يتوقع، أغمضت عينيها،
وعقلها يبحث عن منفذ:

- الحل الوحيد أن أختفي مع "فاطمة" و"علي".. لن نأمن عليهما من
"كلارا" ووالدها إلا إذا اختفينا تماماً.. سأذهب بهما إلى عائلتي في
الصعيد.. هناك يمكن اكتشاف الغرباء على بعد عشرات الكيلو
مترات.. هم سيتولون حمايتنا..
تابعت وهو ينظر إليها بدهشة:

- سأحضر لهما في المنزل من يقوم بتعليمهما كل ما يحتاجان إليه..
وسيدهبان إلى المدرسة للامتحان فقط تحت الحراسة.. لن أترك أبناء
"سالم" للقتلة..

قالتها بتصميم جعل البرودة تسري في أوصاله. نطق أخيراً بكلمات مبعثرة:

- مش ممكن.. هذا الحل غير قابل للتحقيق..
- دعنى أخبرك أمراً..

قالتها بلهجة آمرة، ثم أكملت:

- عائلتي تتوارث العمودية في قريتنا منذ أكثر من مائتي عام.. في
صغرى كنت أذهب إلى مدرسة "سان جوزيف" في المدينة وخلفى
سيارة للحراسة بها رجال مدججون بالسلاح.. هناك فقط أستطيع
أن أوفر لهما الحماية حتى يكبرا.. ووقتها سأحكى لهما كل ما حدث..
ولن تستطيع "كلارا" ووالدها أن يقتربا منها..

نظر إليها "عمر" بعينين محملتين بالقلق متسائلًا:

- هل فكرت في كل هذا الآن؟
- طبعاً لا.. منذ البداية وأنا أفكر في هذا الحل.. كنت متأكدة أن "سالم" تعرض للقتل ولم يتحجر.. وأن زوجته ووالدها مسئولان عن مقتله.. وستحاول "كلارا" استعادة الطفلين خصوصاً بعد زيارتها الأخيرة فهي تخطط لذلك.. فلا يوجد أم تتخلى عن أطفالها بمثل هذه البساطة.. لقد قرأت في عينيها الباردين أنها ستأخذهما بأى طريقة.. ومن وقت سفرها وأنا أرتب لسفري.. طلبت من أشقائى تجديد منزل والدى القديم.. وإعداده ليكون مناسباً لإقامتنا.. وتركيب أجهزة إنذار حديثة حتى لو لم نكن بحاجة إليها.. وإعداد الحديقة من أجل الطفلين..
- لم تكن تعبيرات وجهها تكتسي بالقلق الذى كاد يلتهمه، قطبت حاجبيها قليلاً، بقيت تعبيرات وجهها محملة بالإصرار:
- العمل في المنزل قارب على الانتهاء.. ما أفكر فيه الآن.. أنت فقط..
- لم تترك له مجالاً لأن يعلق، وأكملت:
- لا أستطيع أن أطلب منك أن تتخلى عن مستقبلك لترافقنا.. ولكني أعلم أنك ستكون في أمان.. فـ"كلارا" ستتصل بك لتعرف طريقنا.. وقتها يمكن أن تبلغها أننا غادرنا القاهرة للإقامة في الصعيد.. أنا متأكدة أنه سيسقط في يدها.. ولن تتمكن من الاقتراب منا.. فإذا كانت هى من المافيا فنحن صعايدة ولن نسمح لهم بالاقتراب منا..

ربت على كتفه بحب قائلة:

- قم الآن لتتناول الغداء.. وبعدها سنتحدث أكثر عن مستقبلك..
- أريد أن أتزوج "مايا"..
- مايا..

رددت الاسم بدهشة، رمشت بعينيها..

- بهذه السرعة؟

أوما برأسه محرجاً بعض الشيء، وقال:

- طبعاً لن أتزوج قريباً.. لكنى أرغب في الارتباط بها..

رتب "مروان" الأوراق المترجمة للمحادثات التي سجلها "سالم". كان النص الأصلي بجواره ترجمته العربية، حسب تسلسل التواريخ، قرأها جيداً، ثم انهمك في كتابة تقريره المفصل عما جاء في التسجيلات..

وكشفت عن حجم أعمال الرجل في عدة دول من بينها "أوكرانيا" و"رومانيا" و"البوسنة" و"روسيا" و"سلوفينيا"، ومن المنطقة العربية كانت "مصر" و"العراق" و"المغرب" و"تونس"، كلها مناطق تأتي منها الفتيات للعمل في نواديه الليلية المنتشرة في العالم كله.

توقف "مروان" طويلاً أمام محادثة، من الواضح أنها جرت في منزل "روبرتو" مع شخص يتحدث الإنجليزية بلهجة أفريقية واضحة. بدا فيها "روبرتو" غاضباً، لفقده شحنة ضخمة من الأسلحة الخفيفة لم تصل إلى جزيرة من جزر "البحر الأحمر" التي لا تتبع أى دولة.

فهم "مروان" أنها تعد مخزناً للسلاح يستخدمه زعيم المافيا، ومنها يتم توزيع السلاح عن طريق شحنها بالسفن إلى مناطق النزاع التي تزدهم بها المنطقة.

علق "مروان" في تقريره أن الجزر المعنية، تكونت بعد انفجار بركاني غامض في وسط البحر الأحمر، مكوناً جزراً جديدة لا تنتمي لأى دولة، وتقع بين "السعودية واليمن والسودان ومصر".

شعر بحزن عميق، عندما تذكر مخاطرة "سالم" التي بسببها دفع حياته، ثمناً للكشف عن منظمة عالمية شديدة الخطورة، تستهدف الكثير من الدول، ومن بينها "مصر" التي كان لها النصيب الأكبر لدى "روبرتو".

كشفت محادثة تليفونية أخرى، بصوت "روبرتو"، وهو يتحدث مع أحد رجاله بالإيطالية عن موقع في "أسوان" تعمل به إحدى البعثات الأثرية، طلب منه أن تنهي البعثة عملها وترحل، بعد أن تعلن عن فشلها في اكتشاف آثار في المنطقة التي تعمل فيها.

أمعن "مروان" النظر في الأوراق التي أمامه. كان من بينها تسجيل شديد الخطورة والأهمية، للقاء تم ما بين "روبرتو" ورجل يتحدث الإنجليزية بلهجة أمريكية، بدأت بتبادل التحيات وعن إقامة الرجل في أحد الفنادق الكبرى بـ"روما"، وتطرق الحديث عن أحدث مكتب تم افتتاحه للمنظمة في "العراق"، تحت ستار الأعمال الخيرية، وتديره سيدة يهودية تحمل جواز سفر بريطانياً.

"ستنتشر" بنى برث "في العالم العربى كله في خلال عشرين عاماً".
قالها ضيف "روبرتو"، تطرق بعدها للأمر الذى يبدو أنه حضر من أجله للقاء زعيم المافيا..

"المهم الآن أن تتم تصفية "يوسف" في أسرع وقت، ففي آخر لقاء بينه وبين "أديرا" هدها، إن لم تكف عن طلب الخرائط منه، سيقوم بإبلاغ السلطات المصرية، لم تعد له فائدة بل أصبح خائناً للوطن".

أنهى الضيف الغامض جملته، معقبا:

"فليحاول من ترسله أن يعثر على الخرائط، فإن لم يتمكن من ذلك لا توجد مشكلة، فلنترك الأمر لعلماء الآثار، كما أن "يوسف" ليس الوحيد الذى قام بذلك، ولكنه كان أكثرهم نشاطاً في تلك الفترة، عموماً لم يمض على مهمته أكثر من 65 عاماً، ولن يبدأ البحث إلا في عام 2100".

نهض "مروان" من خلف مكتبه، شبك يديه خلف ظهره مستغرقاً في التفكير، فما جاء في المحادثة الأخيرة، كان أمراً شديداً خطيرة، كشف عن خطة المنظمات الصهيونية طويلة الأجل لتزوير التاريخ.

فكر في مقولة الرجل الغامض أن هناك كثيرين غير "يوسف"، هل هم في مصر؟ بكل تأكيد هم منتشرون في العالم، ولكن من منهم في مصر؟ كما أن حديث الصهيوني عن انتشار منظمة "بنائ برث" أثار قلقه وضيقه، فهو يتابع نشاطها في كل أنحاء العالم، ولكن انتشار الشركات متعددة الجنسيات في كل المجالات يجعل من الصعب اكتشافها، كما أن ستار الأعمال الخيرية يزيد من صعوبة الأمر.

تنهد "مروان" بضيق، وعاد للجلوس خلف مكتبه ليكتب نبذة مختصرة عن الجمعية في نهاية تقريره.

"بنائ برث" من أقدم الجمعيات التي تعتنق الفكر الصهيوني، ومرتبطة بالماسونية المعاصرة، إلا أن عضويتها مقصورة على أبناء اليهود، وخدماتها

موجهة لدعم الصهيونية والفكر الاستيطاني، وتسعى لأن تتواجد في العالم كله خاصة في البلدان العربية. من المعروف أن مهمتها الأولى هي دراسة التركيبة النفسية والشخصية للقادة والساسة والشخصيات العامة، والبحث عن نقاط الضعف لديهم، للسيطرة عليهم، وتطويرهم وقت الحاجة.

تأسست هذه الجمعية في مدينة نيويورك في 13-10-1843، بعد أن حصل اثنا عشر يهودياً هاجروا من ألمانيا برئاسة "هنري جونيس" على ترخيص رسمي بإقامتها، سعت من وقتها لإقامة فروع لها في كل بلدان العالم، وخصوصاً في البلاد العربية والإسلامية تحت مسميات مختلفة. وتتخذ الشمعدان اليهودي شعاراً لها، أما في البلدان العربية والإسلامية فلا تظهره.

منذ تأسيسها تعمل بنشاط وتقوم بالتنسيق بينها وبين المنظمات الصهيونية المختلفة، وأسست عام 1894 مستعمرة يهودية صغيرة بالقرب من القدس بفلسطين، أطلقوا عليها "قرية موتسا".

عُرف عنها التحاق العديد من الشخصيات المرموقة بها، من بينهم "سيجموند فرويد" عالم النفس المشهور، و"حاييم وايزمان"، وأشاد بها "جون فوستر دالاس" وزير الخارجية الأمريكي عام 1958 ومعظم رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية.

لها شعارات معلنه تتحدث كلها عن الإنسانية والخير والرفاهية لشعوب الأرض، تهتم دائماً بالتواجد وخاصة في الدول الفقيرة، بتقديم الدعم للقراء، وإنشاء المستشفيات والمستوصفات، وتهتم بصفة خاصة بأفريقيا، تعمل على تأسيس بيوت للشباب في كل أنحاء العالم، وتقديم الخدمات لهم بأسعار رمزية، ترعى دائماً لأماكن الكوارث الطبيعية لتقديم العون والدعم.

تهتم بشكل محدد ومن خلال مندوبين لها في كثير من الجمعيات الحقوقية في العالم، بفتح حوارات حول موضوعات الأقليات والهجرة وحقوق الإنسان. في المجمل لديها ستار محكم من الصعب اختراقه حتى لو تم كشفه، لأن كثيراً من المتعاونين معها، خصوصاً في مجال حقوق الإنسان، يتم استخدامهم بدون أن يعرفوا الهدف الأصلي من مهمتهم.

الهدف الحقيقي لهم يتمثل في جذب الشباب اليهودي من أنحاء العالم، وتحديد غير اليهود، والإبقاء على حلم الوطن اليهودي قائماً، والتغلغل في الأجهزة الحكومية في دول العالم، والتحكم في سياسات الدول".

ألقى "مروان" برأسه إلى الخلف، أغلق عينيه قليلاً ليرتب أفكاره، فالتوصيات التي سيكتبها في نهاية التقرير، كانت بمثابة الحل الوحيد، لمقاومة تلك الجمعية، ولحماية مصر وغيرها من الدول التي يتم استهدافها.

"العيش والحرية والعدالة الاجتماعية".

حدق طويلاً في الجملة الأخيرة التي كتبها، دقات الباب المتلاحقة جعلته يرفع عينيه منتظراً دخول "خالد". ألقى الأخير بجسده المتعب على الكرسي، ضغط "مروان" على الجرس مستدعياً عامل البوفيه طالبا منه إعداد كوبين من الشاي.

ابتسم خالد:

- الشاي جاء في الوقت المناسب.. أعتقد أن القضية اقتربت من النهاية..

غمغم مروان بصوت هامس:

- أعتقد أننا مازلنا في البداية..

بدت علامات عدم الفهم على وجه "خالد"، لم يكن "مروان" في مزاج يسمح له بالشرح، وقال:

- المههم ما هى أخبار التسجيلات؟
- "هديل" سافرت مع مجموعة فتياتها للحاق بحفلة "الأمير" .. أعتقد أن ما تم تسجيله لها يكفى لإدانتها والقضاء على شبكتها.. أما "قاسم الدندراوي" فالمهمة معه ستكون صعبة.. فهو شديد الحذر وله شركاء منهم وزراء سابقون وآخرون مازالوا في السلطة.. هو انتهى الآن من تفريغ المقبرة بالكامل.. ويستعد لنقل معظم محتوياتها إلى "هادى" فى الغردقة.. داخل سيارات نقل مسجلة بأسماء آخرين لا يمتنون له بصلة..

توقف "خالد" وهو ينظر لـ "مروان" نظرات ذات معنى، وأكمل:

- طبعاً التحرك ضدهم سيحتاج إلى موافقات عليا..
- فهم "مروان" ما يرمى إليه، تنهد بعمق قائلاً:
- نحن سنؤدى عملنا حتى النهاية وما سيحدث بعد ذلك ليس من اختصاصنا.. خلينا في موضوعنا.. متى ستصل السيارات إلى الغردقة؟
- ستتحرك من "سوهاج" غداً فى العاشرة صباحاً.. لن يستغرق الطريق أكثر من ثلاث ساعات تقريباً..
- بمجرد دخولها قرية "هادى" يتم إلقاء القبض عليه.. ومصادرة كل ورقه لديه.. والتحفظ على الكمبيوتر الشخصي له.. وكل الأجهزة لديه والأهم اليخت..

رتب "مروان" أوراقه، أشار إلى "خالد" أن يذهب ليتولى التنسيق ما بين الأجهزة المختلفة لإلقاء القبض على "هادي"، وتوجه هو للقاء اللواء "عادل" ليسلمه تقريره المفصل.

- 15 -

الخنجـر

اختلج جسد "داليا" للحظات قليلة، شعرت بنشوة هائلة، كلما تدفقت دماؤها لتغرقها بدفء لم تشعر به من قبل. بدا صوت أمها الرفيع يتلاشى من خلف الباب، كان أكثر ما يفزعها السواد الذي غشا عينيها فحجب عنها الضوء تدريجياً، وفي الدقائق التالية لفها ظلام دامس.

لم تياس أمها من الطرق على الباب، حاولت عدة مرات أن تدفعه بجسدها الضئيل فلم تفلح، عاونتها "سوسو" ففشلتا في اقتحامه، هرولت "شادية" وأحضرت فأسا، انهالت به على الباب، وسرعان ما تهشمت بعض أجزاءه، ونجحت في فتح فجوة به، جعلتها تدس يدها لتفتح الباب من الداخل.

دخلت الاثنتان معا حتى كادتا أن تسقطا على الأرض. تجمدت "شادية" لمأى خيط من الدم يتسرب من ناحية الجانب الآخر للسريـر. صرخت "سوسو" التي هرعت ناحية جثمان "داليا" الملقى على الأرض. زاد صراخها بعد أن شاهدت الدم يتدفق بسرعة من الشريان المقطوع، احتضنتها، وهى تناديهـا محاولة إيقاف تدفق الدم.

- الإسعاف.. الإسعاف..

صرخت مرودة كيبغاء شارف على الإصابة بداء في الحنجرة، كاد أن يقضي على قدرته على الكلام، نظرت إلى "شادية" التى تحولت لما يشبه تمثالاً رخامياً، واكتست شفتها بلون أزرق داكن، وجحظت عيناها حتى كادتا تقفزان من محجريهما.

نقلت "سوسو" بصرها بينهما، لم تميز من منهما ماتت أولاً، تركت "داليا" وانطلقت ناحية التليفون وطلبت النجدة، تحركت فجأة "شادية" ممسكة بها،

مسحت بيدها الدماء التي غطت جسدها ودهنت بها وجهها، نظرت ناحية "سوسو"، وهي ممسكة بها تفهما تصيح بهستيريا:
- يا عوض تعالى فوراً..

لم تلتقط أذناً "شادية" حرفاً واحداً مما قالته ضررتها. دارت على عقبيها متوجهة ناحية غرفة الوطاويط، ابتلعها الظلام المعتاد للغرفة، خاضت معركة هائلة بداخلها، ذبحت فيها وطاويطها كلها، لم تتنبه لوصول "عوض" الذي جثا فوق جسد ابنته الهامد، طلب من "سوسو" استدعاء الإسعاف، كسا السواد ملامح وجهه القبيحة، وهو يتأمل "الكاتر" الملقى بجوارها.

انحدرت دموعه ببطء على وجهه، وسكن بعضها في التغيضات التي تحيط بفمه، شعر بهسيس خافت من خلفه، لم يكن كافياً لجعله يلتفت، تحرك الهواء لثوان معدودة، شعر بعدها بألم حاد يخترق رقبتة، انهارت قواه فسقط للأمام، انحنت معه "شادية" لأسفل، وهي تغرس الخنجر في رقبتة وتسحبه للأمام في حركة مفاجئة، اعتادت أن تفعلها آلاف المرات.

أقسمت "سوسو" بعدها أنها شاهدت عينا "داليا" ترف بعد أن تكوم "عوض" بجانبها.

لم يستطع رجال الشرطة تخليص "داليا" من بين يدي "شادية"، إلا بمعاونة "سوسو" التي سارعت بإحضار ملابس جافة لها، بدلاً من ملابسها التي كانت تقطر منها الدماء.



بعد ظهيرة اليوم التالي، نقلت المواقع الأخبارية قصصاً مطولة، عما جرى في منزل الساحر. اختلق البعض أحداثاً مرعبة عن غرف سرية مليئة بعظام آدمية

سراييط الخادم

ودماء بشرية وأجنة محفوظة داخل أوانٍ زجاجية، قيل إن الساحر يستخدمها في أعماله السفلية.

كان "عمر النواوى" الصحفي الوحيد الذى امتلك معلومات مختلفة، فبعد مقتل "عوض"، تلقى اتصالاً من أمين شرطة فى "قسم شبرا" يبلغه بالحادث، انطلق بعدها مسرعاً متوجهاً ناحية منزل "عوض"، قبل أن يصل إلى باب المنزل شاهد سيارات الشرطة تحيط به من كل جانب، اقترب من "كشك" فى الجهة المقابلة من الفيلا القديمة، خرج شاب فى العشرينيات من داخل الكشك ووقف يراقب باهتمام ما يحدث فى منزل "عوض"، لم يجد "عمر" صعوبة فى التحدث معه بعد أن عرفه بنفسه، تنهد الشاب وهو يستغفر الله.

"هذا المنزل غريب جداً، ما يحدث بداخله يشبه أفلام الرعب، كل من فى الشارع كان يتحاشى المرور بجانب أسوار المنزل خوفاً من أصوات الصراخ والأنين التى كانت دائماً ما تخرج منه، ولكن ما يحدث أمر طبيعى لأن القتل كان ساحراً ويقال إنه كان يجبس الجان بداخل الوطايط التى تربيها زوجته".

شعر الشاب بأنه استحوذ على اهتمام "عمر" تماماً، حكى له عن عائلة "عوض" وخاصة والده تاجر التحف والأنتيكات المحترم والذى يمتلك محلاً فى شارع هدى شعراوى بوسط البلد ورثه "عوض" عنه بعد وفاته.

شكره "عمر" وانصرف، عثر على محل "عوض" بسهولة، دفع الباب الزجاجى بيده فأصدر صريراً نبه الرجل الذى كان يجلس خلف المكتب، بعد تبادل الحديث اكتشف "عمر" أن "عوض" كان فى المحل وخرج مسرعاً بعد أن تلقى تليفوناً من زوجته، وأدرك أن الرجل لم يعرف بمقتل "عوض" وأنه يشعر

بالخيرة لمغادرته المحل حتى أنه ترك هاتفه المحمول على المكتب، وهو أمر شديد الغرابة، فلا يمكن لـ "عوض" أن يترك هاتفه أبداً.

قرر "عمر" أن يصارح الرجل بما حدث لـ "عوض"، وتفاوض معه مباشرة لشراء هاتف "عوض" المحمول مقابل مبلغ مالى محترم ولن يعرف أحد بأنه حصل عليه منه.

تردد الرجل قليلاً وأدرك أنها صفقة جيدة خاصة بعد ما عرف أن الشرطة قبضت على زوجته، أخفى مساعده الخمسة آلاف جنيه التي قبضها من "عمر"، وادعى في التحقيقات أنه لا يعرف عن الهاتف شيئاً.

احترار رجال الشرطة في كيفية التعامل مع "شادية"، كانت تكفي برمقهم بنظرات خاوية، وهى تعض على شفتيها بشدة، كأنها تعاني من ألم مكبوت. فشلت كل المحاولات في إقناعها بالحديث، حتى عندما انهل عليها أحد رجال الشرطة بالضرب، اكتفت بالنظر إليه كسمكة ألقت بها الأمواج على الشاطئ، فانغرزت بين الرمال محدقة إلى السماء بنظرات ثابتة.

سقط في أيديهم، فتركوا الأمر لرجل النيابة الذى لم يستطع أن يفوز منها بكلمة واحدة، حتى عندما طلب منها الجلوس على المقعد أمامه، لم تلتفت ناحيته، كانت تفكر في هذه اللحظة بالتحديد عن سر السكون الذى يحيط بها، وتتوق إلى هسيس الطوايط.

خطر في بالها أنها فى طريقها للسقوط فى حفرة عميقة ستبتلعها، ثم ستلقي بها داخل قناة طويلة رطبة ومظلمة، ستندفع داخلها بسرعة، حتى تقذفها داخل بحر تسكنه مخلوقات ضخمة فagre أفواهها، تنصارع كلها من أجل أن تبتلعها.

تصاعد من داخلها أنين مخنوق، وهى تسرع لأن تنزوي فى ركن قزمى بجوف أحدهم. ليطبق عليها بصمت.

حاولت "سوسو" أن تقنعهم بأن لا علاقة لها بكل ما حدث، وأن حظها الأسود هو من قادها لأن تكون جزءاً من تلك العائلة، روت لهم كل ما تعرفه عن موت "داليا" ومقتل "عوض" وأعماله. سألتها المحقق عن أسماء مئآت من الشخصيات المرموقة التى نشرها موقع الحدث الإخباري، مدعياً أنها كانت مسجلة على هاتفه المحمول، لم تتعرف على اسم واحد منهم، عندما واجهوها بعلاقة زوجها بـ"هادي عبد الرحيم صقر" صاحب "قرية القمر" بالغردقة، حكّت لهم عن رحلتها إلى القرية، جدد لها رئيس النيابة فترة الحبس، شعرت برعب هائل، فما كانت تهرب منه طوال عمرها، وجدت نفسها غارقة فيه، كان يفترسها الخوف، كلما شاهدت سيارة الترحيلات تقلل مساجين يحشرون وجوههم من بين قضبان النوافذ الصغيرة، محاولين استراق مشاهد من الحياة، لم تعرف حينها، لماذا كانت تبكى بحرقة.

قبل أن تخرج من الغرفة، سألت رجل النيابة إذا كانت فى حاجة إلى محام؟ أكتفى الرجل بهز رأسه، لم تستطع ترجمة حركته، هل يعنى أنها بحاجة إلى محام؟ ما هى تهمتها؟ زوجة "عوض"، شريكته فى أعماله، اشتركت مع "شادية" فى قتله، بل قد يتهمونها بأنها هى من قتلت ما دامت "شادية" ترفض الحديث.

من أين تأتى بمحام وهى لاتعرف أحداً؟ بعد أن فقدت سيطرتها على الزمن منذ سنوات بعيدة، فلا توجد لها علامات على طول تاريخها السريع الذى مر بلا أحداث مهمة، فلا عائلة ولا أصدقاء ولا طفل أتى من رحمها يصنع لها روابط بالحياة.

ومض في عقلها صورة شقيقتها، فطرده بسرعة، تذكرت "جمال" فهو الوحيد الذي يمكن أن تلجأ إليه، توسلت إلى أمين الشرطة أن يسمح لها بإجراء مكالمات هاتفية، رفض بإصرار طالبا مائة جنيه، بكّت وأقسمت بأنها لا تمتلك مالا، حتى أنها طوال وجودها بغرفة الحجز، لم تتناول طعاماً إلا ما تقدمه لها رفيقاتها.

صمت واكتفى بالنظر ناحية يدها، تتبعت نظراته ناحية خاتم ذهبي صغير لا تتذكر كيف سمح لها "عوض" بأن تحتفظ به، خلعت وقدمته له، دسه في جيبه بسرعة، قدم لها التليفون معقياً:

- سأعطيك أيضاً مائتي جنيه.. أنا رجل حقاني..

لم تناقشه، دست النقود في جيبها، طلبت رقم "جمال" عدة مرات، لم يجيبها، كتبت له رسالة، ناشدته أن يسارع بإنقاذها، فهي لا تعرف التهمة الموجهة لها، توسلت إليه أن يرسل لها محامياً.

تمتط "هديل" عارية تماماً أسفل الأغشية الحريرية الزرقاء، نشرت بيدها شعرها الطويل على الوسادة، تقلبت بثقل، سحبت جسدها بلطف إلى أعلى، وهي تسحب الغطاء على جسدها، تنهدت بارتياح وهي ترى الصندوق الجلدي الكبير الذي يرقد بداخله طاقم من الألبان المزين بأحجار من الزمرد سبق وأن رأتها، ثمನೆ يتعدى الثلاثة ملايين على الأقل، حملته في الليلة السابقة مرببة "الأمير" وكاتمة أسرارہ التي لا يأتمن عليها سواها.

الجميع يعرف أنها عبدة، كما كانت كل عائلتها ملكية متوارثة للعائلة، كانت هي الوحيدة التي تمتلك الحرية الكاملة لإبداء الرأي أمام "الأمير"، وتناقل البعض أنها قد تنهره أيضاً.

ابتسمت "هديل" بسخرية، وهى تتذكر نظرات المربية التى تفحصتها بدقة، قبل وصول "الأمير" لجناحها، عندما شاهدها تبدو كنور شارق متألق وسط بركة زرقاء، ثبتت عينيها عليها لفترة طويلة، كانت تبحث في ثناياها عن أمر صغير، لا يلحظه أحد غيرها، يمكن أن يسبب ضيقاً لـ "الأمير"، أشاحت بوجهها بعيداً، وانهمكت في إشعال كتلة ضخمة من بخور العود، فهمت "هديل" أن "الأمير" سيدخل في تلك اللحظة.

"كيف يمكنها أن تظل نائمة حتى الآن؟

فكرت بعد أن تنهى إليها أصوات صاحبة تأتي من على سطح اليخت، ميزت من بينها صوت ضحكات "جمال" الصاحبة التي كانت تنطلق من بعدها موجات متوالية من الضحك، بحثت عن تليفونها لتستدعي "منى". تذكرت أنه ليس بحوزتها، فتعليمات "الأمير" كانت تقضى بجمع الهواتف من الضيوف، وحفظها في غرفة مخصصة لذلك، سمح فقط لمن يرغب بأن يستخدم هاتفه داخل الغرفة، ثم يعيده إلى مكانه مرة أخرى.

زفرت بضيق، تذكرت الصور الفاضحة التي نشرتها الصحف الإنجليزية لـ "الأمير"، مستلقياً داخل حوض مليء بالشمبانيا، محاطاً بمجموعة من الفتيات العاريات، أثارت الصور عاصفة من الضيق والخرج للعائلة المالكة. جعلت "الملك" شقيق "الأمير" يهدد بسجنه داخل قصره.

انسابت المياة الدافئة على جسدها، أنهات حمامها بسرعة، اختارت مايوه بكينى أبيض مزيناً بورود من الأحجار اللامعة، أرادت فوقه كاش مايوه بنفس الورود، لم تكن ترهق نفسها بالاختيار فالطاقم كله مرتب، الشبشب والقبعة والإكسسوارت كلها من ماركة "دولشى أند جيانا"، تأملت وجهها في المرآة،

لمحت ظلاً باهتاً أسفل عينيها، انهمكت لدقائق في تزيين وجهها، شعرت بعدها بالرضا عن النتيجة.

سارت بهدوء مستمتعة بتسلل الهواء بين شعرها، انطلقت صرخات الإعجاب لاستقبالها، لم تغفل عن نظرات الضيق والحسد التي حاولت "كاترين" المطربة اللبنانية الشهيرة أن تخفيها بضحكاتها العالية التي تشبه الصراخ، بعد أن تيقنت أن "هديل" احتلت مكانها في فراش "الأمير". اندفعت فتياتها ناحيتها مرحبات بها، تفحصتهن بسرعة، تأكدت من أناقتهن المبهرة التي جعلتهن يبدون تحت أشعة الشمس الحانية، كأهن حوريات هربن من قصة خيالية.

لمحت بطرف عينيها "إيمي" محشورة ما بين "بهزاد" تاجر السجاد الإيراني الملياردير، ورجل يرتدى قميصاً أبيض مفتوحاً يبرز منه كرش منتفخ كاد يصل إلى أنفه، ابتسمت للخاطر الذي راودها عندما تصورت أن كرش الرجل يمكن أن يكبر حتى يلقي بهم جميعاً إلى البحر، جلست في المكان الذي أدخلوه لها، لتصبح في الصدارة تماماً.

مضى الوقت وهم يتبادلون النكات وحكايات النيمة عن الفنانة اللاتي يحشين أجسادهن بكيلوات من السيلكون، وفضائح بعضهن وقصص المطرب الشهير الشاذ، ضحكوا على عضلاته المفتولة وعشق المطرب الخليجي المشهور له، الذي اشترى له سيارة "لمبورجيني" طلبها بمواصفات خاصة من أجله. لم تغفل "هديل" عن مراقبة "إيمي" للحظة واحدة، حدقت فيها وكأنها تقول لها حذارٍ من أن تنفجري صارخة، لم يخف عليها علامات الغضب المكتومة، التي كانت تجاهد لإخفائها، كلما حاول الرجل البدين أن يلمسها.

نظرت إلى "جمال"، اقترب منها متخطياً أجساد الفتيات العارية، همست في أذنه بأن يسرع بتخليص "إيمي" من بين الرجلين، خوفاً من حدوث كارثة، فهم بسرعة، مديده واجتذبهما من بينهما، جرها ليرقص معها على أنغام أغنية "يا بتاع النعناع" تمايلت "إيمي" راقصة، تألق جسدها المثير الشاهق البياض، أثارت عاصفة من الإعجاب، دفعت الرجل البدين لأن يحتضنها، دفعته بعنف كاد يلقي به على ظهره، لولا "جمال" الذى سارع لنجدته. بدا وجهها حزيناً وهى تنظر إليه غاضبة.

كاد قلب "هديل" أن يقفز من بين ضلوعها، خوفاً من رد فعل الرجل الذى فاجأ الجميع بغرقه في وصلة من الضحك الصاخب، أجبرتهم جميعاً على مجاملته بالضحك معه.

- إنك لا تفهم شيئاً.. أليس كذلك؟

قالت "هديل" بغضب وهى تحدث "جمال" الذى لم يرها غاضبة وعدائية إلى هذه الدرجة من قبل، وهى تكمل:

- هذه الفتاة ستتسبب لنا في مصيبة.. تبدو وكأنها قادمة من جنازة..

وجهها ينطق بالشقاء والبؤس.. أين "منى"؟ لا بد أن تزيد لها

الجرعات حتى تظل ساكنة.. تمنعها يزيد التنافس حولها.. الرجل

البدين من كبار تجار السلاح.. يكاد يجن بها..

زمت "هديل" شفيتها بحدة إلى درجة أن شحوبها زحف على طلاء شفيتها:

- ألا تعلم يا غبي أن صبره ممكن أن ينفد في أى لحظة؟

- لا تخافي.. نحن متحكمون بها تماماً..

شحب وجه "هديل"، وأصبحت قسماًتها حادة..

- أنا لست عالمة نفسية لكى أجزم أن لديها طاقة مخزونة من الرفض..
يمكن أن تنطلق في أى لحظة.. أنتم تحكمتم في جسدها.. ولكن
إرادتها مازالت حرة.. أعرف أنها ستستخدم طاقتها وقت
الغضب.. أشعر أن نهايتنا ستكون على يد هذه الفتاة الملعونة..
التوى فم "جمال"، محاولاً أن يرسم على وجهه ابتسامة، ليطمئنها فبدت عليه
علامات البلاهة بوضوح، أشاحت: هديل "بوجهها عنه قائلة:
- بمجرد عودتنا سنتخلص منها..

انتشل "جمال" نفسه من الحرج الذى أغرقته فيه "هديل"، وهو يلعن فى سره
"عوض".

تعلل بذهابه للحجرة التى بها التليفونات، كان ينوى أن يصب جام غضبه
على شريكه سبب البلاء، طلب هاتفه، قدمه له المسئول فى الغرفة، فتحه بهدوء،
فوجئ بعشرات المكالمات والرسائل، فضل أن يتفحصها أولاً، وجد 51 مكالمه
من مساعده "علاء".

أصابته رعشة سرت فى جسده، أعاد طلب رقمه بيد مرتجفة، بعد أول رنة
أجابه مساعده، قبل أن يسأله عن سبب كل هذه المكالمات، أخبره بسرعة عن
مقتل "عوض" على يد "شادية"، وانتحار ابنته، أغلق "جمال" التليفون بسرعة،
كأنه يرغب فى الهروب بعيداً عن قصة مقتل "عوض". حاول أن يقف فشعر بأن
الأرض تميد من تحت قدميه.

عاد لينظر لعشرات الرسائل، وقعت عيناه على رقم غريب، فتح الرسالة
ليقرأ استغاثة "سوسو"، شابه الذعر خوفاً من أن تفضحهم بما تعرفه عنهم،

اتصل بمساعده من جديد، أمره بصوت مرتعش بأن يرسل محاميه لـ "سوسو" في محبسها، وبعد الإفراج عنها يوفر لها مكاناً لإقامتها.
توجه بخطى ثقيلة إلى سطح المركب، وجدهم يرتدون ملابسهم استعداداً للمغادرة.

راقب المركب وهى تلتف لتدخل في "مارينا الجزيرة"، غلف أذنيه صمت مطبق، لم تستطع أصوات الضحك والثرثرة أن تنفذ إليه، كاد يخبر "هديل" بما حدث. أرجأ إبلاغها إلى ما بعد رحيلهم عن الجزيرة.

انشغل الجميع بنقل الحقائق وترتيبها في غرف القصر، اختفى الضيوف داخلها، ولم يتبق سوى الخدم ومنسقى الحفلة، وهم يحملون في أيديهم أجهزة لاسلكية يتواصلون بها فيما بينهم.

جلس "جمال" على أحد المقاعد يراقبهم وهم يعدون مسرحاً فخماً ترحف من تحته مئات من الأسلاك الكهربائية الملونة المتداخلة فيما بينها، شاهد رجلاً أنيقاً يتحدث باللغة الإنجليزية بأنفعال شديد، ويلقى بتعليماته مستخدماً إشارات يده، عرف بعدها أنه مدير أعمال المطربة العالمية "شاكير" نجمة الحفلة، فارقه تماماً الشعور بالإنارة لرؤيتها عن قرب، وما نجح في تحقيقه من رضا "الأمير" عنه، لازمه الوجوم طوال المساء، حتى كاد ينسحب لينزوي في غرفته بعيداً عن أجواء الحفلة الصاخبة.

نالت الفتيات قسطاً من الراحة بدأن بعدها الاستعداد للحفلة، وانتهى جيش الخدم من ترتيب المكان استعداداً لاستقبال الضيوف، وقد بدأوا في التوافد على القصر، منهم من أتى بطائرته الخاصة، ومنهم المقيمون على الجزيرة منذ أيام، كلهم متشوقين لحضور حفلات "الأمير" الأسطورية.

لأكثر من ساعتين، تنقلت "شاهينار" ما بين غرف الفتيات تراقب خبيرات التجميل وهن يقمن بعملهن، أبدت بعض الملاحظات على تسريحات بعضهن، اهتمت بصفه خاصة بـ"إيمي" التي تبدو منتشية تماماً، وإن لم تفارقها نظرة حزن، جعلت عينيها تبدو كبحيرة عميقة ينيرها قمر خجول. مما منحها طلة مميزة عن قريناتها. وهي ترتدي ثوب السهرة الأبيض المطرز بفصوص من الفيروز، تحيطه دوائر من الأحجار البيضاء اللامعة.

بدأت "إيمي" كأنها واحدة من بنات "زيوس"، رغم جمالها الباهر، إلا أن "هديل" انتزعت صيحات الإعجاب عند ظهورها مرتدية ثوباً أسود يكشف عن ظهرها، ويلتف حول جسدها ليبرز كل معالم الفتنة فيه، لم تنس أن تتزين بالطاغم الماسي الذي أهدها لها "الأمير".

لم تستطع المطربة اللبنانية أن تتحكم في شهقة عالية، انفلتت من صدرها، جعلت العيون كلها تتجه ناحيتها، محملة بقدر من السخرية والشهامة، تمنى البعض في تلك اللحظة أن تنشب أظافرها في عنق "هديل"، حتى يحصلوا على أكبر قدر ممكن من التسلية.

لم تمكنهم "هديل" من تحقيق أمانيتهم، واندفعت ناحية أحد الضيوف الذي تلقفها بين ذراعيه مرحباً.

ارتقت "إيمي" على أحد المقاعد تراقب حركة الخدم، وهم يحملون المشروبات والأطعمة الفاخرة الخفيفة، ويتنقلون بين الضيوف بخفة وسرعة، حملت فيهم، رأت أن ملاحظهم لا تحمل تعبيرات بشرية، فعيونهم لا ترمش، فكرت أن تلمس أحدهم، فجأة، اختفى الجميع من أمامها بعد أن حجب الرؤية عنها الرجل البدين، ماداً يده ليصحبها لتجلس بجواره.

قامت بثقل، شعرت بنيران حارقة تندلع حول خصرها بعد أن أحاطها بيده، همس لها بأنه أعد لها مفاجأة، أشاحت بوجهها بعيداً عنه، بعد أن لفحتها أنفاسه الكريهة المختلطة برائحة الخمر والتبغ، للحظات امتلأت عيناها بوهج عقد ماسي ضخيم، كل ما فكرت فيه وقتها، أنها كانت تشاهد مثله معروضاً في محلات المجوهرات، وتعجبت هل يمتلك أحد مالا كافياً في تلك الدنيا لكي يشتريه؟

بدا على ثغرها شبح ابتسامة، فسر لها بأنها دليل على رضاها، أحاط جيدها بالعقد بسرعة، شعرت بملمسه الثلجي على رقبتها، تقلصت ملامح وجهها بعد أن امتلأت رغبة بالتقيؤ، كادت تخلعه وتلقيه على الأرض، قبل أن تهتم بفعلتها سمعت صوت "هديل" الناعم يهني البدن على ذوقه الرفيع. أحاطتها بذراعيها وانتحت بها جانباً، تراقصت الأضواء على وجهها المزين بدقة زادت من جمالها، افتر ثغرها عن ابتسامة مخيفة، مما منحها مظهراً شيطانياً، غمغمت من بين أسنانها:

- إذا تسببت في مشكلة فسألقي بك إلى كلاب "الأمير" .. لتتحولي إلى طعام يسد جوعهم ..

فتحت "إيمي" فمها وأغلقتها، كأنها لا تدري أن باستطاعتها أن تتحدث. - هذا آخر أنذار لك ..

قالت "هديل" جملة الأخيرة، وهي تستدير برشاقة عائدة إلى أصدقائها، بعد أن بدأت فرقة "شاكير" في الظهور تمهيداً لاعتلائها المسرح. تحول المكان كله لكتلة من الضجيج الهادر، علت الصرخات إعجاباً بـ "شاكير"، بدوا كأنهم في حفل طقسي لجماعة تمارس عبادة وثنية.

عادت يد البدین لتسحبها من جدید، استسلمت له هذه المرة، كصياد ماهر أدرك أنه اقتنص فريسته، سحبها بهدوء مبتعداً عن ضجيج الحفلة، صعد إلى غرفته وهي من خلفه، كادت تتعثر عدة مرات وتسقط على وجهها، دخلا الغرفة، خلع ثيابه بسرعة، راقبته وهو يسرع ناحيتها، كان آخر ما احتفظت به في ذهنها كرشه المكتنز وهو يهتز موشكاً على الانفجار. أغلقت عينيها، وهي تشعر بثقل هائل فوقها، خارت قواها على الفور، تجمدت أطرافها بطريقة مخزية، كل ما شعرت به إحراج شديد، عندما مزق ملابسها الداخلية، حاولت أن تدفعه بعيداً، فشلت، اندفع من فمه سيل من اللعاب اللزج أغرق رقبتها، اندلعت بداخلها ألسنة من اللهب الحارق، وقتها فقط سطعت في الغرفة ألوان متداخلة تسللت إليها من الألعاب النارية التي كانت تنير السماء في الخارج.

إنزاح الثقل من على جسدها، لم تقو على الوقوف على قدميها، تمنعت فيه جيداً، كتلة هائلة من الشحم تجر خلفها أموالاً طائلة لا يعرف هو نفسه عددها، ارتفع شخيرها حتى غطى على صوت الموسيقى الصاخبة، تحسست جسدها كأنها تتأكد أنه لم يمضغ جزءاً منه، إنتابتها نوبة من الضحك الهستيري، فقد تصورت للحظة أن جسدها تشقق وأن الدماء تتدفق من تحت جلدها لتغطيها.

سمعت طريقة على باب الغرفة، دون أن تنتظر رداً، مدت "هديل" رأسها إلى الداخل. رأت كومة اللحم والشحم مستلقي على قفاه، أسرعت ناحية "إيمي" التي نظرت إليها مشدوهة.

- هل أصابك بأذى؟

سألته "هديل" وهي تفقددها بسرعة، كانت على وشك أن تقول شيئاً، لكنها إكتفت بفتح وغلق عينيها بلا كلمات، وكأنها تنوي أن تغرق في نوم عميق.

استوت "إيمي" واقفة على قدميها، ترنحت قليلاً، ثم إستعادت توازنها بمساعدة "هديل".

- كيف عرفت مكاني؟

- كاميرات الأمير.. فهو يهوى مراقبة ما يحدث في غرفه..

للحظات لمحت "إيمي" نظرة شفقة ارتسمت في عين "هديل". لم تأبه كثيراً، كان كل ما ترغب به في تلك اللحظة أن تغتسل، ساعدها هذا الخاطر على أن تمتلك القوة الكافية، لنذهب إلى غرفتها، خلعت ملابسها، وألقت بها على الأرض، ارتمت داخل البانيو.

اقتрحت "هديل" أن تملأ لها الحوض بهاء دافئ لتسترخي، صرخت "إيمي":

- لا.. أريد أن أزيل الوسخ من جسدي لا أن أغرق فيه..

في اليوم التالي، حاولت المطربة اللبنانية أن تستعيد بعض ما فقدته من رضا "الأمير"، ارتدت ثوباً شفافاً كشف عن عريها الكامل، رقصت وتأوهت كثيراً، غنت بصوت كان الجميع يعلم أنه لا علاقة له بالطرب، نجحت في إطلاق إثارة خافته ولكنها حارقة.

استعادت "إيمي" هدوءها بفضل جرعات المخدر، كانت تنوي أن تصد البدن إذا عاود الكرة، الغريب أنه مر من أمامها وكأنه لا يراها.

- 16 -

قاسم الدندراوي

في الأسابيع القليلة الماضية، شغل "هادي" أمر واحد، وتفرغ تماماً للبحث عن مكان آمن لتخزين كنوز المقبرة حتى وقت ترحيلها. راجع كل الترتيبات عدة مرات، وتأكد من وجود "سفينة روبرتو" في عرض البحر.

وجد مشقة في متابعة أفكاره، بعد أن داهمه قلق لم يعرف أسبابه، عزاه لطبيعته وللأخبار التي نشرت عن مقتل "عوض" وانتحار ابنته. رغم أنه لم ينكر معرفته به، عندما اتصل به عدد من الصحفيين يسألونه عن علاقته به، ادعى أنه كان مجرد زبون يستطلع عنده الطالع، وقدم في قريته بعض العروض السحرية، إلا أن مجرد اضطراره للتبرير، وكشف علاقته به اعتبره نذير سوء.

أزاح هواجسه جانباً، بعد أن أقنع نفسه أن كثيراً من الأسرار، تم دفنها مع "عوض" في قبره. أجرى اتصالاً بسائق الشاحنة، أبلغه فيه أنه أصبح على مشارف الغردقة، أعطاه تعليماته بأن يذهب إلى الـ"مارينا" مباشرة، وتتوقف الأخرى عند المخزن الكبير داخل القرية.

بحث عن شقيقه الذي حضر إليه مهرولاً، ظل واقفاً أمامه للحظات منتظراً أوامره، جاءه صوته جافاً، لمح فيه رعشة بسيطة:

- أريدك أن تكون متيقظاً تماماً.. الشاحنة التي ستفرغ حمولتها في

المخزن.. حذارٍ أن يقترب منها أحد من عمال القرية.. سيتولى

الرجال القادمون معها إفراغ حمولتها داخل المخزن.. ستقول أمام

الجميع إنها شحنات من الأثاث الخاصه بالقرية.. احتفظ بمفتاح

المخزن ولا تسمح لأحد بالاقتراب منه..

نقر على المكتب بعصية:

- سأفرغ الحمولة الأخرى في اليخت.. سأخرج الليلة لتسليمها
لمركب "روبرتو" في عرض البحر..
ابتلع ريقه بصعوبة، ثم أكمل:

- تأكد من وصول الضيوف الذين دعوتهم لرحلة الصيد..
كاد شقيقه أن يقول شيئاً مبهجاً عن نجاح العملية، ثم عاد وتراجع بعد أن
شاهد وجه شقيقه العابس، دار على عقبيه منصرفاً، لم يجرؤ على النظر إليه، وهو
يتساءل عن متى سيكف عن اعتباره طفلاً؟
حذق "هادي" في الحديقة المترامية أمامه، هو نفسه لا يعرف سر ضيقه
وتوتره، فلم تكن تلك المرة الأولى، جعد أنفه وكأنه يشتم رائحة كريهة، انتفض
مرتعباً على صوت رنين هاتفه المحمول، نظر بتجهم إلى شاشته الصغيرة، رد
بسرعه أجاب بكلمة واحدة "ماشى".

خرج بعدها متوجهاً ناحية المركب القابع في الـ"مارينا"، نظر خلفه، رأى
الشاحنة مقبلة ناحيته، سار أمامها حتى توقفوا جميعاً بمحاذاة المركب، حياه
العمال وهرعوا لمصافحته، وهو يرسم ابتسامة على وجهه، ويحفزهم للعمل
بهمة، فسارعوا لإنزال حمولتهم في بطن المركب. لم يكن هناك ما يثير ريبتهم،
فهم يعلمون أنهم سيبحرون في مساء نفس اليوم، من أجل ضيوف "هادي"،
الذين يعشقون الصيد.

تأكد "هادي" من شقيقه أن الشاحنة الأخرى، تفرغ حمولتها بهدوء داخل
المخزن، وقبل أن يتسلل إليه قدر من الهدوء، شاهد رتلا من السيارات السوداء
تندفع ناحيتهم، أغلق عينيه كأنه يمنع تقدمهم ناحيته، أحاط رجال الأمن به،

واستسلم على الفور الرجال القادمون مع الشاحنة، بعد ان أدركوا أنهم لن يستطيعوا الوصول لأسلحتهم المخبأة أسفل مقاعد السيارة.

وضعوا "هادي" في إحدى السيارات، وأعادوا كل الصناديق إلى الشاحنة من جديد، بعد أن فتحوها وتأكدوا من وجود القطع الأثرية بداخلها.

حل عليه صمت مطبق، حتى أنه لم يجب على الضابط، عندما أخرج له إذن النيابة للسماح بتفتيش المركب ومكتبه وحجرته بالقرية. اكتفى بهز رأسه، وهو يشاهد بعض رجال الشرطة مرتدين ملابس مدنية، ويحملون بين أيديهم صناديق مملوءة بأوراقه وأجهزة الكمبيوتر الخاصة به. تأكد أنه لم يرههم من قبل، وانطلق رتل السيارات متوجهاً ناحية مديرية الأمن.

لمح "هادي" بطرف عينه رتلاً آخر خلفه، وأيقن أنهم قبضوا على شقيقه. كانت التعليمات لدى مساعد مدير الأمن، بأن يتم التحفظ على "هادي" وشقيقه في غرفة مغلقة، وألا يسمح لأحد بالاقتراب منها أو التحدث معها، حتى يتم نقلهما إلى القاهرة في طائرة العاشرة مساءً.

ألقى "هادي" بجسده المنهك على الكرسي الجلدي الوثير، لم يهتم بشقيقه الذي انخرط في بكاء حار، وهو يسأله عن سر ما حدث لهم وكيف سيتصرف؟ طالبه بأن يتصل بأحد من معارفه لكي يخرجهم من ورطتهم.

شعر بطين حاد يخترق رأسه، جعله يلتفت ناحية شقيقه ناظراً إليه بعينين ملتهبتين، توقف الأخير عن الكلام بعد ما شعر برعب هائل من نظراته، غرق الاثنان في صمت حتى سمعا باب الغرفة يفتح ببطء، ظهر شرطى يحمل عدة أطباق من الطعام، وترموس يحوى كمية من القهوة، بينما وقف في فسحة الباب ضابط، كان "هادي" يعرفه، واستضافه مع زوجته في القرية عدة مرات.

لم ينبس الضابط بكلمة، وأشار للشرطي بوضع الطعام أمامهما، وانصرف مغلقاً باب الغرفة. لم يكن "هادي" راغباً في تناول الطعام، وأشار لشقيقه بأن يصب له بعض القهوة، ارتشفها ببطء آملاً أن تسرى مرارتها في جسده، لتزيل عنه آلام الصداع.

حضر مدير الأمن بنفسه للإشراف على ترحيلهما إلى القاهرة على متن الطائرة. تأكد من أنها لم يتحدثا مع أحد منذ وصولهما، ولم يفتح باب غرفتهما إلا لتلقي الطعام الذي جاءهما من مطعم القرية وتم تفتيشه بدقة.

أمر مدير الأمن بتجهيزهما من أجل موعد الطائرة، فتح الضابط الباب، كان الظلام ينتشر بها ماعدا ضوءاً خافتاً لأباجورة، برقت على الأرض بقع مضيئة، فتح نور الغرفة بسرعة، ليجد الشقيقان مستلقيان على الأرض، تبدو عليهما علامات التشنج.

كان فم "هادي" ملتوياً، وكأن سيلاً من الكلمات مازال عالقا بين شفتيه، سد الضابط أنفه بيده محاولاً منع رائحة ثوم عفنة، كادت تخنقه من التسلل إلى حلقة، صرخ طالباً سيارة الإسعاف، في ثوان امتلأت الغرفة برجال الشرطة.

حضر الطبيب مهرولاً، بنظرة سريعة، أكد تسممهما بمبيد حشري فسفوري قوى، جعلهما يتقيآن. أشار بيده ناحية بقع القى المضيئة قائلاً:

- القى الذى يضئ فى الظلام.. دليل على التسمم بالفسفور.. ورائحة الثوم العفنة من آثار السم..

شعر "مروان" بغضب هائل، عندما علم بتسممهما، صرخ غاضباً:

- كيف تم التسلل لقتلهما بحيلة تافهة وقديمة؟

حاول اللواء "عادل" السيطرة على الموقف. أمر بالتحقيق مع كل من اقترب منها، والقبض على من أحضر لها الطعام.

خرج صوت "مروان" خشناً وفضاً، كأنه لم يتحدث منذ سنوات طويلة، كان كلامه سريعاً، وهو يأمر "خالد" بعدم وصول خبر قتلها داخل مديرية الأمن إلى وسائل الإعلام.

تدفق تيار من الهواء البارد إلى الغرفة، بعد أن شعر اللواء "عادل" بحاجتهم إلى تصفية جو الغرفة من حلقات الدخان التي تراكمت في أعلى السقف. نظر مطولاً إلى "مروان" الذي بدا الضيق واضحاً على وجهه. وضع يده على كتفه موجهاً له الحديث بصوت هادئ:

- أرجوك لا تفقد أعصابك.. أنت تعلم جيداً أن اللعبة مستمرة.. فيها جولات بعضها سيحسم لصالحنا.. والبعض لصالح الجانب الآخر..

رفع "مروان" رأسه، قائلاً:

- ما يثير غضبي أن التخلص منها تم بطريقة قديمة ومستهلكة.. أنا متأكد أنها كانا يعرفان الكثير من المعلومات.. كما أن قتلها يؤكد وجود أتباع لـ"روبرتو" لا نعرف عنهم شيئاً..

هز اللواء "عادل" رأسه موافقاً:

- وجود أتباع أمر مؤكد.. هل كنت تتصور أنك قادر على اجتثاثهم من جذورهم؟.. كما قلت لك.. في عملنا لا وجود لكلمة النهاية.. أريدك الآن أن تتفرغ للتعامل مع "قاسم الدندراوي".. هو في طريقه إلينا الآن.. الرجل مراوغ كبير وله علاقات متشعبة.. وأول

ما سيستخدمه هو حصانته البرلمانية.. المهم أن نحصل منه على أكبر قدر من المعلومات..

لم ترف عين لـ"قاسم الدندراوي"، وهو يجلس بهدوء في مكتب اللواء "عادل"، بدا واثقاً من نفسه ومتعالياً. جلس أمامه "مروان" يتأمل الساعة "الرولكس" الضخمة المطعمة بفصوص الماس، وتبدو ساطعة من كم جلبابه الصوفي الفاخر..

- كان يكفي أن تحدثني في التليفون لكي أحضر إليك..

تظاهر اللواء "عادل" بأنه لم يسمعه. استأذنه "قاسم" في إشعال سيجارة، أو ما له موافقاً، وقال:

- المقدم "مروان" حيدر دشر معاك شويه..

نفث دخان سيجارته:

- "مروان" بيه.. أنا تحت أمرك.. لن أتحدث عن حصانتي البرلمانية..

أنا هنا من أجل المساعدة..

أخذ "مروان" نفساً طويلاً، وثبت نظره عليه يتأمله، لم ينطق بكلمة واحدة للحظات طويلة، ومع كل ثانية كانت تمر كان يشعر بثقة "قاسم" في نفسه تقل، لاحظ أنه لا يكاد يرفع بصره عن الهاتف، فهم أنه ينتظر مكالمته ستأتي لتأمر بانصرافه، وتسرب إلى نفسه بعض الضيق خوفاً من أن تتحقق ظنونه.

أشاح "قاسم" بوجهه محققاً إلى الجدار خلف "مروان"، وقال:

- أنت تعرف أن دوري لا يقتصر على أنني مجرد عضو في مجلس

النواب.. أنا مسئول تقريباً عن استقرار الأوضاع السياسية في ثلاث

محافظات بالصعيد.. يمتد فيها نفوذ عائلتي وأصهاري.. لا يمكن أن يلقي شخص ورقة في صندوق انتخابات بدون علمي..

صمت قليلاً، ثم أكمل:

- حتى المارقون من المخربين أجيد التعامل معهم..
توقف "قاسم" فجأة، وأخذ يحدث نفسه، وهو ينظر إلى "مروان" مبتسماً..
"لا توجد قطعة سلاح واحدة تدخل للمحافظات الثلاث بدون علمي، أهتم أولاً بعدم وصولها إلى أيادي المخربين، أما إذا وصلت لأيدى البعض فلا توجد مشكلة، أنت تعرف عادات وتقاليد الصعيد، فاقتناء السلاح ليس رفاهية والبيت الخالي من السلاح هو بيت بارد.. هل تتصور يا حضرة المقدم للحظة ماذا يحدث إذا اختفى السلاح من الصعيد؟ قد تختفى حالات الثأر والمنازعات والصراعات التى تحسم دائماً بقوة السلاح!

أفاق قاسم على صوت "مروان":

- ما هى علاقتك بـ "هادى عبد الرحيم صقر"؟
- أه.. "هادى".. هل تعلم كم أنفق شهرياً؟
لم ينتظر إجابة على سؤاله، وتجاهل نظرات "مروان" الساخرة:
- فى الشهور العادية من مليون لاثنين، أما فى مواسم الانتخابات فيمكن أن تصل خمسة ملايين فى شهر واحد..
توقف حتى لا يخوض فى تفاصيل أوجه إنفاقه، ثم أكمل:
- طبعاً أحتاج بين حين وآخر أن أقوم ببعض العمليات التى تدر عيَّ بعض الأموال.. أنت تعلم طبعاً أن الأرض الزراعية التى ورثتها لا يمكن أن تفى بكل هذه النفقات..

تجاهل "مروان" تلميحاته، ثبت عليه نظراته الفاحصة، فقال "قاسم":

- هادي مجرد مغامر، ليس له أصل ولا فصل، من عائلة فقيرة، سافر من سنوات طويلة، ليعمل في الغردقة مثل آلاف الشباب، لكنه كان يمتاز عنهم جميعاً بأنه شديد الصبر والذكاء، استطاع أن يكون ثروة معقولة، جاءني منذ عدة سنوات، وطلب مني أن أساهم معه في بناء القرية السياحية التي يملكها، وافقت على أن أشاركه بنسبة، ودفعت له وقتها سبعة ملايين..
- أنت شريك في القرية السياحية؟
- طبعاً.. ولكن نسبتي مسجلة باسم زوج بنت خالتي..
- روبرتو؟
- أعرفه بالاسم فقط، فلا يوجد بيني وبينه أى نوع من أنواع العمل المباشر، "هادي"، همزة الوصل بيننا..

تردد قليلاً قبل أن يقول:

- هذا الرجل مسئول عن عدد كبير من البعثات الأثرية التى تأتى لتعمل فى مصر، يقوم بتمويلها تحت ستار دعم البحث العلمي، وغيرها من الأمور التى توفر له غطاءً مناسباً في بلاده، وفي مرحلة من التنقيب والبحث يوقف الدعم المالي، فلا يعود أمام البعثة سوى التوقف عن البحث.. هذا طبعاً في حالة أن البعثة لا تتبعه..

انحنى "مروان" إلى الأمام، مركزاً عينيه على وجهه:

- البعثات التابعة لروبرتو.. هل يمكن أن تدفن شيئاً ما في المواقع التى تعمل بها؟

حاول "قاسم" ألا يفقد هدوءه، لكن ما إن سمع السؤال حتى شحب لونه
وكان الدم سحب من جسده:

- لا أفهم ماذا تعني؟

زم "قاسم" شفثيه بقوة، فقد كان يمتلك الكثير من الحجج والنفوذ، ولكنه
أدرك بفطرته أنه قد يكون متورطاً مع أشخاص خارج الإطار. صمت منتظراً
توضيحاً من "مروان" الذي تجاهله، أطلق تنهيدة تشى بالحنق، ولم يفهم السبب
الذى جعله يشعر بقلق شديد في أعماقه، فقال:

- كل البعثات الأثرية التى تعمل في مصر تحصل على تصاريح من
وزارة الآثار وجهات متعددة، ويرافقها عدد من الأثريين المصريين،
يتولون متابعة عمل البعثة، ولكنهم بالطبع يتمتعون بحرية كاملة في
مواقعهم، تمكنهم من فعل ما يرغبون فيه..
- "عوض"!

- كان ماهراً إلى درجة الجنون، ليس له مثيل، لا يمكن أن تثق به أبداً،
كان يمكن أن يبيع أصابع يديه إذا وجد لهم مشترياً، لم يهتم سوى
بجمع المال، مستغلاً مواهبه الشيطانية، كانت نهايته طبيعية تماماً..

هز "رأسه، نظر ناحية اللواء "عادل" الذي كان يراقب بدون أن يتدخل في
الحديث، قطع رنين هاتف المكتب الصمت المشوب بالترقب، رفع "عادل"
الساعة ببطء، جاء من الطرف الثاني صوت يطلب منه الانتظار، قطب ما بين
حاجبيه وهو ينتظر، انبسط بعدها وجهه حتى كاد يهب واقفاً، وهو يستمع
للطرف الثاني الذى بدأ الحديث بتحيته، ثم طلب منه بصوت عميق:

- إذا كنت انتهيت من "قاسم" فليغادر على الفور..

حاول "عادل" أن يبدو متماسكاً، حتى لا تفصح قسّمات وجهه عن فحوى
المكالمة، التفت ناحية "مروان" الذى بدا ممعناً في التفكير..
- "قاسم" بيه سنقوم بالاتصال بك إذا احتجنا إليك مجدداً..
وقف بعدها منهياً المقابلة.
لم يتحرك "مروان" من مكانه، راقبه وهو يللمم جلبابه، ويسير باتجاه الباب
بخطوات ثابتة،
نكس رأسه في الأرض مستغرقاً في تأمل نقوش السجادة، رفع وجهه في
النهاية ناحية "عادل"، محاولاً عدم النظر إلى عينيه..
- هل أكتب تقريراً عن البعثات الأثرية ودور بعضها في التعامل مع
المنظمات اليهودية؟..
في جهد مستميت للتقليل من أهمية ما حدث، هز "عادل" رأسه موافقاً.

- 17 -

مروان

تقلب "مروان" في فراشه محاولاً أن يغفو، شعر أن هناك مطرقة تهوي على رأسه بانتظام، وتصيبه بالآلام لا تحتمل. قام من فراشه ليبحث عن دواء مسكن، قلب بين الأدوية في الدولاب المخصص لها. التفت بسرعة على صوت حفيف من خلفه، بدت أمه منزعجة، شعرت بالقلق عليه لرؤيتها له يبحث عن دواء في تلك الساعة، أحضرت له الدواء، وصنعت له كوباً من الينسون الساخن..

- لا تعامليني كطفل صغير..

قالها محاولاً التغلب على حرجه، لتسببه في إيقاظها في تلك الساعة، ابتسمت له بهدوء، وقالت:

- ستظل طفلاً صغيراً حتى عندما تنجب عشرات الأطفال..

ضحك وهو يردد:

- عشرات الأطفال!

بدأ يستعيد هدوءه بعض الشيء، أغلق عينيه ليستعيد مشهد "قاسم" الواثق من نفسه، عادت الطبول لتدق في رأسه من جديد، لمحت أمه اختلاجة في وجهه، فهمت أنه يعاني من أمر ما، اقتربت منه ضاحكة:

- متى ستعرفني بـ "مريم"؟

انتفض مرتعباً. لم يكن يتوقع أن تبادره بالحديث عنها، عاوده خجل الطفولة، تركته أمه للحظات، وعادت ممسكة بيدها علبه جلدية صغيرة يعلوها شعار "كارتيه" ففتحها، لمع بداخلها خاتم ماسي، زاد من توهجه القטיפه السوداء التي تفرش العلبه.

نظر إليها بدهشة:

- خاتم زواجك!

- بل خاتم زواجك.. ليس له مثيل الآن.. ثلاثة قواريط من الماس الأصفر الكناري..
- لا يمكن أن أسمح بأن تتخلي عن هذا الخاتم.. أعلم جيداً مدى تعلقك به..

غامت عيناها بسحابة من الدموع:

- لم أتعلق أبداً بالخاتم لقيمته ولكن لكل الذكريات المتعلقة به.. فوالدك كان يجهد نفسه من أجل اختيار شيء مميز ليهديه لي.. سأشعر بمزيد من السعادة.. عندما تقدمه لـ "مريم" من أجل أن تمنحها شيئاً يحتزن الكثير من الذكريات السعيدة.. هذه رغبتى..
- قبل أن تغلق عليها باب غرفتها، قالت بحزم:
- حدد لنا موعداً لمقابلة أهلها.. سنقرأ الفتحة في نفس اليوم..



- اعتزت "منى" رغبة في البكاء، وهى تلملم ثياب "هديل"، وترتبها في الحقائق، نظمت حقيبة المجوهرات التي تربع بداخلها الصندوق الجلدي الضخم، طالت مهمتها لتستغرق نصف النهار، قبل مغادرتهم القصر، ليقضوا ما بقى لهم من أيام في "مدريد" قبل عودتهم إلى القاهرة.
- جلست "هديل" في بهو القصر، لتنتظر السيارة التي ستقلها إلى المطار، راقبت "جمال" وهو يخرج من غرفة مكتب "الأمير"، أشارت إليه ليدنو منها، رنت إليه بنظراتها، ففهم أنها تسأل عن قيمة الشيك..
- ثلاثة ملايين دولار.. ووعدني بتنظيم حفلته المقبلة..
 - المهم ألا ترعجنى مرة أخرى ببخلك..

رمته بتكشيرة تحوي الكثير من الازدراء وهى تستعد للمغادرة.

جرى خلفها، قائلاً:

- أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم..

بنفس التكشيره التى زادت من جمالها:

- ليس الآن.. عندما نصل إلى الفندق..

ازدحم هو فندق "ريتز مدريد" بحقائب الفتيات، واجتذب مرجهن نظرات رواد الفندق.

حدقت "هديل" بتليفونها المحمول، بإحباط فنان حطم مجنون تمثاله، نادت "منى" بصوتها العالي، فلفتت انتباه مجموعة من السائحين العرب، وتهامسوا فيما بينهم بعد أن عرفوا شخصيتها، تنبهت وأومأت لهم برأسها. تماكنت نفسها، وهى تلوم مساعدتها، بصوت ملئ بالتهديد، بسب نفاد بطارية تليفونها المحمول.

لم تعلق "منى" بكلمة واحدة، واستمعت منها لمزيد من التعليمات عن موعد سفر الفتيات فى الصباح الباكر. لاحظت أن "جمال" يفرك يديه وكأنه ينوى تقطيعها، تذكرت أنه يرغب فى الحديث معها، أشارت إليه، ليتبعها إلى غرفتها. تمددت على الشيزلونج المكسو بحريير وردي، ألقت ببصرها من خلال زجاج الشرفة، فانبسطت أمامها مساحات خضراء لا نهائية مزينة بتمائيل، تقطعها بحيرات تتهادى بها قوارب صغيرة، تنهدت بعمق:

- "ريتيريو" مكان يمكنك أن تنسى بين أشجاره وزهوره أنك كنت

فقيراً يوماً ما.. حتى فى غمرة الفوضى والصخب الذى تركناه

خلفنا.. يمكنك أن تشعر بالأمان..

- بمناسبة الأمان.. نحن نواجه مشكلة خطيرة..

قص عليها ما كان يخفيه عنها، وما عرفه عن القبض على "هادي" وموته الغامض.

كان أكثر ما أثار ضيقها وتوترها ربطها بـ "عوض" بعد ما نشره موقع الحدث. ألقت برأسها للخلف وأغلقت عينيها كعادتها، عندما تستغرق في التفكير تمتعت من بين شفيتها:

- ليس هذا بالأمر الجيد.. المشكلة ليست في مقتل "عوض".. ولكن في القبض على "هادي" في ذلك التوقيت.. حتى لو كانوا لم يعرفوا شيئاً حتى الآن يجمعنا بهم.. فنحن نعلم أنهم سيعرفون قريباً..
بدا "جمال" مترعجاً وهو يسأل:

- ماذا سيعرفون؟

كانت تفاهة السؤال كافية لأن تجعل "هديل" تفقد هدوءها واتزانها. رغم كل محاولاتها أن تظل هادئة، لتفكر في حل، صاحت فيه بغضب:

- هل أنت غبي؟.. القبض على "هادي" يعنى التفتيش والتنقيب في أوراقه وأعماله.. ويمكن الربط بينه وبين "عوض" بسهولة وبين نواديك وفتياتك وفي النهاية "روبرتو".. وظهور أسائنا في هواتف الاثنين يعنى تعقب محادثاتنا التليفونية.. ليصبح الوصول إلينا أمراً سهلاً بعد ذلك.. كنت أعلم أن "إيمي" نذير سوء..

خاف "جمال" أن يسألها عن علاقة "إيمي" بما يحدث، فضل أن يصمت، هبت واقفة، جالت في الغرفة كلبؤة ثائرة فقدت أبناءها، توقفت قليلاً أمام المرأة، نظرت إلى وجهها مطولاً، عادت لتجلس ثم فتحت فمها أخيراً:

سرابيط الخادم

- أحضر لي "شاهينار" فوراً..
استغرقت "شاهينار" عدة ثوانٍ لتفهم ما حدث..
- لن نعود!
قالتها "شاهينار" بهدوء أصاب "جمال" بنوبة من الغضب..
- أنت مجنونة كيف أترك كل ما أملكه في مصر؟
- أعتقد أن هذا أفضل من مجرد احتمال القبض عليك.. كما أنك تمتلك
الكثير في حسابك بلندن.. وأعمالنا في مصر ستسير كالمعتاد..
أمعنت "هديل" في النظر إليهما، وقررت أن تنهى القصة بقرار سفرهم إلى
"لندن"، حتى تجري اتصالاتها لتعرف ما يدور حولهم.. نظرت إلى "شاهينار"
قائلة:

- تأكدى من سفر جميع الفتيات..
سألتها "شاهينار":
- ومنى؟
- ستسافر معنا.. هى تعتني بي جيداً..
جعد "جمال" وجهه غاضباً:
- سأعود.. لدى مجموعة من أبرع المحامين. حتى لو سُجنت..
سأخرج لأحصل على كل ممتلكاتى..
- غبى..
قالتها "هديل" ووميض الغضب في عينيها.

مد يده بجواز السفر ليحصل على ختم الدخول. تمنع الضابط بصورته قليلاً، نظر في موضع لم يتمكن "جمال" من كشفه، في تلك اللحظات تصعب عرقاً، اختفت كل الأصوات من حوله. لم يشعر سوى بجريان نقاط من الماء البارد تندافع من مؤخرة عنقه، لتستقر عند أسفل ظهره.

في وقت متأخر من النهار. انتهى "عمر" من كتابة الحلقة الأولى من سلسلة تحقيقات، تكشف عن علاقة المافيا بأكبر شبكة في مصر لتجارة الرقيق وتهريب الآثار. عرف من "إيمي" الكثير، بعد أن ذهبت بنفسها طواعية، لتكشف عن حكايات "جمال" و"هديل"، ورغبتها في تلقي علاج يخلص جسدها من المخدرات.

كتب "عمر" عن دور "سالم" الذي دفع حياته ثمناً لحصوله على مستندات، تفضح علاقة المافيا بالمنظمات الصهيونية المسيطرة على بعض البعثات الأثرية، التي تنبش بحرية في الأراضي العربية، ولكنه أخفى الكثير من الوقائع والأحداث بالاتفاق مع "مروان".

قرأ ما كتبه عدة مرات، وفي كل مرة كان يمحو ويضيف، في النهاية قرر ألا ينظر إلى ما كتبه، فهو كان يعلم أنه لن يرضى أبداً، نظر في ساعته، قفز على قدميه مرتبكاً، غضب من نفسه خوفاً من عدم وصوله في الوقت المناسب ليصطحب "مايا"، لحضور فرح "مروان".

قاد سيارته مسرعاً إلى منزله، قبل أن يرتدى ثيابه، جمع ملابسه المتسخة وحشرها في الغسالة، محاولاً أن يتذكر تعليمات أمه في اختيار البرنامج المناسب، كان صوت الغسالة يصل إليه في غرفته، وهو يرتدى ملابسه، شعر بغصة في

حلقة، ففي الماضي لم يتمكن أبداً من سماع صوتها من غرفته، فزع قليلاً وهو يعيد زجاجة البارفان على التسريحة، فكر لماذا أصبحت الأصوات عالية إلى هذا الحد؟

قبل أن يصل إلى منزل "مايا". طلبها في التلفون ليعلمها بقرب وصوله لتستعد للنزول، صوتها المرح أعاد إليه جزءاً من بشاشته التي كاد يفقدها، طلبت منه أن يصعد ليلتقي بجدها الذي لا يكف عن السؤال عنه، وعدها بأن يزوره في الغد، فهما تأخرا على الفرح.

جلس مسترخياً في السيارة، محاولاً تفسير النظرة التي لمحها في عين أمه، عندما كانت تقدم خاتم الخطوبة لـ "مايا"، حتى عندما تمت له السعادة، كانت هناك رجفه خفية في صوتها لم يدرك معناها، حاول كثيراً أن يتحدث معها قبل سفرها إلى الصعيد، كانت في كل مرة، تؤكد له أنها لا ترغب إلا في سعادته، وأنها تثق في اختياره.

أفاق من أفكاره على محاولات مايا فتح باب السيارة المغلق من الداخل. ابتسم لها وتنشق رائحة عطرها بقوة. انحنى على يدها وقبلها بسعادة، استقبلتها بضحكة رائقة، غرقا في الثثرة طوال الطريق، قبل أن يترجلا من السيارة، أمسك بيدها بقوة، طالبا منها أن يتزوجا بسرعة، فوجوده في المنزل وحيداً يكاد يصيبه بالجنون، صمتت قليلاً قبل أن تصارحه بخوفها على ترك جدها وحيداً، خصوصاً أنه لم يعد يقوى على الخروج من المنزل.

كان "عمر" يحترم علاقتها بجدها، ويعرف جيداً مدى تعلقه بها، وافق على اقتراحها بتقسيم إقامتهما ما بين منزلها ومنزل جدها، شعر أن قلبه المعلق استقر

في مكانه أخيراً، وأغلقت أبوابه على قدر هائل من السعادة. أحاط خصرها بساعده، وتوجهها ناحية مصدر الموسيقى.

قبل أن يغيب صوتها بين صخب الفرح، مالت عليه قائلة:
- سأسافر إلى "لندن" بعد عدة أيام لشراء مستلزمات الزواج..
سأنتهز فرصة التخفيضات لأختار لك "التاكسيديو"..
بدلاً من أن يرد، احتضنها بقوة.

ظل يراقبها حتى اختفت بين المسافرين، لم يلح "عمر" سوى يدها وهي تلوح له مودعة.

في مطار "هيثرو"، بحثت عن لافتة تحمل اسمها رفعها سائق التاكسي الذي قامت بحجزه والدفع له من القاهرة عن طريق الإنترنت، دلفت داخل السيارة مسرعه لتحتمي بها من المطر المنهمر، استغرقت السيارة أكثر من أربعين دقيقة، للوصول إلى "لندن" بسبب الزحام، انعطفت التاكسي من ناحية "هايد بارك"، توقف أمام منزل في منطقة "ادجوير رود".

هبطت "مايا" من التاكسي. توقفت قليلاً لتنظر لأعلى وتتأكد من المنزل. طرقت الباب، امتدت يد لتجذبها للداخل. تأملتها "أديرا" لبرهة قبل أن تحتضنها:

- تأخرت كثيراً.. "كلارا" بالداخل تنتظرك..